المُوازنة
بين
علاقة المرأة بالرجل الأجنبي
في شريعة الإسلام وحضارة الغرب

٢

بسم الله الرحمن الرحيم

جميع الحقوق محفوظة

جميع الحقوق محفوظة لدار الفلاح
ولا يجوز نشر هذا الكتاب بأي صيغة
أو تصويره PDF إلا بإذن خطي من

دار الفلاح
للبحث العلمي وتحقيق التراث

١٨ شارع أحمس - حي الجامعة - الفيوم
ت ٠٨٤٦٣٠٠٥٩٢٠٠١٠

Kh_rbat@Yahoo.com
واتس 002 01123519722

فرع القاهرة: الأزهر- شارع البيطار

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة لدار الفلاح
خالد الرباط

المُوازنة بين علاقة المرأة بالرجل الأجنبي في شريعة الإسلام وحضارة الغرب

تأليف
مُصطفى أبو الغيط عبد الحي

المجلد الثاني

دار الفلاح

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الثاني

النتائج

وهكذا تحدث الغرب كما سبق عن حرية الجنس وكيف أن المرأة لابد أن تكون لها الحرية، في أن تفعل ما تشاء علىٰ أنها حرية شخصية، هٰذا ما صرحت بها نظرياتهم وآراؤهم وبثوا ذلك في فنون آدابهم ووسائل إعلامهم واعتنق قومهم تلك الآراء وآمنوا بهٰذه النظريات، بل قاموا بتطبيق ما ٱعتنقوه وتنفيذ ما آمنوا به، فماذا كانت النتائج؟ وماذا كانت الآثار؛ هٰذا ما سنعرفه في خلال المباحث الآتية:

المبحث الأول

آثار الإِباحية والاختلاط على النواحي الاجتماعية

لو نظرنا إلىٰ أثر الإِباحية علىٰ النواحي الاٌجتماعية والخلقية فإننا سنجد أن من مظاهر التخريب في المجتمعات الإِباحية تهدم الأخلاق والصفات الإِنسانية وبروز النزعات البهيمية كالأنانية والنفعية والتمرد واللامبالاة إلىٰ ما لا نهاية له .

إن علامات التخريب هٰذه بادية بوجه خاص في المجتمعات الأوربية والأمريكية حيث اٌنتشرت ظواهر الوجودية والهيبية ومظاهر التمرد والانعتاق من كل القيود الاٌجتماعية، والتفلت من كل المسئوليات، وبالتالي الخروج علىٰ كل التقاليد والقيم والقوانين؟

إن ملايين من الشبان والفتيات يعيشون اليوم عالة علىٰ مجتمعاتهم وأممهم لا يتحملون أدنىٰ مسئولية .. يعيشون علىٰ السرقة والقتل والمخدرات والجنس، يعيشون أشباحًا أو شبه أشباح، وحيوانات وأكثر من حيوانات؟

إن رجالات التربية، وعلماء النفس والأخلاق كادوا يكونون مجتمعين علىٰ أن هٰذه الظواهر من أفتك الأوبئة في إضعاف الذاكرة، وتحطيم الشخصية، وتمييع الخلق، وقتل الرجولة، ونشر الأمراض، والقضاء علىٰ فضيلة الشرف والعفاف.

فمن القضايا المسلم بها أن الاٌسترسال في الفاحشة يضر بمصلحة الفرد والأسرة علىٰ حد سواء، بل خطر علىٰ المجتمع بشكل عام.

وإليك أثر الإِباحية علىٰ النواحي الاٌجتماعية.

١- خدر الشعور الخلقي:

إن ما ذكر آنفًا من النظريات كان من أول آثار شيوعها في الناس وأبرزها أن أصبح يخدر فيهم الإِحساس الخلقي في الشئون الجنسية، وغاض فيهم الحياء والاحتشام والغيرة والنخوة، وزال عن نفوسهم الفرق بين النكاح

والسفاح، حتىٰ أصبح الزنا عندهم عملًا بريئًا لا يُعاب ولا يُنكر، وليس لإخفائه من لزوم.

وإلىٰ منتصف القرن التاسع عشر بل إلىٰ خاتمته لم يصب النظرية الخلقية عند عامة الفرنسيين من التغير إلا أن أصبح زنا الرجال هينًا طبيعيًا، يغض الآباء عن دعوة أبنائهم بشرط أن لا تصيبهم بالأمراض السرية ولا تدخلهم في الإجراءات القانونية، بل ربما يستبشرون بها إذا آنسوا وراءها ربحًا ماديًا، ولا يرون غضاضة في تعلق رجل بامرأة بدون الزواج، وفي رواياتهم أمثلة من كون الآباء قد ألحوا بأنفسهم علىٰ أولادهم في مخادنة ٱمرأة ذات مكانة ٱجتماعية أو ذات مال وثروةٍ، ضمانًا للمستقبل الزاهر، ولكن نظريتهم بشأن المرأة كانت مختلفة جدًا إلىٰ تلك الآونة، فكان عفاف المرأة شيئًا له قدره وقيمته في كل حال.

وأولئك الآباء الذين كانوا لا يرون بأسًا بخلاعة أبنائهم وينسبون كل ذلك إلىٰ سورة الشباب، ما كانوا يرضون أن يروا بأعراض بناتهم دنسًا أو وصمة، وكانت الفاجرات من النساء لا يتبرأن من العيب كالعاجزين من الرجال، وإن مقالة السوء التي تنصب علىٰ المومسة في المجتمع كانت لا تنال الرجل الذي يعاشرها، وكذلك ما كانت القيمة الخلقية في الحياة الزوجية متساوية بين الرجل والمرأة، فبينما كان فجور الزوج هنة يغض عنها الطرف كان فجور الزوجة شيئًا عظيمًا يقوم له الناس ويقعدون.

ولكن تغيرت هٰذه الحال مع مطلع القرن العشرين، إذ كان من آثار المساواة بين المرأة والرجل التي نفخت في صورها حركة تحرير المرأة، أن جعل الناس يتهاونون بفجور المرأة كتهاونهم بفجور الرجل، ولم يعد تعلق المرأة أيضًا بالرجل بدون الزواج شيئًا يدنس عفتها وكرامتها، فيقول بول بيورو:

ولم يقف الأمر عند المدن الكبيرة فحسب، بل قد أصبح الشبان في

القرىٰ والأرياف أيضًا يعترفون بأنه ليس لأحدهم حق في توخي العفة والبكارة في مخطوبته، إذا كان هو نفسه لا يتصف بالعفاف، وقد عاد من المعتاد في (برغندي) و(بون) وغيرهما من الأقاليم أن تكون الفتاة قد عاشرت عدة من الأخدان قبل زفافها، ثم لا تجد في نفسها حرجًا من حكاية قصة حياتها الماضية لخاطبها عند الزواج، وكل هٰذا الجور منها لا يثير سخطًا أو كراهية حتىٰ في أقاربها الأدنين، بل هم يخوضون في أحاديث غرامها بانبساط، كأني بهم يتحدثون عن لعبة رياضية أو شغل تجاري، وإذا كان موعد النكاح ودخل الزوج الذي يكون عارفًا لا بحياة عروسه السابقة فحسب بل بأخدانها الذين قد بقوا يتمتعون بجسدها إلىٰ تلك الآونة أيضًا، فإنه يحاول جهده ألا يبدو منه ما يوهم الناس أن بنفسه كدرًا في شيء مما يعلم من مشاغل عروسه الماضية.

ويمضي كاتبًا: كثيرًا ما نعهد في الطبقات المتوسطة من المتعلمين أن فتاة متعلمة من أسرة كريمة تعمل في مكتب أو شركة تجارية علىٰ منصب لا بأس به وتعيش في مجتمع مهذب، إذا بها تستأنس بشاب، وتروح تعاشره وتصاحبه، ولا يكون لزامًا عليهما بعد ذلك كله أن يتزوجا، بل هما يؤثران أن يتعاشرا بدون قيد الزواج، لمجرد أن تكون لأحدهما الحرية إذا شبع من الآخر وقضىٰ لبانة نفسه منه أن يفارقه ويتخذ له خليلًا آخر، وكل من حولهم من الناس يعلمون هٰذا الوضع من علاقة ما بينهما، ثم هما يغشيان الأوساط العالية والمهذبة جنبًا لجنب، لا هما يخفيان علاقتهما تلك، ولا يجد أحد من غيرهما سوءًا في حياتهما علىٰ ذلك النحو، وقد كان الذين جروا علىٰ هٰذه الطريقة بادئ ذي بدء هم العاملون في المعامل والمصانع، فلقيت من الناس أشد ما يكون من السخط والإنكار لأول وهلة، ولكنها قد شاعت الآن في الطبقات العالية، وتبوأت في الحياة الاجتماعية تلك المنزلة التي كانت للنكاح في الزمان الغابر؛ فأصبح هٰذا النوع الجديد من المومسات مما يألفه الناس ويسلمون بوجوده الشرعي، فهٰذا مسيو برتليمي أستاذ القانون في

جامعة باريس يكتب:

إن المومسة تكاد تنال في المجتمع نفس المنزلة التي كانت فيها الزوجة فيما قبل، فقد عاد يجري ذكرها في البرلمان، وأصبحت الحكومة تحافظ علىٰ مصالحها، ولمومسة الجندي الآن من النفقة مثل ما لزوجه، وإن مات نالت مومسته من راتب التقاعد ما تناله الزوجة التي كان قد عقد عليها.

ولك أن تقدر تهاون الفرنسيين بالزنا وكيفية كونه غير معيب في أخلاقهم، إن معلمة في بعض المدارس جاءت بحمل في سنة **١٩١٨**م علىٰ كونها عذراء، وكان بين رجال المعارف أشياع للفكر القديم، فرفعوا عقيرتهم بالسخط والإنكار، فوفد علىٰ وزارة المعارف نفر من أعيان الأمة ووجوهها، واحتجوا عندها علىٰ ما فعلت المعلمة، ولٰكن الوزارة دافعت عنها بالحجج الآتية التي وجد فيها من القوة والرجاحة ما سوغ أن يخلي سبيل المعلمة:

١- ما للناس وللتدخل في الحياة الشخصية لغيرهم؟

٢- وما هي الجريمة التي قد ٱرتكبتها المعلمة؟

٣- أليست صيرورة المرأة أمًا بدون زواج أدنىٰ إلىٰ الطريق الديمقراطي؟

ومن جملة ما يعلم الجنود الفرنسيون من الأمور الهامة التدابير التي ينبغي أن تتخذ لاتقاء الأمراض السرية ولمنع الحمل، كأنه من المعلوم المسلم به أن كل جندي لا بد أن يزني، وفي يوم **٣** مايو من سنة **١٩١٩**م نشر قائد لبعض الفرق العسكرية إعلانًا للجنود التابعة له، جاء فيه: قد بلغنا أن عامة الرجالة والخيالة يشتكون من تزاحم رجال البنادق علىٰ دور البغاء الجندية فيقولون: إنهم قد كانوا يستبدون بها ولا يدعون غيرهم يتمتعون بها، وإن مكتب القيادة لا يزال يسعىٰ لزيادة عدد النساء حتىٰ يكفين لجميع الجنود، ولٰكن قبل أن يتم ذلك نوصي رجال البنادق ألا يطيلوا المكث داخل تلك الدور، ويتعجلوا قضاء شهواتهم ما ٱستطاعوا.

ليتأمل القارئ هٰذا الإعلان الذي نشره رسميًا قسم الدفاع لدولة من أرقىٰ دول العالم ثقافة وتهذبًا، أفلا يستنتج منه أن لم يبق في قلوبهم حبة خردل من الٱعتقاد بشناعة الزنا وكونه عيبًا خلقيًا، وإنه قد خلا من هٰذا التصور عندهم كل من المجتمع والقانون والحكومة.

وأنشئت في فرنسا قبل الحرب العالمية الأولىٰ بقليل وكالة كان مبدؤها أن كل ٱمرأة مهما كانت بيئتها وظروفها وحالتها الٱقتصادية وسلوكها العملي والخلقي، قد تقنع بضرورة (تجربة جديدة) وتحمل علىٰ ممارستها، فليس علىٰ كل من يود الٱتصال بآنسة من الأوانس إلا أن يعلم الوكالة بعنوان تلك الآنسة ويؤدي ٣٥ فرنكًا علىٰ سبيل الأجرة البدائية، وعلىٰ الوكالة بعد ذلك أن تراود الآنسة علىٰ الأمر، ودلت سجلات هٰذه الوكالة علىٰ أنه لم تكن طبقة من طبقات المجتمع الفرنسي، إلا وعامل كثير من أناسها هٰذه الوكالة وتمتعوا بخدماتها ثم لم يكن هٰذا الشغل خافيًا علىٰ الحكومة (بول بيرو: الصفحة ١٦).

وقد بلغ هٰذا الٱنحطاط الخلقي إلىٰ الدرك الأسفل أن: (لم يعد الآن من الغريب الشاذ وجود العلاقات الجنسية بين الأقارب في النسب، كالأب والبنت، والأخ والأخت، وفي بعض الأقاليم الفرنسية وفي النواحي المزدحمة في المدن[1].

«وقد بلغ الأمر اليوم أفظع بكثير مما تصوره ول ديوارنت وإلكسيس كاريل وغيرهم من الفلاسفة والمصلحين الٱجتماعيين. فقد نشرت الصحف في بريطانيا عام ١٩٧٠. ط

قصة مدرسة شابة في الخامسة والعشرين كانت تدرّس لمجموعة من الأولاد المراهقين.. وكانت تقوم بتدريسهم الجنس عمليًا في الفصل وتخلع

(١) نقلًا من «الحجاب» لأبي الأعلىٰ المودودي ص٤٨-٥٢.

ثيابها قطعة قطعة أمامهم.. فما كان من إدارة المدرسة إلَّا أن أبلغت وزارة التربية والتعليم.. واتفقت الإدارة والوزارة علىٰ إيقاف هٰذه المدرسة الشابة وطلب منها أن تكف عن عرض دروسها المثيرة علىٰ الطلبة المراهقين.. وفي اليوم التالي نشرت جريدة «الديلي ميرور» ((Daily Mirror)) صورة من هٰذه المدرسة الجميلة عارية في صفحتها الأولىٰ.. وقامت بحملة ضخمة ضد إدارة المدرسة ووزارة التربية والتعليم الرجعية التي تمنع هٰذه الشابة العبقرية من مواصلة دروسها المهمة لتعليم الشباب المراهق الجنس!!

ودعت الصحيفة إلىٰ قيام مظاهرات تأييدًا للمدرسة الشابة وحريتها في التعبير ودعوتها إلىٰ مواصلة جهودها العظيمة في تربية النشء تربية جنسية سليمة خالية من العقد!! وبالفعل قامت في الأيام التي تلت نشر هٰذه المقالات مظاهرات ضخمة تؤيد المدرسة الشابة فيما فعلته وتطالب بإعادتها فورًا إلىٰ حقل التدريس.. الذي خسر خسارة هائلة بإيقافها!

ولم تجد إدارة المدرسة الموقرة ووزارة التربية والتعليم بدًّا من إعادة المدرسة الشابة إلىٰ ممارسة وظيفتها الحيوية مع الشباب المراهق وانصاعت صاغرة للرأي العام الذي هيجته الجرائد الواسعة الٱنتشار (الديلي ميل والديلي ميرر).. وهكذا كسبت حرية المرأة وحرية الجنس قضيتها ضد إدارة المدرسة ووزارة التربية الرجعية!!

ويقرر في المدارس كما هو مقرر الآن في أوربا وأمريكا تدريس الجنس ووسائل منع الحمل ليس للشباب والمراهقين فحسب.. ولٰكن للأطفال في مدارسهم الٱبتدائية.. ذلك لأن الإحصائيات تقول أن أكثر حالات الحمل تقع للفتيات الصغيرات اللائي لم يتجاوزن الرابعة عشر وكثير منهن في الثانية عشر فقط.

وبما أن الحمل للصغيرات متعب ومعطل لهن عن الدراسة ويضطرهن إلىٰ الإجهاض.. والإجهاض في حد ذاته يعرض الفتيات الصغيرات لكثير من

المخاطر وإلىٰ أمراض الجهاز التناسلي، كما أنه يؤدي أحيانًا إلىٰ تولد العقد النفسية وكراهية الجنس!! فإن علىٰ المربين أن يتحاشوا الأخطار وخاصة العقد النفسية التي تؤدي بالفتاة الصغيرة إلىٰ كراهية الزنا كما يزعمون!! ولذا فهم يسارعون بتلقين الأطفال في المدارس الأبتدائية كيفية منع الحمل كما يشرحون لهم بالصور الجهاز التناسلي للرجل والمرأة.. فإن هٰذه الدراسة تكسبهم خبرة في شئون الجنس وتمنع عنهم العقد النفسية المستقبلية!!

وليس علىٰ الأطفال في الغرب من بأس أن يجربوا الجنس حتىٰ قبل البلوغ.. فالأمر طبيعي وفيسيولوجي.. والأباء والأمهات هناك مدعوون باستمرار من بعض علماء النفس والاجتماع والبيولوجيا إلىٰ أن يمارسوا الجنس أمام أطفالهم حتىٰ يشب الأطفال ولديهم معرفة كاملة بشئون الجنس..

وليس من المهم بعد ذاك في الغرب أن يمارس الأب الجنس مع طفلته أو تمارس الأم الجنس مع ابنها.. بل لعل ذلك مما يزيد خبرة الأطفال بالشئون الجنسية!!

وربما يظن القارئ أننا نبالغ كثيرًا في هٰذا الوصف.. وله الحق في ذلك.. ولٰكن مثقفينا الذين عاشوا في أوربا وأمريكا فترة كافية من الزمان يعرفون هٰذه الحقائق معرفة جيدة ولا يستطيعون إنكارها، وربما يقولون ليس كل الناس في أوربا علىٰ هٰذه الشاكلة.. ونقول لهم نعم.. صدقتم ولا يمكن أن يكون الناس جميعًا علىٰ هٰذا المستوىٰ المنحط من البهيمية والحيوانية، ولٰكن يكفي أن توجد هٰذه الحالات ويسكت عنها المجتمع.. فكيف وأنت ترىٰ من واقعة المدرسة الشابة أنّ أجهزة الإعلام وجزءًا كبيرًا من الرأي العام يؤيد تدريس الجنس عمليًا للفتيان والفتيات.. كما يقر الرأي العام بأغلبيته تدريس الجنس حتىٰ للأطفال وهو أمر واقع ومقرر. ونحن نتحدىٰ من ينكر هٰذا الواقع»[1].

---

(١) «عمل المرأة في الميزان» ص١٦٠ باختصار.

٢- ٱنهيار الأسرة:

من الأخطار التي ترتبت علىٰ الإباحية والاختلاط أن زالت الأسرة وذلك لأن الشباب العزب حين يشبع نهبه الحيواني بالحرام لا يمكنه بحال أن يفكر بتكوين أسرة وإنجاب أولاد .. وكذلك الزانية، فإنها لا ترغب بالحمل، ولا ترضىٰ بالولد لضرر الحمل الجسمي والنفسي عليها، فهي تحاول التخلص منه بأية وسيلة!!

يقول محمد المجذوب: إن رجلًا شرقيًا كان في باريس وذات مرة مر بأسراب من طلاب اللذة في حديقة عامة فأحب ألا يفوته استطلاع ما يجهل، فتقدم نحو رجل وامرأة كانا في وضع غير مألوف في الشعوب المحافظة، وهناك وجه كلامه إلىٰ الرجل قائلًا: أنا شرقي ومثل هٰذه المناظر غير مألوفة في بلادي، فهل تتكرم بالإجابة علىٰ بعض الأسئلة.

تفضل بما تريد.

هل هٰذه الفتاة زوجتك؟

طبعًا لا.

فكيف إذًا تقومان بهٰذه الحركات دون استحياء؟

هٰذا شيء من حق كل واحد أن يعمله هنا فلا حاجة للحياء.

حسنًا، هل ترغبان في الزواج؟

فقلب الفرنسي شفتيه ولم يشأ أن يجيب، ولكن الفرنسية أجابت: إذا شاء هو فلا مانع عندي. وبالطبع لم يكن في هيئة صاحبها ما ينبئ أنه يشاء.

سبحان الله، لقد كرم الله المرأة وأعلىٰ قدرها وجعلها مطلوبة لا طالبة، فلما أسقطت حصانتها وخلعت حجاب عظمتها سقطت من عليائها.

هكٰذا نرىٰ هٰذا الرجل مع أنه كافر يظهر عليه عدم الحرص علىٰ الزواج من هٰذه الصاحبة؛ لا لشيء إلا لأنها أصبحت لعبة في نظرة لم يعد لها كرامة ولا أهمية.

يقول العلامة أبو الأعلىٰ المودودي[١]:

إن الزنا عدوان علىٰ الفطرة البشرية في التآلف والزواج والسكنىٰ والطمأنينة والاستقرار، فالزاني يتعود علىٰ التذوق والتغيير، وهٰذا عكس ما يرجىٰ للعلاقات الزوجية الصحيحة بين الرجل والمرأة، فلن يكون ٱنسجام ولا وفاء ولا حسن معاملة ولا ثقة ولا طمأنينة ولا راحة بال بين الزوجين، هٰذا إذا لم يعزف الزاني علىٰ الزواج كليًا تهربًا من التبعات والمسئوليات.

وهٰذا تخريب ظاهر للمجتمع الذي يعتمد علىٰ الفرد أولًا والأسرة ثانيًا.

وقال أيضًا:

ومن البديهي أنه لا يمكن في مثل هٰذه الحال أن يسلم النظام العائلي والرابطة الزوجية من الفوضىٰ والاضطراب، ذلك بأن النساء اللاتي يكسبن قوتهن بأيديهن، ولا يحتجن إلىٰ الرجال في شأن من شئونهن، عدا قضاء الشهوة ويجدن الرجال لهٰذا الغرض قريبًا منهن، بدون أن يتقيدن بالزواج، لا جرم أن يعددن الزواج شيئًا فضوليًا لا حاجة ولا طائل تحته، زد علىٰ ذلك أن الفلسفة الجديدة والأفكار المادية قد نفت من ضمائرهن الشعور بأن مخادنة الرجال بدون زواج عار أو إثم، وأن البيئة الفاسدة قد جعلت المجتمع أيضًا بليد الحس فاقد الشعور، حتىٰ لم يعد ينظر إلىٰ أمثال أولئك الفاجرات بعين المقت أو الملام، فيكتب القاضي لندسي الأمريكي يعبر عن أفكار سواد البنات والفتيات:

ما لي أتزوج؟ وهٰؤلاء أترابي قد تزوجن في السنتين الماضيتين، ماذا جنين منه؟ إلا أن كان نصيب نصفهن منه الطلاق! وإني أعتقد أن لكل فتاة في هٰذا العصر حقًا طبيعيًا في حرية العمل والتصرف فيما يتعلق بالحب، إذ نعرف

---

(١) «الحجاب» ص ٧٠ وما بعدها.

في هٰذه الأيام كثيرًا من التدابير لمنع الحمل، فنستطيع أن نقي بها خطر المولود النغل وما عسىٰ أن يتبع ولادته من أزمات، ونحن علىٰ ثقة بأن ٱستبدال هٰذه الطريقة الجديدة بالطرق القديمة التقليدية هو من مقتضيات العقل في هٰذا الزمان».

هٰؤلاء الوقحات اللاتي يفكرن هٰذا التفكير، ما كان ليحفزهن علىٰ الزواج إلا عاطفة الحب وحده، ولٰكن هٰذه العاطفة أيضًا كثيرًا ما لا تصدر من صميم النفس وسويداء القلب، بل يكون من أسبابها جاذبة عارضة في جمال المحبوب، فإذ قضىٰ الوطر من شهوات النفس، لم يبق بين الزوجين عين للحب ولا أثر، ويكفي عندئذ أهون ما يكون بينهما من خلاف في العادات والطباع، أن ينزغ بينهما نزغًا ويبدل حبهما بغضًا وفركًا، حتىٰ ينتهي الأمر إلىٰ تقديم المرافعة إلىٰ المحاكم فيكتب لندسي: «في بلدة دنور، في سنة ١٩٢٢، أعقب كل زواج تفريق بين الزوجين، وبإزاء كل زواجين عرضت علىٰ المحكمة قضية الطلاق وهٰذه الحالة لا تقتصر علىٰ بلدة دنور بل الحق أن جميع البلدان الأمريكية علىٰ وجه التقريب تماثلها في ذلك قليلًا أو كثيرًا».

ويمضي في كتابته: «إن حوادث الطلاق والتفريق بين الزوجين لا تزال تكثر وتزداد، وإن ٱطردت الحال علىٰ هٰذا - كما هو المرجو - فلا بد أن تكون قضايا الطلاق المرفوعة إلىٰ المحاكم في معظم نواحي القطر علىٰ قدر ما يمنح فيها من الٱمتيازات للزواج».

ومنذ قليل من الزمان نشر في جريدة (Free Press) بدترويت (Datroit) مقال يبحث في هٰذه الأوضاع، قد جاء فيه:

(إن ما قد نشأ بيننا اليوم من قلة الزواج وكثرة الطلاق وتفاحش العلاقات غير المشروعة -الدائمة أو العارضة- بين الرجال والنساء يدل كله علىٰ أننا راجعون القهقرىٰ إلىٰ البهيمية، فالرغبة الطبيعية في النسل إلىٰ التلاشي، والجيل المولود ملقىٰ حبله علىٰ غاربه، والشعور بكون تعمير

الأسرة والبيت لازمًا لبقاء المدنية والحكم المستقل يكاد ينتفي من النفوس، وبخلاف ذلك أصبح الناس ينشأ فيهم الإغفال من إهمال المدنية والحكومة وعدم النصح لهما).

والعلاج الناجح الذي قد ٱقترحوه لهٰذه الكثرة الفاحشة عن الطلاق والتفريق، هو ترويج النكاح الٱختباري (Companionate Marriage) ولٰكن الدواء جاء أضرَّ وأفتك من الداء، والمراد بهٰذا النكاح الٱختباري أن يعاشر الرجل المرأة حينًا من الزمان، بدون أن يعقد بينهما زواجًا من النوع القديم، فإن تآلف قلباهما في أثناء هٰذه العشرة، تزوجا، وإن تكن الأخرىٰ ٱفترقا وراح كل منهما لسبيله يبحث عن زواج آخر، علىٰ أنه يجب عليهما خلال مدة التجربة أن يتجنبا النسل؛ لأنهما إن جاءا في أثنائها بولد، تحتم عليهما أن يعقدا النكاح ويدخلا في حظيرة الزواج، وهٰذا هو الذي يسمىٰ في روسيا الحب الطليق .(Free Love)

يقول الأستاذ أبو الأعلىٰ المودودي أيضًا[1]:

والنكبة الثانية العظيمة التي قد جرها علىٰ التمدن الفرنسي طغيان الشهوة المطلقة ورواج الإِباحية وقبولها: هي خراب النظام العائلي وتقوض بنيانه، إن النظام - كما هو معلوم - يتألف مما يعقد بين الرجل والمرأة الرابطة الأبدية التي يعبر عنها بالنكاح، فهٰذه الرابطة فيما بينهما تسود حياة الأفراد بالسكينة والدوام والاستحكام، وهي التي تحول فرديتهم إلىٰ الجماعية، وتذلل ما فيهم من نوازع الفوضىٰ والشتات وتخضعه للتمدن، وفي دائرة هٰذا النظام ينبعث ذلك الجو المطهر من المودة والأمن والإيثار، الذي يهيئ للأجيال الناشئة فيه أن يدرجوا علىٰ الأخلاق الزكية والتربية الصحيحة، والتنشئة الصالحة، ولٰكن مجتمعًا كان الرجال والنساء فيه فارغي الأذهان من

(١) «الحجاب» ص٦٠-٦٣.

تصور النكاح ومقاصده، ولم يكن للعلاقة الجنسية بين الصنفين عندهم من غاية سوىٰ قضاء بعض الشهوات الحيوانية ثم كان في ذلك المجتمع إرسال من الذواقين والذواقات يهيمون كالفراش بكل زهرة من أزهار الروض يستنشقون عبيره ويمتصون رحيقها، فلا يمكن أن يقوم فيه هٰذا النظام العائلي، وإن قام فلا يمكن أن يستقر، ذلك بأن رجاله ونساءه لا يعودون يصلحون للاضطلاع بأعباء الزواج وتبعاته وحقوقه وواجباته والتزاماته الخلقية، ويكون من تأثير هٰذه الحالة العقلية والخلقية فيهم أن ينشأ كل جيل لاحق علىٰ خلق أسوأ مما كان عليه الجيل السابق، ويبلغ من أثرة الأفراد وأنانيتهم ما يشتت شمل المجتمع، ومن نزق النفوس وتلونها ما يجعل سياستهم الوطنية وسلوكهم الدولي كريشة في مهب الريح، لا تدوم علىٰ موقف ويتكدر عيش الأفراد بخلو بيوتهم من الهدوء والسكون، ويلح عليهم قلق نفسي دائم يحرمهم فراغ الخاطر وهدوء الذهن، وكل هٰذا عذاب من جحيم الدنيا، يلقي الإِنسان فيه بنفسه لغرامه، بل لهيامه المتطرف بالمتع واللذات .

سبعة أو ثمانية في الألف هو معدل الرجال والنساء الذين يتزوجون في فرنسا اليوم، ولك أن تقدر من هٰذا المعدل المنخفض كثرة النفوس التي لا تتزوج من أهاليها، ثم هٰذا النزر القليل من الذين يعقدون الزواج قل فيه من ينوون التحصن والتزام المعيشة البارة الصالحة، بل هم يقصدون به كل غرض سوىٰ هٰذا الغرض، حتىٰ إنه كثيرًا ما يكون من مقاصد زواجهم أن يحلوا به الولد النغل الذي قد ولدته المرأة قبل النكاح ويتخذوه لهم ولدًا شرعيًا، فقد كتب بول بيورو: (من العادة الجارية في طبقة العاملين في فرنسا أن المرأة منهم تأخذ من خدنها ميثاقًا، قبل أن يعقد بينهما النكاح، أن الرجل سيتخذ ولدها الذي ولدته قبل النكاح ولدًا شرعيًا له، وجاءت ٱمرأة في محكمة الحقوق بمدينة سين Siene فصرحت: «إني كنت آذنت بعلي عند النكاح بأني

لا أقصد بالزواج إلا ٱستحلال الأولاد الذين ولدتهم نتيجة ٱتصالي به قبل النكاح، وأما أن أعاشره وأعيش معه كزوجة فما كان في نيتي عند ذاك، ولا هو في نيتي الآن، ولذلك ٱعتزلت زوجي في أصيل اليوم الذي تم فيه زواجنا، ولم ألتق به إلىٰ هٰذا اليوم؛ لأني كنت لا أنوي قط أن أعاشره معاشرة زوجية» (الصفحة ٥٥) .

قال عميد كلية شهيرة في باريس لبول بيرو: «إن عامة الشباب يريدون بعقد النكاح ٱستخدام بغي في بيتهم أيضًا، ذلك أنهم يظلون مدة عشر سنوات أو أكثر يهيمون في أودية الفجور أحرارًا طلقاء، عليهم حين من دهرهم يملون تلك الحياة الشريدة المتقلقة، فيتزوجون بامرأة بعينها، حتىٰ يجمعوا بين هدوء البيت وسكينته لذة المخادنة الحرة خارج البيت» (الصفحة ٥٦) .

وإن زنا المحصنات والمحصنين لا يعد من العيب أو اللوم في فرنسا، فإذا كان أحد من المحصنين متخذًا خليلة دون زوجته، فلا يرىٰ لإخفاء الأمر من لزوم، ويعد المجتمع فعله ذلك شيئًا عاديًا طبيعيًا في الرجال . (الصفحة: ٧٦- ٧٧) .

ولهذا كله قد ضعفت رابطة النكاح وبلغت من الوهن أن ينبت حبلها لأدنىٰ مناسبة، وربما لم تزد مدة هٰذه الرابطة علىٰ أكثر من ساعات معدودة، فيقال عن رجل فاضل من الفرنسيين كان قد تولىٰ الوزارة بضع مرات: إنه طلقته ٱمرأته بعد خمس ساعات من ٱنعقاد الزواج بينهما، وربما كان من أسباب الطلاق هنات تافهة تضحك الثاكل، كاشمئزاز أحد الزوجين من غطيط الآخر في النوم، أو كون أحد منهما لا يحب كلب الآخر، وقد بلغ من تفاحش الطلاق أن محكمة الحقوق بمدينة سين فسخت ٣٩٤ نكاحًا في يوم واحد ووقع في سنة ١٨٤١ م التي تقرر فيها قانون الطلاق الجديد أربعة آلاف طلاق، وبلغ هٰذا العدد سبعة آلاف سنة ١٩٠٠ م، وستة عشر ألفًا سنة ١٩١٣ م وواحد وعشرين ألفًا سنة ١٩٣١ م .

ويعلق- مارفن هاريس- علىٰ تطور أوضاع المرأة في أمريكا فيقول:

«لم تعد الأسرة هي الأسرة التي كانت مألوفة: فلقد توقف فيض الأطفال وغاب رب الأسرة الرجل من الوجود الأسري والأطفال الذين يولدون- الآن- يولدون في أوضاع شاذة غير مألوفة...

لقد أصبحت الأسرة الآن تتصف بصفات رئيسة ثلاث: تأجيل الزواج إلىٰ فترة متأخرة من العمر، وكثرة الطلاق، وانهيار الأسر التي تتكون، حيث أصبح كل ثلاث نسوة يتزوجن تنتهي واحدة إلىٰ الطلاق، وازدياد نسبة الأطفال الذين يعيشون في كنف أمهات لا أزواج لهن، وكثير منهم لا يعرفون لهم أبًا وقد بلغت نسبة الأطفال الذين لا يعرفون لهم أبًا إلا الأم نسبة ٤٠٪ في الوقت الحاضر، كما أن الأخلاق التي كانت تحكم علاقات الرجال والنساء قد اُختفت وحل محلها نوع من التحرر الذي لا يتقيد بقيد».

ومن ذلك أيضًا ما كتبه الكاهن المشهور- جيري فولول- في كتابه «اسمعي يا أمريكا» إذ يقول (لدي إحصاءات مرعبة عن حوادث الطلاق وتدمير الأسرة والإجهاض، وجنوح الناشئة والفوضىٰ الجنسية، وتعاطي المخدرات، وجرائم القتل، إنني أشاهد حطام الإنسان والأرواح المهدورة بأكداس تفوق الإحصاءات».

ويقول الأستاذ فتحي يكن[1]:

فمن حصاد الإِباحة والفوضىٰ الجنسية تهدم الأسر وتفكك الوحدات المجتمعية، وتمزق أواصر القربىٰ، وتقطع صلات الرحم ..

فالأسرة كما هو معلوم بداهة ركن المجتمع وإحدىٰ قواعده الرئيسية.

والأسرة هي موطن الاُستقرار والاطمئنان ومبعث تنظيم العلاقات والنوازع والتصرفات.

---

(١) «الإسلام والجنس» ص٦٢.

وهي الواحة الفطرية والدائرة الطبيعية لتربية الأجيال تربية متوازنة سليمة لا تعقيد فيها ولا ٱنحراف .

فحين يعزف الأفراد عن الزواج، ويمارسون بطريقة وبأخرىٰ تصريف طاقاتهم الجنسية، يتقوض بالتالي نظام العائلة، ويفقد المجتمع أحد أهم أركانه .. في حين تعصف فيه شتىٰ ألوان الٱنحراف والشذوذ كما هو مشاهد اليوم في المجتمعات الغربية بصورة خاصة .

يقول الأستاذ: محمد قطب[1].

والأسرة هي المحضن الطبيعي الذي أوجده الله في الفطرة لتنشئة أطفال أسوياء يعمر بهم وجه الأرض. وهي ذات تكاليف: نفسية وعصبية ومالية واجتماعية.. ولٰكن الناس يُقبلون- بالفطرة - علىٰ أداء هٰذه التكاليف حين يكونون علىٰ فطرتهم السوية؛ لأن الله الخالق المبدع أودع ذلك في فطرتهم.

أما حين تنتكس تلك الفطرة، ويكون «الاستمتاع» هو همها الأكبر، فإنها تستثقل هٰذه التكاليف لأنها تحد من الٱستمتاع أو تقلص حجمه، فينفر الناس من الزواج والأسرة ويفضلون عليها الدنس المنتن الذي يسمونه الصداقة.. وحتىٰ إذا تزوجوا- بعد فترة غير قصيرة من الدنس واللهو- فإنه لا يكون ذلك الزواج الهادئ المستقر المأنوس الدافئ بالعواطف الذي يتعلم فيه الطفل البشري معنىٰ بشريته!

يقول الشيخ محمود أبو العيون رحمه الله:

إن المرأة فهمت الحرية فهمًا معكوسًا، وفي ظل الحرية الزائفة تحررت المرأة من الآداب والأخلاق، ورأت فيها قيودًا يجب تحطيمها وفي ظل هٰذه الحرية الزائفة داست أقدس واجباتها كزوجة وأم وربة منزل، فتهدمت تلك الأصول الثلاثة التي تبنىٰ عليها حياة الأسرة وسعادة المجتمع.

---

(١) «رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر» ص٧٠.

يقول د/ مصطفىٰ عبد الواحد[١].

ولما رأىٰ هٰؤلاء أن فوضىٰ الغريزة تعني عدم بناء الأسرة ولإخلال بروابطها الأصيلة التي عرفها الإنسان في كل الأجيال.. قالوا: وما المانع؟ فلتهدم الأسرة ولتحل روابطها، إذ هي نظام ٱجتماعي، وليست غريزة فطرية في نفس الإنسان..

وحينئذ يستبدلون نظام الأسرة بالمحاضن والملاجئ لتربية الأطفال، ثم ينطلق كل رجل وكل ٱمرة تبعًا للهوىٰ الجامح دون قيد ولا حظر.

والحق أن نظام الأسرة يعتمد علىٰ نزعة فطرية في نفس الإنسان، فوق الطعام والشراب وصلة الغريزة، وفوق المنفعة والحاجة فلا يمكن التخلي عن هٰذه النزعة الفطرية مهما أصاب الإنسان من متعة وما كفل له من رعاية بعيدًا عن ظلال الأسرة.

وثبت هنا كلمة للأستاذ العقاد في بيان أن الأسرة نزعة فطرة وليست نظام ٱجتماع يقول فيها: «إن أمرين ٱثنين تختلف فيهما النظم العائلية ما تختلف بين الشعوب والأجيال، وهما ماثلان في كل أسرة وفي كل شعب وفي كل جيل، وهما حضانة الطفل، والألفة الحميمة بين فئة من الأقرباء.

وكلا هذين الأمرين قائم علىٰ الغريزة الفطرية دون سواها، علىٰ نحو متشابه في جميع الأجناس وجميع العصور.

فمن الخصائص الفطرية في الإنسان أنه طويل الحضانة لأطفاله، وهٰذه ضرورة لازمة لا دخل فيها للمجتمعات، ولا لقوانين الٱجتماع.

ومن هٰذه الخصائص أنه يحتاج إلىٰ الألفة الحميمة بينه وبين فرد آخر أو أكثر من الأفراد، أيا كانت حالة الٱجتماع، من القبيلة البدائية إلىٰ جامعة اللغات والعناصر والأديان. وكل أسرة وجدت بين الناس فهي محاولة مستمرة

---

(١) «الإسلام والمشكلة الجنسية» ص٧٤.

لتحقيق هذين الغرضين الغريزيين، ولولاهما لما كان هٰذا الإصرار علىٰ خلق الأسرة ومحاولة تحسينها وتنظيمها في كل مكان.

وما هو الأثر الذي يترتب علىٰ إلغاء الأسرة بأنواعها المعروفة بين الأجيال البشرية.

إن أول الآثار التي تشاهد في هٰذه الحالة، أن الناس يخلقون الأسرة بما يشبهها وينوب عنها، فلا يكفيهم مجرد الاٰجتماع في مكان واحد، ولا يغنيهم أنهم يشتركون في المأكل والمشرب، مئات وألوفًا، كما يحدث في الجيوش والأديرة والمدارس الداخلية، ولكنهم يخلقون حنان الأسرة ورعاية الأبوة والأمومة خلقًا يعلمون أنه مصطنع ولا يستغنون عنه مع علمهم أنه اٰصطناع.. فتظهر أسماء التحبيب والتصغير في الجنود، ويتسمون بأسماء «تونىٰ وجونىٰ» كأنهم أطفال صغارًا! وتظهر الحيوانات الداجنة التي يعطف عليها المعسكر كما يعطف علىٰ أبناء البيت وتظهر أمومة الكنيسة وأحضان المدرسة وأخوة الدير، وأشباه هٰذه القرابات، وهي شيء غير ألفة الاٰجتماع بين الناس، بمعزل عن هٰذه القرابات «العائلية» التي يخلقها المجتمعون معها حتىٰ لو وجدت لكل فرد منهم علاقته العائلية بذويه وإذا فقد الإنسان هٰذا الشعور الحميم، لم يكن قصارىٰ الأمر عنده أنه يعاني «النقص الاٰجتماعي» في أخلاقه القومية أو أخلاقه الإنسانية، بل كان من جراء ذلك أنه يعاني نقصًا «بيولوجيًّا» يؤثر في الغريزة والعقل، ويدل علىٰ أن المسألة في أصولها مسألة الحياة، ومسألة الأوضاع والأنظمة والقوانين.

ومن الصفات المشتركة بين جميع الأسر في جميع الشعوب والأجيال، أنها قيد للعلاقات الجنسية ملحوظ فيه مصير النسل علىٰ نحو من الأنحاء.

فكل أسرة هي ضابط للنسل، وليست وحدة من وحدات البنية الاٰجتماعية الكبيرة وكفىٰ.

ولا عجب في اٰختلاف الضوابط والقيود، بل العجب كل العجب أن

تتفق كل الٱتفاق من المحاولة الأولىٰ إلىٰ المحاولة الأخيرة. فإن ذلك لهو المستحيل الذي لا يخطر علىٰ البال، فضلًا عن ٱنتظاره وتعليق الٱعتراف بالغريزة في تكوين الأسرة عليه.

ولا نقول إن هٰذا الضابط مقصود لغاية من الغايات أو غير مقصود، ولكننا نقرر المشاهد حين نقول: إن منع الزواج من المحارم قد أفضىٰ بالنوع الإنساني إلىٰ ثروة شعورية، لم يكن ليطمع فيها بغير هٰذه الوسيلة، فكأنما يتجه النوع الإنساني من قديم الزمن إلىٰ «تخليص» الشعور وتنويعه في العلاقة بين الأقربين والبعداء، فلا يشعر الرجل بالمرأة الأخت أو الأم كما يشعر بالمرأة الزوج أو المرشحة للزواج، ولا تزال هناك ضروب من العطف بين الأقربين، لا تقتصر علىٰ ضرب واحد، ولا تتشابه فيها الأواصر والصلات.

ومعنىٰ ذلك أن الإنسان يحرص علىٰ أنواع كثيرة من القرابة العائلية، ولا يريد أن يخلطها بعلاقات المجتمع الذي لا قرابة فيه.

إن أواصر القرابة تختلف بين الأمم والأجيال فتشمل في أمة ما، تستثنيه في أمة أخرىٰ، وتنكر في هٰذا الجيل ما تعترف به في ذاك.

ولٰكن هل يقع هٰذا الٱختلاف لو لم يكن في طبيعة الإنسان ٱستعداد للشعور بالقرابة أيًا كان عنوان القريب؟

وهل أنكر الإنسان قط قرابة من القرابات إلا ليعترف بقرابة تعد لها أو تنوب عنها؟

وهل أنكر ما أنكره طويلًا دون أن يعود إليه؟

فالغريزة وراء الظواهر الٱجتماعية في جميع هٰذه الأحوال، والفطرة الإنسانية أحوج فطرة بين الأحياء إلىٰ النشأة في أسرة والاتصال بقرابة عائلية.

ويغلو في القول كل من يرجع بكل ظاهرة من ظواهر الأسرة إلىٰ الٱجتماع؛ لأن الناس يعيشون جماعات جماعات.

فإن ٱنتساب الفرد إلىٰ أمة لا يغنيه عن النشأة العائلية بحال من الأحوال.

ولو جاء الوقت الذي تهدم فيه الأسرة وتلغىٰ فيه الأمومة والأبوة لتحل في محلها «تربية المجتمع» لكان ذلك تبديلًا في الخلق، ولم يكن تبديلًا في «النشأة الاٌجتماعية» وكفىٰ؛ لأن الفطرة قد عودت الأحياء أن يخدم الفرد نوعه وهو يشعر بأنه يخدم نفسه، لفرط لا يخالجه من اللذة والسرور بإنجاب الذرية.

فماذا لو قيل غدًا: إن اللذة الجنسية ليست أصلًا في دوام النوع، وإن الحمل قد يتم بغير هٰذه اللذة التي يشعر بها الآباء والأمهات.

إن من يقول بذلك لن يكون في مقاله أغرب ممن يزعم أن المجتمع ينشئ الأطفال بغير حضانة الأمهات والآباء، وأن الفطرة تستقيم علىٰ هٰذه التنشئة؛ لأنها وضع أوضاع الاٌجتماع!»[1].

وذلك حق.. فقد نشأت الأسرة قبل نشأة المجتمع بصورته المعروفة، ومحاولات التجمع نشأت علىٰ أساس عمل الغريزة ومطالبها.

غاية الأمر أن المجتمع قد اٌستطاع- بعد قيامه علىٰ أساس الأسرة- أن يضع لها بعض القيود التي تنظم علاقاتها أو تحدد وظائفها، وهٰذا العمل:- «عمل من البداهة بمكان، ولن يلجئنا توكيده إلىٰ الفصل بينه وبين الغرائز الفطرية، فهي لن تنفصل عن وضع من الأوضاع المتواترة بين الناس»[2].

ذلك من الوجهة النظرية.

فإذا نظرنا إلىٰ الواقع الملموس ألفينا الأسرة ضرورة للفرد لا يعوضه عنها شيء.

وتبين لنا خطأ القول بأنها نظام اٌجتماعي لا يحتاج إليه الفرد..

ولننظر نظرة علمية هادئة إلىٰ فرد في أسرة، وفرد بلا أسرة، لنرىٰ أيهما

---

(١) الأستاذ عباس محمود العقاد مجلة «الرسالة» العدد ٦١٧ أبريل سنة ١٩٤٥ بتصرف.

(٢) المصدر السابق.

أكثر هدوءًا واطمئنانًا في آخر الشوط.

إن الفتىٰ والفتاة اللذين أطلقا من قيود الأخلاق ووجدا كفايتهما الاقتصادية ليبدوا في سعادة غامرة ومتعة لا حد لها، وهما ينطلقان كالحيوان الهائج، يشبعان نزوات الجسد حيثما شاءا وشاءت لهما الأهواء.. ولكن هٰذه السعادة الظاهرة لا تلبث أن تتكشف عن قلق نفسي شديد.

فإن التكالب الشديد علىٰ اللذة ينتهي إلىٰ سعار دائم لا يرتوي ولا يشعر صاحبه بالراحة. لأن الذئب المسعور لا يلتذ بكل نهشة ينهشها من هنا أو هناك، وهو هائم كالمجنون، ولو كانت من أشهىٰ طعام يحبه، كما يلتذ المخلوق السوي بالقدر المعقول، الذي يحصل عليه وهو هادئ مستقر الأعصاب.

وهٰذا التكالب المسعور سمة دائمة من سمات الهيام الذي يقع فيه الفرد حين لا يصيخ إلىٰ دافع الأسرة، فينطلق مع الشهوات بلا ضابط ولا حدود.

والأسرة هي الرقية الطبيعية التي تحمىٰ الفرد من هٰذا السعار .

فهي أولًا تكسر من حدة الشهوة المجنونة؛ لأن الإنسان يزهد بفطرته من كل شيء يملكه!

فإذا اطمأن الزوج والزوجة بعد فترة التعطش الأولىٰ إلىٰ أن كل منهما يملك الآخر في كل لحظة يريدها، لم يعد هناك دافع إلىٰ التشهي العنيف والسعار الملهوف.

ولكن هٰذا ليس معناه أن تموت الرغبة وتتبلد نهائيًا بالزواج، فلحكمة عليا جعلت هٰذه الغريزة من الحدة والعنف بحيث لا تخمد ما دامت المقدرة الصحية للفرد صالحة لأداء الغرض المطلوب، وذلك لكي يستمر النسل، وتستمر الحياة علىٰ ظهر الأرض، لا يوقفها شبع الارتواء ولا زهادة الزاهدين. فمن ناحية الغريزة ذاتها تجد الأسرة هي المنظم الطبيعي لانطلاق الشهوة، بالصورة التي تمنع دمار الجسد وعذاب اللهفة الدائمة، وتمنح الفرد

السوي في الوقت ذاته نصيبًا معقولًا من المتعة ينتهي به إلىٰ الرضا والارتواء.

ولٰكن الأسرة لا ترضىٰ جانب الجسد وحده.

فهٰذا الفتىٰ الهائم والفتاة الهائمة لا ينعمان بالسعادة النفسية كذلك.

إن الرجل في حاجة إلىٰ المرأة، والمرأة في حاجة إلىٰ الرجل، لشيء آخر غير ضرورة الجسد ودفعة الغريزة.

إن كلا منهما ليجد عند الآخر وفي رحابه مشاعر نفسية. الألفة والحنان والود والتعاطف.

مشاعر لا يجدها في أي مكان آخر. لا يجدها لرجل- كاملة- عند الرجل، ولا المرأة عند المرأة إلا في حالات الشذوذ.

وهٰذه المشاعر كلها لا تستقيم مع الطفرات الهائلة والتيارات المتحولة؛ لأنها بطبيعتها في حاجة إلىٰ الزمن والاستقرار. كيف ينشأ الود بين عابري سبيل قد لا يلتقيان بعد ذلك أبدًا؟ وكيف تنشأ الألفة بين شخصين لا يلتقيان إلا كما تلتقي القطر المتقابلة علىٰ السكة الحديد، دقائق، ثم يمضىٰ كل منهما إلىٰ سبيل؟

كلا! إن هٰذه المشاعر اللطيفة، النابعة من أعماق النفس، لا تجد منطلقها إلا في جو هادئ مستقر، وتظل- إذا لم تتحقق- تسبب جوعة نفسية دائمة، وحنينًا لاهفًا لا يستقر، ولو وجد الإنسان كل متعة الجسد وكل حرية الٱقتصاد.

إن كل فرد من أحد الجنسين في حاجة إلىٰ فرد من الجنس الآخر يُلقي إليه نفسه كلها، مشاعرها وأفكارها. ويكشف له عن كل أسراره الدفينة. ويتجاوب معه ويتعاطف ويجد منه حافزًا وعونًا لمواجهة الحياة وتبعاتها المختلفة. وإن الدنيا كلها لتتفتح لقلبين متحابين متآلفين، ولا تتفتح لقلب واحد محروم من الحب والعطف، مقطوع عن الألفة الندية ولو كان أكبر قلب لأعظم إنسان، بل هو لن يكون قلبًا كبيرًا وهو محروم من هٰذا الغذاء الروحي الشفيف .

تلك وقائع قد يفتنّ الشعر في تصويرها في عالم المثل والأحلام، ولكنها، بغير شعر، ولا فن، وقائع «علمية» تشهد بصحتها الحياة كلها منذ فجرها إلىٰ اليوم.

فالاستقرار العاطفي إذن حاجة نفسية للرجل والمرأة، ولا يغني عنها كل متعة الجسد وكل حرية الٱقتصاد، وهو لا يتحقق في هٰذا التيار الجارف الذي يسير فيه الغرب المجنون؛ لأنه لا يتحقق إلا في أسرة وبيت. وهم يقضون حياتهم في الشارع. مشردي النفوس، حائري القلوب، حتىٰ المتزوجون منهم لا يصلون إلىٰ الٱستقرار المنشود.

علىٰ أن الأسرة المستقرة ليست حاجة نفسية للرجل والمرأة فحسب، فهي كذلك ضرورة لازمة لإقامة الكيان النفسي للأطفال علىٰ أساس قويم.

ونبدأ بتقرير حقيقة ثابتة وهي أن إنجاب الأطفال شهوة لم ينجُ منها أحد في القديم أو الحديث.

وما دام الإنسان يحب إنجاب الأطفال فعليه إذن أن يهيئ لهم البيئة الصالحة للتربية والنماء. ولا أقل من ذلك. فالحيوان ذاته لا يترك أطفاله لأنفسهم حتىٰ يطمئن إلىٰ قدرتهم الكاملة علىٰ الٱستقلال.

وقد تحدثت «أنَّا فرويد» في كتابها «أطفال بلا أسر» عن الخلل النفسي الذي يلازم تربية الأطفال في الملاجئ والمحاضن، وما ينتج عنه من ٱضطرابات عاطفية وانحرافات شاذة، لا يملك العلم النفساني أن يقوّمها إلا بجهد جهيد. هٰذا إذا ٱستطاع»[1].

والقرآن يشير إلىٰ هٰذه المعاني حين يصوّر المشاعر التي تنشئها الأسرة وتشيع فيها، من الود والرحمة والعطف والاستقرار حين يقول: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١] وكل ما عرفه الناس من معاني الأسرة

(١) الإنسان بين المادية والإسلام.

وجدواها للفرد إن هو إلا بعض التفكر الذي دعا الله الناس في هٰذه الآية، وكلما تقدم بالناس الزمن ورسخ فيهم العلم والفكر عرفوا من هٰذه الآية نورًا باهرًا وشعاعًا هاديًا.

كما يشير إلىٰ نعمة الذرية التي لا تتحقق إلا في الأسرة وجوها الظليل حين يقول: ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجًا، وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة﴾.

فالزواج هو الوضع الطبيعي للإنسان. أما السفاح والبغاء فليس معه نسل ولا ذرية. والأسرة هي المستقر الآمن الذي ينمي الحياة ويصل حلقات الأجيال.

يقول د/ عبد الله مبارك الخاطر[1]:

إنني طبيب في الأمراض النفسية، وهٰذا العمل يتيح لي مشاهدة الوجه الآخر لمجتمعاتنا، والاتصال بأصناف متعددة من الناس رجالًا كانوا أو نساءً، ومن طبيعة الذين يعملون في مثل هٰذه الاختصاصات الاهتمام بمشكلات الناس، وقد يسير أحدهم في الشارع فتلفت انتباهه أمور لا يهتم بها المارة..

وكم أتمنىٰ أن يهتم العلماء الدعاة بمثل هٰذه القضايا ويقدمون لها الحلول الناجحة، وسيكون دورهم أهم من دور الأطباء ورجال الأمن؛ لأن مخالفة تعاليم الإسلام من أهم العوامل التي أدت إلىٰ نشوء مثل هٰذه الأمراض.

وقد حرصت علىٰ ذكر هٰذه المقدمة حتىٰ لا يستغرب القارىء ما أذكره له من أحداث وبشكل أخص زيارة النساء لنا في العيادة، والاستماع إلىٰ مشكلاتهن، ولا علاج بدون الاستماع إلىٰ هٰذه المشكلات ومناقشتها.

---

(١) مجلة «البيان»: العدد الرابع جمادىٰ الآخرة سنة ١٤٠٧هـ.

وبعد هٰذه المقدمة أعود إلىٰ الحديث عن المرأة الغربية والزواج فأقول:

كنت أستغرب عند بداية إقامتي في بريطانيا أن المرأة هي التي تنفق علىٰ الرجل، وكنت أشاهد هٰذه الظاهرة عندما أركب القطار أو أدخل المطعم، إذ ليس في قاموس الغربيين شيء اسمه «كرم».

وبعد حين زال هٰذا الاستغراب، وأخبرني المرضىٰ عن أسباب هٰذه الظاهرة، وفهمت منهم بأن الرجل لا يحب الارتباط بعقد زواج، ويفضل ما أسموه [صديقة] والمرأة تسميه [صديقًا]، وليس هو أو هي من الصدق في شيء، وكم أساءوا لهٰذه الكلمة النبيلة، فالصديق يعني: الصدق، والمحبة، والمروءة، والنخوة، والكرم، والوفاء، وما إلىٰ ذلك من معان طيبة كريمة.

والصديق عندهم يعيش مع امرأة شهورًا أو سنين، ولا ينفق عليها، بل هي تنفق عليه في معظم الحالات، وقد يغادر البيت متىٰ شاء، أو قد يطلب منها مغادرة بيته، إن كانت تعيش معه في بيته، ولهٰذا فالمرأة عندهم تعيش في قلق وخوف شديدين، وتخشىٰ أن يرتبط صديقها بامرأة ثانية ويطردها، ثم لا تجد صديقًا آخر!!

وكما يقولون «بالمثل يتضح المقال» فسوف أختار مثالًا واحدًا من أمثلة كثيرة تبين وضع المرأة عندهم:

رأيت في عيادة الأمراض النفسية امرأة في العشرينيات من عمرها، وكانت حالتها النفسية منهارة، وبعد حين من الزمن شَعَرتْ بشيء من التحسن، وأصبحت تتحدث عن وعي، فسألتها عن حياتها، فأجابت والدموع تنهمر من عينيها قالت:

مشكلتي الوحيدة أنني أعيش بقلق واضطراب، ولا أدري متىٰ سينفصل عني صديقي، ولا أستطيع مطالبته بالزواج مني؛ لأنني أخشىٰ من موقف يتخذه، ونُصِحتُ بالعمل علىٰ إنجاب طفل منه، لعل هٰذا الطفل يرغبه في الزواج، وها أنت ترىٰ الطفل، كما أنك تراني ولا ينقصني جمال، ومع هٰذا

وذاك فأبذل كل السبل، من تقديم خدمات وإنفاق مال، ولم أنجح في إقناعه بالزواج، وهٰذا سر مرضي، وسبب قهري، إنني أشعر بأنني وحدي في هٰذا المجتمع، فليس لي زوج يساعدني علىٰ أعباء الحياة، ولي أهل ولكن وجودهم وعدمه سواء، وليتني بقيت بدون طفل لأنني لا أريد أن يتعذب ويشقىٰ في هٰذه الحياة كما تعذبت وشقيت.

وهٰذه المرأة المريضة ليست من شواذ المجتمع الغربي، بل الشواذ هم الذين يعيشون حياة هادئة.. ومع ذلك ينقد الغربيون مجتمعاتنا الإسلامية، ويزعمون بأن المرأة تعيش في بلادنا حياة بائسة محزنة، ونحن لا يهمنا رأي الغرب بنا، ولا نطلب منه حسن سلوك، ولكن نريد من نسائنا أن يحمدن الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ نعمة الإسلام، فلقد كانت في الجاهلية ذليلة مهينة، وجاء الإسلام، ليرفع مكانتها، وبفضل من الله سبحانه وتعالىٰ أصبح الرجل يبحث عن المرأة، ويطلب الزواج منها، وهي قد تقبل وقد ترفض، ولأهلها دور كبير في أمر زواجها، وسواء كانت عند زوجها أو في بيت أبيها، فهي عزيزة كريمة والرجال هم الذين ينفقون عليها، بل والذي نشكو منه في بلادنا الغلو في المهور، والتكاليف الباهظة التي تفرض علىٰ الرجل حتىٰ يحصل على زوجة. ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحجرات: ١٧].

نشرت مجلة «الأسبوع العربي» اللبنانية في عددها رقم ٢٤٧ تحقيقًا صحفيًا مع الراقصة الفرنسية «ميشيل» فوج بمناسبة زيارتها لبيروت لتمضية إجازتها السنوية، وقد تحدثت «ميشيل» عن مأساتها التي هي جزء من مأساة المرأة الغربية، وكشفت عن حقيقة الأوضاع الاجتماعية التي تسود المجتمع الغربي فقالت:

لقد اضطررت للبحث عن عمل لتأمين معاشي بعد أن تخلىٰ عني والدي وأسرتي.. والدي أحد كبار رجال الصناعة الأثرياء في باريس، وقد رفض

إعالتي بحجة أنه دخل معترك الحياة وهو في السادسة عشر من عمره واستطاع أن يبني مركزًا لنفسه.. وأنه لا يريد أن يحيا أولاده علىٰ عاتقه!.. وأن عليهم أن يعملوا ويكسبوا لقمتهم بأنفسهم!... وتقول: إن والدها عنيف وقاسٍ حتىٰ مع والدتها التي كانت تمدها ببعض المال خفية، وأن والدتها تلبس معطفًا من «الفيزون» يفوق ثمنه العشرين ألف ليرة.. أما هي فتعمل كي تكسب لقمتها بعرق جبينها أو بـ...! ولذلك لم أجد نفسي إلا في الملاهي الليلية راقصة تبحث عن لقمة العيش في هٰذه الأماكن...

وثارت ميشيل وهي تسرد قصتها الباكية فقالت: هٰذه هي الحياة العائلية في باريس.. جفت عاطفة الحنان والمحبة في قلوب الآباء والأمهات.. أصبحوا أنانيين.. وكأن كل قرش يدفعونه لأولادهم يخرج من لحمهم!.. ليس لدينا في باريس معنىٰ للعائلة!.. هٰذه هي الحقيقة.. إن الأب والابن غريبان عن بعضهما البعض، ويعيش كل شخص لنفسه.. لذلك تجد أكثر الفتيات ينفردن عن عائلتهن.. بعضهن يعملن سكرتيرات، أو مدرسات، أو بائعات في المحلات التجارية، وبعضهن تزل بهن القدم فيعملن بائعات لذة حتىٰ يتمكن من العيش، ولا أعني بالعيش العيش الرغيد.. بل خبزنا كفاف يومنا.. العيش الرخيص.. وتمر الفتاة بتجارب كثيرة عديدة تقاسي خلالها المرارة والقسوة.. هٰذه هي الحقيقة!!.

«أنقذوا العائلة من الموت» هٰذا النداء الدراماتيكي أطلقه العالم الاجتماعي الفرنسي «برنار أوديل» هو النداء الثالث الذي يطلقه خلال الثلاثين سنة الماضية.

كان الأول: «أنقذوا العائلات من الاستلاب»

وكان الثاني: «أنقذوا العائلة من التفتت»

وها هو يطلق النداء الثالث؛ لأن المعطيات التي توفرت لديه حول وضع العائلة في الغرب تثبت جميعها أنه قد حان الوقت لكي تقرع أجراس

الإنذار في كل بيت من نصف الكرة الغربي، وقد قام هٰذا الباحث الغربي «برنار أوديل» على امتداد السنتين الماضيتين بمسح ميداني للعائلة الغربية. تنقل بين مختلف البلاد الأوربية وعبر الأطلسي إلىٰ الولايات المتحدة وكندا، ليعود بعدها بجعبته المليئة بالأصوات التي تحذر من اتجاه العائلة الغربية نحو الانقراض.

هٰذه الأصوات مع تحليل واف لها جمعا «أديل» في كتاب أطلق عليه عنوان «أنقذونا».

والأصوات تلك هي عبارة عن حوارات قصيرة أجراها المؤلف مع نساء وأطفال وآباء وأجداد حول طبيعة علاقة كل واحد منهم بأفراد عائلته الآخرين.

وجاء في جريدة الأهرام ما يلي[1]:

دراسة تحذر من انقراض الأسرة التقليدية الأوربية:

حذرت دراسة فرنسية من انتشار موجة التمرد علىٰ الشكل الكلاسيكي للعائلة في أوربا وتزايد أعداد الأشخاص الذين يعيشون بمفردهم وفي عزلة تامة عن الآخرين.

وتؤكد الدراسة التي أصدرها المعهد الأوربي للسكان أن ١٠٪ من سكان أوربا البالغ عددهم ١٣٢ مليون أسرة يعيشون بمفردهم، وأن ٢١٪ من تلك الأسر تتكون من شخصين فقط، و٤٧٪ تتكون من ٣ أشخاص، بينما ٢٢٪ من أكثر من ٤ أشخاص.

أما الأشخاص الذين يعيشون في عزلة تبلغ نسبتهم في الدانمارك ٢٢٪ من إجمالي عدد السكان، وفي فرنسا ١١٪، وفي هولندا ١٤٪، وتقل النسبة كلما اتجهانا جنوبًا في أوربا حيث تبلغ ٤٪ في أسبانيا والبرتغال.

---

(١) الأهرام: العدد ٤٠١٤٠ بتاريخ ١٧/٦/١٤١٧هـ.

وتشير الدراسة إلىٰ أن ٧٢٪ من سكان أوروبا يعيشون في علاقات أسرية حرة، ولم تعد الأسرة الكلاسيكية هي حلم الشباب الذي يعيش أكثر من ٣٠٪ من داخل أطر اجتماعية وأسرية مستحدثة، ويشرح علماء النفس هٰذه الظاهرة بأنها نتيجة طبيعية لصعاب الحياة التي أصبح يخشىٰ الشباب معها تكوين أسرة يتحمل فيها المسئولية كاملة، بالإضافة إلىٰ الرغبة في الاستمتاع بالحياة بأدنىٰ التزام أو تعهد اجتماعي. ويحذر العلماء من تنامي هٰذه الظاهرة لتختفي الصورة التقليدية للعائلة، وينهار المجتمع من أساسه الذي يقوم علىٰ فكرة «الأسرة هي الخلية الأولىٰ في المجتمع».

وهكذا اختفت الأسرة، واختفىٰ معها الدفء والحياة، وأصبح الناس في الغرب يسيرون في جنازة هم الأموات فيها، هٰذا هو ما وصفته «بيتو لا هايت» عجوز من أصل أيرلندي، وتعيش منذ خمسين عامًا في مدينة «أوتارا الكندية» تقول: إنني لا أستطيع أن أفعل شيئًا سوىٰ أن أرىٰ هؤلاء الشبان الذين يرتطمون بهٰذا الواقع الجاف، أخشىٰ أن يكرهنا أبناؤنا.

ترىٰ لماذا يكرهوننا، لقد أرغمناهم كي يأتوا إلىٰ هٰذا العالم عندما فقد هٰذا العالم كل سطوع وحرارة.

إنني أعيش وحيدة.. أولادي وأحفادي يعيشون في «مونتريال»، أتلقىٰ منهم الرسائل بانتظام، وأشعر أن عملية تناول الرسائل باتت ميكانيكية لأنها خالية من الود الحقيقي. وهٰذا ليس ذنبهم، أعود ستين عامًا إلىٰ الوراء عندما كانت حياتنا أشبه بالمهرجان الدائم، الآن تبدل كل شيء، ويبدو أن الناس كلهم يسيرون في جنازة هم الأموات فيها.

٣- ٱنتشار الأبناء غير الشرعيين

وهي ظاهرة لازمة لانطلاق الغرائز، وذوبان الحواجز بين الفتيان والفتيات؛ لأن المجتمع الذي يهرب من الزواج، وينساق أبناؤه وراء الٱنحلال والإِباحية .. يعج بأولاد لا كرامة لهم ولا أنساب .. وفي ذلك ظلم للأولاد وأي ظلم؟!

يقول أبو الأعلىٰ المودودي في كتابه «الحجاب».

ومن البديهي أن وجود الزنا يستلزم أيضًا وجود أبناء السفاح الذين يولدون عن غير رغبة أو قصد، والعدوان والظلم يقعان عادة علىٰ المولود نفسه، ثم علىٰ التمدن الإِنساني بصورة عامة ..

يقول الدكتور كلود سكوت نيكول: (وهٰؤلاء الأطفال غير الشرعيين يربون عادة في مؤسسات أو عند عائلات غريبة، ولهذا السبب بالذات ينشأون معقدي الشخصية منحرفي النفسية) .

يوجد في الولايات المتحدة الأمريكية حسب تقرير نشر في عام **١٩٨٣** م - وذلك كمثال -: «إن **١٢,٥** مليون طفل يعيشون مع أمهاتهم؛ لأنهم لا يعرفون لهم آباء، هٰذا غير الذين ترعاهم دور الرعاية الٱجتماعية، فاللاتي يلدن سفاحًا في سن المراهقة أكثر من مليون ٱمرأة سنويًا حسب إحصائيات **١٩٧٩** م - **١٩٨٨** م هٰذا غير اللاتي يسقطن وهن بالملايين».

وقد قدرت منظمة الصحة العالمية عدد حالات الإِجهاض الجنائي في العالم بخمس وعشرين مليون طفل عام **١٩٧٦** م، وقد ٱرتفع الرقم إلىٰ خمسين مليون حالة إجهاض سنويًا في عام **١٩٨٤** م حسب ما نشرته مجلة التايم الأمريكية .. إن الزواج هناك أمر شكلي، فالخيانة الزوجية حسب تقرير نشر في **١٩٨٠** م يشكل حوالي **٧٥**٪ من الأزواج والزوجات، لذلك فهناك حالة طلاق بين كل حالتي زواج في بريطانيا حسب تقارير نشرت منذ خمسة عشر عامًا.

ويقول د/ محمد علي البار في كتابه «عمل المرأة في الميزان»:

«ومن أبلغ ما كتب بهٰذا الصدد مقال لكاتب أمريكي نشره قبل أيام في صدر إحدىٰ المجلات الفكرية الكبرىٰ ويحذر فيه الغرب من عواقب ذلك التدهور الذي سيحول الدول الغربية -في رأيه- إلىٰ دوائر إغاثة وإعاشة «لضحايا الجنس والطلاق». ويستهل مقاله بقوله: إن إحصائيات عام ١٩٧٩ تدق ناقوس الخطر.. فعدد اللواتي يلدن سنويًا من دون زواج شرعي وفي سن المراهقة لا يقل عن ستمائة ألف فتاة بينهن لا أقل من عشرة آلاف فتاة دون سن الرابعة عشرة من العمر. وإذا أضيف إلىٰ ذلك عدد اللواتي يلدن بدون زواج بعد سن المراهقة فإن العدد الإجمالي يتجاوز المليون.. ومعنىٰ هٰذا أن الولايات المتحدة الأمريكية تستقبل مليون طفل سنويًا من الزنا والسفاح وأن علىٰ الدولة أن تقوم بإعالتهم وأمهاتهم مما يشكل كارثة ٱقتصادية؛ لأن كل طفل يكلف الدولة ما يقرب من ١٨ ألف دولار.. ومما يزيد في حجم الكارثة ٱرتفاع نسبة الطلاق فقد بلغت في عام ١٩٧٩ ما يقرب من ٤٠ بالمائة من جميع حالات الزواج.. ومعنىٰ هٰذا أن علىٰ الدولة أن تقوم بإعالة المطلقات اللائي لا يعملن».

ويعلق الدكتور محمود زائد كاتب المقال في «الشرق الأوسط» قائلًا: «والكارثة في الواقع ليست ٱقتصادية فحسب.. فهي ٱجتماعية قبل كل شيء وقد تزلزل بنيان الأسرة التقليدي وتهدم.

وفي هٰذا عبرة وأي عبرة للدولة النامية». اهـ.

ويقول الأستاذ محمد السيد في مجلة الوعي العدد (٤٠٥) تصرف الولايات المتحدة حسب إحصاءات رسمية ما يعادل ١٣ مليار دولار سنويًا؛ لإعالة الأولاد الذين لا آباء لهم، إذ تبلغ نسبة الولادات عن غير طريق الزواج في بعض أحياء نيويورك مثلًا ما يعادل ٨٠٪ من الولادات عامة، وفي هٰذا ما فيه من نشوء هٰؤلاء الأطفال بلا تربية ولا عاطفة ولا رعاية سليمة، وهٰذا ما

يفسر كثرة الجرائم هناك وزيادة المجرمين.

فأين هو هٰذا السلام المزعوم الذي يمكن أن يبني علىٰ مبادئ وأفكار تحرر المرأة وخروجها عن كل قانون سماوي أو بشري صالح.

٤- ظهور طبقة البغاء من النساء

والزنا يستلزم وجود البغاء ووجود طبقة بائسة من النساء اللواتي يمثلن أسفل طبقات المجتمع في الذل والمهانة ونقص الاَعتبار وهٰذا متناقض قطعًا مع فكرة المساواة والعدالة والأخوة الإِنسانية في المجتمع، فبدل أن يكنَّ من النساء الشريفات والأمهات الفاضلات وربات البيوت المحصنات والمربيات الكريمات تراهن كالمراحيض يستعملن لقضاء وطر كل خليع داعر، يكسبن عيشهن ببيع أجسادهن لكل زائر، ويقضين أعمارهن في هٰذا الدنس بدل أن يقمن بخدمة نافعة مثمرة في المجتمع.

٥- ٱنتشار عصابات القتل والخطف والاغتصاب الجنسي

المرأة الغربية أيًا كانت، معرضة للوقوع في واحدة ما، من شباك النخاسة التي تملأ اليوم مدن أوروبا طولًا وعرضًا .. تستدرج المرأة أو الفتاة عن طريق الإغراء بعقود أعمال متنوعة مقابل أجور سخية، وما تكاد تدرج من عشها، وتستلم بثقة عمياء لـ (رجال الأعمال) فرحة بالحلم المالي الذي تسعىٰ إلىٰ تحقيقه، حتىٰ يطبق عليها الشباك، وعندئذ تجرد من مثبتات شخصيتها، حيث تباع في سوق النخاسة لتجار الجنس، وقد ٱنقطعت صلتها عن وطنها وأسرتها، وتحولت طَفرةً إلىٰ رقيقة تجبر علىٰ ممارسة الجنس تحت أنواع مرعبة من الضغط والتهديد والضرب وتحطيم الأسنان ... إن ٱقتضىٰ الأمر .

إن شبكة نخاسة واحدة من هٰذه الشباك الكثيرة، كانت تنشط ما بين هولندا وبلجيكا وألمانيا، نجحت في الفترة ما بين عامي **١٩٨٥** و **١٩٩١** في ٱصطياد ثلاثة آلاف ٱمرأة من أمريكا اللاتينية وآسيا، حيث جردن من جوازاتهن وتم بيعهن لشركات فرضت عليهن ممارسة البغاء، تحت سلطان من الملكية التامة.

وتؤكد تقديرات مؤتمر المنظمات النسائية الذي عقد في عام **١٩٩١**م أن هنالك ما يقرب من ثلاثين مليون ٱمرأة تم بيعهن، وفرض عليهن الرق لتجارة الجنس في سائر أنحاء العالم، ومن المعلوم أن الشركات التجارية التي تصطاد هٰذه الملايين متمركزة في أنحاء أوروبا، أما المادة الخام أو البضاعة التي يستوردها السماسرة لها فمصدرها الرئيسي أوروبا الشرقية وأمريكا اللاتينية وجنوب شرقي آسيا.

ولا بد أن يثور هنا الٱستفسار المتعجب المضحك عن مدىٰ قيمة تلك الأسطر النورانية التي تتحدث في ٱهتمام بالغ عن حقوق الإِنسان بما فيه حق المرأة في التمتع بأهليتها وممارسة حريتها وكرامتها، والتي تضمها ملفات الأمم المتحدة، ثم تحفظ في حراسة دقيقة داخل خزانتها المكلوءة بالعناية

التامة)[1]!!.

يقول الأستاذ/ محمد رشيد العويد:

في الولايات المتحدة؛ تقول التقارير الخاصة بالاغتصاب، بأن حادثة ٱغتصاب تسجل كل ٦ دقائق وأن جريمة الٱغتصاب أكثر الجرائم تسجيلًا في محاضر الشرطة في المدن الأمريكية، ويقول المحللون: إن ٩٠٪ من حوادث الٱغتصاب لا تصل إلىٰ سجلات البوليس، وهٰذا يعني - بحسبة بسيطة - أن عشر حوادث ٱغتصاب تتم كل ست دقائق، أو جريمتين - تقريبًا - كل دقيقة.

ويستفاد من دراسة أجريت في الولايات المتحدة أيضًا، أن ٣١ في المائة من النساء القاطنات في المدن الكبرىٰ يخشين من السير بمفردهن، حتىٰ في أحيائهن، في وضح النهار، وأن كثيرات من النساء الأميركيات ٱستعضن عن المشي بتعلم الكاراتيه؛ لحماية أنفسهن من الرجال.

وفي لوس أنجلوس، التي أصبحت تشتهر بأنها: (عاصمة حوادث الٱغتصاب في العالم)؛ واحدة في ثلاث فتيات فوق سن ١٤ عامًا معرضة للاغتصاب .

ولقد بلغت الحال من السوء حدًا دفع بحاكم ولاية كاليفورنيا لأن يعلن في حديث تلفزيوني، حربًا لمدة ١٠ سنوات بكلفة ٥ مليارات دولار لمكافحة الجريمة، وتحدث الحاكم، واسمه جيري براون، عن الحال التي وصلت إليها الأوضاع في المدينة بقوله: (إن مستوىٰ الخوف، ودرجة العنف البشعة، أنشأت جوًا من شأنه تقويض حقنا الأساسي في أن نكون أحرارًا في مجتمعنا).

وأرجو أن تتأملوا عبارته الأخيرة «حقنا الأساسي في أن نكون أحرارًا في مجتمعنا» فليس حرًا ما كان مهددًا، خائفًا، غير آمن، ليست حرة من

---

(١) «المرأة بين طغيان النظام الغربي ولطائف التشريع الرباني» صـ ٥٨.

تختلط بالرجال؛ هي عرضة لاعتدائهم عليها، مهددة باغتصابهم لها، تتجول، أو تعمل، وهي خائفة من عدوان الرجال عليها.

يقول د/ محمد علي البار[١]:

أما حالات الاغتصاب فقد بلغت من الانتشار في أوروبا وفي الولايات المتحدة بصورة خاصة درجة تجعل من العسير علىٰ المرأة أن تمشي وحدها بعد غروب الشمس في المدن الكبرىٰ.

والغريب حقًا أن تقول دائرة المعارف البريطانية المجلد ١٦/ ٦٠٩: «إن نصف الذين يمارسون الاغتصاب هم متزوجون ويعيشون مع زوجاتهم حياة عادية أثناء اقترافهم الاغتصاب».

وتعلل ذلك بأنَّ هناك عقدة كراهية للنساء لدىٰ هٰؤلاء الرجال وأنهم ينتقمون لأنفسهم من سوء معاملة كانوا قد لاقوها في الطفولة، وتذكر أن هٰؤلاء مصابون بالسادية، وأنهم يتلذذون بتعذيب المرأة، وأنَّ ذلك رد فعل قوي وعنيف ضد مساواة المرأة بالرجل؛ لأنهم يرون المرأة أقل وأضعف من الرجال، فيثبتون ذلك عمليًا بهجومهم علىٰ النساء وإذلالهم؛ إذ ليس الجنس هو الدافع للاغتصاب، فنصفهم حسب قول دائرة المعارف البريطانية متزوج، والنصف الآخر يجد الجنس علىٰ قارعة الطريق وليس لديه أي كبت جنسي!!

وبطبيعة الحال لا توجد حالات اغتصاب من المرأة للرجل إلا علىٰ سبيل التفكه وكما تقول دائرة المعارف البريطانية فإن الاغتصاب إنما يقع من الرجل علىٰ المرأة.

ودافعه الوحيد كما ترىٰ دائرة المعارف البريطانية هو السادية والرد علىٰ من يقولون بمساواة المرأة بالرجل بصورة عملية!!

ويا لها من طريقة غريبة!! وبما أن العقوبة علىٰ الاغتصاب- إذا ما تم

---

(١) «الأمراض الجنسية» ص ٦٢-٦٣ .

القبض علىٰ فاعلها - يسيرة فإنَّ حالات الٱغتصاب في ٱزدياد.

وقد تكونت في بريطانيا وأمريكا جمعيات تعلم النساء الجودو والملاكمة والمصارعة، واستعمال السلاح لحماية أنفسهن من حالات الٱغتصاب التي تقع كل يوم في شوارع لندن ونيويورك وشيكاغو ولوس أنجلوس وغيرها من عواصم الغرب.

وقد نشرت صحيفة Arab News في عددها الصادر٢٣/ ٣/ ١٩٨٤ مقالًا لفاروق لقمان نقل فيه دراسة أجرتها صحيفة الأوبزرفر Observer البريطانية المشهورة عن الٱغتصاب في المكسيك. وقد جاء في هٰذه الدراسة أن الٱغتصاب منتشر بصورة ذريعة جدًا في المكسيك، وأنه يعتبر من علامات الرجولة ومن العار علىٰ الشاب أن لا يقوم بعمليات ٱغتصاب للفتيات لإثبات رجولته وفحولته. وتبلغ الحالات المبلغ عنها إلىٰ دوائر البوليس في المكسيك حالة في كل سبع دقائق. وتقول الأوبزرفر: (إنّ هٰذا الرقم لا يمثل سوىٰ عشرة بالمائة فقط من حالات الٱغتصاب؛ لأن البوليس في المكسيك متواطئ أيضًا في هٰذه الحالات».

وفي بريطانيا حكمت المحكمة قبل بضعة أشهر علىٰ رجل ثبتت عليه تهمة الٱغتصاب بالتوبيخ فقط مما أثار النساء في بريطانيا، ووصمن ذلك الحكم بأنَّه ٱنحياز من رجل لرجل!! وفي الولايات المتحدة يزداد ٱنتشار الٱغتصاب يومًا بعد يوم مع ٱنتشار أنواع الجرائم المختلفة، ويُتهم البوليس بالتغاضي بصورة خاصة عن حالات الٱغتصاب.

وفي تقرير لهيئة الصحة العالمية (W.H.O) عام ١٩٨٠ جاء فيه أن ٥٠ بالمائة من جميع جرائم الٱغتصاب تمت بتأثير الخمر، وأن ٨٦ بالمائة من جميع جرائم القتل ٱرتكبت تحت تأثير الخمور. (نقلًا عن الديلي ميل الصادرة في ٢٦ يونيه ١٩٨٠).

تقول هلاري كلينتون[١]:

إن ما يزيد علىٰ ١٠ بالمائة من فتيات القطاع كن قد أرغمن علىٰ البغاء، أعداد منهن جرىٰ بيعهن مومسات قبل البلوغ؛ لأن الزبائن كانوا يفضلون صغيرات السن، متوهمين أنهن خاليات من الإيدز الذي يجتاح المومسات. في مركز الحياة الجديدة «بتشيانغ ماي»، رأيت إرساليات أمريكية عاكفة علىٰ منح المومسات السابقات ملاذًا آمنًا وفرصة لتعلّم المهارات المهنية اللازمة لتمكينهن من إعالة أنفسهن. التقيت بفتاة في المركز كان أبوها المدمن علىٰ تعاطي الأفيون قد باعها وهي في الثامنة من العمر. ولكنها ما لبثت، بعد بضع سنوات، أن هربت وعادت إلىٰ البيت، لتُباع هٰذه المرة إلىٰ بيت للدعارة. وقد كانت الآن وهي في الثانية عشرة من عمرها تحتضر تحت وطأة مرض الإيدز في المركز. كان جلدها يتدلىٰ عن عظامها، وقد راقبتُها بأسى شديد وبعجز وهي تستجمع كل ما لديها من قوة لتلم يديها الصغيرتين معًا تعبيرًا عن الترحيب التايلاندي التقليدي عندما اقتربت منها. ركعت بجانب كرسيها، وحاولت أن أكلمها من خلال أحد المترجمين. لم تكن تقوىٰ علىٰ الكلام. كل ما استطعت فعله هو أنني أمسكت بيدها. ما لبثت أن رحلت عن الدنيا بعيد زيارتي.

في جولة علىٰ قرية محلية، شاهدت أدلة مزعجة علىٰ اقتصاد العرض والطلب المحلي الذي ساق هٰذه الفتاة إلىٰ حتفها. شرح لي أدلائي أن كل بيت يعلو سقفه المصنوع من القش هوائي للتلفزيون يئوي عائلة غنية - وكان هٰذا يعني، في الأغلب، أنها عائلة كانت قد باعت إحدىٰ بناتها إلىٰ تجار البغاء. أما العائلات القابعة في الأكواخ الترابية الفقيرة غير المجهزة بأجهزة التلفزيون، فهي إما رافضة لبيع البنات أو ليس لها بنات.

---

(١) «تاريخ عشته» ص ٤٦٥ .

وجاء في مجلة حصاد الأخبار[١] ص ٩٦ تحت عنوان: «أوروبا تكافح الاتجار بالنساء»

قالت عضو في المجلس النيابي الأوروبي: إن المجلس يعتزم مواصلة الضغوط علىٰ الاتحاد الأوروبي للتوصل خلال الرئاسة الأيرلندية إلىٰ إجراءات فعالة لمكافحة «الاتجار بالنساء».

وأوضحت رئيسة منظمة «النساء الاشتراكيات الديمقراطيات» في ألمانيا وأوروبا كارين يونكر، في مؤتمر صحفي في بون أمس أن المعلومات المتوفرة لدىٰ مفوضية الاتحاد الأوروبي تفيد أن عدد النساء اللواتي يرغمن علىٰ ممارسة الرذيلة في دول المنظمة الإقليمية الأوروبية يصل إلىٰ نصف مليون امرأة.

وذكرت يونكر أن معظم هؤلاء النسوة هن من خارج دول الاتحاد الأوروبي «من البلدان النامية ومن دول أوروبا الشرقية والوسطىٰ» مشيرة إلىٰ أن ثلاثة أرباع أولئك النساء في ألمانيا أجنبيات، وبخاصة من بولندا وتشيكيا وتايلاند.

وقالت: إن الأغلبية الساحقة تستدرج إلىٰ الاتحاد الأوروبي بوعود مغرية «أو يتم شحنهن بالطائرة عبر مطاري أمستردام أو كوبنهاجن».

وكشفت النقاب عن أن ٨٠٠ ألف فتاة أو امرأة يضطررن سنويًا إلىٰ الهجرة من أوطانهن بحثًا عن العمل، مشيرة إلىٰ أنه كان هناك في أواخر العام الماضي أكثر من ١,٥ مليون امرأة وبخاصة من أندونيسيا وسريلانكا وتايلاند والفلبين يعملن في الخارج في ظروف أشبه بالعبودية.

وأكدت يونكر استنادًا إلىٰ معلومات الشرطة الدولية إنتربول وجود علاقة وثيقة بين الاتجار بالنساء وغيرها من قطاعات الجريمة المنظمة كالمخدرات

---

(١) المطبوعة: الخليج، العدد: ٦٢٨٠، بتاريخ: ١٢:٣:١٤١٧هـ.

وتجارة السلاح والتزوير وغسل الأموال.

وأشارت يونكر إلىٰ منظمات شبيهة بعصابات المافيا تشرف علىٰ أسواق النساء في دول الاتحاد الأوروبي.

وعرضت جانبًا من الحرب المألوفة بين هٰذه العصابات مشيرة إلىٰ العثور على جثث خمس نساء ومدراء عملهن مقطعة الأوصال في إحدىٰ ضواحي فرانكفورت العام الماضي.

ودعت إلىٰ تشكيل قوة علىٰ مستوى الاتحاد الأوروبي تتولىٰ التنسيق بين جمعيات الغوث والشرطة والقضاء وهيئة الأمم المتحدة وحكومات الضحايا، ووضع تقارير دورية ترفع إلىٰ البرلمان الأوروبي والمجالس النيابية في الدول المعنية.

وجاء في جريدة «النور» العدد (١٥٦) ما يلي:

٩٠ امرأة تغتصب قبل انتهائكم من قراءة «تأملات» من الآن وحتىٰ انتهائكم من قراءة تأملات هٰذا العدد تكون امرأة أو فتاة اغتصبت في ألمانيا.

فقد قالت خبيرة ألمانية في علم النفس أنه يتم في ألمانيا اغتصاب امرأة أو فتاة كل ثلاث دقائق، وأن نحو **٢٠** ٪ فقط من هؤلاء يرفعن شكاوىٰ علىٰ المعتدين عليهن!

لماذا لا ترفع الثمانون بالمائة الباقيات شكاوىٰ علىٰ المعتدين عليهن؟! رأفة بهم؟ سترًا على أنفسهن؟ خشية من انتقام المعتدين؟

السبب هو ما تعلنه الخبيرة النفسية نفسها واسمها يتا مارتسيل عبر نقدها للسلطات المختصة لتأخيرها الإجراءات القضائية اللازمة للمضي قدمًا في الدعاوىٰ.

تنتقد الخبيرة أسلوب التحقيق الذي يعتمده القضاة والادعاء العام ورجال الشرطة مع الضحايا، مشيرة إلىٰ أن هٰذه السلطات تجري معهن تحقيقات شاملة، وبصورة متكررة، مما يسبب لهن أضرارًا نفسية.

وتكشف عن أن ٥٢٪ فقط ممن يشتبه في قيامهم باعتداء جنسي علىٰ النساء يحالون إلىٰ القضاء.

إن النتيجة الأولىٰ التي يخرج بها قارئ الخبر السابق هي أن المرأة مظلومة سواء من المجرمين الذين يغتصبونها، أو من رجال الشرطة الذين يحققون معها، وهم يطلبون من النساء المغتصبات رواية ما جرىٰ لهن بالتفصيل، مرة واثنين وثلاثًا، أو من ذل الادعاء العام الذين يطلبون منهن حكاية حوادث الاعتداء وكيف تمت! أو من القضاة الذين يطلبون للمرة السابعة أو الثامنة أو العاشرة إعادة رواية أحداث الجريمة التي أحدثت في المرأة المعتدىٰ عليها من الآلام الجسدية والنفسية ما تريد نسيانه..

أفنعجب بعد هٰذا إذا علمنا أن ٨٠٪ من المعتدىٰ عليهن يؤثرون حمل آلامهن معهن وكتمانها في أنفسهن علىٰ التوجه إلىٰ السلطات لرواية ما حدث لهن مرات عدة أمام الرجال الذين لا نعلم كيف يستمعون، وبم يعلقون، وأي تعابير علىٰ وجوههم يُظهرون؟!.

وليت القضاء ينتصف لهن بعد ذلك، فحوالي نصف هؤلاء المجرمين لا يحالون إلىٰ القضاء، وإذا أحيلوا إلىٰ القضاء لم يتلقوا الرادع، ولهٰذا نجد كثيرًا منهم يخرجون من السجن؛ ليكرروا جرائمهم مرات كثيرة، دون حساب لجزاء، أو خوف من عقاب.

وإذا كانت امرأة أو فتاة اغتصبت في ألمانيا فإن هناك ١٢ امرأة اغتصبت في أمريكا خلال المدة نفسها، وإذا أردتم إحصائية علىٰ مستوىٰ العالم كله فإن هناك تسعين امرأة اغتصبت في العالم كله خلال نفس الفترة، أي أن هناك امرأة أو فتاة في العالم تغتصب كل ثانيتين.

أهٰذا تحرير للمرأة أم قهر وإذلال وإيلام وإحزان لها؟ أتكون الضوابط الإسلامية بعد هٰذا قيودًا، أم هي أسوار حماية وسيج وقاية تحفظ المرأة من الرجال المفترسين؟! تحفظها عزيزة مصانة، آمنة، هانئة.

أليست هٰذه هي الحرية الحقيقية؟!

ويقول الأستاذ/ محمد رشيد العويد[١]:

مما يساعد علىٰ ٱستشراء الٱغتصاب: تلك القوانين الوضعية التي ترأف بحال الرجل المغتصب أكثر مما ترأف بحال المرأة المغتصبة.

نعم، القوانين الوضعية لا تُعاقب المغتصب العقاب الذي يستحقه، ومن ثم لا يرتدع غيره عن ٱرتكاب الٱغتصاب.

إن الذين يرون في حدود الإسلام- كالجلد والرجم- قسوة، لا ينظرون إلىٰ القسوة التي تلحق بالمرأة المغتصبة.

كيف يريدون أن تتعاطف شريعة الله مع مجرم ٱعتدىٰ علىٰ ٱمرأة فآذاها، في نفسها وجسدها وعرضها، ولا تتعاطف مع المرأة المعتدىٰ عليها؟!

إن جلد المغتصب أو رجمه يُعد رأفة حقيقية بالمرأة، رأفة تتجلىٰ في أمرين؛ أولهما؛ إحساسها بأنه ٱنتقم لها من ذاك المجرم الذي ٱعتدىٰ عليها، وهٰذا يشفي صدرها ويخفف عنها. وثانيهما: أن غيره سيحسب ألف حساب قبل أن يعتدي علىٰ ٱمرأة أخرىٰ، وهٰذا حماية حقيقة لسائر النساء.

ولعلنا ندرك عظمة التشريع الإسلامي، حين نطَّلع علىٰ معاناة المرأة في العالم، من تلك القوانين الوضعية التي لا توفر الحماية الكافية لها.

في إيطاليا مثلًا، جدَّدت جمعيات الدفاع عن المرأة، والاتحادات النسوية في روما، مطالبها للحكومة الإيطالية بسن قانون متكامل للحد من أعمال العنف الجنسي.. وكافة أشكال العنف بحق المرأة.

وتطالب نساء إيطاليا بهٰذا القانون منذ ١٢ عامًا، حيث نوقش في البرلمان عشرات المرات دون أن يوافق عليه.. لخلافات بين الأحزاب الإيطالية.

---

(١) «إنهم يتفرجون علىٰ ٱغتصابها» ص٥-٦.

وأمام تصاعد عمليات العنف ضد النساء؛ طلبت عدة نائبات في البرلمان سن قانون يحول جريمة العنف بحق المرأة إلىٰ جريمة عنف بحق شخص وليس مخالفة أخلاقية فقط.. كي يعاقب القانون مرتكبي هٰذه الحوادث وفقًا لنظم وقوانين الجنايات.

واضح من هٰذا الخبر أن جريمة العنف بحق المرأة في القانون الإيطالي تُعد مخالفة أخلاقية! وليست جريمة جنائية!

كيف يتحدثون بعد هٰذا عن تحرير المرأة وقد حرموها الأمن، وسهّلت قوانينهم الٱعتداء عليها واغتصابها؟!

أليس الإسلام الذي يُشدد في عقوبة الرجل المعتدي علىٰ المرأة هو الحامي الحقيقي لها؟ المحرر لها من قيود الخوف، والرعب، والخطر؟

تُرىٰ هل تطالب غير المسلمات بتطبيق شريعة الإسلام في مجتمعاتهن حين يعلمن ما توفره لهن من حماية من الرجال المعتدين؟!

ولعل الجميع يتفقون معي في أنه قلما تعتدي النساء علىٰ الرجال، في العالم كله، إذ إننا لن نجد بين كل عشرة آلاف رجل يعتدون علىٰ النساء.. أكثر من ٱمرأة واحدة تعتدي علىٰ رجل .. وربما تكون النسبة أقل من ذلك.

وحين يكون الحال هكذا.. فإن القانون المتراخي في معاقبة من يقوم بالاعتداء الجنسي والاغتصاب يكون قانونًا منحازًا إلىٰ الرجل.. والقانون الحازم في معاقبة من يقوم بالاعتداء الجنسي والاغتصاب يكون منصفًا للمرأة وغير منحاز للرجل ضدها.

«لقد دفعت آلاف عمليات الٱغتصاب -التي تقع النساء ضحية لها كل يوم- إلىٰ قيام جمعيات تحاول الوقاية من الٱغتصاب، ومكافحته، وإبعاد شبحه عن النساء.

من هٰذه الجمعيات: جمعية تأسست في باريس ٱسمها «الجمعية النسائية لمكافحة الٱغتصاب». دعت هٰذه الجمعية إلىٰ إخضاع مرتكبي الجرائم

الجنسية لـ (علاج إلزامي قبل سنة علىٰ الأقل من مغادرتهم السجن، وإلىٰ ٱتخاذ تدابير متابعة قضائية وعلاجية بعد الإفراج عنهم).

وأعلنت الجمعية أن الوقاية من الٱعتداءات الجنسية، ومنع تكرارها علىٰ الأقل، باتت أمرًا ملحًا.

وطالبت الجمعية- التي تتلقىٰ منذ تأسيسها قبل ١٠ سنوات ألفًا إلىٰ ألف ومائتي ٱتصال من ضحايا الجرائم الجنسية- بإعداد برامج للوقاية من التجاوزات الجنسية وتلقينها الأطفال منذ نعومة أظفارهم.

ماذا تعني مطالبات الجمعية النسائية لمكافحة الٱغتصاب؟

أولاً: أن الٱغتصاب بات أمرًا مقلقًا جدًا للمرأة، ومصدرًا خطرًا عليها، وليس مجرد مخالفات أخلاقية كما تصر علىٰ النظر إليه بعض القوانين الوضعية.

ثانيًا: مطالبة الجمعية بإخضاع مرتكبي الجرائم الجنسية لعلاج إلزامي قبل مغادرتهم السجن تؤكد أن العقوبات التي توقعها القوانين هناك غير رادعة، بينما حدود الإسلام لن تسمح لمرتكب جريمة الٱغتصاب بتكرارها.

ثالثًا: دعوة الجمعية إلىٰ إعداد برامج للوقاية من التجاوزات الجنسية، وتلقينها الأطفال منذ نعومة أظفارهم، إنما هي دعوة إسلامية في حقيقتها.. فالإسلام يربي الأطفال علىٰ العفة منذ الصغر، ويبعد الفتية عن الفتيات، ويأمر البنات بارتداء الحجاب منذ البلوغ في توجيه بليغ إلىٰ حماية المرأة من أي ٱعتداء.

أيتها المرأة في كل مكان: الإسلام وحده يحميك[1].

مما يزيد في فظاعة الٱغتصاب؛ عدم مبالاة من يكون قريبًا من الفتاة عند الٱعتداء عليها، وعدم تقدمه لنجدتها، أو إبلاغ الشرطة لإنقاذها، أو

---

(١) «إنهم يتفرجون علىٰ ٱغتصابها» ص ٢٩- ٣٠.

ولعله أضعف الإيمان، عدم الموافقة علىٰ الشهادة معها بما رأته عيناه.

هٰذه واحدة من جرائم الٱغتصاب التي زاد من فظاعتها أنها جرت في أثناء فترة الزحام دون أن يهب أحد لنجدة الفتاة التي كانت ضحية لها:

تعرضت فتاة بريطانية إلىٰ ٱعتداء جنسي في عربة أحد قطارات الأنفاق في لندن أثناء فترة الزحام دون أن يهب أحد من المسافرين لنجدتها.

إذ ورد أن الفتاة البالغة من العمر ١٥ عامًا، كانت تنتظر القطار في محطة «برينت كروس» في شمال لندن، وذلك في الساعة الثامنة من صباح ذلك اليوم. وكانت الفتاة تعتزم ركوب قطار متجه إلىٰ الشمال حيث مدرستها عندما دفعها رجل داخل قطار متجه إلىٰ الجنوب علىٰ خط «نورذرن لاين» لقطارات الأنفاق في العاصمة لندن. وداخل العربة كان هنالك رجل ثان، فجرّها الرجلان إلىٰ عربة في الجزء الخلفي من القطار وتحرشا بها جنسيًا إلىٰ أن وصل القطار المحطة التالية حيث نزل المجرمان ولاذا بالفرار.

وورد أن الفتاة كانت تصرخ باكية طالبة النجدة من بقية المسافرين.. ولٰكن دون جدوىٰ! كما أنها طلبت من مسافر كان يجلس في العربة الخلفية حيث تحرش بها الرجلان مساعدتها في تقديم بلاغ إلىٰ الشرطة عن الحادث بصفته كان شاهدًا، إلا أن الرجل رفض طلبها.. ونزل أيضًا من القطار في المحطة التالية.

وقال متحدث باسم الشرطة: إن الفتاة تعاني الآن من صدمة نفسية شديدة من هول الحادث الذي تعرضت له، ومن عدم ٱكتراث أي من المسافرين بصراخها، مضيفًا أنها تخشىٰ الذهاب إلىٰ المدرسة.

هكذا يصمون آذانهم عن سماع صراخ فتاة تغتصب في حضورهم.. دون أن يقوموا بأي عمل من أجل إنقاذها.

حاولوا أن تفكروا قليلًا، وتعيشوا أحاسيس فتاة في الخامسة عشرة من عمرها، متوجهة إلىٰ مدرستها، يعتدي عليها رجلان، في وضح النهار، وسط

ركاب (رجال)! لا يكترثون بما يحدث لها!!

(صدمة نفسية) و(خشية من الذهاب إلىٰ المدرسة) من الآثار التي خلفها ٱعتداء الرجلين عليها، وتخلف الآخرين عن إغاثتها، أفلا يكفي هٰذا لمنع الٱختلاط في كل مكان؟![1]

إلىٰ متىٰ يستمر الأذىٰ النفسي الذي يلحق بالمغتصبة؟ هل يستمر يومًا؟ أسبوعًا؟ شهرًا؟ سنة؟ أكثر من ذلك؟

وإلىٰ أي مدىٰ يبلغ هٰذا الأذىٰ بالمغتصبة؟ هل يبلغ بها إلىٰ حد الكآبة؟ إلىٰ حد الحزن؟ إلىٰ حد العزلة والانطواء؟ إلىٰ حد التفكير في الٱنتحار والإقدام عليه؟

جاء في دراسة نشرت في مجلة «محفوظات الطب النفسي العام» أن النساء اللواتي تعرضن إلىٰ ٱعتداءات جنسية قبل سن السادسة عشرة هن أكثر ميلًا إلىٰ الٱنتحار من بقية النساء.

ولاحظت الدراسة التي أعدها باحثو المركز الطبي في جامعة «ديوك» في «كارولينا الشمالية»، وشملت ٢٩١٨ ٱمرأة تعرضن لاعتداءات جنسية في شبابهن المبكر، أن ١٤,٩ في المائة منهن حاولن الٱنتحار، بينما تتدنىٰ هٰذه النسبة إلىٰ ١,٤ في المائة عند من لم يتعرضن لمثل هٰذه التجربة.

ويؤكد «جوناثان ديفيدسون» الباحث في مركز علم النفس والسلوك أن هناك علاقة واضحة بين محاولات الٱنتحار والتعرض لاعتداءات جنسية في سن مبكرة.

هل رأيتم كيف أن من حاولن الٱنتحار ممن تعرضن لاعتداءات جنسية هن عشرة أضعاف من لم يتعرضن لهٰذا الٱعتداء؟!

ألا يشير هٰذا إلىٰ أن جريمة الٱغتصاب تحفر في أعماق نفس المرأة

---

(١) «إنهم يتفرجون علىٰ ٱغتصابها» ص٣١-٣٢ .

أخاديد ألم لا يمحوها مرور الزمن؟!!

قد يحاول بعض المماحكين أن يفسر جريمة الاغتصاب بأنها نتيجة كبت جنسي، ومن ثم فهو يدعو إلىٰ مزيد من التحلل والإباحية للتخفيف من هٰذا الكبت المسبب للاغتصاب.

وهٰذه دعوىٰ باطلة؛ لأن المجتمع الغربي الذي تتزايد فيه جرائم الاغتصاب بلغ درجة من التحلل والإباحية لم يبلغها مجتمع آخر.

كما أن المجتمعات المسلمة رغم عدم تمسكها التام بالإسلام تندر فيها جرائم الاغتصاب مع قلة التحلل والإباحية.

وهٰذا ما أكدته الدراسات ومنها دراسة للباحثة «بيغي ريفزساندي» التي وصلت إلىٰ أن الاغتصاب استجابة لتنظيم اجتماعي معين لا حاجة بيولوجية. ووجدت من مقارنة معلومات عن ١٥٦ مجتمعًا، أن السلوك الجنسي عند الإنسان يتخذ صورًا ثقافية معينة، حتىٰ ولو كان حاجة جنسية.

إن نصف المجتمعات التي تناولتها الدراسة المذكورة لا أثر فيها للاغتصاب، أو أنه نادر فيها، في حين أن النصف الآخر منقسم بين اعتبار الاغتصاب تدبيرًا اجتماعيًا لتهديد المرأة أو معاقبتها وبين اعتباره ظاهرة ولو أنه محدود.

لم يكن للاغتصاب أثر في ٤٧٪ من هٰذه المجتمعات، ومحدود في ٣٦٪ منها، وقائم فعلًا في ١٧٪ منها[1].

وقد نظم بوليس العاصمة البريطانية لندن حملة توعية مكثفة لتشجيع النساء علىٰ تعلم فنون الدفاع عن النفس، واتخاذ مواقف إيجابية بدلًا من الاستسلام عندما يتعرضن لهجوم الرجال، وذلك في أعقاب الإعلان عن ارتفاع عدد جرائم العنف والاغتصاب في شوارع «لندن» بنسبة ١١٪ خلال

---

(١) «إنهم يتفرجون علىٰ اغتصابها» ص٢١-٢٢ .

عام واحد.

وتهدف الحملة التي تستعين بكتيب مصور وشريط فيديو إلىٰ تعليم المرأة في البداية كيفية حماية نفسها من الأخطار المحتملة التي قد تواجهها في الشارع. ثم بعد ذلك تتعلم كيفية ٱستخدام القوة لشل حركة المهاجم والسيطرة عليه.

وقد جاء في مقدمة الكتيب أن بعض المهارات البسيطة يمكن أن تكسب المرأة القدرة علىٰ الدفاع عن نفسها بل وإنقاذ حياتها.

ويؤكد الكتيب علىٰ أن ٱستخدام القوة هو الحل الأخير أمام المرأة؛ لأن هناك وسائل أخرىٰ يمكن أن تلجأ إليها في البداية. فمن وسائل الدفاع عن النفس كما يقول الكتيب: أن تمشي المرأة في الشارع مع مجموعة؛ فهٰذا أفضل من أن تكون وحيدة. كما أن المكان المزدحم أفضل لها من المكان المنعزل، فهي في كلتا الحالتين تشعر بالاطمئنان والثقة.

ويضيف الكتيب أن كثيرات من النساء اللاتي تعرضن لاعتداءات كن فوق الستين .

أول ما تعنيه تلك الحملة المكثفة التي نظمها البوليس البريطاني أن هناك إحساسًا عامًا بعدم الأمن تحس به النساء، ويدركه المجتمع الذي يعشن فيه وفي مقدمته رجال الشرطة المسئولون عن توفير الأمن.

وإذا فقدت المرأة الأمن فقدت أهم أساس من أسس الحرية الحقيقية.. إذ كيف للخائف أن يكون حرًّا وهو أسير مسلوب الأمن؟!

ويدعو الكتيب -الذي أصدرته الشرطة- المرأة إلىٰ أن تمشي في الشارع مع مجموعة.. فهٰذا أفضل من أن تكون وحيدة. ألا يشبه هٰذا ما يوجبه الإسلام علىٰ المرأة من عدم سفرها إلا ومعها محرم؟!

وإذا كان الخبر يشير إلىٰ ٱرتفاع جرائم الٱغتصاب بنسبة ١١٪ في «لندن»، فإن تقريرًا آخر يشير إلىٰ ٱرتفاعها في بريطانيا بنسبة ٨٨٪ خلال عام

واحد. علىٰ أي حال وإن ٱختلفت النسبتان فإنهما تعنيان أن جرائم الٱغتصاب في ٱزدياد.. أي أن ضحياته في ٱزدياد.. النساء اللواتي يُهن، ويُجرحن، ويُؤذين، ويُقهرن.. في ٱزدياد. فأين الحرية؟ وأين الأمن؟ وأين السعادة في غياب الحرية والأمن والكرامة[1]؟!!!

وتأملوا معي أوصاف تلك الجريمة.

مكان الجريمة: لندن.

زمانها: ساعة متأخرة من الليل.

ضحيتها: فتاتان.

نوعها: ٱغتصاب.

المجرمون: ٦ أو ٧.

الشهود: عشرون!!

هل تكفي هٰذه المعلومات لبيان بشاعة هٰذه الجريمة وما تثيره في النفس من غضب وألم وأسىٰ؟

لنقرأ الخبر الذي نقلته وكالة أنباء «رويترز» عن هٰذه الجريمة:

(أعربت شرطة لندن عن غضبها من ٱغتصاب جماعي لفتاتين، علىٰ مرأىٰ حشد من الناس؛ قام بعضهم بطرح الفتاتين أرضًا).

(وقال الضابط «فيل كينت»: للأسف فقد صادفت حوادث مثل هٰذه من قبل، ولٰكن عدد المتفرجين الذي كان في هٰذه الحادثة غير عادي)!

(وقالت الفتاتان: إن نحو ٢٠ شخصًا شاهدوا عملية ٱغتصابهما، بعد أن خطفتا من أمام أحد مطاعم «مكدونالد» في ساعة متأخرة من ليل الأربعاء الماضي، وقام ستة أو سبعة شبان باغتصابهما في أحد الأزقة).

---

(١) «إنهم يتفرجون علىٰ ٱغتصابها» ص٣٣-٣٤ .

١- «أعربت شرطة لندن عن غضبها»! شرطة لندن وحدها أعربت عن غضبها!

إن مثل هٰذه الجريمة كان يجب أن تغضب المجتمع البريطاني كله، والمسئولين البريطانيين جميعهم، وكل فرد بريطاني.. ولا ينطفئ غضب أحد حتىٰ يُعلق المغتصبون علىٰ أعواد المشانق، ويعاقب المتفرجون عقابًا يستحقونه ويكون فيه عبرة لغيرهم.

٢- يقول الضابط «فيل كينت»: إنه صادف حوادث مثل هٰذه من قبل، وهٰذا يعني أن هٰذه الجريمة البشعة ليست فريدة؛ فإذا كان ضابط واحد قد صادف عدة جرائم مثل هٰذه.. أفليس عددها كبيرًا في بريطانيا كلها؟!

٣- إذا منعنا النساء والفتيات من الخروج من بيوتهن ليلًا، حماية لهن وحفظًا، ملؤوا الدنيا صراخًا يندبون فيه المرأة التي يريد (الرجعيون) حبسها في البيت.. أما حين تغتصب الفتاتان في ساعة متأخرة من الليل- كما جاء في الخبر- فإن (الرجعيين) لا يستطيعون أن يصرخوا: يا من أخرجتم المرأة من بيتها، أين أنتم لتدافعوا عنها وتحموها بدلًا من أن تتفرجوا علىٰ ٱغتصابها؟!!

حتىٰ المرأة المريضة الفاقدة لوعيها لم تسلم من الٱغتصاب.

يقول الأستاذ/ محمد رشيد العويد[1]:

ماذا يقولون لو طالبنا بمستشفيات خاصة بالنساء، ليس فيها أحد غير النساء: لا أطباء، ولا ممرضين، ولا مرضىٰ بل طبيبات، وممرضات، ومريضات؟

هل سيقولون: عقلية مغلقة؟ تخلف ورجعية؟ عُقد وأوهام؟ ليقولوا ما يقولون؛ لأن هٰذا أحفظ للمرأة، وآمن لها، وأكثر حرية.

---

(١) «إنهم يتفرجون علىٰ ٱغتصابها» ص٤٧ .

ولعل ما ضمه هٰذا الكتاب الصغير من جرائم ٱغتصاب وقعت في المستشفيات يكفي ليؤيد كل عاقل إقامة هٰذه المستشفيات الخاصة بالنساء، فكيف وجرائم ٱغتصاب النساء في المستشفيات أكثر بكثير.

والمأساة التي سأعرضها في الأسطر التالية تؤكد هٰذه الحاجة إلىٰ تلك المستشفيات غير المختلطة.

المأساة أحدثت إحساسًا أشبه بالصدمة، وأثارت غضب المواطنين في أمريكا. إنها قصة فتاة أصيبت في حادث سيارة جعلتها تعيش في غيبوبة لا تفيق منها مند عام ١٩٨٥ قضتها في غرفة للعناية الخاصة بأحد المستشفيات الأمريكية يعرف باسم «مركز ويست فول الطبي».

لم تنته مأساة هٰذه الفتاة بهٰذا الحادث المؤلم، فهناك وحش بشري ٱغتصبها وهي في غيبوبة، وحملت منه، ووضعت طفلها، في جريمة من أفظع وأبشع مظاهر الإجرام في هٰذا العصر.

وقف الوالدان إلىٰ جوار تلك الفتاة بعد أن وضعت طفلها، وهي ما تزال في حال غيبوبة، عيونها مفتوحة.. ولكنها لا ترىٰ شيئًا.

وقد طُرحت آراء كثيرة خلال حمل هٰذه الفتاة: هل يُحتفظ بالجنين أم يُتخلص منه؟ واختار والدا الفتاة أن يحتفظا بالطفل.. وأن يوفرا له الحماية والرعاية.

لنعد إلىٰ القصة من بدايتها. كانت الفتاة تقود سيارتها في طريقها إلىٰ الجامعة في مدينة "روشستر" قرب الحدود الأمريكية الكندية، وأرادت أن تتجنب الٱصطدام بغزال خرج إلىٰ الطريق من بين أشجار الغابة المجاورة.. فاصطدمت بشجرة، ونقلت إلىٰ مركز للرعاية، حيث كان يعودها الطبيب الخاص ليترقب ظهور علامات تدل علىٰ تحسن حالتها.

وبينما كان الأطباء يجرون ٱختبارات الدم الروتينية عليها.. فوجئوا بمؤشرات تؤكد أنها حامل، فنقلت من دار الرعاية إلىٰ أحد مستشفيات رعاية

الأمهات الحوامل وتولت الشرطة التحقيق للبحث عن الوحش البشري الذي ٱغتصبها في غيبوبتها.

عندما بدأ الأطباء في إجراء عملية قيصرية لها تبين أنها في مرحلة متأخرة من الحمل، وتقرر أن تترك لتضع طفلها بالطريقة الطبيعية.

وخرج الطفل إلىٰ الحياة وأمه مازالت في غيبوبتها تنتقل بنظراتها إلىٰ والديها وتنظر في أرجاء الغرفة دون أن يبدو عليها ما يدل علىٰ إدراكها لما يدور حولها.

لجأ الوالدان إلىٰ مقاضاة «مركز ويست فول الصحي» بسبب إهماله في رعاية ابنتهم مما جعلها هدفًا للاعتداء.. أما الطفل الذي خرج إلىٰ الحياة فقد تعلقت به الآمال في أن يكون السبيل لمعرفة الجاني.

ولما كانت الأم عاجزة من أن تجيب عن أي أسئلة، أو أن توجه الٱتهام إلىٰ أحد، كان الأمل الوحيد أمام رجال المباحث هو الٱعتماد علىٰ المواصفات الخاصة بالأحماض الأمينية الجينية لذلك الطفل باستخدام أسلوب DNA؛ فالطفل يحمل الصفات الوراثية لوالده الذي ٱغتصب تلك الفتاة.

قام المحققون ورجال المباحث بإجراء تحاليل لدماء العاملين في «مركز ويست فول الصحي»، وقد ٱنحصرت شبهاتهم في ممرض يدعىٰ «جون هوراس». وضاعف من الٱشتباه فيه أنه كان قد أدين في محاولة ٱعتداء علىٰ مريضة أخرىٰ في المركز نفسه. وقد ألقي القبض عليه بعد ٤٨ ساعة من خروج هٰذا الطفل إلىٰ الحياة، وهو يحاول ٱجتياز الحدود والهرب إلىٰ كندا.

حوكم «جون هوراس» عن جريمة محاولة الٱعتداء علىٰ المريضة الأخرىٰ وحكم عليه بالحبس مدة ستة أشهر، وجاء هٰذا الحكم في وقته؛ إذ يوفر لرجال الشرطة ضمانة ألا يهرب أثناء جمع الأدلة في قضية الٱغتصاب التي هم بصدد التحقيق فيها.. كما يتيح لهم أيضًا الحصول علىٰ أمر من

المحكمة لإجباره علىٰ تقديم عينة من دمه لاستخدامها في التجارب العملية التي تستهدف إثبات الصلة الجينية بينه وبين هٰذا الطفل.. وكان «جون هوراس» الوحيد الذي رفض أن يعطي عينة من دمه من بين ٧٥ مشتبهًا فيهم ٱستجوبتهم الشرطة أثناء التحقيق.. وهم جميعًا من العاملين في هٰذا المركز الصحي.

ووفق المحققون في التوصل إلىٰ شاهدة يمكنها أن تدلي بأقوال تدين ذلك المجرم، وهي مريضة أخرىٰ كانت تعاني بدورها من حالة العجز التام إثر إصابات لحقت بها في حادث سيارة، وقد ظهرت دلائل تؤكد أن هٰذه المريضة كانت في وضع يسمح لها بمشاهدة الجريمة وقت ٱرتكابها.. إذ كانت في غرفة الفتاة نفسها.

وأثارت هٰذه الجريمة جدلًا ونقاشًا في الأوساط الطبية والعلاجية في أمريكا بعدما ٱتضح أن جريمة الٱغتصاب وقعت في حمام خاص بغرفة الفتاة المغتصبة. فالمتبع هناك أن يقوم الممرضون بغسل أجساد المريضات علانية علىٰ مرأىٰ من الآخرين.. ومن المرجح أن الجاني ٱرتكب جريمته في هٰذه الأثناء. وكان «جون هوراس» مطلق السراح بكفالة مالية بالنسبة إلىٰ جريمته الأخرىٰ عندما ٱتصلت إحدىٰ السيدات بالشرطة لتبلغهم أن «جون هوراس» حجز لنفسه تذكرة للسفر بالطائرة باسم «جون لاشر» قاصدًا مدينة «كويبك» الكندية.. فأسرعت الشرطة إلىٰ ضبطه.

في الوقت الذي كانت فيه شرطة مدينة «روشستر» تجمع الأدلة العلمية ضد المتهم؛ ظهر المزيد من الدلائل علىٰ ٱتهامات بممارسات جنسية أخرىٰ للمتهم نفسه، كما بدأت ٱتصالات من محامي «مركز ويست فول» للتوصل إلىٰ تسوية مع أسرة المجني عليها لدفع تعويض معقول!

هكذا تقوم جريمة الٱغتصاب هٰذه دليلًا آخر علىٰ خطورة الٱختلاط في كل مكان، فحتىٰ المستشفىٰ الذي يفترض أن يكون آخر مكان يرتكب فيه الٱغتصاب.. تتم فيه هٰذه الجريمة، ومع من؟ وممن؟ مع مريضة لا تملك قوة

تدافع بها عن نفسها، ومن ممرض يفترض أن يخفف عن مرضاه آلامهم لا أن يزيدهم ويزيد ذويهم ألمًا ومعاناة وقهرًا.

لقد جاء أن الشرطة ٱستجوبت ٧٥ رجلًا مشتبهًا فيهم وهم جميعًا من العاملين في هٰذا المركز الصحي.. ألا يعني هٰذا أن كل رجل شمله ٱحتمال بأن يكون هو المرتكب لجريمة الٱغتصاب.. وأن منع الرجال من العمل في مستشفىٰ ليكون خاصًا بالنساء إنما هو عامل وقاية فعال؟!

كيف يقوم ممرضون بغسل أجساد المريضات؟ كيف يسمح لهم برؤية النساء عرايا؟ أليسوا رجالًا فيهم غرائز؟ ألا تظهر هنا عظمة الإسلام الذي يحرم هٰذا كله؟!

وأريد أن أسأل كل من يعارض تخصيص مستشفيات للنساء لا يعمل فيها الرجال: أما كنت تتخلىٰ عن معارضتك تلك إذا ما كانت تلك المريضة المعتدىٰ عليها.. زوجتك، أو ابنتك، أو أختك، أو أمك.

هل ترضىٰ وتتنازل إذا جاءك محامي المستشفىٰ يعرض عليك التنازل عن قضيتك لقاء مال يُدفع إليك كما فعل محامي "مركز ويست فول" حين عرض دفع (تعويض معقول) من أجل تسوية مع أسرة المجني عليها؟!

ضعوا أنفسكم مكان الضحايا.. أو أهليهم.. ثم ادلوا بآرائكم.. وحددوا مواقفكم.

٦- قلة النسل

ومن الأخطاء المترتبة علىٰ الإباحية قلة النسل، ويذكر كتاب «التحكم في الخصوبة الإنسانية» أن الإجهاض المنتشر حاليًا قد أدىٰ إلىٰ خفض السكان بصورة أكثر بكثير من جميع وسائل منع الحمل الأخرىٰ مجتمعة.

ويقول كتاب «ممارسة منع الحمل»: (لقد شهدت بريطانيا ومعظم دول أوروبا انخفاضًا في نسبة المواليد في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين (١٨٧٠-١٩٢٠) ويرجع السبب في ذلك إلىٰ انتشار الإجهاض الجنائي بصورة ذريعة، ولم يكن الإجهاض مسئولًا عن الانخفاض في نسبة المواليد فحسب، ولكنه كان مسئولًا عن عدد كبير من وفيات النساء وعن عدد أكبر من الأمراض الخطيرة التي كانت تعتورهن بسبب ممارسة الإجهاض.

ويذكر الكتاب أن حجم العائلة في الولايات المتحدة انخفض من ٧,٠٤ عام ١٨٠٠م إلىٰ ٣,٥٦ عام ١٩٠٠ بسبب ممارسة قتل المواليد والإجهاض الجنائي بكثافة).

جاء في جريدة «الوطن»[1] ما يلي:

ورد في بحث نشرته دائرة المعارف النصرانية وأجرته حركة التنصير العالمي أن المسلمين ينمو عددهم بمعدل ٢١,٥ مرة أكثر من النصارىٰ في العالم، فقد زاد عدد المسلمين في العالم من ١٥,٣٪ من سكان العالم وعددهم ٣,٧ بليون في عام ١٩٧٠م إلىٰ ١٩,٦٪ من سكان العالم اليوم ويقدر عددهم بـ ٥,٨٩ بليون نسمة وبذلك تكون نسبة نمو عدد المسلمين ٤,٢ ٪.

وفي الفترة نفسها زاد عدد النصارىٰ في العالم من نسبة ٣٣,٧٪ من سكان العالم عام ١٩٧٠م إلىٰ ٣٣,٩٪ حاليًا وبذلك تكون نسبة الزيادة ٠,٢٪.

فزيادة العدد مطردة لدىٰ المسلمين، ويحرَم منها الغربيون. ويقول

---

(١) العدد (٧٦٥٢).

فلاسفتهم في ذلك: إن الترف والاختلاط المتصل يُضعف الشهوة ويقلل النسل، ومن هنا فإن العفة عند المسلمين كانت من أسباب الخصوبة الجنسية، والإحصائيات تذكر أن لدىٰ مصر أعلىٰ نسبة خصوبة في العالم، وكان المحللون الغربيون يرون في القرن الماضي أن تعداد مصر سيصل إلىٰ أربعين مليونًا سنة ٢٠٣٧ م، ولٰكن تعداد مصر وصل ٦٠ مليونًا قبل نهاية القرن الحالي.

يقول الأستاذ أبو الأعلىٰ المودودي[1]:

أن تربية الأولاد عمل خلقي سام، يتطلب من المرء مغالبة النفس، وترك الأهواء والرغبات، واحتمال المتاعب والمشاق، وبذل الأنفس والأموال، فلا يمكن أن يتأتىٰ لهٰذه الخدمة السامية قوم أنانيون عبيد النفع، تغلب عليهم البهيمية وحب الذات.

فمن ستين سنة أو سبعين لا تزال الدعاية بحق حركة منع الحمل علىٰ أشدها، وقد زودت هٰذه الحركة كل رجل وكل ٱمرأة من الأمة الفرنسية بمعرفة التدابير التي يستطيع معها أن يتمتع بلذات العلاقة الجنسية ثم يتقي عاقبتها الطبيعية، أي: الحمل والتوليد، وإن من بلدة أو قرية لا تباع فيها عقاقير وآلات منع الحمل في بياض النهار حتىٰ صارت في متناول كل يد ومن نتيجة ذلك أن لم يعد ٱستعمالها مقصورًا علىٰ أهل الدعارة وحدهم، بل صار يستخدمها كثير من الأزواج المتزوجين، وأصبح من أماني كل زوجين منهم ألا يقتحم بيتهما الولد هٰذا الدغل الوبيل الذي يكدر صفة اللذات، وإن السرعة التي لا يزال ينخفض بها معدل التوليد في فرنسا قد حدس منها العلماء والأخصائيون أنه يمنع توليد ستمائة ألف نسمة - علىٰ الأقل - في كل سنة من جراء هٰذه العادة المنتشرة في البلاد.

---

(١) «الحجاب» ص٦٢-٦٤ .

وأما الحمول التي تستعصي علىٰ تلك الحيل والتدابير وتستقر فيتخلص منها بالإِسقاط، ويمنع بهٰذه التدابير أربعمائة ألف نسمة أخرىٰ من البروز .

ولا تباشر هٰذا الإِسقاط العوانس والأبكار وحدهن بل تجاريهن في هٰذه السيئة المتزوجات أيضًا علىٰ قدم المساواة، ويعد هٰذا الفعل بريئًا من كل عيب في نواميس الأخلاق، بل يعد حقًا من حقوق المرأة واجبًا، والقانون كأنه قد أغمض عينيه عنه ومع أن الفعل جريمة في سجل القانون إلا أنه لا يؤاخذ ولا يرفع إلىٰ المحكمة إلا واحد في كل ثلاثمائة من مرتكبيه، ثم إن الذين يرفع أمرهم إلىٰ المحاكم يبرأ منهم هناك قدر ٧٥ في المائة، وقد يسروا من تدابير الإِسقاط ونشروا علمها في العامة نشرًا جعل معظم النساء يباشرنه بأنفسهن، وأما اللاتي لا يقدرن عليه، فيجدن المعونة الطبية منهن علىٰ كثب، مما عاد به قتل الولد في الرحم أهون علىٰ القوم من قلع الضرس الموجع في الفم .

وقد مسخت هٰذه العقلية عاطفة الأمومة في المرأة مسخًا، جعل الأم التي ما زالت الدنيا تعتبر حنانها أسمىٰ مدارج الحب الإِنساني تتضجر من الأولاد، بل تكرههم، بل فالذين يسلمون من الأولاد من غوائل تدابير المنع والإِسقاط ويخرجون إلىٰ حيز الوجود، يعاملون بأشد ما يكون من الغلظة والقسوة، ويذكر بول بيورو هٰذه الحقيقة المؤلمة بما يأتي:

«كثيرًا ما نطلع في الجرائد علىٰ مصائب الأطفال الذين يسومهم آباؤهم سوء العذاب، وهٰذه الجرائد لا تذكر من تلكم الأحداث إلا ما يكون له خطر، ولٰكن الناس يعلمون أي قسوة يعامل بها هٰؤلاء الضيوف الثقلاء الذين قد برم آباؤهم لما هم قد نغصوا عليهم لذة الحياة .. وهٰذه الأرواح المسكينة لا تجد إلىٰ الوجود سبيلا إلا حينما تنكص بعض النساء عن الأقدام علىٰ الإِسقاط، ولٰكنهم إذا جاءوا في هٰذه الدنيا، يذوقون وبال مجيئهم فيها حق مذاقه».

وربما تبلغ هٰذه الكراهية للأولاد من بنات حواء أن يأتين بالمضحكات

المبكيات، فقيل إنه مات لامرأة ابن ستة أشهر، فوضعت نعشه بين يديها ورقصت بالفرح وغنت، ثم طافت بجاراتها تقول: «إنا لن نلد ولدًا آخر بعده ويا راحة نفس بعلي من موت هٰذا العليق، أفلا ترين أي مخلوق هو هٰذا الذي لا ينقطع عن البكاء، ويظل يبث القذر في الفناء، يكاد المرء لا يتخلص منه أبدًا».

وأدهىٰ من ذلك وأمر أن قتل الأولاد هٰذا سائر إلىٰ الزيادة والانتشار بسرعة عظيمة، والحكومة الفرنسية ومحاكمها متهاونة مستخفة بهٰذه الجريمة الفظيعة كصنيعها في إسقاط الحمل، فقد رفع إلىٰ محكمة (لوران) فتاتان قتلتا أولادهما، ولكنهما أعفيتا من العقوبة، وكانت إحداهن قد أهلكت ولدها بالإغراق علىٰ حين كان أقاربها لا يزالون يربون ولدًا سابقًا، وكانوا مستعدين لتربية هٰذا الآخر، ولٰكن الظالمة أبت إلا أن تقتل المسكين، وارتأت المحكمة أن جرمها هين يغتفر، وأما الأخرىٰ فخنقت طفلها، ولما رأت فيه -بعد- حشاشة نفس تضطرب، رمت به عرض الحائط فشجت رأسه، وهٰذه المرأة أيضًا لم يرها القضاة الفرنسيون تستحق العقوبة أو القصاص، وفي سنة ١٩١٨ م نفسها جيء إلىٰ محكمة (سين) براقصة حاولت نزع لسان ولدها من حلقه ثم حطمت رأسه، وأخيرًا قطعت منه الوتين، ولم تكن هٰذه المرأة أيضًا مجرمة عند القضاة أو المحامين .

فهل ترىٰ من حيلة أو تدبير ينقذ من البوار أمة تمعن إلىٰ هٰذا الحد الفاحش في عدائها لنسلها؟! إن التناسل أمر لا بد منه لاطراد بقاء أمة من الأمم، فكل أمة تعادي نشأها فإنها تعادي نفسها وترمي بنفسها إلىٰ الٱنتحار، وهي تكفي بذاتها تمحو وجودها بأيديها وإن لم يكن من حولها عدو، والأمة الفرنسية - كما أسلفت - لا تزال تهبط فيها نسبة المواليد منذ ستين عامًا متوالية، ففي بعض السنين تزيد نسبة الوفيات علىٰ نسبة المواليد، وفي الأخرىٰ تتساويان وفي الثالثة لا تزيد نسبة الوفيات إلا بقليل جدًا، وبجانب

آخر، لا يزال عدد المهاجرين في فرنسا ينمو ويكثر، فكانوا قرابة ثلاثة ملايين من بين ٱثنين وأربعين مليونًا من سكان فرنسا الأصليين سنة **١٩٣١** م، وإن ٱستمرت الحال علىٰ ما هي عليه الآن، فلا يستبعد أن تعود الأمة الفرنسية، عند ختام القرن العشرين، أقلية في وطنها هي. أ هـ.

يقول الأستاذ أنور الجندي[١]:

تتحدث الأبحاث عن ظاهرة الانحسار السكاني في الغرب، وتصفها بأنها ظاهرة مخيفة وخطيرة تقلق الخبراء الاجتماعيين والسياسيين ورجال الأعمال، فأمريكا تتجه نحو حالة الصفر في النمو السكاني. فهي تقف الآن في النقطة التي يكون فيها عدد المواليد مساويًا لعدد الوفيات، وتتحدث الأبحاث عن هٰذا الخطر الهائل الذي يتهدد الولايات المتحدة والدول الغربية علىٰ بُعد بضعة أجيال، مما يؤدي إلىٰ انخفاض القوة العاملة ومما يؤدي إلىٰ ركود الإنتاج، في حين أن الدول الفقيرة تنمو نموًّا متزايدًا.

تقول الأبحاث: إن عدد سكان أمريكا **٢١٢** مليون نسمة، وأن النمو السكاني في أمريكا يصل إلىٰ درجة الصفر **(٢/ ٢)** عندما يبلغ السكان **٢٦٠** مليون نسمة. ويشارك الولايات المتحدة في هٰذه الظاهرة «السويد، وألمانيا الغربية، واليابان، وهنغاريا، ورومانيا» وأن نسبة المواليد في هٰذه الدول في هبوط مستمر منذ الحرب العالمية الأخيرة، وأن الهبوط كان هائلًا في السنوات الأربع الماضية في السويد وفنلدنا والنمسا وبلجيكا وألمانيا؛ أما هنغاريا وبريطانيا فقد بلغت درجة الصفر.

والقلق ناجم من أن القوة العاملة سوف تتضاءل في المستقبل بما يؤدي إلىٰ ركود الإنتاج، ومن أجل ذلك شددت بعض دول أوربا في قضايا الإجهاض وفرضت عقوبات علىٰ من يفعله، ومنع السوقيات من تداول

---

(١) «معلمة الإسلام» (٢/ ١١٨).

الحبوب المانعة للحمل وأعطوا إجازات أطول للزوجة الحامل.

ويوقع الخبراء أن تصل أكثر دول أوربا إلىٰ درجة الصفر في النمو السكاني في بداية القرن الواحد والعشرين، كما يرىٰ بعض الخبراء أن الانحسار السكاني إلىٰ درجة الصفر سيؤدي إلىٰ ركود اقتصادي واجتماعي خطير.

ويقول د/ حسان حتحوت[1]:

وانظر إلىٰ مسألة الإجهاض نظرة إسلامية فتطالعني بادئ ذي بدء دلالات كريمة هادية في الآيات الكريمة:

(١) ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾.

(٢) ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾.

(٣) ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ﴾.

(٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الممتحنة: ١٢].

آيات تدور كلها حول جريمة قتل الأولاد - وكلمة الأولاد تشمل الذكور والإناث، وهو قتل يشارك في ٱقترافه الرجال والنساء، ونعلم أن الجاهلية في جريمة الوأد كان رجالها وحدهم يئدون الإناث وحدهن: فمن تكون الضحايا ذكورًا وإناثًا تغدر بها الرجال والنساء جميعًا إلَّا إن كان القصد أنها الأجنة تغدر بها يد الإجهاض، ثم أنظر في الشريعة الإسلامية وموقفها من الجنين فأجد الآتي:

---

(١) «الإسلام والحضارة» (٢/ ٢٦٧).

أولاً: إذا مات رجل وظهر أن ٱمرأته حامل حجز من تركته نصيب ولده ولم يأخذ باقي الورثة أنصبتهم إلا إن تعهدوا إن وضعت المرأة أكثر من ولد أن يردوا علىٰ التوأم نصيبه.

ثانيًا: إذا حكم علىٰ ٱمرأة بالإعدام وتبين أنها حامل أرجئ تنفيذ العقوبة حتىٰ تلد، وفي رأي حتىٰ ترضع حتىٰ لو كان الجنين محمولًا من سفاح.

ثالثًا: إذا أجهض جنين في أية مرحلة من الحمل وظهرت عليه أية علامة من علامات الحياة كتحريك إصبع أو نفس أو سعلة أو عطسة أو غيرها ثم مات بعدها.. فإن هٰذا الجنين يرث أيًّا من مورثيه الشرعيين مات بعد بداية الحمل، ثم يرث الجنين ورثتُه الشرعيون.

رابعًا: في الإسلام عقوبة مالية علىٰ الإجهاض لا تجب غيرها من عقوبات التعزير علىٰ عدوان أو إصابة أخرىٰ. وهٰذه الغرامة ٱسمها "الغرة" وتبلغ عشر دية البالغ. تدفع لورثة الجنين الشرعيين. فإن كان من بينهم متسبب في الإجهاض دفع حصته من الغرامة وحرم نصيبه منها.

كل هٰذا يدل علىٰ أن من له هٰذه الحقوق فإنها تالية للحق الأصيل وهو حق الحياة. فحياة الإنسان محترمة في نظر الإسلام حتىٰ وهو جنين. أهـ.

٧- المراهقة قبل الأوان

ومن أخطار أثر الإباحية والاختلاط علىٰ الأطفال أيضًا مراهقة الصبية قبل الأوان؟

يقول الأستاذ أبو الأعلىٰ المودودي[١]:

يكتب القاضي بن لندسي Ben Lindsey الذي قد أتيح له الاَطلاع الواسع علىٰ أخلاق النشء الأمريكي، لكونه رئيسًا لمحكمة جنايات الصبيان Juvenil Court بدنور denwer يكتب في كتابه (تمرد النشء الجديد) Revolt Of Medarn Youth: إن الصبية في أمريكا قد أصبحوا يراهقون قبل الأوان، ومن السن الباكرة جدًا يشتد فيهم الشعور الجنسي).

وبحث هٰذا القاضي عن أحوال **٣١٢** صبية علىٰ سبيل النموذج، فعلم أن **٢٥٥** صبية منهن كن أدركن البلوغ فيما بين الحادية عشرة والثالثة عشرة من سني أعمارهن، يوجد فيهن من أمارات الشهوة الجنسية والمطالب الجسدية ما لا يكون عادة إلا في بنات الثامنة عشرة فمن فوقهن سنًا!) الصفحة: **٣٢٨**

وكذلك يذكر الدكتور ديث هوكر Edith Hoker في كتابه: (القوانين الجنسية) (Low of sex) أنه ليس من الغريب الشاذ حتىٰ في الطبقات المثقفة أن بنات سبع أو ثماني سنين منهن يخادن لداتهن من الصبية وربما تلوثن معهم في الفاحشة فيقول:

(بنت في السابعة من عمرها، من بيت عريق في الشرف والمجد، اَرتكبت الفحشاء مع أخيها وعدد من أصدقائه، ونفس آخر من خمسة أولاد يشتمل علىٰ صبيتين وثلاثة صبيان متجاورين متقاربي البيوت وجدوا متعلقين بعضهم بالعلاقات الجنسية، وقد حفزوا علىٰ ذلك غيرهم من الأولاد أيضًا، وكان أكبر أولئك سنًا ابن عشر سنين، وبنت أخرىٰ في التاسعة، كانت في

---

(١) «الحجاب» ص٦٥-٦٧.

ظاهر الأمر تحت رقابة شديدة، وجدت سعيدة بكونها حبيبة عشاق ذوي عدد!) .

وقد جاء في تقرير طبيب من مدينة بالتي مور Baltimore أنه قد رفع إلىٰ المحاكم في تلك المدينة أكثر من ألف مرافعة في مدة سنة واحدة، كلها في ٱرتكاب الفاحشة مع صبايا دون الثانية عشر من العمر . (الصفحة: ١٧٧) .

وهٰذا كله ثمرة بكر للبيئة المهيجة التي تتهيأ فيها عوامل الإثارة والإذكاء للعواطف من كل جانب، فيقول كاتب أميركي: (إن الأوضاع التي يعيش فيها معظم أناسنا في هٰذه الأيام تبعد عن الفطرة بعدًا يجعل الفتية والفتيات يشعرن بدبيب الحب في نفوسهن من سن الخامسة عشرة وساء ذلك مصيرًا؛ لأن هٰذا الولوع بالأمور الجنسية الناشئ فيهم قبل الأوان قد يعود عليهم - بل هو دائمًا يعود - بأسوأ ما يكون من النتائج، وأهونها أن البنات في سن الصبا يفرون من أخدانهن أو يتزوجن في السن الباكرة، وينتحرن إن هن لقين في غرامهن الخيبة والفشل.

وكذلك فإن الأولاد الذين يحتد فيهم الشعور الجنسي قبل أوانه يجدون المدارس أول مجال لممارسة التجارب الجنسية، وتكون هٰذه المدارس نوعين: أحدهما المخصوصة بالجنس الواحد من الأولاد، والآخر: المختلطة.

فالنوع الأول من المدارس، تنتشر فيها سيئتا تمتع الجنس بالجنس Horno Sexuality، والاستمناء (العادة السرية) وذلك لأن العواطف التي قد أذكيت جمرتها في عهد الصبا، ثم جاءت البيئة زاخرة بأسباب إشعالها وإضرامها، لا بد أن تجد سبيلًا إلىٰ ما يسكن لهيبها ويطفئ نارها فيكتب الدكتور هوكر: إنه لا تزال تحدث في مثل هٰذه المدارس والكليات ودور التربية للممرضات والمدارس الدينية حوادث من تسافح الولدين من الجنس الواحد فيما بينهما، وقد تلاشىٰ - أو كاد - ميلهم الطبيعي إلىٰ الجنس

المخالف ويسرد في هٰذا الصدد حوادث متعددة من تلوث الصبية مع الصبية، والصبايا بالفحشاء، ومن كونهم لاقوا من وباله ما يسوء ويؤلم، ويعلم أيضًا من كتب أخرىٰ مدىٰ ٱنتشار هٰذه السيئة - مخالطة الجنس بالجنس - في الناس: فيكتب الطبيب لوري dr. Lowr في كتابه Herself أنه كتب عميد مدرسة من المدارس ذات مرة إلىٰ أربعين أسرة يفضي إليها بأن صبيانها وجدوا في حال مروعة من الدناءة الأخلاقية، فلم يعد يمكنه الآن إبقاؤهم في المدرسة .

وأما المدارس من النوع الآخر، التي يختلط فيها الطلبة والطالبات في الدرس، فتوجد فيها أسباب التهييج مقترنة بأسباب التسكين، وأن الهيجان العاطفي الذي كانت بدايته في عهد الطفولة يشتد في هٰذه المدارس ويوفي علىٰ نهايته، فأدب متناه في الخلاعة والفحش يطالعه الفتية والفتيات، وقصص غرامية ومجلات داعرة مشتملة علىٰ ما يسمونه (الفن) وكتب فاحشة فاضحة حول المواضيع الجنسية، ومقالات مملوءة بمعلومات التدابير لمنع الحمل هٰذه كلها هي أكثر ما يستهوي الطلاب والطالبات في عنفوان الشباب، ويقول المصنف الأمريكي الشهير: هاندرش فان لون (Hendrich Von Loon): هٰذا الأدب الذي كثر رواجه في الجامعات الأمريكية هو أبشع مجموعة للخنا والفحش والدناءة، لم يعرض قط مثلها علىٰ العامة قبل هٰذا، بكل هٰذه الحرية، ثم إن المعلومات التي تحصل من دراسة هٰذا الأدب، يتناولها الشباب والشواب فيما بينهم بالبحث والنقاش بما شئت من الحرية والجراءة، ثم يعالجونها بالعمل والتجربة، فيخرج الفتية والفتيات إلىٰ حفلات البهجة والأنس حيث يسترسلون في شرب الخمر والتدخين، ويمتعون أنفسهم بالرقص والغناء . ومما يخمنه القاضي لندسي الأمريكي أن خمسًا وأربعين في المائة من فتيات المدارس يدنس أعراضهن، قبل خروجهن منها،

وترتفع هٰذه النسبة كثيرًا في مراحل التعليم التالية فيكتب .

إن طالبًا في مدرسة ثانوية تكون عواطفه دون عواطف الطالبة شدة والتهابًا فالصبية هي التي تقدم أبدًا وتأمر، وما يفعل الصبي إلا أن يتبع ويأتمر.

يقول د/ محمد علىٰ البار[1]:

وقد شاهدت برنامجًا عرض في قناة I.T.V في التليفزيون البريطاني في ٥/ ٩/ ١٩٨٠م.

وقد تحدث مقدم البرنامج عن سن المراهقة، وجاء بمجموعة من المراهقين، وتحدثت فتاة في الرابعة عشرة من عمرها وقالت بفخر واعتزاز: إنَّها ورفيقاتها في هٰذه السن يعرفن الجنس بينما الصبية المراهقين في سنها لا يعرفون الجنس،!! ويا لهم من جهلة!!.

ثم تحدث فتىٰ في السادسة عشرة وقال: إنه بدأ يعرف الجنس في سن الحادية عشرة عندما عرض عليهم فيلم في المدرسة عن الجنس، ولكنه لم يبدأ الاٌهتمام بالجنس إلا في سن الرابعة عشرة عندما اٌبتدأ في تقبيل الفتيات ثم النزول إلىٰ ما هو أسفل. وضحك الفتىٰ ثم قال: وهكذا تتعلم الجنس وتجده. ثم عرض البرنامج أطفالًا في سن الحادية عشرة فما فوق وهم في الديسكو يرقصون ويدخنون ويشربون الخمور، ثم عقب مقدم البرنامج قائلًا: (إنّ الأجيال السابقة لم يكن يسمح لها بالولوغ في الجنس (أي الزنا) قبل سن الثامنة عشرة للفتيان وسن السادسة عشرة للفتيات، أمَّا الجيل الحالي فيتجه إلىٰ الجنس في سن الحادية عشرة).

---

(١) «الأمراض الجنسية» ص٢٧-٢٨.

٨- كثرة العوانس بين الفتيات والعُزَّاب من الشباب

ومن آثار الإباحية كثرة العوانس بين الفتيات والعزاب من الشباب فالشاب ينتقل من زهرة إلىٰ زهرة كما يقولون ينال منهن بغيته دون أن يترتب علىٰ فعلته أية نتائج مادية أو مسئوليات ٱجتماعية وما دامت المرأة متمتعة بكامل حريتها الجنسية فما المانع لديها أن تفتش عن صديق تستمتع معه في أوقات فراغها ما دام مجتمعها يستسيغ ذلك.

فإنَّ وجود السبل الميسرة لقضاء الشهوة، بغير تحمل تبعة الزواج وبناء الأسرة، جعل كثيرًا من الشباب يختارون الطريق الأسهل، ويقضون أيام شبابهم بين هٰذه وتلك، متمتعين بلذة التنويع، دون التقيد بالحياة المتشابهة المتكررة كما يزعمون! ودون التزام بتكاليف الزوجية المسئولة، والأبوة الراعية .

وكان من نتيجة ذلك وجود كثرة هائلة من الفتيات، تقضي شبابها محرومة من زوج تسكن إليه ويسكن إليها، إلا العابثين الذين يتخذونها أداة للمتعة الحرام، ويقابل هٰؤلاء الفتيات كثرة من الشباب العُزَّاب المحرومين من الحياة الزوجية، كما تدل علىٰ ذلك أحدث الإحصاءات، فقد صرح مدير مصلحة الإحصاء الأمريكية في **٢٢** من ذي القعدة **١٤٠٢** هـ (الموافق **١٠** سبتمبر - أيلول - **١٩٨٢** م): (أنه لأول مرة منذ بادية هٰذا القرن تصبح أغلبية سكان مدينة سان فرانسيسكو من العُزَّاب) .

وأوضح (بروس شامبمان) في مؤتمر صحفي نظمته الجمعية الٱجتماعية الأمريكية أنه (وفقًا لأرقام آخر تعداد فإن **٥٣**٪ من سكان سان فرانسيكوا غير متزوجين)

وأعرب عن ٱعتقاده بأن هٰذه الأرقام يمكن أن تكون مؤشرًا علىٰ أفول الأنموذج العائلي التقليدي!!

وأضاف (شامبمان): (إنَّ هٰذه التغييرات الٱجتماعية ملائمة لتحقيق

الرفاهية في المدينة التي زاد عدد سكانها من الشباب بين ٢٥ و٣٤ سنة بمقدار (٤٠,٤٪) خلال العشر سنوات الأخيرة) .

وقال: (إن التعداد لم يشمل عدد المصابين بالشذوذ الجنسي الذين يقطنون المدينة والذين يشكلون ١٥٪ من السكان تقريبًا.

٩- كثرة الطلاق وتدمير البيوت لأتفه الأسباب

يقول الأستاذ محمد سعيد مبيض[١]:

والاختلاط هو النتيجة الثالثة لعدم الحجاب وقد يبدأ اللقاء بالسلام ثم بالكلام ثم بالسهرات المختلطة بين الأصدقاء، ثم بالتجمل والتصنع والتكيس (من الكياسة) لكسب الرضا وشد الأنظار إذ قد تكون الزوجة ممن تحب المزاح والتلطف وزوجها جاد قاسي الطبع، وقد تكون ممن تحب الأناقة وزوجها مهمل وقد تكون ممن تحب الكرم وزوجها بخيل، وقد تكون ممن تحب الجاه وزوجها مغمور، وهكذا ونتيجة لهٰذا الٱختلاط والانسجام وسقوط الكلفة يبدأ الميل المحتشم وقد يتطور لدىٰ ضعيفات المقاومة كلما ٱزداد المخالط شطارة وفهمًا بالمنافذ ومعرفة بأساليب التسلل والاستمالة فيقع ما لم يكن بالحسبان... وأيضًا .

اعتياد الإنسان علىٰ الٱختلاط مع الجنس الآخر. يجعله أقل ٱهتمامًا بزوجته لأنه يوزع ٱهتمامه بين زوجته وصديقاته العاملات معه ونتيجة لاستمرار الصلة تسقط الكلفة بين الأصدقاء وينكسر حاجز الحرج والاحتشام. اهـ.

ونتيجة ذلك الٱختلاط يؤدي إلىٰ كثرة الطلاق وقد نشرت صحيفة الشرق الأوسط في عددها الصادر ١٢/٧/١٤٠٠ الموافق ٢٦/٥/١٩٨٠ تحت عنوان: بريطانيا الجديدة: أزمات زوجية وعائلية وارتفاع حالات الخيانات.. علىٰ أنواعها «بريطانيا مقبلة علىٰ أزمة ٱجتماعية كبيرة.. وتتحدث أرقام رسمية نشرت أمس في لندن عن تزايد المخاوف من زيادة نسبة الطلاق وانخفاض نسبة الزواج وارتفاع نسبة الخيانة الزوجية بين الطرفين وتقول الأرقام ما يلي:

---

(١) «إلىٰ المحجبات أولًا» ص٦٤-٦٦ .

١- ٣٠ بالمائة من الأزواج تتراوح أعمارهم بين ٢٠ و٢٤ عامًا عليهم أن يتوقعوا سلسلة عمليات طلاق خلال ١٥ عامًا الآتية.

٢- ٱرتفع عدد الأمهات المطلقات إلىٰ مليون وربع المليون أم، والرقم مرشح للزيادة.

٣- ٥٠ بالمائة من الأزواج الجدد يرفضون الإنجاب خلال السنوات الثلاث الأولىٰ من زواجهم.

٤- ٩٠ بالمائة من المراهقين بين سن ١٣ و ١٦ يقبلون علىٰ شرب الخمور بصورة مزعجة. وقد أدخل كثير منهم إلىٰ المستشفيات بسبب ٱنغماسهم في الشراب.

٥- ٱرتفاع نسبة الذين يتعاطون المخدرات من الشباب والمراهقين.

ونتيجة لانتشار الخيانة الزوجية تقول الإحصائيات الحديثة أن هناك حالة طلاق بين كل حالتي زواج في بريطانيا كما ذكرته جريدة المدينة في عددها الصادر ٢٧/ ٥/ ١٤٠٠هـ.

فإذا كان دون الزواج هناك عقبات وعقبات، فإن هٰذا الزواج، بعد تحققه غير مضمون البقاء، فسرعان ما تتحطم الأسرة، وتنفصم الروابط لأدنىٰ الأسباب .

ففي أمريكا تزداد نسبة الطلاق عامًا بعد عام إلىٰ حد مفزع .

والذي يُقال عن أمريكا، يُقال عن معظم البلاد الغربية.

١٠- شقاء المرأة والرجل علىٰ السواء في ظل الإِباحية

ذلك لأن المرأة والرجل لا يجدان الحياة الهانئة السعيدة، والعيش المستقر الكريم إلا في ظلال الزوجية القائمة علىٰ المودة والرحمة .. وهٰذا الأمر تراه معدومًا في المجتمع الذي لا يروج فيه سوق الزواج، وفي الأمة التي تسير وراء التميع والانحلال!!

إلىٰ غير ذلك من الأخطار والمضار التي لا تخفىٰ علىٰ كل ذي عقل وبصيرة.

ويكفي هٰذه الظاهرة ضررًا وخطرًا أنها تؤدي إلىٰ ٱختلاط الأنساب وضياع النسل، وهتك الأعراض والحرمات، وقتل الشهامة والمروءة، وتفسخ المجتمع، وفصم أواصر الزوجية، وتفكك وحدة الأسرة، والانطلاق في حمأة الرذيلة والفساد، وفقد الرجولة والكرامة.

ويكفيها شرًا وفسادًا أن المجتمع بسببها يعجّ بأولاد لا كرامة لهم ولا أنساب، وأن تيار الإِباحية يجتاح شباب الأمة ونساءها ... وإذا كان الأمر كذلك فلا ترىٰ للأخلاق وزنًا، ولا للفضيلة والشرف أي ٱعتبار ولا قيمة!!.

وما قيمة مجتمع ٱندثرت أخلاقه، وضاع حياؤه، وتهدم كيانه واعتباره؟

وما قيمة مجتمع تشرد أطفاله، وتهتك نساؤه، وفجر شبابه؟

وما قيمة مجتمع ٱستبدت به شهواته، واستحوذت عليه غرائزه، فلا يعرف همًا سوىٰ الجنس واللذة المحرمة، ولا غاية سوىٰ الغريزة والشهوة الهابطة..؟

لا شك أنه مجتمع منحل متفكك مهدد في كل لحظة بالزوال والدمار؛ وصدق الله العظيم القائل في محكم تنزيله: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء: ١٦].

١١- أنتشار الشذوذ الجنسي:

ورغم وفرة النساء وسهولة العثور عليهن .. ورغم شيوع الزنا لدرجة مخيفة في المجتمعات الغربية فإننا نجد كثيرًا من الظواهر التي لا يمكن تفسيرها بسهولة.. مثل أنتشار حالات الأغتصاب الجنسي.. وانتشار الشذوذ الجنسي وانتشار نكاح المحرمات.. وانتشار الأعتداء الجنسي علىٰ العاملات والموظفات.. فقد كان يقال قديمًا أن الكبت الجنسي وعدم تفريغ هٰذه الطاقة الضخمة يؤدي إلىٰ هٰذه الشذوذ.. ولٰكن الغربي لا يعاني من الكبت الجنسي والحرمان ومع ذلك فإننا نرىٰ زيادة مرعبة في الشذوذ الجنسي واكتفاء الرجال بالرجال والنساء بالنساء[١].

يقول د/ محمد علىٰ البار[٢]:

لقد قننت الدول الغربية قوانين تبيح هٰذا الشذوذ طالما كان بين بالغين دون إكراه.

وتكونت آلاف الجمعيات والنوادي التي ترعىٰ شئون الشاذين جنسيًا، وكما تقول دائرة المعارف البريطانية (طبعة ٨٢ المجلد ١٦/ ٦٠٤) فإن الشاذين جنسيًا خرجوا من دائرة السرية إلىٰ الدائرة العلنية وأصبح لهم نواديهم وباراتهم وحدائقهم وسواحلهم ومسابحهم، وحتىٰ مراحيضهم الخاصة بهم حيث يستطيع الشاذ جنسيًا أن يلتقي بأمثاله من الشاذين، وتعرف دوائر الشرطة هٰذه الأماكن، ولكنها تغض الطرف عنهم طالما أنهم لم يسببوا أي إزعاج للمجتمع!!.

وتقول الإحصائيات الحديثة أن عدد الشاذين جنسيًا في الولايات المتحدة يبلغون ١٧ مليونًا ويقدرهم بعض الباحثين بعشرين مليونًا. وهناك

---

(١) «عمل المرأة في الميزان» ص ١٦٨.

(٢) «الأمراض الجنسية» ص ٤٣-٤٦.

معابد وكنائس خاصة في الولايات المتحدة تقوم بتزويج الرجال بالرجال والنساء للنساء في حفلات خاصة!! وقد نشرت جريدة الشرق الأوسط في عددها الصادر ٢٧/ ٥/ ١٩٨٠ نقلًا عن وكالات الأنباء العالمية أثناء حملة الٱنتخابات: (أنَّ السناتور كيندي ٱجتمع بممثلي الشاذين جنسيًا، وتعهد لهم بأنه سيدافع عن حقوقهم وسينفذ تعهداته إذا ما ٱنتخب رئيسًا للجمهورية».

وقد خصصت بعض الجامعات في الولايات المتحدة منحًا دراسية خاصة للشاذين جنسيًا، ومن تلك الجامعات جامعة سير جورج وليامز التي تخصص كثيرًا من منحها الدراسية للشاذين جنسيًا، ولا يمكن الحصول علىٰ تلك المنحة إلا إذا كان المتقدم مصابًا بالشذوذ الجنسي.

وفي مدينة لوس أنجلوس فقط يتجمع ثلاثمائة ألف شاذ جنسيًا وهٰذا يؤكد ما تقوله دائرة المعارف البريطانية (طبعة ٨٢) من أن أكبر تجمعات الشاذين جنسيًا هي في المدن الكبيرة مثل نيويورك ولوس أنجلوس وشيكاغو ولندن وباريس وأمستردام.

ومن أغرب الأنباء أن مجلة اللوطية التي تصدر في بريطانيا، نشرت هجومًا شديدًا علىٰ الدين المسيحي لأنه يحرم الشذوذ الجنسي، فرد عليها أحد كبار الكرادلة في بريطانيا قائلًا: إن الكنيسة الأنجليكانية هي في حالة مخاض الآن، وأنه عما قريب ستعترف الكنيسة بالشذوذ الجنسي، وإنه شخصيًا يعتبر الشاذ جنسيًا إنسانًا عاديًا، وإنه لا يمانع إذا أراد مثل ذلك الشخص أن يكون قسيسًا أو أي شيء آخر.!!

ومن الجدير بالذكر أن الكنيسة قد ٱعترفت رسميًا بأن المخاللة والمخادنة أمر لا تعترض عليه الكنيسة، وإنما تعترض الكنيسة حاليًا علىٰ البغاء والعهر أي التجارة فقط، أمَّا أن يعيش رجل وامرأة كزوجين بدون عقد زواج فهو أمر طبيعي ولا تعترض عليه الكنيسة أبدًا.

وقد ذكرت الديلي ميل والديلي ميرور أن ٤٠ بالمائة من الرهبان

يمارسون الشذوذ الجنسي، وإن ٨٠ بالمائة منهم زناة أيضًا، وقد نشرت جريدة المدينة في ٢١/ ١٢/ ١٤٠٣ مقالًا للأستاذ سيد أحمد خليفة جاء فيه: (إنَّ ثورة المهدي في السودان بدأت عندما قامت الكنيسة بتزويج رجل وثني من رجل آخر في غرب السودان، وقامت بإهدائهما هدايا لتؤكد لهما مباركتها لهٰذا الزواج غير الميمون!!).

وقد كانت جمعيات الشاذين جنسيًا تمارس نشاطها بشيء من السرية والكتمان وفي دورات المياه القذرة، كما تسميها الصحافة الغربية Dirty Closet Practice).

حتىٰ قام أحد ضباط الصف في الجيش الأمريكي (وهو يهودي) بوضع لوحة كبيرة خلف مكتبه كتب فيها: (أنا شاذ جنسيًا) فقام الجيش عندئذ بطرده.

ونشرت التايم الأمريكية صورته علىٰ صفحة الغلاف باعتباره بطلًا قوميًا، وأقامت ضجة كبرىٰ ضد الجيش الأمريكي الرجعي الديكتاتوري. وقامت كثير من الجامعات والجمعيات بدعوة هٰذا اليهودي المخنث لإلقاء محاضرات يدعو فيها إلىٰ حريته في ممارسة الشذوذ. وقامت عندئذ حملة كبرىٰ في أجهزة الإعلام ضد الاْضطهاد الذي يلاقيه الشاذين جنسيًا، وإنهم يطردون من أعمالهم إذا أظهروا نزواتهم، وإنَّ هٰذه الإجراءات القمعية هي لا إنسانية وهجمية وضد حرية الإنسان إلخ.

ونجحت تلك الحملات المنظمة، وظهرت بعدها جمعيات الشاذين جنسيًا إلىٰ السطح، وأخذت تمارس نشاطاتها في العلن، وظهرت لها المجلات والصحف والكتب والأفلام والبارات والنوادي والشواطئ الخاصة.

وتنافس المرشحون لرياسة الجمهورية في الولايات المتحدة في إرضاء قادة هٰذه الجمعيات والاجتماع بهم والإعلان عن تأييدهم للشذوذ الجنسي، وحق كل شخص في أن يتبع السلوك الجنسي الذي يرضاه طالما أنه لم

يعترض في سلوكه علىٰ الآخرين بالقوة.

وانتشرت تلك الجمعيات في الولايات المتحدة وكندا وأوروبا ٱنتشارًا واسعًا، حتىٰ إن أعضاء هٰذه الجمعيات أصبحوا من الوزراء وفي مقاطعة كويبك بكندا ثلاثة وزراء يفخرون بأنهم شاذون جنسيًا. ورئيس حزب الأحرار البريطاني سابقًا كان يفتخر بشذوذه الجنسي، وقد أثيرت فضيحة كبرىٰ عام ١٩٧٩ عندما ٱتهمته الشرطة بقتل المخنث الذي كان يفعل به الفاحشة!!

والغريب حقًا أن يقوم قسيس في الولايات المتحدة عام ١٩٧٠ بإصدار كتاب أسماه (المسيح شاذ جنسيًا) وعندما سألت عن هٰذا القسيس علمت أنه كان يهوديًا، ثم تظاهر بالنصرانية فأصبح قسيسًا، ثم ألف كتابًا يتهم فيه المسيح عليه السلام بالشذوذ الجنسي، وهي طبائع يهود الذين لعنهم الله وملائكته والناس أجمعون. يقتلون الأنبياء ويفترون عليهم الأكاذيب،.. ويتهمون مريم العذراء بالفاحشة، ويتهمون سليمان عليه السلام بالسحر، ويتهمون لوطًا عليه السلام بمقارفة الفاحشة مع ابنتيه كما هو موجود في التوراة المحرفة، ويتهمون إبراهيم عليه السلام بالدياثة فيعطي زوجته سارة لفرعون مصر، ويتهمون إسحٰق بالغش والخداع، والتوراة والتلمود مليئة بشتم الأنبياء وقذفهم، فلا غرابة إذن أن يتهموا المسيح عليه السلام بالشذوذ الجنسي ولٰكن الغريب حقًا أن لا يتحرك مسيحي واحد في الغرب بأكمله ضد هٰذه الٱفتراءات علىٰ من يدّعون أنه ربهم.

ولم يكتف اليهود بذلك، بل ألفوا كتابًا عن غراميات المسيح ثم جعلوه فيلمًا سينمائيًا يعرض في دور السينما، لعنهم الله.

ورغم كل هٰذه الٱفتراءات علىٰ المسيح عليه السلام ترىٰ النصارىٰ في الغرب يسيرون خلف اليهود كالنعاج، ويقفون مع إسرائيل واليهود في كل قضية، بل إنّ البابا نفسه قد برَّأ اليهود من دم المسيح بينما هم يعتقدون في دينهم أن اليهود قتلوا المسيح عليه السلام، وقد كذبوا في ذلك كما أخبرنا

القرآن الكريم قال تعالىٰ موضحًا جرائم اليهود: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء: ١٥٥-١٥٨].

١٢- أغتصاب الأطفال:

يقول د/ محمد علىٰ البار[١]:

إنَّ الشيء المرعب حقًا هو أنَّ الغرب لم يكتف بالفوضىٰ الجنسية العارمة التي تجتاح مجتمعاته، ولم يكتف بانتشار الزنا بصورة لم يسبق لها مثيل، وتعدىٰ الزنا إلىٰ الشذوذ الجنسي بحيث بلغ عدد الشاذين جنسيًا أكثر من ١٧ مليون شخصًا في الولايات المتحدة الأمريكية فقط.

ولم يكتف بكل ذلك، بل تعداه إلىٰ الهجوم علىٰ الأطفال الأبرياء. تقول مجلة الريدرز دايجسبت في عددها الصادر أغسطس ١٩٨٣ تحت عنوان (أطفال للبيع.. العالم المظلم الجديد لفن الدعارة): «إنَّ أستخدام الأطفال جنسيًا لم يعد أمرًا شاذًا ولا أمرًا شخصيًا، وإنما أصبح تجارة منظمة يبلغ دخلها ما بين خمسمائة إلىٰ ألف مليون دولار، ويعمل فيها آلاف المصورين والكتاب بل والأطباء وعلماء النفس!!».

وقد أصبح لدىٰ هٰؤلاء الذين يتاجرون بدعارة الأطفال وصورهم العارية والرجال يفعلون بهم الفاحشة الجرأة لتكوين جمعيات علانية في الولايات المتحدة. ففي لوس أنجلوس كما تقول الريدرز دايجست تقوم جمعية رين جيون التي يدعمها خمسة آلاف عضو بما فيهم بعض الأطباء وعلماء النفس، بل وبعض الآباء الذين يعتقدون أن الجنس نافع لأطفالهم،!! وترفع هٰذه الجمعية شعارها في كل مكان (الجنس في الثامنة قبل فوات الأوان) Sex by eight or it's too late وأما (جمعية مخالطة الرجال للصبيان في أمريكا الشمالية) (The North Americh Man/ Boy Love Association).

فتقول الريدرز دايجست: (إنّ لها فروعًا في جميع أنحاء الولايات

---

(١) «الأمراض الجنسية» ص ٥٣-٥٩.

المتحدة، كما أن لها مجموعة من المحامين للدفاع عن أعضائها عندما يقفون أمام القضاء بتهمة الاعتداء على الأطفال. كما أنَّ لها صندوقًا ماليًا لإعانة من يسجن من أعضائها. وتقول الريدرز دايجست: إن البوليس قد هاجم أحد مراكز هٰذه الجمعية في ماساتشوسيتس في ديسمبر ١٩٨٢، فوجد مئات الصور لرجال هٰذه الجمعية وهم ينكحون الأطفال).

ورغم أن القانون لا يزال يمنع تجارة الدعارة بالأطفال في الولايات المتحدة، إلَّا أنه من النادر أن يقع هٰؤلاء تحت قبضة القانون وإذا وقعوا فإنَّ جمعياتهم كفيلة بتوكيل أحسن المحامين لإخراجهم من المأزق، وإذا فرض وحكم على أحدهم بالسجن بضعة أشهر أو بضع سنين، فإنَّ أموال الجمعية الوفيرة تقوم بإعالته.

وتشتكي المجلة المذكورة من الإجراءات الفيدرالية القضائية الموزعة بين الحكومات المدنية والقوانين الفيدرالية والجهات العديمة المسئولية، بحيث لا يمكن وصول هٰذه الحالات إلى القضاء إلا فيما ندر.

وإذا رفع الأمر إلى القضاء كانت العقوبة تافهة، وتذكر مثالًا على ذلك قضية القسيس دونالد جليسر الذي اعتدى على الطفل جوني آثوود؛ فقد طلب القسيس منه أن يساعده في تنظيف منزله لقاء أجر، ففرحت الأم بذلك، وسرعان ما اكتشف الأبوان أن القسيس المحترم لم يكن فقط يستخدم ابنهما جنسيًا بل كان يصوره في أوضاع شائنة ويبيع تلك الصور للمجلات الجنسية الداعرة، وعندما هجم البوليس على منزل القسيس وجد ألبومًا حافلًا بصور القسيس وهو يضاجع الطفل في أوضاع شائنة، ولما رفعت الدعوى إلى القضاء حكم القاضي بأن يقوم القسيس بخدمة المجتمع لمدة مائتي ساعة، وعندئذٍ صرخت الأم لقد قمت بفضح ابني على الملأ ليحكم على القسيس المحترم بمائتي ساعة عمل لخدمة المجتمع!!

ولسنا ندري أي نوع من الخدمات سيقدمها القسيس!! وتقول الريدرز

دايجست (إن سين بروكشار كان في فترة المراقبة (وهٰذا هو الحكم الذي صدر ضده عندما ٱعتدىٰ علىٰ طفلة جنسيًا!!) قام مرة أخرىٰ بالاعتداء علىٰ الأختين الصغيرتين من عائلة كراندون. وعندما ألقي عليه القبض ٱعترف ولٰكن البوليس أطلق سراحه!!).

وللمرة الثالثة قام بالاعتداء علىٰ طفلين آخرين، وعندما رفع الأمر للقضاء كانت العقوبة أربع سنوات ونصف سجن.

وذكرت المجلة عشرات من قصص الٱعتداءات علىٰ الأطفال وعن ٱستخدامهم ٱستخدامًا جنسيًا ليس فقط من قبل المعتدين، بل إن الأمر ٱتسع وأصبح تجارة واسعة باسم الفن الإباحي (بورنوجرافي) بحيث أن هٰؤلاء الأطفال يُصوَّرون في هٰذه الأوضاع الشاذة، ويقوم هٰؤلاء التجار بتوزيع هٰذه المجلات وبيعها حيث يبلغ ثمن العدد الواحد من هٰذه المجلات ٱثني عشر دولارًا ونصف.

وتقول المجلة: إن الأمر لم يعد محدودًا ولا ضيق الٱنتشار، وإنما أصبح يهدد كل بيت وكل طفل. إنَّك تجدهم في المدرسة وفي الجمعيات الخيرية وبين القسس، وفي الجمعيات الرياضية وفي الكشافة، وفي الرحلات التي تنظم للأطفال ..

وتذكر المجلة قصة مدير روضة الأطفال الذي ٱعتدىٰ علىٰ الطفلة جوبي رميش البالغة من العمر ثلاثة سنوات، ولم يكتف بذلك بل أخذ لها صورًا أثناء فعله الفاحشة بها. واستطاع البوليس أن يجد إحدىٰ عشرة قضية ضد ميشام هٰذا بصورها وأبطالها. ولذا فقد حكمت عليه المحكمة أقسىٰ حكم في الولايات المتحدة صدر في قضية متعلقة بالاعتداء الجنسي علىٰ الأطفال، فقد حكمت عليه المحكمة بالسجن لمدة ٢٦ عامًا.

وتقول الريدرز دايجست: (إنَّ هناك مليون حالة من الٱعتداء علىٰ الأطفال جنسيًا في كل عام في الولايات المتحدة الأمريكية) ولا يكتفي

المجرمون في هٰذه الحالات بالاعتداء الجنسي علىٰ هٰؤلاء الأطفال، بل يقومون بتصويرهم في أوضاع شائنة، وسرعان ما يتحول الأطفال إلىٰ بغايا في عالم البغاء الواسع.

ولم تعد تجارة البغاء مقتصرة علىٰ البالغات بل ٱتسعت لتشمل الأطفال.

وذكرت لجنة حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة (أنَّ خمسمائة طفل يباعون في كل أسبوع إلىٰ محلات الدعارة في تايلند، وأنَّ ثمن الطفل يتراوح ما بين سبعة إلىٰ خمسين دولارًا ٱعتمادًا علىٰ جاذبية الطفل وجماله). (نشرت ذلك صحيفة الأخبار القاهرية في ١٩/ ٨/ ١٩٨٠).

وذكر التقرير لهٰذه اللجنة التابعة للأمم المتحدة أنَّ هناك عصابات متخصصة في ٱختطاف الأطفال وخاصة من الأرياف في تايلند وإنهَّم يقومون بالاعتداء علىٰ هٰؤلاء الأطفال جنسيًا، ثم يقومون ببيعهم إلىٰ أماكن الدعارة، كما يصورونهم في أوضاع شائنة، وتستخدم هٰذه الصور في تجارة البورنو أي الفن الإباحي أو فن الدعارة.. وعندما كنت في نيويورك في ديسمبر ١٩٨٢ جاء في نشرة الأخبار في التلفزيون ست حالات ٱعتداء علىٰ الأطفال الصغار جنسيًا في ليلة واحدة، وفي نيويورك فقط!!

لقد ٱرتعبت عندما رأيت الأطفال الصغار يصرخون مضرجين بدمائهم والتليفزيون يعرضهم ويعرض الأمهات وهن يصرخن: (إلىٰ أين نذهب إلىٰ أين نفر؟ هل يمكن العيش في مثل هٰذه الأوضاع؟ يذهب الطفل إلىٰ الروضة.. فلا يعود!! وإذا وجده البوليس حيًا يجده مضرجًا بدمائه؟!!

وما هو أخبث هو أن يقوم المدرس في الروضة بالاعتداء علىٰ الطفل أو الطفلة ثم يصورها في أوضاع شائنة، وما هو أفظع وأفحش أن يقوم القسيس الذي يدعو الناس إلىٰ الرب فيخدع هؤلاء الأطفال الأبرياء ثم يعتدي عليهم، ثم يصورهم ويشترك في تجارة البورنو ويوزع صورهم علىٰ المجلات الداعرة!!

وما هو أفظع من كل ذلك أن يقوم شخص يسمىٰ باحثًا وعالمًا وأستاذًا في جامعة، ويقول في أوسع المجلات ٱنتشارًا (التايم الأمريكية ١٤/ ٤/ ١٩٨٠): (إنّ تجارب الطفل الجنسية مع أحد أقاربه الكبار أو غيرهم من البالغين لا يشكل بالضرورة ضررًا علىٰ الطفل!!).

ويقول جيمس رامزي «إنَّ مزيدًا من الٱتصال الجنسي بين أفراد الأسرة سيحقق الدفء، وسيخفف من هٰذا السعار الجنسي المحموم في سن المراهقة!!» .

ويقول لاري قسطنطين الأستاذ المساعد في قسم الأمراض النفسية في جامعة تفتس بالولايات المتحدة: «إنَّ للأطفال الحق في أن يعبروا عن أنفسهم جنسيًا مع أي فرد حتىٰ ولو كان أحد أفراد عائلته» ويعاني الأطفال في المجتمعات الغربية من الٱعتداءات المتكررة عليهم سواء كانت تلك الٱعتداءات بدنية أو جنسية.(The Abused child Vol 29, No. 5.1966) .

ويقول كتاب (الطفل المعتدىٰ عليه) إصدار شركة سيبا مجلد ٢٩ العدد الخامس، سنة ١٩٧٧: «يقدر عدد الأطفال الذين يواجهون ٱعتداءات بدنية وجنسية في الولايات المتحدة بـ ١,٦٠٠,٠٠٠ طفل سنويًا. وترفع بعض الدوائر هٰذا التقرير إلىٰ أربعة أو خمسة ملايين طفل!! ونرىٰ أنَّ الرقم الأقرب إلىٰ الواقع هو ما ذكرناه أي ١,٦٠٠,٠٠٠».

والواقع أنَّ ٱنتشار الٱعتداء علىٰ الأطفال من آبائهم وذويهم أمر واسع الٱنتشار في الغرب، فمن كل عشرة أطفال يدخلون المستشفيات هناك واحد دخلها بسبب ٱعتداء ذويه عليه، ويأتي الٱعتداء علىٰ الأطفال كثاني سبب لوفيات الأطفال ما بين ستة أشهر وعام. وما بين سنة وخمس سنوات فإنَّ وفيات الأطفال الناتجة عن الٱعتداء هي السبب الثاني للوفيات ويأتي مباشرة بعد الحوادث التي تعتبر قضاء وقدرًا، والغريب أن ثلثي حالات الٱعتداء علىٰ

الأطفال دون الثالثة، بينما غالبية ضحايا الاعتداء الجنسي يكونون قد جاوزوا السابعة. وإن كانت هناك حالات اعتداء على الأطفال الرضع!!

وتقول مجلة هيكساجون الطبية Aexagon Vol 6. No5, 1978 : أنَّه لا يكاد يوجد مستشفى للأطفال في أوروبا وأمريكا إلا وبه عدة حالات من هؤلاء الأطفال المضروبين ضربًا مبرحًا من آبائهم وأمهاتهم».

وفي عام ١٩٦٧ دخل إلى المستشفيات البريطانية أكثر من ٦٥٠٠ طفل مضروب ضربًا مبرحًا أدى إلى وفاة ما يقرب من ٠/٠٢٠ منهم، وأصيب الباقون بعاهات جسدية وعقلية مزمنة. وقد أصيب المئات منهم بالعمى، كما أصيب مئات آخرون بالصمم. وفي كل عام يصاب المئات من هؤلاء الأطفال بالعته والتخلف العقلي الشديد والشلل نتيجة هذا الاعتداء.

وتقول مجلة هيكساجون: (إنَّ الاعتداءات الجنسية على الأطفال من آبائهم هي أكثر بكثير مما هو معروف ومدون، كما أن كثيرًا من الآباء والأمهات يقومون بتسميم أطفالهم بإعطائهم السموم والعقاقير الخطيرة».

ويقول كتاب «الطفل المعتدى عليه»: .(The Abused child) إن الاعتداء الجنسي على الأطفال من آبائهم هو أكثر بكثير مما هو مسجل في الدوائر الطبية ولدى المحاكم؛ وذلك لأن هذه الحالات لا تصل إلى الدوائر الطبية أو إلى البوليس إلا نادرًا. ويقسم الكتاب المذكور الاعتداءات الجنسية إلى نوعين وهي الاعتداءات الجنسية المصحوبة بالعنف، والاعتداءات الغير مصحوبة بالعنف. وبعض الحالات من الفئة الأولى هي التي تصل إلى الأطباء، أمَّا الفئة الثانية فنادرًا جدًا وصولها إلى الأطباء.

ويقرر الكتاب أنَّ الاعتداءات الجنسية هي في الغالب من الأب، أمَّا الاعتداءات البدنية الأخرى فأغلبها من الأم؛ وذلك نتيجة للتوتر النفسي والقلق الذي تعيشه المرأة العاملة في الغرب. وفي بعض الحالات يكون الاعتداء على الطفل من المشرفين على تربيته، أو من الحاضنة، وأحيانًا من

المدرس في الروضة أو في المدرسة.

ويوضح الكتاب أنواع الاعتداءات الجنسية التي ينبغي علىٰ الطبيب أن يبحث عنها، وهي في الغالب علىٰ شكل تهتكات بالشرج أو الفرج، وفي بعض الأحيان يجد الطبيب شيئًا من مني المعتدي وهو الأب في غالب الحالات.

وكثيرًا ما يصاب الطفل ذكرًا كان أم أنثىٰ بالأمراض التناسلية، ويُعتبر ذلك دليلًا قاطعًا علىٰ الاعتداء الجنسي.

ويوضح الكتاب أنواع الاعتداءات البدنية، وكسور العظام، وارتجاج المخ الناتج عن الضرب، أو رمي الطفل إلىٰ الأرض، وأنواع الشلل التي يصاب بها الطفل، وإصابات العين، والصدر، وكسور الأضلاع وما يصحبها أحيانًا من دخول الهواء إلىٰ البلورا مما يسبب انكماش الرئة في الجهة المصابة، وأنواع النزف الخطير الذي قد يصحبها.

كما يوضح أنواع الإصابات البطنية وتمزق الأحشاء، والتهتكات التي تصيب الكبد أو الطحال أو حتىٰ الأمعاء.

ويشرح ذلك كله بالصور والرسوم وصور الأشعة المختلفة التي توضح أنواع الإصابات المختلفة بحيث ييسر للطبيب الوصول إلىٰ التشخيص الصحيح؛ ذلك لأن معظم الأطباء لا يتصورون أن يعتدي الأب أو الأم علىٰ طفلهما بمثل هٰذه القسوة والبشاعة.

ولقد كان الأطباء وحتىٰ عهد قريب لا يتصورون مدىٰ انتشار هٰذه الظاهرة، حتىٰ قام الدكتور كيمب عام ١٩٦٢ بنشر تقريره المعروف باسم (الطفل المضروب Battered- Child Syndrome) ثم توالت التقريرات الطبية، وتكونت جمعيات طبية خاصة لدراسة هٰذه الظاهرة في كثير من البلاد الغربية، وأقيمت الأبحاث الميدانية التي كشفت مدىٰ انتشار هٰذه الظاهرة الغريبة في البلاد الغربية، حتىٰ وصلت أعلىٰ التقديرات إلىٰ أن

خمسة ملايين طفل يواجهون الاعتداء الشديد سنويًا في الولايات المتحدة الأمريكية!! إذن نحن أمام ظاهرة مرعبة حقًا، فالمجتمعات الغربية تعاني من انهيار تام في القيم، وخاصة المتعلقة بالجنس.

جاء في مجلة «الأمة» رمضان ١٤٠٣هـ ص٩٢-٩٣ ما يلي:

عندما ثار المجتمع الأوروبي علىٰ النظام الإقطاعي كانت ثورته في الواقع حربًا علىٰ ما كان ينطوي عليه ذلك النظام من إهدار لقيمة الإنسان وللوجود الإنساني.. إلا أن النظام الرأسمالي الذي جاء كرد فعل وبديل لم يكن أحسن حالًا، لا سيما وأن نشأته كانت علىٰ أساس إطلاق العنان لنشاط الفرد ولحريته دون ضابط ودون اعتبار للمجتمع والأخلاق..بل اعتبر جميع القيم الأخلاقية والإنسانية والاجتماعية، لا معنىٰ لها إذا أريد منها الحد من حركة رأس المال في كل المجالات.

وكان من الطبيعي أن يصاحب هٰذا النظام على المستوىٰ الاجتماعي حالة من الانهيار والانحلال الخلقي، وجد فيها أصحاب رءوس الأموال فرصتهم لتحقيق أكبر قدر من الربح المادي.. فنشأت صناعات في مجال الأفلام الجنسية والصحف الصفراء والخمور والمخدرات والدعارة غزت أعماق المجتمع.. ليس المجتمع الأوروبي فحسب، ولكن المجتمع الإنساني كله.

وفي وقتنا الراهن حيث تسيطر النزعة الإباحية أصبح (البغاء) بصفة خاصة صناعة وتجارة تمارس علىٰ المستوىٰ الدولي، وتستغل جسد الإنسان ومشاعره وعواطفه استغلالًا لم تعرف البشرية في تاريخها الطويل أبشع منه!!.

ولم تعد النساء البغي وحدهنَّ محور هٰذه التجارة في عصر الشذوذ الجنسي، إذ أن السن التي تبدأ فيها مزاولة (البغاء) أخذت في الانخفاض... وأصبح الأطفال أداة جنسية جديدة تجد في كثير من البلاد الأوروبية

والأمريكية منافذها الأوسع نطاقًا!!!

وفي تقرير حول «قمع الاتجار بالأشخاص واستغلال بغاء الأشخاص» قدمه في الأسابيع الأخيرة للأمم المتحدة بتكليف منها السفير الفرنسي السابق «جان فرنان لوران» يتضح أن عمر الفتيات البغايا في بعض أنحاء البرازيل يتراوح بين ١٢ و ١٤ سنة فقط.. وفي أمريكا اللاتينية فإن العاملين بالبغاء المستحسنين أكثر من غيرهم، ينبغي أن تتراوح أعمارهم بين ١٠ و ١٤ سنة، أما في هونج كونج وبانكوك فتسلم فتيات صغيرات ما كدن يفطمن لتجار مقابل عشرات الدولارات، ليجدن أنفسهن بعدذلك بقليل مسجونات مدىٰ الحياة في إحدىٰ بيوت الدعارة!.

ويشير ذلك إلىٰ أن الشبكات السرية التي تعمل في مجال الاتجار بالأطفال لأغراض البغاء تستغل الفاقة التي تعانيها كثير من الأسر في البلاد الفقيرة؛ الأمر الذي جعل بغاء القاصرات على مر السنين صناعة أصبحت تشكل مصدر رزق لعدد كبير من العائلات.

ويؤكد التقرير أن بغاء الطفل قد نظم في بعض البلدان الصناعية مؤخرًا، فظهر الأدب الإباحي الذي يشمل ألبومات الصور والأفلام وشرائط تسجيل الفيديو، حيث يصور الأطفال أو تؤخذ لهم الأفلام في أوضاع فاحشة.. وتشير الإحصاءات إلىٰ أن الولايات المتحدة الأمريكية -وحدها- ينتشر بها ما لا يقل عن ٢٦٤ مجلة إباحية متخصصة في الأطفال.

وقد وضعت منظمة الـ «أنتربول» الدولية تقريرًا خاصًا بشأن الاتجار بالنساء، حددت فيه شبكات دولية عديدة للبغاء، تنقل في سرية شديدة من بلد إلىٰ آخر ليس فقط النساء البالغات، ولكن أيضًا فتيات لا يزلن دون سن الرشد.

ويستنتج التقرير أن هٰذه التجارة تتم عادة تحت غطاء وكالات الزيجات المزعومة أو عروض التوظيف في جولات العروض المسرحية.

ويضيف «لوران»: لذلك فإن ثمة أجهزة مخابرات وشركات رأسمالية تمارس هٰذه التجارة عندما تجلب تحت اسم مضيفات أو سكرتيرات نساء مدربات علىٰ هذا الشكل الخاص من بغاء البذخ لرشوة رجل دولة أو رجل أعمال، أو لتعريض سمعته للخطر.

ولاعتبارات عديدة يرىٰ «لوران» أن العقاب الذي تفرضه بعض الدول في هٰذا المجال قليل الفاعلية وغير كافٍ، ويعتقد بأن شيئًا لن يتغير تغييرًا دائمًا في مجال البغاء ما لم يعتر العقليات الجماعية تغيير من حيث نظرتها للمرأة البغي.. وينتهي القول بـ «لوران» إلىٰ أن صورة المرأة ذاتها التي كثيرًا ما تعتبر بضاعة جنسية مسخرة للرجل هي التي يجب تغييرها.

وأيًا كانت رؤىٰ «لوران» وٱستنتاجاته والمنهج الذي اتبعه في إجراء دراسته، فإن التقرير الذي قدمه للأمم المتحدة يبقىٰ وحده كافيًا للدلالة العميقة علىٰ مدىٰ البؤس الذي تعيشه -اليوم- شريحة كبيرة من المجتمع الإنساني، تحررت من كل قيد خلقي أو ضابط ديني.. كما يؤكد حقيقة عجز النظم الاجتماعية الوضعية عن حل المشكلات التي تنشأ في إطارها ووفقًا لفلسفته، بل وعجزها تمامًا عن قيادة البشرية وإمدادها بأهداف تعيش من أجلها ومبادئ وأفكار تقود خطاها في مصاعد الحياة.

ومن هنا تبرز عظمة الإسلام ونعمته ونقاؤه وطهارته.. ويومًا إثر يوم ومن خلال ما آلت إليه المجتمعات الإباحية من اضطرابات وفوضىٰ ومجانبة للفطرة السليمة، نزداد يقينًا وتمسكًا وإصرارًا بأن النظام الإسلامي بما ينطوي عليه من مبادئ وإجراءات وقائية تستهدف الحفاظ علىٰ «إنسانية» الإنسان وتطهير المشاعر والمجتمع والحياة كلها من أسباب السقوط والانحراف هو الملاذ وهو المنقذ، ولكن فقط إذا حكّمته البشرية ورضيت بالعيش تحت ظله.

١٣- زنا المحارم

يقول د/ محمد علىٰ البار[١]:

«لقد ٱعتبرت البشرية منذ القدم نكاح المحارم أمرًا يثير أقصىٰ درجات الٱشمئزاز والاحتقار في أي صورة من صوره كما تقول (دائرة المعارف البريطانية طبعة ٨٢ المجلد ١٦/ ٦٠٧).

وأشد هٰذه الأنواع حرمة وأبغضها هو نكاح الأمهات، وقد أجمعت البشرية علىٰ مقته واحتقاره والاشمئزاز منه، ولا يوجد مجتمع بشري سواء كان بدائيًا أو متحضرًا قديمًا أو حديثًا إلَّا وهو يمقت أشد المقت نكاح الأمهات إلَّا ما ظهر في الحضارة الغربية النكدة علىٰ يد يهود، حيث قام فرويد بنشر أكاذيبه المغلفة بالأساطير اليونانية، فجعل حب الطفل لأمه حبًا جنسيًا محضًا وأنه لذلك يمقت أباه. وجعل البنت تحب أباها حبًا جنسيًا محضًا ولذلك تمقت أمها.

وبما أن المجتمع لا يسمع بمثل هٰذا الحب الجنسي بين الٱبن وأمه والبنت وأبيها فعندئذ تتولد العقد، ووجد فرويد في الأساطير اليونانية ملاذه؛ ففي تلك الأساطير يقوم أوديب- دون أن يعلم- بالزواج من أمه وقتل أبيه. ولذا سمَّىٰ فرويد حب الٱبن لأمه جنسيًا وبغضه المزعوم لأبيه عقدة أوديب، وسمَّىٰ حب البنت لأبيها جنسيًا وبغضها لأمها عقدة إليكترا.

ولم يزعم فرويد أن هٰذه حالات شاذة ولكنه زعم أن جميع البشر يمرّون بهٰذه الحالة، واخترع لذلك كثيرًا من المسمَّيات الضخمة والهراء السخيف الذي لا يقبله عقل إنسان بدائي فضلًا عن إنسان مثقف، وأحاطه بسياج من الكلمات الرنانة، وأقيمت له ضجة كبرىٰ، وأصبح هٰذا الكلام السخيف التافه يدرس علىٰ أنه علم نفس.

---

(١) «الأمراض الجنسية» ص ٧٠.

والغريب حقًا أنَّ هٰذه الخرافات التي نسجها فرويد قد بان زيفها في الغرب بينما لا تزال تدرس في جامعاتنا في البلاد العربية والإسلامية.

ومع هٰذا فإن اليهود نشطون جدًا في نشر نكاح المحرمات، يقول الباحث الأنثروبولجي يهودي كوهين كما جاء في مجلة التايم الأمريكية في عددها الصادر ١٤ أبريل ١٩٨٠ تحت عنوان مهاجمة التابو (المحرم المقدس) الأخير At tacking The last Taboo ما يلي:

(إنَّ منع نكاح المحرمات ليس إلَّا من مخلفات الإنسان البدائي الذي ٱحتاج لإجراء معاهدات واتفاقات تجارية خارج نطاق الأسرة، فقام عند ذاك بمنع نكاح المحارم. وبما أنَّ ذلك لم يعد له أي أهمية فإنَّ هٰذا المنع يصبح أمرًا قد عفىٰ عليه الزمن).

ويقول الباحث جون موني من جامعة جون هوبكنز وأحد أشهر الباحثين في الجنس في الأمة الأمريكية كما تقول التايم الأمريكية: (إنَّ تجارب الطفل الجنسية مع أحد أقاربه الكبار أو غيرهم من البالغين لا يشكل بالضرورة ضررًا علىٰ حياة الطفل).

ويشكو هٰذا الباحث الكبير وزميلته جيرترود وليامز في كتابهما «الأفعال الجنسية الضارة وإهمال الأطفال» يشكوان من أن الجمهور لا يزال يعتبر أي ٱتصال جنسي بالطفل مهما كان حميدًا فإنه ٱتصال ضار ومحطم للطفل.

ويواصل الباحثان حديثهما للتايم فيقولان: (إنَّ المجتمع يعتبر من يمارس الجنس مع المحرمات مثل الأمهات والأخوات والبنات وكأنه مارق علىٰ الدين في مجتمع متديّن).

وبما أنَّ المجتمع الأمريكي قد ٱستطاع التغلب علىٰ مشكلة الدين، بحيث لم ينظر إلىٰ الإنسان بازدراء إذا مرق من دينه، فإنَّ علىٰ المجتمع أن يتسامح في موضع نكاح المحرمات، وللأسف فإنَّ المجتمع الأمريكي لا ينظر بنفس التسامح لمن يقوم بنكاح أمه أو ابنته أو أخته.

ويقول الباحث الجنسي وادل بومري كما تنقله عنه التايم: (لقد آن الأوان لكي نعترف بأن نكاح المحرمات ليس شذوذًا ولا دليلًا علىٰ الٱضطراب العقلي، نعم قد يكون نكاح المحرمات وخاصة بين الأطفال وذويهم أمرًا مفيدًا لكليهما).

ويقول الأنثروبولوجي سيمور باركر من جامعة يوتاه: (إنَّه من المشكوك فيه أن يكون الثمن الذي يدفعه من يقوم بنكاح المحرمات من الشعور بالذنب والجفوة بين أفراد الأسرة الواحدة أمرًا ضروريًا أو حتىٰ مرغوبًا فيه؛ وعليه فينبغي إزاحة هٰذا الشعور بالذنب عندما يقوم شخص ما بنكاح ابنته أو أمه أو أخته، وما هي الجدوىٰ التي ستعود من ربط نكاح المحرمات بهٰذا الشعور من عدم الٱرتياح بدلًا من المحبة والدفء الذي يشعه نكاح المحرمات؟)

وتقول التايم: (إنَّ مجلس المعلومات والتثقيف الجنسي في الولايات المتحدة قد أصدر نشرة عرفت باسم «تقرير سيسكي» ندَّدت فيه بعنف بالمجتمع الأمريكي الذي لا يزال يمنع إلىٰ حد كبير نكاح الأمهات والبنات والأخوات، وطالبت بأن يباح نكاح المحرمات وأن يزاح هٰذا التابو (المحرم المقدس) المقيت!!

ويقول المؤلف والباحث الجنسي جيمس رامزي: (إننا نقف اليوم من نكاح المحرمات نفس الموقف المتأخر الذي كنا نقفه منذ مائة عام من العادة السرية إنَّنا قد ٱكتشفنا أنَّ العادة السرية غير ضارة ولا تؤثر علىٰ الصحة، فإنَّ علينا أن نمارس المزيد من الٱتصال الجسدي والجنسي بين أفراد الأسرة؛ لأن ذلك سيحقق الدفء وسيخفف من هٰذا السعار الجنسي المحموم في سن المراهقة!!).

وتقول التايم في بحثها الجامع عن نكاح المحرمات في الولايات المتحدة: (إنَّ الباحثة جوان نيلسون قد أنشأت بالاتفاق مع السلطات معهدًا لدراسة السلوك الجنسي، وقد قام معهدها بإجراء بحث ميداني للتفريق بين

نكاح المحرمات المفيد.. ونكاح المحرمات الضار.

وانتهت بأنَّ الضرر الحقيقي هو في الشعور بالذنب وتحطم الأسرة. أمَّا إذا أزيح هٰذا الشعور بالذنب فإنَّ نكاح المحرمات يصبح مفيدًا!!).

وتقول التايم: (إنَّ الجمهور بدأ يتقبل فكرة نكاح المحرمات وتدلل علىٰ ذلك بزيادة الإقبال علىٰ الأفلام التي تعرض نكاح المحرمات وتمجده، ففي عام ١٩٧٩ أنتجت هوليود ستين فيلمًا يشيد بنكاح المحرمات ويعرضه عرضًا صريحًا، بينما لم تنتج هوليود إلَّا ستة أفلام عام ١٩٢٠).

ويقول الباحثون الجنسيون في أمريكا كما تنقله عنهم التايم: (إنَّ جميع الٱتصالات الجنسية مفيدة ولو كانت بين الأب وابنته أو ابنه، وبين الأم وابنها، وبين الأخ وأخته، نعم كلها مفيدة ولٰكن الضار فقط هو الشعور بالذنب والإحساس بالخوف وأخطر شيء هو الكبت!! نعم هو الكبت الجنسي!!).

وتقول التايم معلِّقة علىٰ ذلك: (إنَّ مثل هٰذا الٱتجاه سيقود حتمًا إلىٰ إقامة حملات صليبية ضد جميع أنواع المنع الجنسي شاملًا بذلك نكاح المحرمات).

وقد ٱفتتحت التايم تحقيقها البارع بقولها: (يحبُّ علماء الجنس أن يصدموا الجمهور من حين لآخر، ولٰكن يبدو أنه أصبح من العسير عليهم أن يفعلوا ذلك؛ فقد تعودت الجماهير في الغرب أن تنظر إلىٰ العلاقات الجنسية حتىٰ الشاذة منها نظرة باردة. ولٰكن الباحثين يعملون الآن بجد تساندهم في ذلك بعض الأكاديميات؛ لإزاحة آخر صنم في المجال الجنسي وهو نكاح المحرمات من الأمهات والأخوات والبنات).

وقد نشرت صحيفة الهراليد- تربيون في عددها الصادر ١٩٧٩/٦/٢٩ ملخصًا لأبحاث قام بها مجموعة من الأخصائيين من القضاة والأطباء وعلماء النفس في الولايات المتحدة حول ظاهرة نكاح المحرمات في الولايات

المتحدة خاصة والمجتمعات الغربية عامة.

ويقول الباحثون: إنَّ نكاح المحرمات لم يعد نادر الحدوث وإنَّما هو منتشر لدرجة يصعب تصديقها، فهناك عائلة من كل عشر عائلات أمريكية يمارس فيها هٰذا الشذوذ. والغريب حقًا أنَّ الغالبية العظمىٰ (٨٥ بالمائة) من الذين يمارسون هٰذه العلاقات الشاذة مع بناتهم وأولادهم أو بين الأخ وأخته أو بين الأم وابنها هم من العائلات المحترمة في المجتمع والناجحة في أعمالها، والتي لا تعاني من أيّ مرض نفسي، وليسوا من المجرمين ولا من العتاه ولا من السيكوبات، وإنَّما هم في الغالب من رجال الأعمال أو الفنيين الناجحين في أعمالهم وحياتهم.

ويذكر التقرير أن حالة واحدة من بين كل عشرين حالة هي التي تصل إلىٰ القضاء أو إلىٰ الدوائر الصحية، ومعظم هٰذه الحالات هي حالات ٱعتداء من الأب علىٰ ابنته ولا يقتصر الاعتداء علىٰ البنت البالغة، وإنما يمتد ليشمل الصغيرات وقد سجلت حالات من اعتداء الأب علىٰ ٱبنته ٱبتداء من سن ثلاثة أشهر إلىٰ سن البلوغ!!

وينتج عن ذلك الٱعتداء أمراض تناسلية وتهتكات في الجهاز التناسلي للطفلة بالإضافة إلىٰ الإصابات النفسية البالغة للطفلة.

كما أنَّ هناك عدة حالات حمل قد سجلت نتيجة ٱعتداء الأب علىٰ ابنته، وفي كثير من هٰذه الحالات كانت العلاقة بين الأب وابنته تمتد إلىٰ سنوات عديدة.

ويعتبر التقرير أشد أنواع هٰذه الٱعتداءات خطورة هو ٱتصال الأم بابنها جنسيًا؛ ويعتبر ذلك محطمًا للأسرة ومهدمًا للبنيان النفسي للابن والأم علىٰ السواء.

أما الٱتصال الجنسي بين الأخ وأخته فيعتبره التقرير شيئًا يسيرًا، وربما كان حميدًا!! وينبغي علىٰ الآباء والأمهات أن لا يهتموا بهٰذه العلاقة إذا

لاحظوها بل يتركونها للزمن فهو كفيل بعلاجها. أمَّا دائرة المعارف البريطانية (طبعة ٨٢ مجلد ١٦ صفحة ٦٠٧) فتعتبر نكاح الأبن لأمه هو أشدها خطرًا وأكثرها ندرة، وأن الحالات المسجلة هي في الغالب لأمهات مريضات نفسيًا، وإنَّ بعضهن سايكوبات، وفي الغالب يكون الأبن مراهقًا وأحيانًا دون البلوغ.

أما نكاح الأب لابنته فتقول دائرة المعارف البريطانية: إنه أكثر شيوعًا، وإنَّ هناك عددًا لا يحصىٰ من الحالات تسجل كل عام وفي الغالب يكون الأب سكيرًا أو مضطربًا نفسيًا، ولا يقوم الأب بالاعتداء علىٰ ابنته البالغة فقط وإنَّما يحصل الأعتداء علىٰ طفلته الصغيرة. وقد سجلت كثير من حالات الأعتداء علىٰ الأطفال الرضع من آبائهن.

(وفي كثير من الحالات تمتد العلاقة بين الأب وابنته إلىٰ عدة سنوات، ولا تقتصر العلاقة علىٰ ابنة واحدة، وإنما تشمل بناته كلهنَّ، وإن كان الأب في الغالب يفضل واحدة منهن. وتقول دائرة المعارف: إن هٰذه العلاقات غالبًا ما تتوقف عندما تكبر البنت وتغادر المنزل؛ وذلك عند بلوغها ثمانية عشرة سنة أو قبل ذلك. ونادرًا ما تستمر العلاقة بعد وصول البنت إلىٰ العشرينيات. وتقول دائرة المعارف البريطانية: (إنَّ هٰذه العلاقة الشاذة لا تسبب الشعور بالإثم لدىٰ الأب أو البنت إلَّا عندما تعلم الأم بتلك العلاقة وتثور وعندئذٍ تبدأ المتاعب).

أمَّا العلاقة بين الأخ وأخته فلا ترىٰ دائرة المعارف البريطانية فيها ضررًا كبيرًا، وتعتبرها مرحلة غير دائمة ولا ضرر يخشىٰ منها في الغالب.

وإذا علمنا أنَّ لورد بيرون الشاعر الإنجليزي المشهور كان يخال لأخته ويتغزل فيها ويعيش معها عيشة العشاق ويفخر بذلك، والمجتمع الإنجليزي يرىٰ ذلك ويسكت عنه، وذلك في القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر الميلاديين (ولد بيرون عام ١٧٨٨ وتوفي عام ١٨٢٤) فإننا لا نستغرب أن

يسكت المجتمع الغربي عن نكاح الأخ لأخته، وأن لا يرىٰ في ذلك غضاضة في القرن العشرين بعد أن أصيب الغرب بلوثة الثورة الجنسية، ولوثة الولوغ في الزنا واللّواط ونكاح الأطفال وأخيرًا المحرمات. اهـ.

حين يصبح الاٌغتصاب مادة تتناولها برامج التلفزيون، وتُؤلف عنها الكتب، وتناقشها الصحف والمجلات؛ فإن الأمر يعني وصول مرحلة الخطر.

كتاب «دماء الكلمات» لمؤلفته «إيفا توماس» كان موضوع مناقشة علىٰ شاشة التلفزيون، ومادة حوار أجرته مع مؤلفته مجلة "ماري كلير".

الكتاب يضم مجموعة من القصص الواقعية بطلاتها جميعًا فتيات صغيرات كنّ ضحايا لاغتصاب آبائهن. وكانت المؤلفة نفسها ضحية لهٰذا الإثم الفاحش والرهيب، ولهذا جنّدت نفسها وقلمها للحرب ضد هٰؤلاء الآباء، وتقديمهم للمحاكمة، وقد أنشأت جمعية (S.O.S.) الخاصة بهٰؤلاء الضحايا .

حرصت «إيفا» علىٰ تصوير هٰذا الأب الوحش، الذي يظهر في المجتمع رجلًا محترمًا من المحيطين به، بينما هو في حقيقته مجرم مفترس.

وتضرب المؤلفة مثلًا بـ«مارلين فان ديربر» التي اٌنتُخبت ملكة لجمال أميركا عام ١٩٥٨م. لقد اٌغتصبها أبوها منذ أن كانت في الخامسة من عمرها، واستمر حتىٰ أصبحت في الثامنة عشرة. وفي الرابعة والعشرين تحدثت "مارلين" إلىٰ القسيس، ثم إلىٰ أختها الكبرىٰ التي ما كادت تسمع بالسر الرهيب حتىٰ قالت: وأنت أيضًا؟!! هنا سقطت "مارلين" مشلولة، وفقدت النطق، وظلت داخل غرف المصحات سنين طويلة.

والمفاجأة أن أباها هٰذا هو الملياردير "فرانسيس فان ديربر" أقوىٰ وأهم شخصية في "دنفر"، معروف بأنه من رجال الخير، وهو رئيس جمعية الكشافة في المدينة، والمؤسس لأكبر عدد من الجمعيات الخيرية، والمتبرع الأول لأعمال الخير في المدينة.

هٰذا هو الأب المغتصب الذي حطم حياة ابنته وظل يعتدي عليها ثلاث عشرة سنة.. فكيف يتحول رجل (الخير) إلىٰ جندي من جنود إبليس؟!

يقول الدكتور "بيير سابورين" إن مثل هٰذا الأب إذا لم يوقفه القانون ويحاسبه فسيندفع إلىٰ ممارسة الٱغتصاب مع أحفاده من ابنته التي ٱغتصبها.

ويضيف: للأسف فإن ٱغتصاب المحارم ليس وقفًا علىٰ هٰذا النوع من الآباء والأجداد.. بل يشمل الخال والعم والأخ. فالمسألة إذن دائرة من الشر لا تتوقف ولا يُردع فاعلوها إلا حين تعترف الضحية فور وقوع الٱعتداء الأول.

ويرىٰ الدكتور "سابورين" أن علىٰ كل أم لديها فتيات- مهما كان سنهن- أن تبصرهن تدريجيًا، وبلطف، باحتمال وقوع هٰذا الٱغتصاب.. وعليها أن تراقب بناتها جيدًا وأن تسألهن- وبإلحاح- إذا لاحظت سلوكًا غير عادي من الٱبنة، مثل الخوف، أو الٱنطواء، أو رفض الطعام.

وهكذا، فإن الأب الذي تراه الفتاة سور الأمان الأول، يصبح هو مصدر الأذىٰ الجسدي والنفسي لها! مصدر الخوف والفزع والهلع! علىٰ يديه تتحطم حياتها، ويتدمر حاضرها ومستقبلها.

الأب الذي يفترض أن يكون قدوة لابنته، في خلقه والتزامه ومثاليته، ينزع من نفسها كل ثقة بأي قيمة من القيم، ويشوه كل الصور الجميلة التي رسمتها الفتاة في خيالها.

وأي حياة تلك التي تعيش فيها الأسرة فاقدة للأمان: الأم تخشىٰ علىٰ بناتها وتراقبهنَّ وتحذرهن. والبنات يخشين من أبيهن وإخوانهن وأخوالهن وأعمامهن!! والأب يرىٰ في بناته فرائس سهلة قريبة!.

أي حياة تلك[1]!!؟

---

(١) «إنهم يتفرجون علىٰ ٱغتصابها» ص٧، ٨.

يقول د/ مصطفىٰ عبد الواحد[١]:

فإذا نظرنا إلىٰ تلك الفوضىٰ في ذاتها فإننا نرىٰ أن حصاد الخطيئة يدل علىٰ أنها لا تصلح علاجًا للغريزة، ولا ٱستجابة سوية لها، فهي في حقيقتها لا تصل بالغريزة إلىٰ القناعة والاكتفاء، بل تزيدها تلهفًا وسعارًا.

وليس هٰذا ٱدعاء نظريًا، بل هي الصورة الواقعية الممثلة للعيان، في المجتمعات التي تسودها الإباحية والتي ينطلق فيها الناس من كل قيد ويكفرون بكل فضيلة..

فرغم أن الناس في المجتمعات المادية قد أهدروا كل المثل الخلقية وانخلعوا من ربقة الحياء وانطلقوا من كل الضوابط التي تنظم حركة الغريزة، وهبطوا إلىٰ الفوضىٰ المتناهية التي لا تستخفي ولا تستحي، وأباح بعضهم لبعض حرية العلاقات بلا حدود.. رغم هٰذا كله لم تقنع الغرائز ولم تسكن ولم تهدأ، بل زادت طغيانًا وسعارًا وانطلاقًا ولا تزال..

يقول صاحب كتاب «الإنسان بين المادية والإسلام» -بتصرف:

«لقد ثبت من التجربة أن كثرة الغذاء لا تطفئ الغريزة، بل تزيدها ٱشتعالًا حتىٰ تصل بها إلىٰ السعار المجنون. وتلك هي النتيجة المنطقية التي تتفق مع الآراء النظرية، ولكننا سنستمد شواهدها من الحياة الأمريكية.. فلو أن الٱطمئنان إلىٰ الإباحة يؤدي إلىٰ تهذيب الغريزة وانطفاء ثورتها الجامحة ما رأينا تلك المظاهر التي لا توجد بهٰذه الدرجة الفظيعة إلا مع الحرمان الشديد..

فلم يقل أحد ممن شهدوا الحياة الأمريكية عن قرب وامتزجوا بها: إن الفتىٰ والفتاة حين يلتقيان هناك، يلجآن إلىٰ شيء من الغزل الذي تلجأ إليه بعض الحيوانات ذاتها قبل نزوة الأجساد. بل يقولون جميعًا إنهم يلتقون،

---

(١) «الإسلام والمشكلة الجنسية» ص ٣٢-٣٥.

شبانا وشابات، وفي عيونهم اللهفة الواضحة والنداء المكشوف.

وهٰذا وحده دليل علىٰ أن شيئًا من التهذيب لم يلحق هٰذه الغريزة بالإباحة الكاملة المطلقة. وهم يقولون لك: إننا علىٰ عجل. ولا وقت لدينا ننفقه في الغزل.

ففيم هم مُعجْلون؟ وما هٰذا الشغل الشاغل الذي لا يجد دقائق قليلة يكسب فيها متعة نفسية. إنهم يجرون إلىٰ نواديهم الليلية ليلعبوا الميسر، أو يشهدوا السينما أو حلقات المصارعة الوحشية. وكل هٰذه كانت تستطيع أن تصبر بضع دقائق لو وجدت الرغبة في النفوس.

فهي الحيوانية الجامحة التي لم تشبع بالانطلاق المجنون.

ولكننا لا نكتفي بهٰذا الشاهد وهو صريح في الدلالة علىٰ ما نريد.

فما تلك الصور العارية التي تملأ السينما والصحف والمجلات والإعلانات والشوارع والمنزل والنوادي والأحراج؟! وما هٰذا الإقبال النهم من الفتيان والفتيات علىٰ هٰذه الصور؟ أنا أفهم أن يُكبّ عليها الشرق «المحروم» كما يزعمون.. ولٰكن هٰؤلاء ما بالهم؟ ولماذا ينفقون كل هٰذا الوقت والجهد في رؤية تلك الصور.. لا حيث تقابلهم مصادفة فحسب، بل في أماكن خاصة يسعون إليها سعيًا.. ولماذا تباع منها الأعداد الهائلة لقوم لا يشعرون بلذعة الحرمان..؟!

إن الغريزة إذن لم تنطفئ ولم تتهذب، وإنما ٱشتعل أوارها وزادت لهفة مع الٱنطلاق المجنون» اهـ.

المبحث الثاني

أثر الإِباحية والاختلاط على الأمن و الاستقرار

الإباحية والاختلاط تهدد الأستقرار وتبشر بالهزيمة .

فمن المعلوم تاريخيًّا أن من أكبر أسباب ٱنهيار الحضارة اليونانية تبرج المرأة ومخالطتها للرجال، ومبالغتها في الزينة والاختلاط .

ومثل ذلك حصل تمامًا للرومانيين؛ فقد كانت المرأة في أول حضارتهم مصونة، محتشمة؛ فاستطاعوا أن يفتحوا الفتوح ويوطدوا أركان إمبراطوريتهم العظيمة، فلما تبرجت المرأة وأصبحت ترتاد المنتديات والمجالس العامة وهي في أتم زينة وأبهىٰ حلة فسدت أخلاق الرجال، وضعفت ملكتهم الحربية، وانهارت حضارتهم ٱنهيارًا مريعًا .

تقول دائرة معارف القرن التاسع عشر:

(كان النساء عند الرومانيين محبات للعمل مثل محبة الرجال له، وكن يشتغلن في بيوتهن، أما الأزواج والآباء فكانوا يقتحمون غمرات الحروب، وكان أهم أعمال النساء بعد تدبير المنزل الغزل وشغل الصوف) .

ثم دعاهم بعد ذلك داعي اللهو والترف إلىٰ إخراج النساء من خدورهن؛ ليحضرن معهم مجالس الأنس والطرب، فخرجن كخروج الفؤاد من بين الأضالع، فتمكن الرجل لمحض حظ نفسه من إتلاف أخلاقهن وتدنيس طهارتهن وهتك حيائهن حتىٰ صرن يحضرن المراقص ويغنين في المنتديات، وساد سلطانهن حتىٰ صار لهن الصوت الأول في تعيين رجال السياسة وخلعهم، فلم تلبث دولة الرومان علىٰ هٰذه الحالة حتىٰ جاءها الخراب من حيث تدري ولا تدري .

وقد قام في اليونان حكماء نبهوا أمتهم إلىٰ أخطار التهاون في تبرج المرأة واختلاطها بالرجال، قالت دائرة معارف القرن التاسع عشر:

(لما حصلت لدىٰ الرومان ثورة يقصد بها نسخ القانون الذي كان يحدد

بذخ النساء وتبرجهن . قام (كاتون) وهو ذلك الملك الروماني المشهور بالفلسفة والحكمة بين جمهور الرومانيين في القرن الثاني قبل الميلاد وقال:

«أتتوهمون معشر الرومانيين أنه يسهل عليكم ٱحتمال النساء والرضاء بهن إذا مكنتموهن من فصم الروابط التي تقيد ٱستقلالهن وتخضعهن لأزواجهن؟ ألم يصعب علينا حتىٰ مع وجود هٰذه القيود إلجاؤهن إلىٰ أداء واجباتهن؟ أما ترون أنهن سيصرن مساويات لنا وسيوقعننا تحت نيرانهن؟ أي حجة مقبولة يمكنكم بسطها؛ لتبرئة ٱجتماعهن الثوري؟ لقد أجابتني واحدة منهن قائلة: إننا نريد أن نكون متلألئات في الذهب والأقمشة القرمزية، وأن نتمشىٰ في طرق المدينة في أيام الأعياد وسائر الأيام الأخرىٰ، ونركب في المركبات الفخمة؛ لأجل أن نظهر ٱنتصارنا علىٰ ذلك القانون الممسوخ الذي يجبرهن علىٰ عدم الٱبتذال وأن نتمتع بحرية ٱنتخابكم، ونريد أيضًا أن لا تضعوا حدًّا لنفقاتنا وبذخنا».

(فيا أيها الرومان لقد سمعتموني كثيرًا ما أشكوا من إسراف الرجال والنساء والعامة والمشترعين أيضًا، ولقد سمعتموني كثيرًا ما أقول: إن الجمهورية مصابة بدائين متناقضين: الشح والبذخ، وهما الداءان اللذان قلبا الممالك العظيمة رأسًا علىٰ عقب) .

ثم أردفت دائرة معارف القرن التاسع عشر تقول: (إن (كاتون) لم ينجح في دفاعه عن ذلك القانون، ولٰكن تحققت إنذاراته كاملة، وفي حياتنا الٱجتماعية الحاضرة التي يتمتع فيها النساء بحرية مفرطة نرىٰ دناءة ذوقهن (كذا! ..) وميلهن الشديد الذي يحملهن دائمًا علىٰ الٱشتغال بجمالهن وبكل ما يزيد حسنهن ورواءهن، كل ذلك أكثر حظًّا مما كانت عليه الحالة في روما)[1].

---

(١) «المرأة بين الفقه والقانون» ص١٢٦-١٣٠.

ثم قالت دائرة المعارف:

(إنا لسنا أول من لاحظ هٰذا الأثر السيئ الذي يحدثه حب النساء للزينة يومًا فيومًا علىٰ أخلاقنا، فإن أشهر كتابنا لم يهملوا الاشتغال بهٰذا الموضوع الخطير، فكيف النجاة من هٰذا الداء الذي يقرض مدنيتنا الحالية ويهددنا بسقوط سريع جدًّا، وإن شئت فقل: بانحطاط لا دواء له).

فحين تبتلىٰ أمة من الأمم بمثل هٰذه الآفات بسبب تفحشها وتهتكها .. وحين تتبدد ثروتها، وتتهدم أخلاقها، وتنفصم أواصرها .. وحين تجتاحها الأمراض الفتاكة تكون قد فقدت مقومات وجودها، وأسباب بقائها واستمرارها، ومن ثم تكون قد حكمت علىٰ نفسها بالإعدام ..

والتاريخ البشري يؤكد هٰذه الحقيقة .. يؤكدها قديمًا ويؤكدها حديثًا . يؤكدها قديمًا حين يكشف عن أسباب انهيار الامبراطوريات، ويؤكدها حديثًا حين يبحث في أسباب هزائم الجيوش والدول ..

يقول الكاتب الفرنسي (أندريا موروا) في كتابه «أسباب انهيار فرنسا في الحرب العالمية الثانية»: (من أهم أسباب انهيار فرنسا هو تفسخ الشعب الفرنسي؛ نتيجة لانتشار الرذيلة بين أفراده) . وهٰذا ما حدا بالجنرال ديغول في أعقاب تسلمه زمام السلطة لأن يستدعي رئيس شرطة باريس، ويقول له: (أغلق لي هٰذه المواخير وأوكار الخنافس في عاصمتي) .

يقول الأستاذ أبو الأعلىٰ المودودي[1]:

إن أول ما قد جرَّ علىٰ الفرنسيين تمكن الشهوات منهم انضمحلال قواهم الجسدية تدريجيًا إلىٰ الضعف يومًا فيومًا، فإن الهياج الدائم قد أوهن أعصابهم، وتعبد الشهوات يكاد يأتي علىٰ قوة صبرهم وجلدهم وطغيان الأمراض السرية قد أجحف بصحتهم، فمن أوائل القرن العشرين لا يزال

(١) «الحجاب» ص ٥٩.

حكام الجيش الفرنسي يخفضون من مستوىٰ القوة والصحة البدنية المطلوب في المتطوعة للجندية الفرنسية، علىٰ فترة كل بضع سنين؛ لأن عدد الشبان الوافدين بالمستوىٰ السابق من القوة والصحة لا يزال يقل ويندر في الأمة، علىٰ مسير الأيام، وهٰذا مقياس أمين يدلنا كدلالة مقياس الحرارة - في الصحة والتدقيق - علىٰ كيفية ٱضمحلال القوىٰ الجسدية في الأمة الفرنسية، ومن أهم عوامل هٰذا الٱضمحلال: الأمراض السرية الفتاكة يدل علىٰ ذلك أن كان عدد الجنود الذين ٱضطرت الحكومة إلىٰ أن تعفيهم من العمل وتبعثهم إلىٰ المستشفيات في السنتين الأوليين من سني الحرب العالمية الأولىٰ؛ لكونهم مصابين بمرض الزهري: خمسة وسبعين ألفًا، وابتلي بهٰذا المرض وحده **٢٤٢** جنديًا في آن واحد في ثكنة متوسطة. وتصور - بالله - حال هٰذه الأمة البائسة في الوقت الذي كانت فيه بجانب في المضيق الحرج بين الحياة والموت، فكانت أحوج ما يكون إلىٰ مجاهدة كل واحد من أبنائها المحاربين، لسلامتها وبقائها، وكان كل فرنك من ثورتها مما يُضنُّ به ويوفر، وكانت الحال تدعو إلىٰ بذل أكثر ما يمكن من القوة والوقت وسائر الأدوات والوسائل في سبيل الدفاع، وكان - بجانب آخر - أبناؤها الشباب هٰؤلاء الذين تعطل آلاف منهم عن أعمال الدفاع من جراء ٱنغماسهم في اللذات وما كفىٰ أمتهم ذلك خسرانًا، بل هم ضيقوا جانبًا من ثروة الأمة ووسائلها في علاجهم في تلك الأوضاع الحرجة.

وقد صرح (خروتشوف) سنة **١٩٦٢** بأن مستقبل روسيا في خطر، وأن شباب روسيا لا يؤتمن علىٰ مستقبلها؛ لأنه مائع منحل غارق في الشهوات.

وفي الوقت نفسه صرح (كنيدي) أيضًا بأن مستقبل أمريكا في خطر؛ لأن شبابها منحل غارق في الشهوات، لا يقدر المسئولية الملقاة علىٰ عاتقه، وأنه من بين كل سبعة شبان يتقدمون للتجنيد يوجد ستة غير صالحين؛ لأن الشهوات التي أغرقوا فيها أفسدت ليقاتهم الجسمية والنفسية.

والعرب لم يصلوا في تاريخهم الحديث، والحديث جدًا إلىٰ ما وصلوا إليه من ضعف واستخذاء، ولم يصابوا بما أصيبوا به من هزائم وانتكاسات إلا بانحراف معتقاداتهم، بقوامة الإلحاد والفكر المادي علىٰ حياتهم، بطغيان المجون والتهتك والرذيلة في مجتمعاتهم ..

إن كثيرًا من الوثائق تؤكد أن الخلفيات التي تكمن وراء هزائم العرب المتكررة أمام إسرائيل وبخاصة هزيمة عام ١٩٦٧ والتي تسببت بتدمير القوات الجوية المصرية وسقوط الجولان واحتلال سيناء والضفة الغربية، إنما تتصل بهٰذه الأسباب المشار إليها.

وجاء في كتاب «طريق النصر في معركة الثأر» للواء الركن محمود شيت خطاب قوله:

(الذي أعلمه علم اليقين، ولا شك فيه أبدًا، هو أن الملوث جنسيًا، أو الملوث جيبيًا لا يمكن أن يقاتل في الحرب كما يقاتل الرجال وأريد بالملوث جنسيًا الذي تردىٰ في مهاوي الرذيلة فسقًا وفجورًا، يقضي أيامه مفكرًا في البغايا، ويقضي لياليه في معاشرتهن، ويكشف ذيله علىٰ ما حرم الله ويطمع في أعراض الناس .

وأقصد بالملوث جيبيًا، الذي دخل جيبه المال الحرام رشوة وغشًا وجمعًا للمال من غير طريق مشروع[١] ..

يقول الأستاذ محمد سعيد مبيض[٢]:

الشباب عماد الوطن وفخر الأمم فإذا ربي علىٰ الرجولة والشهامة وعلىٰ مكارم الأخلاق وعلىٰ التضحية والفداء ٱستجابة لأمر الله تعالىٰ كان ذخرًا لأمته في الملمات وحارسًا أمينًا لوطنه لا يؤتين من قبله، وإذا ربي علىٰ الترف

---

(١) «الإسلام والجنس» ص ٦٣-٦٦.

(٢) «إلىٰ غير المحجبات أولًا» ص٨٩.

والميوعة والإغراق في الشهوات خيب أمل أمته وفرط في حق وطنه؛ ولذا كان من أهداف المستعمر إضعاف أخلاق الشعوب التي يود ٱستعمارها وإشغالهم عن قضاياهم القومية والوطنية؛ ليتمكن من السيطرة عليهم؛ لأن إفساد الأخلاق والجرأة علىٰ المنكرات والتنكر للقيم والدين والٱستهتار بنصائح الآباء والموجهين خير وسيلة لتضليل الشعوب والانحراف بهم إلىٰ الدرك الأسفل من التخلف وإلىٰ إعاقتهم عن التقدم والتطور والتحرر. وصدق الشاعر أحمد شوقي إذ يقول:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ويقول الشاعر:

وإذا أصيب القوم في أخلاقهم فأقم عليهم مأتمًا وعويلًا

فإفساد الأخلاق يساعد علىٰ إثارة النعرات والتسلط، وضياع الحق، وسيادة شريعة الغاب وتطبيق القاعدة الٱستعمارية: فرِّقْ تَسُدْ، وانتشار الرشوة والفساد، وبيع الضمائر فيتمكن الٱستعمار من شراء الضمائر وبث أفكاره وتنفيذ مخططاته.

والجنس خير وسيلة لإشغال الشباب عن قضاياه القومية والوطنية، فإذا ٱنتشر الفساد، وابتذل الجنس شغل الشباب عن الجد والعمل وعن الٱهتمام بقضايا أمته الكبرىٰ، وأدىٰ بالتالي إلىٰ إضعاف قوته البدنية والنفسية، فكيف يدافع شباب مائع مستهتر غارق في الشهوات عن وطنه ويموت في سبيله ويحرم متعة الليالي الحمراء والنزهات الخضراء والاستمتاع بالغانيات الفاتنات إنه علىٰ ٱستعداد أن يضحي بكل شيء في سبيل الٱستمتاع بالجنس ولسان حاله يقول مائة كلمة: جبان، ولا كلمة الله يرحمه. لقد خسر آخرته وعمر دنياه فما عليه إلا أن يحرص علىٰ متعة الحياة الدنيا.

ويقول د. علي عبد الحليم[1]:

---

(١) «المرأة المسلمة وفقه الدعوة إلىٰ الله» ص.١٥٣

إن فوضىٰ العلاقات الجنسية قد استطاعت في الماضي أن تحطم أممًا ولا تزال قادرة حتىٰ الآن على تحطيم أمم، وإن المتأمل لبعض التقارير التي يكتبها المخلصون لأممهم من الغرب يجد كثيرًا من النُذر.

إن فرنسا صاحبة الأمبراطورية الكبيرة سقطت تحت أقدام ألمانيا علىٰ مدىٰ أسبوع واحد، وهي كما صرَّح رئيس وزرائها أن فرنسا هزمها الانحلال قبل أن يهزمها الاحتلال.

قام المارشال بيتان رئيس فرنسا في ذلك الوقت يلقي علىٰ الأمة بيانًا عقب الهزيمة المنكرة يقول فيه: «لقد جاءت الهزيمة من الانحلال فدمرت روح الشهوات ما شيدته روح التضحية، وإني أدعوكم أول كل شيء إلى بناء أخلاقي».

وجاء في كتاب «أسباب انهيار فرنسا في الحرب العالمية الثانية» لأندريه موروا قوله: «إن من أهم أسباب انهيار فرنسا هو تفسخ الشعب الفرنسي؛ نتيجة لانتشار الرذيلة بين أفراده».

جاء في جريدة «الشروق» العدد ٢٧١ بتاريخ ٦/٢٢: ١٩٩٧م ما يلي:

يبدو أن مسألة الاختلاط بين الجنسين لم تعد من الأمور البديهية في المجتمعات الغربية، بل صارت في طور المراجعة، وقد ظهرت نزعات متحمسة تروم الفصل بين الجنسين في المعاهد والكليات؛ اتقاء لما تتعرض له البنات الصغيرات والفتيات والنساء من أخطار تتراوح بين التحرشات الجنسية والاغتصابات. وهٰذه الحملة تشهد أوجها في أمريكا. وقد صارت معضلة الاختلاط في صفوف الجيش الأمريكي مصدر قلق يؤرق هرم السلطة الأمريكية. والقضية المطروحة تختزل في هٰذا السؤال الشائك: كيف يمكن التوفيق بين شروط الصرامة والانضباط والآلية في الجيش وما يفرضه واقع الاختلاط الذي صار يشهد امتدادًا متواصلًا من المشكلات؟

هٰذه المشكلات لم تعد في الخفاء.. فقد تم الإعلان عن حصول

مجموعة من عمليات الاغتصاب استهدفت المجندات في إحدىٰ مراكز «ماريلاند» مثلًا.

ولئن كان يحلو لأميرالات وجنرالات الجيش الأمريكي أن يتبجحوا مرددين مقولة: «نحن نمتلك مخططات فورية للحروب والثورات وحتىٰ للزوابع السياسية»، فهنالك قضية تتحداهم ولا يمكن لخططهم العبقرية أن تحيط بها ألا وهي قضية «الجنس»، وقد استفحل أمرها منذ أمد طويل، وما القضايا الأخيرة التي طفت علىٰ السطح بخصوص التحرشات والاغتصابات إلا مظهر من مظاهر هٰذه الممارسات المنتشرة علىٰ ما يبدو وبشكل لافت في مراكز التكوين للجيش البري. أما مؤسسة U.S Navy فقد ٱستعادت بالكاء ماء وجهها إثر كارثة Tailhook التي حصلت سنة ١٩٩١ حيث اعتدىٰ عدد من الضباط علىٰ نساء خلال أحد المؤتمرات الحزبية.. بقطع النظر عن الحرج الذي خلفته حالات ٣٦ امرأة عضوات طاقم تابع لإحدىٰ وحدات الجيش عُدْنَ حوامل من «حرب الخليج»، وقد أودعت شكاوىٰ قضائية ضد البنتاجون بخصوص سياسته المسماة بـ Don't ask, Don't tell التي تختزل التوصية المفروضة علىٰ الشواذ جنسيًا، فلكي تخول لهم الخدمة في صفوف الجيش عليهم بالمقابل أن يستروا شذوذهم بالتكتم التام.

لكن العناصر الشاذة في الجيش الأمريكي صارت تطالب هي الأخرىٰ بحقوقها في ممارسة ميولها الخاصة في العلن، ولسان حالها يقول: «لا تكبلني بالسر ما دام قد أمكن الجهر».

في واقع الأمر فإن قضية الجنس في الجيش الأمريكي تمتلك جذورها العريقة منذ رئاسة جورج واشنطن، الذي وجد نفسه منشغلًا بأمر مداواة جنوده من الأمراض التناسلية المستفحلة.

بقي أن الفرق الواضح الذي آلت إليه الأمور اليوم أن المشكلة لم تعد في عداد الملف الطبي، بل تحولت إلىٰ قضية تهدد أهم القيم الدعائمية

للجيش، ألا وهي الانضباط والنظام.

فالمسألة تحتاج إلىٰ قرارات تنطلق من تحديد سياسة بخصوص الحمل، إلىٰ الإعداد للقتال، مرورًا بإعادة تهيئة حاملات الطائرات، أي بتصميم أجنحة خاصة بالنساء تضم الغرف والأدواش الخاصة بهن. وعلىٰ الرغم من أن النساء لا يمثلن سوىٰ ١٣٪ من فرق الجيش الأمريكي فهٰذا الرقم يفوق أربع مرات ما كان عليه عددهن سنة ١٩٧٣، أي التاريخ الذي قررت فيه الإدارة العسكرية الأمريكية وضع حد للتمييز الجنسي وإقرار مبدأ الاختلاط في الجيش.

ومهما كان حجم عددهن فإمكانات اللقاء الجنسي في ازدياد، بما في ذلك توابعها: الاغتصابات والتحرشات.

ويقول «فردريك بانغ» مساعد وزير الدفاع والمسئول عن سياسة التصرف في قوات الجيش: «كما لا يخفىٰ، هناك تجاذب طبيعي بين الرجال والنساء، وينبغي أن يكون المرء مجنونًا حتىٰ يصدق أن هٰذا الأمر لا يمكن أن يحصل في صفوف الجيش» ويستدرك مضيفًا: (ولكن من واجبنا أن نتدخل عندما يتضح أن هناك علاقات غير مستقيمة).

الحديث عن الاستقامة يحيل كما هو معروف علىٰ قيمة الانضباط الذي ثار خاضعًا لتهديدات الجنس، لذلك فالجيش الأمريكي في وضع لا يحسد عليه: إما أن يمنع الجنس ويراجع سياسة الاختلاط في الجيش، وإن كان هٰذا الحل نسبيًا باعتبار واقع حضور الشواذ، أو أن تستصدر له أحكام بوساطة قوانين تضبط مجرىٰ الأمور وتعلميات تحدد قواعد السلوك والمعاملات». وقد حصل شيء من هٰذا القبيل كمنع الإخوانية أو العلاقات الحميمة بين صاحب المنصب والأعوان التابعين له، لكن العلاقات المذكورة مباحة بين غير المتزوجين ممن هم في المرتبة نفسها، عدا بعض الحالات الاستثنائية الخاصة، أي كأن تكون تلك العلاقات ممنوعة علىٰ متن السفن الحربية وخلال البعثات العسكرية إلىٰ الخارج.

لكن علىٰ الرغم من ذلك فكل هٰذه القوانين تبقىٰ حبرًا علىٰ ورق وقد أفصحت دراسة أنجزت سنة **١٩٩٢** علىٰ **٢٧٢** جنديًا محاربًا نساء ورجال في بعثات حرب الخليج أن النصف من المستجوبين بين الذكور وثلاثة أرباع من النساء المستجوبات أكدوا أن أعضاء وحداتهم كانوا يقيمون علاقات (. . .) وأن نسق العلاقات المذكورة تماثل أو تفوق قليلًا ما دأبوا عليه في الولايات المتحدة.

ومن القوانين التي تنتهك في الخفاء، تلك التي تمنع علىٰ الرقباء المدربين إقامة علاقات حميمة مع المجندات لكن العديد من المجندات الشابات في جيش البر اعترفن بأنهن يخفن علىٰ مستقبلهن المهني وعلىٰ راحتهن إذا ما رفضن الاستجابة لمرادوات رؤسائهن فألئك المدربون يتصرفون تصرف السادة في ذلك العالم الصغير والمنعزل.

ويرىٰ المراقبون أن مصدر المشكلات المذكورة يعود إلىٰ إقدام الجيش علىٰ بث قيم جديدة في السلوك الجنسي، يصعب أن تنسجم مع القيم التقليدية للثقافة الحربية، فينتج عن ذلك تطاير الشرر.

يقول الشيخ محمد أبو زهرة[1]:

أخلاق الأمة هي عدتها وسر قوتها ومناط عظمتها، وإذا كانت أدوات القتال ومعدَّات القتل والفتك هي عدة الحروب التي تدافع بها الدولة أعداءها، وتقاوم بها المعتدين عليها، حتىٰ لا ينفذوا إلىٰ أرضها، فإن الأخلاق هي العدة الداخلية التي تقاوم الفناء، ولا يمكن أن يبقىٰ الانتصار لأمة انحلت أخلاقها وتقطعت روابط الفضيلة بين آحادها، إذ إن الأخلاق هي الصلات التي تربط الآحاد، وإن الأثرة التي تجعل كل امرئ في الأمة يعيش في محيط نفسه ولا يفكر في غيره هي التي تفك العرىٰ، وتقوض الدعائم، وتجعل الأمة قومًا بورًا، ولا ضابط لأمرها، ولا جامعة نفسية تجمعها.

---

(١) «لواء الإسلام» السنة السادسة عشرة، العدد التاسع **١٣٨٢**هـ ص٥٥١ .

المبحث الثالث

آثار الإِباحية والاختلاط على النواحي الاقتصادية

إن طغيان الرذائل والفواحش والمثيرات في المجتمع يلحقها بشكل عفوي شيوع الترف والتبذير والبذخ وإهدار الأموال وتفتيت الثروات وتبديدها فيما يعود علىٰ الناس بأوخم العواقب، وبذلك تضيع علىٰ الأمم والشعوب طاقات وإمكانيات كان يمكن الإِفادة منها في مجالاتها الخيرة كالصناعة والزراعة والعمران وسواها من المجالات التي تحقق لها الرقي والتقدم والرفاهية..

إن عشرات الملايين من سائر العملات في العالم تنفق يوميًا علىٰ (الجنس) وعلىٰ كل ما يتصل به من قريب أو بعيد .

ومما لا يختلف فيه ٱثنان أن الذين يقضون أوقاتهم في سوق الملذات والشهوات هم ممن تخلوا عن الزواج المشروع، وانساقوا وراء الفاحشة الآثمة، فهٰؤلاء يسببون ٱنهيار الٱقتصاد في الأمة وذلك:

* لضعف القوىٰ .
* وقلة الإنتاج.
* واتخاذ الكسب غير المشروع .

أما ضعف القوىٰ: فلأن العزب الذي ينساق وراء اللذة والفاحشة يمرض عقليًا، ويمرض جسميًا، ويمرض خلقيًا، ويمرض نفسيًا ...

ولا شك أن المريض حين يمرض تضعف قواه، وينحط جسمه، وتنهار عزيمته، فلا يستطيع أن ينهض بمسئولية علىٰ وجهها الأكمل، ولا أن يضطلع بواجب علىٰ النهج الصحيح!! .

وفي ذلك تعطيل للاقتصاد، وانهيار للحضارة ..

أما قلة الإنتاج: فلأن الأموال تبدد في طريق الميوعة والشهوات، وإشباع نهم الغريزة والجنس، لا في طريق الإنتاج، ومصلحة الٱقتصاد .. ولأن المتحلل الماجن لا يخلص في عمله، ولا ينهض بمسئوليته .. لانعدام الرادع الديني، والزاجر الأخلاقي في قلبه وضميره .. وفي ذلك فساد

للأخلاق، وطعنة للاقتصاد ..

أما اتخاذ الكسب غير المشروع: فلأن الماجن الوضيع الذي ليس له من تقوىٰ الله رادع يريد أن يحصل علىٰ المال لإشباع نهمه المادي من أي طريق .. طريق الربا والميسر، طريق اللهو والترف، طريق الرشوة والاختلاس، طريق الاتجار بالأعراض، والاتجار بالمصورات العارية، والاتجار بالمجلات الماجنة، والاتجار بالأفلام الخليعة، والاتجار بالمسكرات والمخدرات، والاتجار بالكتب الفاحشة والقصص الغرامية..

إلىٰ غير ذلك من هٰذه الوسائل غير المشروعة في جمع المال التي لا تعود علىٰ المجتمع إلا بالخسران والضرر، والفقر والبطالة، وقتل القيم ومكارم الأخلاق، إذ بها تهدر الطاقات المنتجة، وتتعطل المكاسب المشروعة، ويعيش المجتمع أسير الاستغلال واللصوصية، وسجين الأنانية والمحسوبية، وعبد الشهوة، واللذة والهوىٰ!! وفي ذلك تحطيم لتقدم الأمة، وتضعيف لاقتصادها وإنتاجها[١].

وجاء في الدراسة التي قام بها خبير اقتصادي من مؤسسة «دي أر أي مك غروهيل» استنادًا إلىٰ إحصائيات منظمة الصحة العالمية أن الكلفة بالنسبة للولايات المتحدة بين ٨١ مليار دولار و١٠٧ مليارات أي حوالي واحد بالمائة من ناتجها الوطني العام.

ألا ترون أن الأخلاق توفر مليارات الدولارات[٢]؟

---

(١) «تربية الأولاد في الإسلام» (٢/ ٥٤٤-٥٤٦).

(٢) «رسالة إلىٰ حواء» ص٥٨٦ .

المبحث الرابع

آثار الإباحية والاختلاط على الناحية الصحية

لقد بات في حكم المؤكد -طبيًّا- أن الزنا يتسبب في كثير من الأمراض والأوبئة الفتاكة والتي تتفاوت في خطورتها ومضاعفتها، كما أنه يتسبب أيضًا في سريانها[1] يقول الدكتور جون بيستون:

---

(١) جاء في مجلة «الأمة» في عدد شوال ١٤٠٤هـ ص٢٨ ما يلي:

وللتدليل علىٰ سريان الأمراض السارية من الفرد المصاب إلىٰ المجتمع من حوله يكفي أن أنقل هٰذا المثل الواقعي الموثق علميًا ووبائيًا في بحث دراسي أجري في بريطانيا في أواسط السبيعينات من هٰذا القرن، يقول تقرير الدراسة هٰذه تسبب شخص مصاب واحد بنقل عدوىٰ مرضه الجنسي إلىٰ ألف وستمائة وتسعة وثلاثين شخصًا آخرين (١٦٣٩).

وفي هٰذا المثل الطريف والمخيف معًا حقيقتان مُرَّتان، أولهما: أن المجتمعات الغربية -وهي لا تزال تتحكم بالعالم الإسلامي لسوء الحظ- مريضة نفسيًا، وهٰذا المرض هو الذي يقود إلىٰ ارتفاع هائل في انتشار الأمراض الجنسية فيها بشكل وبائي، ولا يمكن تفسير انتقال العدوىٰ من امرأة واحدة مصابة -وهي مومسًا محترفة بالمعنىٰ التقليدي- إلىٰ ألف وستمائة وتسعة وثلاثين شخصًا آخرين، أقول: لا يمكن تفسير ذلك إلا بالهوس الجنسي المَرَضي، وما الاختلاط الجنسي المسعور الذي لا يعرف قيمًا وحدودًا وأخلاقًا وأديانًا.. إلا العارض لهٰذا المرض.

إن الكلبة السائبة في الأزقة.. لا تستطيع هٰذا الإنجاز الحضاري (!!!) في مجتمعات الكلاب، وأعتذر للكلاب علىٰ تشبيهها بهٰذا الجيل الغربي الذي فقد عقله وإنسانيته.. بل وحيوانيته، فالغرائز التي تتحكم بالصلات الجنسية بين ذكور الحيوانات وإناثها لها ضوابط زمانية، فهناك ما يسمىٰ علميًا بـ(فترة الحرارة) في أوقات معينة في فصول معروفة.. أما المتحضرون الغربيون!!! فلا ضوابط ولا روابط لا وأزمنة ولا أمكنة!!

ثم يريدون منا أن نقلد الغرب، كالقرود في نمط معيشته، فإذا رفض الشباب هٰذا من باب العلم والمنطق والصحة، إن لم نقل: من باب التعفف والحياء والقيم الفاضلة،

إن القرائن التي جمعت من عدة دراسات تقول: إن الأمراض الجنسية معظمها تنتج من العلاقات خارج نطاق الزواج.

ويقول الدكتور كلود سكوت نيكول:

إن المشكلة التي تواجهنا اليوم هي تبدل قيمنا الأخلاقية التي شجعت وتشجع إقامة العلاقات الجنسية المحرمة، وهٰذه بدورها سببت ٱزديادا حادا في إصابات الأمراض الناتجة عن الإباحة الجنسية .

١-الزهري sypnilis

وهو مرض تناسلي مزمن سريع الٱنتقال، واسع الٱنتشار، ٱكتشف في نهاية القرن الخامس عشر ميلادي، عندما ٱنتشر طاعونه في أوربا، وأجزاء من آسيا، مما أدىٰ إلىٰ وفاة الآلاف، وإصابة آخرين بعاهات مستديمة، هٰذا ولقد عاد هٰذا المرض إلىٰ الٱنتشار مرة أخرىٰ، وذلك بعد ظهور مرض «الإيدز»، في حين ظن الجميع أنه قد تم القضاء عليه كليا بعد ٱكتشاف الدواء المناسب لعلاجه.

والزهري مرض ينتقل عن طريق الٱتصال الجنسي أساسا، أو عن طريق المشيمة من الأم إلىٰ جنينها، أو بواسطة نقل الدم، أو بواسطة الملامسة للطور المعدي.

والوسيلة الأساسية في ٱنتقاله هي الٱتصال الجنسي، وتنتقل العدوىٰ من المصاب إلىٰ السليم إما بواسطة النكاح الطبيعي (الجهاز التناسلي للرجل والمرأة) أو الشاذ (الشرج والقناة الشرجية والفم والبلعوم)، أو بواسطة القبلات من شخص إصابته في شفتيه، ولا يكاد يوجد عضو لا يمكن أن يصاب بالزهري الأولي، وإن كانت الإصابة عادة هي في الأماكن التي ذكرناها.

انفتحت أبواق المتغربين متهمة هٰذا الشباب الواعي بالاسطوانة المكسورة إيَّاها: تعصب.. تخلف.. تشدد.. تزمت.. انغلاق.. تطرف .. رجعية.. ظلامية.. إلخ!!.

أنواع الزهري

ينقسم الزهري إلىٰ ثلاثة أنواع :

أولا : الزهري المكتسب:

ينتقل المرض من شخص مصاب إلىٰ آخر غير مصاب عن طريق الأتصال الجنسي في القبل أو الدبر أو الفم، ولذلك فإنه ينتشر عن طريق الدعارة، وعن طريق الشذوذ الجنسي بين ممارسي عمل قوم لوط، كما ينتشر أحيانا عن طريق التقبيل، أو عن طريق أستعمال المناشف والملابس الخاصة بالمريض[١].

---

(١) تظهر الأعراض على المصاب بعد فترة حضانة قد تمتد من (٩-٩٠) يومًا، وتنقسم إلىٰ مراحل:

أ- **المرحلة الأولىٰ**: تظهر حبيبة صديدية غير مؤلمة علىٰ الأعضاء التناسلية في ٩٥٪ من الحالات، وعلىٰ الشفاه وبين فروج الأصابع، وعند حلمتي الثديين في ٥٪ منها، ويصاحب ذلك تضخم في العقد اللمفاوية المجاورة، ثم تنفقئ الحبيبة لتكون قرحة تبقىٰ لفترة من (٢-٦) أسابيع لتلتئم بعدها تلقائيًا، وتختفي.

ب- **المرحلة الثانية**: بعد (٦) أسابيع إلىٰ (٦) شهور من اختفاء القرحة تظهر على المريض أعراض حمىٰ خفيفة وصداع وآلام بالجسم، مع تضخم العقد اللمفاوية في جميع أنحاء الجسم، مع ظهور طفح علىٰ جلد الأعضاء التناسلية، والشفتين واللسان وأغشيتها المخاطية، كما تظهر ناميات ثولولية قرب الشرج والأعضاء التناسلية. هٰذا وقد تمتد الإصابة إلىٰ الكبد والطحال والكلىٰ والدماغ والحنجرة.

جـ- **المرحلة الكامنة**: تبدأ بعد المرحلة الثانية وتتميز بوجود جرثومية المرض في دم المصاب دون ظهور أعراض عليه، وقد تدوم هٰذه المرحلة لسنوات عديدة.

د- **المرحلة الثالثة (المتأخرة)**: تصيب حوالي معظم الحالات غير المعالجة وتتميز بظهور أورام صمغية مفردة أو متعددة، بعد (١-١٠) سنوات من الإصابة، علىٰ الجلد والأغشية المخاطية، وتصيب الجهاز التنفسي، والجهاز الهضمي، والجهاز الدوري القلب والأوعية الدموية) والجهاز العصبي (الدماغ والأعصاب)، والكليتين والخصيتين والعظام والعضلات.

أثر الزهري علىٰ الدورة الدموية:

يصاب الجهاز الدوري والقلب نتيجة الزهري في المرحلة الثالثة، وشكل إصابة الجهاز الدوري والقلب ما بين ١٢ إلىٰ ٣٠ بالمائة من جميع إصابات المرحلة الثالثة، وفي كثير من الأحيان تتزامن إصابة الجهاز الدوري مع إصابة الجهاز العصبي أو غيرهما من الأجهزة.

وتحدث الإصابة في الجهاز الدوري بعد فترة تتراوح ما بين عشر إلىٰ ثلاثين سنة منذ بدء الإصابة الأولية، وغالبا ما يكون المريض قد نسي تلك الإصابة التي ٱختفت منذ زمن بعيد دون أن تترك آثارا ظاهرة، فإذا به يشكو من ألم في الصدر ونهج (ضيق في النفس) مع أقل مجهود، وضربات سريعة أو غير منتظمة في القلب، مع وجود تضخم في القلب أو في الأبهر، وقد تصل درجة التضخم مرحلة يجعلها تظهر القفص علىٰ هيئة ورم نابض فوق القفص وتكون إصابة الجهاز الدوري متمثلة في الآتي:

وينتج عن الإصابة بهٰذه المرحلة المضاعفات التالية:

١- إصابة جدار وصمام الشريان الأبهر «الأورطىٰ» مما يؤدي إلىٰ تضخم البطين الأيسر للقلب، وهبوط القلب.

٢- التهاب السحايا مما يؤدي إلىٰ الإصابة بشلل جزئي، أو إلىٰ تلف بعض أعضاء الجسم.

٣- تجلطات وانسدادات في الأوعية الدموية في الدماغ، مما يؤدي إلىٰ شلل الأعصاب الجمجمية، والتهاب النخاع الشوكي.

٤- السهام الظهري: وهو مرض مزمن متدرج ببطء، مسبب للتفسخ، يصيب الحبل الشوكي مما يسبب فقدان الأفعال الانعكاسية، وضعفًا في الإحساس الاهتزازي والوضعي، مع عدم القدرة على تنسيق الحركات العضلية الإرادية.

٥- الشلل العام، تصل الإصابة إلىٰ الدماغ نفسه، يصاب المريض بفقدان القوة على التركيز، وبفقدان الذاكرة يصبح صعب المزاج، سريع الغضب، ويصاب برعشة مزمنة في أصابع اليدين.

١-قصور صمام الأبهر Aortic valve insufficiency **ويدعىٰ أيضا قلس أو رجوع الأبهر** : Aortic regurgitation

وذلك لرجوع الدم إلىٰ القلب من خلال صمام الأبهر الذي خربه وحطمه ميكروب الزهري ويسبب ذلك تضخم عضلة القلب وخاصة البطين الأيسر ثم هبوط القلب الأيسر، وقصوره عن أداء وظيفته في ضخ الدم فيتجمع الدم في الرئتين مما يسبب ٱحتقانهما؛ وذلك هو سبب ضيق التنفس، أو النهج الشديد الذي يعاني منه المريض المصاب في صمام الأبهر، ويحتاج هٰذا المرض إلىٰ ٱستبدال الصمام التالف بصمام آخر وهي عملية معقدة وخاصة لأن الأبهر نفسه متسع فيحتاج إلىٰ تضييق.

٢-انتفاخ الأبهر (أم الدم الأبهري) : Aortic aneurysm

وينتفخ شريان الأبهر نتيجة إصابة جداره بالزهري، وتبدأ الإصابة عادة بالتهاب في الأبهر (الأورطي) ثم نتيجة نخر (Necrosis) الطبقة المتوسطة من شريان الأبهر يتورم الأبهر، وتتسع هٰذه المنطقة حتىٰ تأكل ما جاورها من أنسجة، ويختلف موقع الٱنتفاخ، وعادة ما يكون بعد خروج الأبهر من القلب مباشرة، وتحت القص مما يسبب ورما نابضا يراه الشخص ويحسه إذا وضع راحته علىٰ أعلىٰ القص من القفص الصدري Pulsatile Swelling وقد تكون الإصابة في الأبهر البطني Abdominal aorta وأيضا هاهنا يمكن أن يحس الطبيب ورما نابضا متسقا مع النبض.

وأخطر ما في هٰذا الورم أو الٱنتفاخ (أم الدم) أنه قد ينفجر فيموت المريض إذ إنه ينزف كمية هائلة من الدم داخليًا، ومن النادر جدا أن ينجح الأطباء في إيقاف هٰذا النزف متىٰ حدث.

وعلاجه متىٰ تم التشخيص بعد أخذ البنسلين هو إجراء عملية جراحية واستبدال الجزء المنتفخ من الأبهر بوعاء صناعي، وهٰذه عملية جراحية بالغة الدقة والصعوبة، ولا يستطيع إجراؤها إلا جراح متخصص في جراحة القلب والشرايين.

٣-ضيق فتحة الشرايين الإكليلية أو التاجية:

وبما أن الشريان التاجي هو الذي يغذي عضلة القلب، وهناك ثلاثة شرايين تاجية -فإن ضيق فتحة أحد هٰذه الشرايين وعادة ما تحصل في الشريان التاجي الأيمن أو الأيسر عند خروجهما من الشريان الأبهر (الأورطي)، فإن ذلك يؤدي إلىٰ الذبحة الصدرية angina Pectoris وإلىٰ قصور القلب Heart Failure .. وإلىٰ جلطة القلب Myocardial Infarction وذلك عند ٱنسداد هٰذه الفتحة.

والمشكلة العويصة أن هٰذه الإصابات الثلاث قد تكون مجتمعة في آن واحد، وفي شخص واحد، مع وجود أنواع مختلفة من الشلل نتيجة إصابة الجهاز العصبي بالسفيلس .

ويحتاج الأمر أيضا إلىٰ إجراء عملية تغيير الشرايين التاجية، كما يحتاج إلىٰ عملية ترقيع الأبهر بوعاء صناعي .

أثر الزهري في العظام والجلد :

وتصاب العظام والجلد في المرحلة الثالثة من الزهري وبالإضافة إلىٰ إصابة المفاصل نتيجة الزهري العصبي بسبب فقدان الإحساسات العميقة كما في ٱعتلال مفاصل شاركو Charcot athropathy والذي يؤدي أيضا إلىٰ الموت ونخر (Necrosis) العظام الداخلة في تركيب المفصل، إلا أن الزهري في المرحلة الثالثة يصيب العظام بطريق مباشر عن طريق تكون الصموغ في العظم والسمحاق . Periosteum وتمثل إصابة العظام وما حولها من الأنسجة والجلد ١٥ بالمائة من حالات الزهري في المرحلة الثالثة.

وتظهر هٰذه الإصابات في فترة تتراوح ما بين ثلاث إلىٰ عشرين سنة منذ الإصابة بقرحة الزهري الأولية.

وغالبا ما يكون المريض قد نسي تلك القرحة التي ٱندثرت وشفيت منذ أعوام عديدة.

أما إصابات الجلد فتتمثل في صمغيات تتكون علىٰ الجلد، وتظهر علىٰ هيئة عقد منفردة أو مجتمعة، وفي الغالب تتقرح هٰذه العقد Nodules وبينما تندمل القرحة في الوسط تتسع في أطرافها، وتأخذ القرحة أشكالا عديدة دائرية وملفوفة ومتعرجة، وفي قاع القرحة تنسلخ مادة كما تنسلخ الأفعىٰ من جلدها تاركة وراءها ما يعرف "انسلاخ الجلد بعد غسله Ieather Slough Wash وتصاب هٰذه العقد والتقرحات بحراشين Squamous Change أثناء تقشفها مما يجعل الجلد يبدو - حتىٰ بعد ٱندماله بالعلاج - شبيها بورق الحمامات، وهي ندب خفيفة Scarringtissue Paper وتكون مصحوبة بزيادة في صبغ الجلد وأحيانا بنقصان الصبغة Hyper or Hypo Pigmentation .

وتتكون الصموغ أيضا علىٰ سمحاق العظام مما يجعلها تنمو تحت الجلد، وتنفجر مكونة قرحة تصل إلىٰ ٤ أو ٥ سنتيمترات.

وأكثر العظام إصابة بالزهري هي عظام القحفة والرأس، وعظام الترقوة وعظام الظنبوب (والظنبوب هو عظمة الساق الغليظة، أما الرفيعة فتسمىٰ الشظية).

ثانيا: الزهرىٰ الولادىٰ.

تنتقل فيه العدوىٰ من الأم المصابة بالمرض، نتيجة ٱقترافها لجريمة الزنا، أو نتيجة زنا زوجها الذي يقوم بنقل المرض ومن ثم إليها، ثم إلىٰ الجنين الذي تحمله، وتتفاوت نسبة إصابة الجنين بالمرض ما بين (٧٠٪-١٠٠٪) إذا كانت الأم دون علاج، أما إذا كانت معالجة بشكل جيد فإن نسبة الإصابة تنخفض إلىٰ ٣٪

ويتم نقل العدوىٰ إلىٰ الجنين عن طريقين :

أ-أثناء الحمل، بواسطة الدم، وعبر المشيمة، وذلك في الأسبوع (١٦-٢٠) من الحمل بشكل عام.

ب-أثناء الولادة نتيجة مرور الطفل عبر الأعضاء التناسلية المصابة بالمرض عند الأم، وهٰذا أمر نادر الحدوث

وإذا لم تحصل الأم علىٰ العلاج، فإن الإجهاض يكون حتميا في مرحلة الثلث الثاني من الحمل، أما إذا ٱستمر الحمل فإن الطفل قد يولد ميتا أو خديجا، أو يولد فىٰ أوانه مع إصابات جلدية وتشوهات خلقية كبيرة يموت علىٰ إثرها. هٰذا وقد يولد طبيعيا ولا يتم ٱكتشاف إصابته إلا بإجراء تحاليل مخبرية.

وأما أعراضه فتتمثل فيما يلي :

أ-إصابة الجلد والأغشية المخاطية

وتظهر هٰذه باكرا علىٰ شكل:

١-زكام زهري: يبدأ بعد (١٥-٣٠) يوما من الولادة علىٰ شكل سيلان مصلى صديدي، وغالبا ما يكون مخلوطا بالدم، مع ٱحتقان وتقرح حول الفم والأنف دون ٱرتفاع في درجة الحرارة ويكون هٰذا الزكام مزمنًا صعب العلاج

٢-الزهريات الحمامية : تبدأ بعد الزكام، وتظهر علىٰ الإلية والفخذين، وحول الفم والأنف ثم تمتد لتشمل الجسم كله، وخاصة الراحتين والأخمصين.

وتكون الزهريات هٰذه علىٰ شكل بقع دائرية أو بيضاوية بلون زهري فاتح أو أحمر قان، كما تظهر تشققات عمودية أو أفقية حول الفم وعلىٰ الشفاه .

تبقىٰ هٰذه الزهريات لعدة أسابيع، ثم تبدأ بالاختفاء تاركة وراءها أثرا يبقىٰ عدة ٱشهر، بينما تختفي التشققات تاركة ندبات بيضاء مكانها.

هٰذا ويتشكل حول الشرج والأعضاء التناسلية الخارجية ناميات ثولولية.

ج - إصابة العظام والمفاصل علىٰ شكل :

١-التهاب الغضروف والعظم في الأطراف يبدأ الٱلتهاب في أواخر الحمل، وتظهر أعراضه بعد الولادة علىٰ شكل آلام شديدة في الأطراف مع

شلل كاذب، ويحدث الشفاء بعد عدة أسابيع من العلاج، مع ظهور تشوهات خطيرة في المفاصل.

٢-التهاب الغشاء المغطي للعظام السمحاق : لا يظهر قبل الشهر الثالث من العمر، ويصيب العظام الطويلة في الأطراف السفلية.

٣-التهاب العظم والنخاع : وذلك مع التهاب السمحاق أو بدونه.

د- إصابة الأحشاء وتتمثل في:

. إصابة الكبد مع أو دون الطحال، مما يسبب ظهور يرقان ونزوف جلدية مع تضخم في الكبد

. تضخم العقد اللمفاوية في الجسم

. إصابة الكلىٰ والخصية عند (الذكور) والمبيض (عند الأناث)

. التهاب العصب البصري والبؤبؤ مما قد يؤدىٰ إلىٰ العمىٰ

. إصابة الأذن الداخلية مما قد يؤدىٰ إلىٰ الصمم

. فقر دم مع نقص في عدد الصفائح الدموية

. أرتفاع في درجة حرارة الجسم "الحمىٰ"

. تشوه الأسنان فتصبح أطرافها مثل المنشار

. تشوه شكل الأنف فيصبح علىٰ شكل السرج

٢. السيلان A Gonorrhoe

مرض تناسلي يصيب الذكور والإناث علىٰ حد سواء، وفي جميع فئات العمر، علىٰ شكل التهاب حاد ينتج غالبا عن طريق الأتصال الجنسي، كما قد ينتشر أحيانا عن طريق الملامسة غير المباشرة للمريض، وذلك عند أستعمال أدواته الخاصة، مثل المناشف والملابس الداخلية ينتشر هٰذا المرض عن طريق حاملي الجرثومة الذين لا تظهر عليهم أعراض المرض، أو يعانون من أعراض بسيطة غير ملحوظة، ولذلك تعتبر المرأة المصابة بهٰذا المرض بؤرة لنشر المرض لكل من يتصل بها جنسيا، حيث إنها تحتفظ

بالجراثيم المسببة للمرض في أعضائها التناسلية لفترة طويلة تتراوح ما بين شهر إلىٰ عشر سنوات.

١. طبيعة المرض عند الرجال: يعتبر مجرىٰ البول الأمامي المكان الأكثر إصابة، مما يؤدي إلىٰ التهابه، فيشكو المريض من حرقة وعسر أثناء التبول مع كثرة في عدد مرات التبول مع الإحساس بالرغبة في التبول، بالإضافة إلىٰ خروج إفرازات مخاطية متقيحة بيضاء، أو مائلة للبياض، سرعان ما تصبح كريهة الرائحة كثيفة صفراء مخضرة أو خضراء مصفرة . أما الشواذ جنسيا ممن يمارس معهم عمل قوم لوط من الجنسين، فإنهم يصابون بالتهاب في المستقيم (الجزء الأخير من الأمعاء) دون ظهور أعراض، أو بخروج إفرازات مخاطية مصحوبة بالدم من الشرج، ويشكو هٰؤلاء من ألم وحرقة أثناء عملية التبرز، مع حكة حول فتحة الشرج.

وهناك حوالي (٥٪-١٠٪) من المصابين يبقون دون أعراض، وبالتالي لا يحصلون علىٰ أي علاج؛ مما يجعل منهم مصدرا مهما وخطرا في نشر المرض.

إذا لم يحصل هٰؤلاء المرضىٰ علىٰ العلاج المناسب، وفي الوقت المناسب فإنهم يصبحون عرضة للإصابة بإحدىٰ أو جميع المضاعفات التالية:

أ-التهاب غدة «البروستاتا» الحاد : فيشكو المصاب من ٱرتفاع في درجة الحرارة (حمىٰ)، مع ٱنحباس البول بسبب تضخم الغدة حول مجرىٰ البول .

ب-التهاب غدة «البروستاتا» المزمن: يبقىٰ المصاب دون أعراض أحيانا، أو يشكو من ضيق في منطقة الحوض والشرج والقضيب.

جـ. التهاب الحويصلة المنوية: حيث يشكو المصاب من خروج دم في آخر عملية التبول، وخروج مني مخلوط بالدم.

د. التهاب البربخ والخصية والحبل المنوي، مما قد يؤدي إلىٰ إصابة

المريض بالعقم إذا ما أصيبت الخصيتان.

هـ . التهاب غدد (تايسون) و(ليتري) و (كوبر) المحيطة بمجرىٰ البول . مما يؤدي إلىٰ قلة إفرازاتها وجفاف العضو التناسلي.

طبيعة المرض عند النساء:

تصاب المريضة بالتهاب في مجرىٰ البول الأمامي، فتشكو من حرقة وعسر أثناء التبول، مع كثرة في عدد مرات التبول مع الإحساس بالرغبة في التبول.

وإذا لم يتم علاج هٰؤلاء المريضات في الوقت المناسب فإنهن يصبحن عرضة للإصابة بإحدىٰ أو جميع المضاعفات التالية.

أ-التهاب غدة (سكاين)،والتي تقع علىٰ جانبي مجرىٰ البول؛ والتهاب غدة (بارثولين)، والتي تقع في الجزء الأسفل من الشفر الداخلي (الأصغر) للفرج مما يؤدي إلىٰ جفاف العضو التناسلي .

هٰذا وقد يتحول الٱلتهاب إلىٰ خراج يحتاج لمعالجته جراحيا أحيانا.

ب-التهاب عنق الرحم مما يسبب خروج إفرازات مهبلية صديدية ذات رائحة كريهة.

جـ - التهاب قنوات الرحم المؤدية إلىٰ المبيض، والتهاب المبايض، والتهاب تجويف الرحم، فتشكو المريضة من ٱرتفاع في درجة حرارة الجسم مع آلام بأسفل البطن، وقد تؤدي هٰذه الٱلتهابات إلىٰ تليف في المبيض، أو ٱنسداد قنوات الرحم، ومن ثم الإصابة بالعقم.

د- التهاب غشاء الكبد؛ نظرا لقربه من المبايض.

هـ - مرض التهاب الحوض (P.I.D) ويعتبر هٰذا أكثرها خطورة وهو مرض منتشر الآن في الغرب نتيجة زيادة السيلان والكلاميديا مع ٱنتشار الزنا.

ويكون عنق الرحم وقناتي الرحم والمبايض والبيرويتون في حالة التهاب، مع وجود إفرازات، ويسبب ذلك آلاما تختلف في الشدة وموقعها

أسفل البطن والظهر، مع ٱضطراب شديد في العادة وآلام شديدة تصحبها، وآلام عند الوقاع، ونتيجة هٰذه الٱلتهابات تحصل حالات إجهاض وأنواع من النزيف، وعقم والتهاب المبايض، وحمل خارج الرحم، والتهابات في الأحشاء علىٰ هيئة خراج أو مجموعة خراريج، والتهاب في الكبد والأمعاء.

وتبلغ الإصابة بهٰذا المرض الخطر ١٥ إلىٰ ٢٠ بالمائة من جميع حالات السيلان في النساء.

وهناك مضاعفات تصيب الجنسين، منها :

أ-التهاب تجويف الفم والحنجرة.

نتيجة للممارسات الجنسية الشاذة فإن تشخيص هٰذه الحالات يزداد يوما بعد يوم.

ومشكلة هٰذه الحالة صعوبة تشخيصها، إذ إن الطبيب في العادة لا يتصور أن يجد ميكروب السيلان في هٰذا الموضع، كما أن الٱلتهاب والأعراض لا تختلف عن التهاب اللوزتين، أو التهاب البلعوم الناتج عن الميكروبات الأخرىٰ، والوسيلة الوحيدة لتمييزها هو زرع الإفرازات والعثور علىٰ ميكروب السيلان.

ومما يجعل الطبيب يشك في هٰذه الحالة وجود شواهد علىٰ الشذوذ الجنسي، وبسؤال المريض يمكن معرفة ذلك وعندها تجرىٰ الفحوصات المخبرية اللازمة للتأكد من المرض.

ب- التهاب القناة الشرجية

إن التهاب الشرج والقناة الشرجية نتيجة السيلان أمر شائع وغير نادر الحدوث في الغرب خاصة وذلك بعد ٱنتشار الشذوذ الجنسي.

ويشكو المريض من آلام أثناء التبرز وتعنية وحكة في الشرج، مع وجود إفرازات صديدية، وحتىٰ في الحالات التي لا يشكو فيها المريض أي أعراض فإن فحص القناة الشرجية يوضح التهابا وإفرازات صديدية.

جـ - التهاب المفاصل، فيشكو المصاب من ألم وتورم في المفاصل، مع وجود سائل صديدي في التجويف المفصلي.

د - التهاب غشاء وصمامات القلب.

هـ - التهاب غشايا المخ «السحايا».

و - التهاب الملتحمة في العين.

ز - متلازمة (ريتر) : عند الرجال تتكون من التهاب حاد في مجرىٰ البول مع التهاب حاد في المفاصل، مع التهابات جلدية وأغشية مخاطية صديدية، بالإضافة إلىٰ التهاب العيون (الملتحمة).

أما عند النساء فتتكون من نفس الألتهابات، ولكن يكون هناك التهاب حاد في عنق الرحم بدلا من التهاب مجرىٰ البول.

٣. طبيعة المرض عند الأطفال:

إذا ما كانت الأم الحامل مصابة فإنها تكون عرضة للإجهاض، كما يكون الجنين عرضة للإصابة بالتخلف العقلي، وتكون هناك فرصة للولادة المبكرة قبل موعدها لمولود يكون دون السن والوزن الطبيعيين، هٰذا وتواجه الأم صعوبة في عملية الولادة، كما قد تصاب بالتهاب في تجويف الرحم بعد الولادة.

هٰذا وقد تنتقل العدوىٰ إلىٰ عين المولود أثناء عملية الولادة، فتصاب ملتحمة العين بالتهاب حاد قد يؤدي إلىٰ التهاب القرنية إذا لم تتم معالجته، وبالتالي يؤدي إلىٰ العمىٰ، كما قد تصاب الحنجرة والجهاز التنفسي بالتهابات حادة بالإضافة إلىٰ التهاب فتحة الشرج، وذلك بسبب الإفرازات الناجمة عن المرض في عنق الرحم عند الأم.

أما خلال السنة الأولىٰ بعد الولادة، فقد يصاب المولود بالتهاب في ملتحمة العين، أو في المهبل (عند البنات) بسبب التلوث الذي يصيبهم بسبب مداعبة الكبار المصابين بالمرض لهم (مداعبة جنسية).

أما بعد السنة الأولىٰ من العمر، وحتىٰ سن البلوغ، فإن الطفل يكون عرضة لانتقال العدوىٰ إليه، والإصابة بالتهابات في الجهاز التناسلي (عند الجنسين) بسبب إقدام أحد الأقارب أو المعارف من المصابين بالمرض بمباشرة الطفل بولوج، أو بغير ولوج.

٣. الإيدز A.I.D.S.

(طاعون القرن العشرين)

الإيدز : هو ٱختصار لمتلازمة فقدان المناعة المكتسب .

يسبب هٰذا المرض فيروس نقص المناعة، والذي يصيب بشكل أساسي الخلايا اللمفاوية المساعدة في الدم، مما يؤدي إلىٰ حدوث تثبيط في الجهاز المناعي، كما يؤثر الفيروس علىٰ خلايا الدم الأحادية، وعلىٰ الرئتين، وعلىٰ الخلايا العصبية، مما يؤدي إلىٰ الإصابة بالتهاب المخ والسحايا، وتظهر علىٰ المريض أعراض التأخر العصبي، وعدم تناسق الحركات، والتهاب الأعصاب الطرفية .

هٰذا وتعتبر الإصابة بالفيروس أبدية، ولا تزول من الجسم.

الأشخاص المعرضون للإصابة بالمرض هم :

١-ممارسو الٱتصال الجنسي المتعدد بما فيه الطبيعي والشاذ وخاصة الرجال الأكثر إباحية : (٧٣,٤٪).

٢-عن طريق نقل الدم ومشتقاته : (٧٪).

٣-عن طريق الحقن الملوثة عند مدمني المخدرات : (١٧٪).

٤-أطفال الأمهات المصابات.

تم ٱكتشاف هٰذا المرض في عام (١٩٨١م) في الولايات المتحدة، عندما ٱكتشف الأطباء هناك حالات التهابات شديدة، أدت إلىٰ وفاة المصابين بها، نتجت عن إصابة الرئتين بالتهاب ناتج عن جرثومة (نيوموسستس) عند أشخاص يمارسون الشذوذ الجنسي (عمل قوم لوط)، والذين كانوا يتمتعون بصحة جيدة قبل الإصابة بهٰذا المرض.

هٰذا ولقد ٱنتشر هٰذا المرض بعد ذلك بشكل شبه وبائي، ليصاب به الآلاف من الناس عبر العالم، في حين تهدد الإصابة به الملايين[١].

---

(١) إذ الرعب يجتاح الولايات المتحدة وأوربا والعالم، نتيجة لهٰذه الزيادة المضطردة في=

= هيئة متواليات هندسية في حالات الإيدز، فإن الهلع والرعب أخذ يدب في أوصال المجتمعات الغربية، وأخذت الصحف والمجلات تنشر مظاهرات الشاذين جنسيًا في الولايات المتحدة وأوربا وهم يطالبون حكوماتهم بأن تحميهم من الطاعون الجديد: الإيدز.

ومنذ فترة مبكرة (٤يوليو ١٩٨٣م) صرحت مارجريت هنكلر وزيرة الصحة في الولايات المتحدة لجريدة التايم الأمريكية بأن الإيدز هو الشغل الشاغل لوزارة الصحة في الولايات المتحدة.

وقد ٱستنفرت أجهزة الإعلام ودوائر البحث العلمية في الولايات المتحدة وأروبا ومن ثم العالم أجمع للبحث في هٰذا المرض المحير واللغز القاتل، وقد خصصت وزارة الصحة الأمريكية نشرة خاصة للإيدز تصدر كل أسبوعين وذلك منذ عام ١٩٨٣ يظهر فيها لك ما استجد من أبحاث عن الإيدز، ولا تكاد تخلو مجلة طبية إلا وفيها بحث أو مقال عن الإيدز.

بل إن الصحف والإذاعات ومحطات التليفزيون تتنافس فيما بينها تنافسًا شديدًا لنقل آخر أخبار الإيدز.

وقد قامت الحكومة الأمريكية بتخصيص هاتف خاص للإجابة علىٰ تساؤلات الجمهور والأطباء من مرض الإيدز علىٰ مدار الساعة ورقم الهاتف هو ٨٠٠٣٤٢ A.I.D.S. والاتصال به علىٰ حساب الحكومة الأمريكية، ومركزه نيويورك.

ولقد أصيب الشاذون جنسيًا بالهلع؛ لأنهم يتوقعون أن يهجم عليهم الإيدز في أي لحظة وقد ٱختلفت ردود أفعالهم إذاء هٰذا المرض الذي يفتك بهم بصورة خاصة. وأصيب الكثير منهم بالكآبة، بل وأقدم بعضهم علىٰ الٱنتحار، وأصيب بعضهم باليأس والإحباط إذ إن كثيرًا منهم يعرف، ويعرف هنا تعني معرفة جنسية، شخصًا أو أكثر ممن أصيبوا بالإيدز. ولذا فهو يتوقع الإصابة بالإيدز في أي لحظة. والمرض آت لا ريب فيه فيزداد ولوغًا في الجنس والشذوذ.

وكانت صدمة الإيدز لبعضهم نافعة فتوقف عن الشذوذ خوفًا من الوقوع في براثن الإيدز، بل إن الأمر و صل إلىٰ أبعد من هٰذا حيث إن البغايا ومدمني المخدرات بالوريد قد أخذ الرعب من الإيدز يدب في أوصالهم وأدىٰ ذلك إلىٰ أن يتوقف بعضهم عن الإدمان والبغاء. =

= وتذكر عكاظ (العدد ٧٠٨٥ في ٢٨/ ٢/ ١٤٠٠هـ الموافق ١١ نوفمبر ١٩٨٥م) والتايم الأمريكية (١٢ أغسطس ١٩٨٥) وكثير من الصحف والمجلات أن الرعب ٱنتشر في هوليود مدينة السينما وخاصة بعد أن أصيب الممثل الشهير روك هدسون بالإيدز (وهو صديق حميم للرئيس رونالد ريجان) وربما أن هدسون كان يعمل في هوليود، وحياة هوليود مشهورة بالدعارة حيث يتصل الجميع ببعض جنسيًا، وتدور كثير من الأفلام حول الجنس ويقبل الممثلون والممثلات في كل لحظة وآن، فإن الذعر المميت قد جعل حياة هٰؤلاء تعتمد علىٰ المهدئات والمسكنات وعلىٰ الإقبال علىٰ مزيد من المخدرات التي تستنشق (الكوكايين) أو التي تدخن (الحشيش).

وذكر طبيب أسنان يعمل في هوليود وأحد أعضاء مقاومة مرض الإيدز أنه لا يستبعد أن يعلن العديد من نجوم السينما -هكٰذا يسمونهم- عن إصابتهم بالإيدز خلال الأشهر القليلة القادمة، وقد رفض الطبيب أن يذكر الأسماء التي يشك في إصابتها بمرض الإيدز.

وتذكر وكالات الأنباء والصحافة أن الممثلة ليندا إفانس التي كانت قد قبَّلت روك هدسون في حلقات مسلسل (ديناستي) تعيش في رعب وهلع من (قبلة الموت)، وخاصة بعد أن ذكر الأطباء أنهم قد وجدوا فيروسات مرض الإيدز في لعاب المصابين به. وكان روك هدسون أثناء تلك القبلة مصابًا بالمرض.

وقال رئيس رابطة الممثلين في هوليود: «إن هوليود هي مدينة يقبل فيها الجميع بعضهم البعض طوال الوقت»، لذا ينبغي ٱتخاذ مزيد من الإجراءات الوقائية، مثل إجراء فحص دم بحثًا عن فيروس الإيدز لكل العاملين في قطاع السينما وخاصة الممثلين والممثلات.

وانتشر الرعب إلىٰ القوات المسلحة الأمريكية وبدأت السلطات تدرس إمكانية إجراء فحص الدم للشاذين جنسيًا المنخرطين في صفوف القوات المسلحة. ولكل شخص جديد ينضم إلىٰ هٰذه القوات.

وفي نيويورك وسان فرانسيسكو يقوم البوليس بلبس القفازات والأقنعة الواقية عندما يضطر للتعامل مع الشاذين جنسيًا أو مع مدمني المخدرات خوفًا من ٱنتقال المرض إليهم (صحيفة الصنداي تايمز ١٢ يونيه ١٩٨٣) وتفاقم الأمر منذ ذلك التاريخ وأصبح ظاهرة في معظم المدن الكبرىٰ في الولايات المتحدة وأوربا. ففي سامبير=

= دارينا بالقرب من جنوا رفض شرطي الاقتراب من امرأة مدمنة مخدرات كانت مجندلة علىٰ الرصيف قبل أن يأتيه زملاؤه في الدورية بقفازات واقية من لمس هٰذه الموبوءة المحتملة (عكاظ العدد ٧٠٨٥ في ١١ نوفمبر ١٩٨٥).

وقد بلغ بالناس الرعب من الإيدز أنهم أصبحوا يخافون ليس من مرض الإيدز فحسب، ولكنهم يخافون أن يتصلوا بالشاذين جنسيًا، وإذا عرف الناس أن مطعمًا معينًا يخدم فيه الشاذون جنسيًا فإنهم يهربون منه (تايم ٤ يوليو ١٩٨٣) وقد نشرت عكاظ (١١ نوفمبر ١٩٨٥) أن إشاعة انتشرت بأن صاحب المطعم الذي أعد الأكل في حفل ضم كبار رجال السياسة في ولاية كاليفورنيا كان مصابًا بتليف الكبد، وبما أن تليف الكبد قد يكون ناتجًا عن التهاب الكبد الفيروسي الذي يصيب الشاذين جنسيًا بصورة خاصة فقد أدىٰ ذلك إلىٰ أن يهرع كل المدعوين نحو مختبر لفحص دمائهم بحثًا عن فيروس الإيدز.

وأصبحت بنوك الدم ترفض رفضًا باتًا أخذ الدم من المصابين بالشذوذ الجنسي، وقد تمكن الأطباء من إنجاز تقدم علمي باهر في هٰذه النقطة حيث قاموا بتحضير فحص للدم يكشف عن وجود فيروس الإيدز، وذلك في خلال ستة أشهر فقط من اكتشاف فيروس الإيدز بواسطة البروفسور جالوا في مايو ١٩٨٤.

وانتشر استعمال هٰذا الفحص وأصبح إلزاميًا في الولايات المتحدة وبعض أقطار أوروبا ومنذ أواخر عام ١٩٨٥م أصبح أيضًا إلزاميًا في المملكة العربية السعودية وبعض دول الخليج.

وأصبح الناس يتحاشون الاتصال بالشاذين جنسيًا، لهذا فإن الشاذين جنسيًا يتجمعون في كثير من المناطق لتقديم بعض الخدمات لرفقائهم مرضىٰ الإيدز، حيث يرفض الجميع مساعدتهم أو الطبخ لهم أو الاقتراب منهم، ويقول رئيس هٰذه الفرقة د. جوشوا: «إنني مهتم لأحوال إخوتي الشاذين مرضىٰ الإيدز، عليهم اللعنة!!) (نقلاً عن التايم ٤ يوليو ١٩٨٣).

وتذكر عددًا من هؤلاء الشاذين بأسمائهم ومنهم فليب لانزاراتا البالغ من العمر ٤١ عامًا والذي يعرف عمليًا وجنسيًا ٢٧ رجلاً ممن أصيبوا بالإيدز... وها هو يواجه الموت (٤ يوليه ١٩٨٣) نتيجة الإيدز، أما رفيق لانزاراتا وهو جون لونينج فيقول: (إنني أحس وكأني أريد أن أقفز من النافذة) وإلىٰ أين سيقفز؟ إذ إن شبح الإيدز=

= يطارده ليل نهار.

وقد نشرت الديلي تليغراف في (١٤ يونيه ١٩٨٣) خبر وفاة ٱمرأة أمريكية بلغت من العمر ٥٥ عامًا وأصيبت بالإيدز بعد نقل دم إليها أثناء عملية جراحية بالقلب... وقد رفض الحانوتي الذي يجهز الموتىٰ للدفن أن يلمسها)، أما الطبيب الذي قام بتشريح الجثة فقد قام بحرق قفازاته وأدواته وثيابه التي ٱستعملها أثناء تشريح الجثة.

وقد ٱزداد الرعب بعد تسجيل مئات الحالات لمن تلقوا الدم أو منتجات الدم مثل مرضىٰ الهيموفيليا (الناعورية).

وتفاقم الرعب بعد إصابة عشرات الأطفال الأبرياء، الذين أصيب أحد أبويهم بالإيدز وكانت إصابة هٰؤلاء الأطفال ناتجة عن ٱنتقال الفيروس من الأم المصابة إلىٰ الجنين أو نتيجة الٱتصال الوثيق بين الأم وطفلها.

وبعد الولايات المتحدة ٱمتد رعب الإيدز إلىٰ فرنسا ويسمىٰ هناك .CIDA رغم كل الجهود الضخمة التي تبذلها الدولة لطمأنة الجمهور إلا أن الرعب دب في قلوب الناس هناك خوفًا من هٰذا المرض الخبيث.

ويقول الدكتور جان بابتيست بروني من الإدارة العامة للصحة ومسئول مركز منظمة الصحة العالمية لأوروبا عن مرض الإيدز: (في فرنسا ٣٠٠٠٠ إلىٰ ٥٠٠٠٠ شخصًا يحملون بصفة مؤكدة فيروس الإيدز). ويتوقع أن ١٠ بالمائة من هٰؤلاء ستظهر عليهم أعراض مرض الإيدز خلال السنوات الخمس القادمة عكاظ في (١١ نوفمبر ١٩٨٥). وتجرىٰ في كثير من المناطق فحوصات الدم للبحث عن فيروس الإيدز في مراكز متعددة في فرنسا.

وبما أن الحالات المسجلة رسميًا لحالات الإيدز تتزايد باستمرار وتتضاعف فإن الدوائر الصحية تتوقع تشخيص عدة آلاف من حالات الإيدز في فرنسا خلال السنوات القليلة المقبلة. (كان العدد في يونيه ١٩٨٥ (٣٩٢) حالة).

وانتشر الرعب في البرازيل التي تأتي مباشرة في عدد حالات الإيدز بعد الولايات المتحدة حيث كان عدد حالات الإيدز في يونيه ١٩٨٥م (٤٧٠) حالة.

تقول عكاظ (١١ نوفمبر ١٩٨٥): (إنَّ أرصفة المدن البرازيلية الكبرىٰ قد أقفرت من حشود الشواذ جنسيًا وبائعات الهوىٰ الذين تركوا المكان للمتسولين وحدهم، وتعدىٰ هوس الإيدز هٰذه الأوساط المعنية؛ لينتشر شيئًا فشيئًا في كل الأوساط،=

= ويجعل الناس يثورون ضد وزير الصحة عندما حاول التقليل من حدة هٰذا المشكل فصرح بأن البرازيل ليست معرضة للإصابة بأي وباء، وأنه ليس من الضروري، ولا من المرغوب فيه تنظيم حملة إعلامية حول الوباء؛ لأنها ستزيد من بعث الخوف والهلع وزرعهما في النفوس، وأضاف أن الإيدز ليس من المشاكل التي يجب إعطاؤها الأولوية ضمن المشاكل الأخرىٰ التي تعترض البلاد. وقد أثار موقفه هٰذا ردود فعل عنيفة من طرف الأوساط المختصة والصحافة وذكر الأستاذ ريكاردو فيرونيزي رئيس الجميعة البرازيلية للأمراض المعدية أن البرازيل تتوقع الآن حوالي مليون شخص من المعرضين لخطر الإصابة بالإيدز وفقًا للتوقعات المستقاة من التحاليل التي أجريت علىٰ عشرين ألف من المتبرعين لبنوك الدم، وأظهرت الفحوص وجود فيروس الإيدز (وجود أجسام مضادة) في دم كل المصابين بالهيموفيليا (الناعورية) و ٦٥بالمائة من الشاذين جنسيًا

وفي إيطاليا التي لم يسجل فيها سوىٰ ٥٢ حالة من حالات الإيدز حتىٰ يونيه ١٩٨٥ تفشىٰ الخوف من مرض الإيدز إلىٰ درجة أصبحت تتحكم في كل تصرفات الشخص العادية اليومية؛ فعند الجلوس في مطعم ما يبحث الشخص عما إذا كان أحد العاملين في المطعم من الشواذ جنسيًا فإذا كان كذلك سارع بالهروب من المطعم. وذكرت ماريا بيجا (والدة طفل عمره سنتان توفي بالإيدز) أنها أصبحت منبوذة من المجتمع بل حتىٰ عن أقربائها خوفًا من مرض الإيدز، وأنها لم تستطع العثور علىٰ عمل ولا حتىٰ كخادمة؛ لأنهم كلهم كما يقولون خائفون من الإيدز، وحتىٰ عائلتها أصبحت تتحاشاها خوفًا من هٰذا المرض المرعب.

وفي ألمانيا الغربية التي سجل فيها حتىٰ يونيه ١٩٨٥م (٢٧٢) حالة من الإيدز ووفاة مائة حالة ٱنتشر الرعب من الإيدز، وأعلنت وزارة الصحة أن فحص الدم في بنوك الدم لفيروس الإيدز أصبح إجباريًا من بداية أكتوبر ١٩٨٥.

وفي السويد كانت الحالات التي شخصت في يونيه ١٩٨٥ ثلاثين حالة توفي منهم ١٧ شخصًا وقد أصدرت الحكومة قانونًا يدرج مرض الإيدز ضمن الأمراض التناسلية والمعدية التي يجب الإعلان عنها وتبليغ السلطات المختصة بها، ويبيح القانون للأطباء طلب مساعدة الشرطة إذا لزم الأمر لوضع هٰؤلاء الأشخاص في العزل. =

طرق العدوىٰ

وتنتقل عدوىٰ الإيدز بالطرق التالية:

١-الاتصال الجنسي: إذا كان الشخص يحمل فيروس الإيدز فإن الأتصال الجنسي ولو كان مشروعا كما هو بين الزوج وزوجته يؤدي إلىٰ إصابة القرين .. وذلك لأن الفيروس ينتقل أساسا عبر الإفرازات المنوية...

فإذا كان هناك شخص مثلا ممن يدعون Bisexual أي يمارس الشذوذ

= وفي مدينة ميلانو الإيطالية أقيم حفل أستعراضي كبير لصالح بحوث مكافحة مرض الإيدز والذي تعد ميلانو من أكبر المدن الإيطالية التىٰ تعرض لخطره، في الحفل كانت إحدىٰ الفقرات عبارة عن رقصات بين أزواج من الشباب يرتدون معاطف النايلون خوفًا من العدوىٰ.

نقلاً عن مجلة أكتوبر (القاهرة) العدد (٤٧٩)، ١٧ ربيع الثاني ١٤٠٦، ٢٩ ديسمبر ١٩٨٥م.

وفي بريطانيا التي سجلت ١٧٦ حالة من حالات الإيدز حتىٰ يونيه ١٩٨٥ أزداد الرعب بإصابة بعض المضيفين والمضيفات في الخطوط الجوية البريطانية.

وفي أماكن كثيرة من العالم ترفض هيئة التمريض في بعض المستشفيات الأقتراب من مرضىٰ الإيدز، وكذلك الذين يتولون تجهيز الموتىٰ للدفن الاقتراب من موتىٰ الإيدز (التايم الأمريكية، ٤ يوليه ١٩٨٣، التايم ١٢ أغسطس ١٩٨٥).

وقد صرح أحد المصابين بالإيدز عندما طرد من وظيفته بقوله: (إنك لا تعيش آلام الإيدز فقط؛ ولكنك تعيش منبوذًا من المجتمع، وحتىٰ إذا مت فإنهم يرفضون تجهيز جثتك، ولا شيء يجعلك تشعر بالتعاسة أكثر من هٰذا).

وفي الأتحاد السوفيتي أعلن الدكتور ليويند فيلاروف مدير مصحة أودزينكيدز عن وجود بعض حالات الإصابة بالإيدز ولكنه لم يحدد عدد الإصابات وكذلك أعلنت الصين الشعبية عن حدوث بعض الإصابات، ونتيجة أتصال العالم بعضهم ببعض أتصالاً وثيقًا بواسطة السفر للدراسة والسياحة والعمل فإنه من المتوقع أن لا يخلو أي قطر من أقطار العالم من بضع حالات من حالات الإيدز خلال السنوات الخمس المقبلة.

الجنسي ويمارس الجنس الطبيعي أيضا، فإنه لا ينقل الفيروس إلىٰ رفاقه من ذوي الشذوذ الجنسي فحسب بل ينقله إلىٰ الجنس الآخر أيضا.

وقد أوضحت الإحصائيات أن ما بين ٧٠ إلىٰ ٧٤٪ من حالات الإيدز في الولايات المتحدة وأوربا كانت بين الشاذين جنسيًا.

أمَّا في زائير وجمهورية إفريقيا الوسطىٰ وراوندا وبروندي وكينيا وزامبيا أي منطقة الحزام الإفريقي فإن حالات الإيدز فيها مرتبطة بالبغاء، ومن ثم تنتقل إلىٰ الأزواج والزوجات والأطفال.

٢-التلقيح الصناعي: بما أن المني يحتوي علىٰ الفيروسات المسببة للإيدز فإن عملية التلقيح الصناعي قد تؤدي إلىٰ حدوث مرض الإيدز في المرأة التي تتلقىٰ هٰذا المني المصاب، وقد حدثت أربع حالات بالفعل في أستراليا (الشرق الأوسط في ٩/ ١١/ ١٤٠٥ الموافق ٢٦/ ٧ / ١٩٨٥).

٣-الحقن الوريدية الملوثة: بما أن مدمني المخدرات وخاصة الهروبين والمورفين يتعاطونها بواسطة الحقن الوريدية، وبما أن فيروس الإيدز موجود في الدم فإنَّ هٰذه الطريقة تسبب ٱنتشار مرض الإيدز في مدمني المخدرات .

وقد وجد أن ١٧ بالمائة من جميع حالات الإيدز في الولايات المتحدة وأوربا هي لمدمني المخدرات.

وهٰذا الخطر موجود أيضا بالنسبة لدول العالم الثالث حيث تستخدم الحقنة لعدد من المرضىٰ دون تعقيم جيد، وبالتالي فإن المرض يمكن أن ينتقل بواسطة الحقن الوريدية أو حتىٰ العضلية غير المعقمة.

وبما أن كثيرا من الدول الفقيرة في إفريقيا وآسيا لا تستطيع أن توفر الحقن التي تستخدم مرة واحدة فقط Disposable syringes فإن علىٰ الهيئات الصحية في هٰذه الدول أن تفرض رقابة صارمة؛ لتعقيم الحقن والأدوات الطبية تعقيمًا جيدًا، إذ إن هٰذه الطريقة يمكن أن تعدي الملايين من البشر.

٤-نقل الدم أو محتويات الدم: بما أن الفيروسات المسببة للإيدز

موجودة في الدم وبما أن المليلتر الواحد من دم مريض الإيدز يحتوي علىٰ قرابة مائة ألف وحدة فيروس فعال فإن نقل الدم أو محتويات الدم تؤدي إلىٰ ٱنتقال المرض من المصاب إلىٰ الأشخاص المعافين.

وقد وجد أن مرض الناعورية (الهيموفيليا) (وهو مرض وراثي ينتقل من الأمهات إلىٰ الأولاد الذكور ويؤدي إلىٰ سرعة النزف بسبب نقص عامل ٨ Factor VIII في بلازما الدم) يصابون بهٰذا المرض الخبيث ويعتبر نقل الدم أو محتويات الدم مسئولا عن ٢إلىٰ ٤ بالمائة من جميع حالات الإيدز في الولايات المتحدة وأوربا.

وقد ظهرت حالتي إيدز في المملكة العربية السعودية نتيجة نقل الدم المستورد من الولايات المتحدة.

ويعتقد أن هٰذا السبب سيختفي أو يكاد في المستقبل القريب؛ وذلك لأن عامل ثمانية الذي يعطىٰ لمرض الناعورية يسخن لدرجة ٦٠ درجة مئوية وذلك يكفي لقتل الفيروس .

وتقوم مراكز نقل الدم بالفحص عن وجود مضادات للفيروس فإذا ثبت وجودها في الدم ٱستبعد ذلك الدم من الٱستعمال.

وهناك ٱحتمال الإصابة بمرض الإيدز للأطباء والعاملين في المختبرات وهيئة التمريض من جراء تعاملهم مع دماء المرضىٰ أو الحاملين لفيروس الإيدز.

٥-أطفال المصابين أو الحاملين لفيروس الإيدز: ينتقل الفيروس من أحد الأبوين إلىٰ الطفل بعدة طرق وهي كالتالي :

أ-المني: يحتوي المني علىٰ فيروسات الإيدز وعند تلقيح البويضة بالحيوان المنوي يدخل فيروس الإيدز إلىٰ البويضة، وقد يؤدي ذلك إلىٰ الإجهاض.

ب-ينتقل الفيروس من دم الأم إلىٰ دم الجنين عبر المشيمة.

ج- يصاب الطفل أثناء عملية الولادة ونزوله من الرحم والمهبل.

د- تحدث الإصابة بعد الولادة عبر الرضاعة من الثدي.

هـ- تحدث الإصابة نتيجة الصلة الحميمة بين الطفل ووالديه.

٦-إفرازات اللعاب والدمع : تحتوي علىٰ فيروسات الإيدز ويمكن أن تنتقل الفيروسات من المصاب أو حامل الفيروس إلىٰ الأشخاص الأسوياء عبر هٰذا الطريق.

٧-احتمال وقوع الإصابة عبر الرذاذ والكحة.

٨-احتمال وقوع الإصابة عبر سائل المخ الشوكي: بالنسبة للأطباء وهيئة التمريض والموظفين في المختبرات الطبية ممن يتعاملون مع هٰذه الإفرازات لفحصها.

٩-احتمال ٱنتشار الإصابة عبر البول والبراز: ولحسن الحظ لم يثبت حتىٰ الآن وجود حالات من الإيدز ٱنتشرت بهٰذه الطريقة، ولم تتمكن المختبرات من عزل الفيروس من البول والبراز.

وليس من المستبعد وجود الفيروس في هٰذه الإفرازات؛ لأن الفيروس موجود في معظم إفرازات الجسم مثل المني، اللعاب، سائل المخ الشوكي، الدموع وبطبيعة الحال في الدم والبلازما.

١٠-احتمال إصابة من يتعاملون مع المصابين بالإيدز: وخاصة الأطباء وهيئة التمريض والعاملين في المستشفيات وذلك عبر الخدوش أو الإصابة بحقنة ملوثة أو الدماء أو الإفرازات الحاملة لفيروس الإيدز.

وقد حدثت بالفعل عدة حالات من الإيدز للعاملين بالمستشفيات ولهيئة التمريض.

الأعراض:

تبدأ بالظهور علىٰ المصاب بعد فترة حضانة تمتد ما بين (١-١٠) سنوات حيث يصاب (٨٠٪) من هٰؤلاء بالمرض، وينقسم المصابون إلىٰ:

١- حامل للفيروس لم تظهر عليه أعراضٌ، وليس كل حامل للفيروس مريضًا، فقد تتأخر الإصابة وظهور الأعراض لعدة سنوات، ويكون هٰؤلاء أكثر عرضة للإصابة بالالتهابات الجلدية البسيطة، وبسرطان الجهاز اللمفاوي، وسرطان الشرج والمستقيم، وبالتهابات الرئة.

٢- مصاب إصابة حادة: بعد حوالي (٦) أسابيع من التعرض للفيروس تظهر أعراض حمىٰ وهزال وفقدان للشهية، مع آلام بالحلق، وتضخم في العقد اللمفاوية ويظهر طفح جلدي علىٰ جسم المصاب وفي بعض الحالات يصاب المريض بالتهاب في الدماغ، أو في الأعصاب، وبالتهابات ثانوية خطيرة، وبورم (كابوسي).

٣- مصاب بتضخم وألم في العقد اللمفاوية : علما أن هٰذا يصيب جميع أنحاء الجسم ولا تصاحبه أعراض عادة، ولكن قد تظهر أعراض مثل نقص في الوزن، وإسهال، والتهابات فطرية وحمَّىٰ، وهٰؤلاء يكونون معرضين للإصابة بالمرض الحاد أسرع من غيرهم الذين لا تظهر عليهم أعراض.

المضاعفات:

١-الجهاز العصبي: بالإضافة إلىٰ الٱلتهابات الثانوية الخطيرة الناتجة جراثيم ٱنتهازية، والتي تصيب دماغ مريض (الإيدز)، فإن الفيروس المسبب للمرض يؤثر مباشرة علىٰ خلايا الدماغ، ممَّا قد يؤدي إلىٰ التهاب خلايا الدماغ، والتهاب الأوعية الدموية المغذية للدماغ، ممَّا قد يؤدي إلىٰ الإصابة بالخبل والجنون.

٢-القلب: بالإضافة إلىٰ الٱلتهابات الثانوية الخطيرة الناتجة عن جراثيم ٱنتهازية، والتي تصيب قلب مريض (الإيدز)، فإن الفيروس المسبب للمرض يسبب التهابات في عضلات القلب، ويتضخم القلب .

هٰذا ولقد أجريت دراسة بين عامي (١٩٨٢-١٩٨٦م) علىٰ هٰؤلاء

المرضىٰ، فوجد الباحثون أن (٥٢٪) منهم مصابون بالتهاب عضلات القلب، وبأن (١٠٪) مصابون بتمدد البطينين الأيمن والأيسر في القلب.

٣-الالتهابات الثانوية: نظرا لنقص المناعة عند مرضىٰ (الإيدز) فإنهم يكونون عرضة للإصابة بالالتهابات الثانوية الناجمة عن جراثيم ٱنتهازية مثل التهاب الرئة بجرثومة "نيوموسستس"، والتهاب التدرن الرئوىٰ، والتهاب الرئة بفيروس (سايتوميجالو)، والذي قد يسبب التهاب عصب العين، وشبكيتها، والتهاب السحايا بجرثومة (كريبتوكوكس)، وتسبب كذلك الإصابة بنزلات معوية تسبب الإسهال بسبب جرثومة (كريبتوسبوريديوم)، والتهابات ناتجة عن فطريات في الحلق والبلعوم والمريء، فيصاب المريض بصعوبة في البلع، كما تكثر الإصابات بفيروس (الهربس) الذي يصيب الجلد والأغشية المخاطية.

هٰذا وتعتبر الإصابة بهٰذه الٱلتهابات من أخطر المضاعفات التي تصيب هٰؤلاء المرضىٰ، حيث إنها صعبة العلاج، وغالبا ما تؤدي إلىٰ وفاة المريض.

(الإيدز) والتدرن الرئوي: ومن الجدير بالذكر في هٰذا المقام أن مرض التدرن الرئوي (السل)، والذي أصبح علاجه من الأمور البسيطة في مجال الطب، قد عاد يستيقظ من جديد بسبب الٱنتشار المريع لمرض (الإيدز)، والذي يسبب نقص المناعة الذاتية لدىٰ المصابين، مما يهيئ الظروف والوسط المناسبين لنمو الجراثيم الٱنتهازية . فلقد سجلت الإحصاءات التي أجرتها (منظمة الصحة العالمية) ٱرتفاعا في عدد الإصابات بمرض السل في الولايات المتحدة بنسبة (٦,٢٪) في عام (١٩٨٦م) هٰذا ويقدر عدد الإصابات في العالم بنحو (٣٠) مليون حالة، يموت منهم كل عام حوالي (٣) ملايين، ويتم تسجيل حوالي (١٠) ملايين حالة جديدة كل عام ويتوقع أن تتزايد هٰذه الأرقام مع تزايد ٱنتشار (الإيدز)، حيث سجلت الإحصائيات في أواسط عام (١٩٨٩م) حوالي (٥٠٠) ألف إصابة جديدة بالإيدز في (١٤٤) بلد، بينما

تشير آخر التقديرات لعام (١٩٩٣م) أن تعداد المصابين بالإيدز وصل إلىٰ حوالي (١٥) مليون مصاب، منهم حوالي مليون طفل.

وما لم يتم التوصل إلىٰ علاج لمرض (الإيدز) فإن هٰذه الأعداد ستتزايد بشكل مأساوي لتحصد أرواح ملايين البشر. ولعلَّ أكثر العوامل المؤدية إلىٰ وفاة خطورة لدىٰ هٰؤلاء المرضىٰ هي الإصابات بالالتهابات الثانوية ومن بينها (السل)، وبالتالي فقد أضحىٰ الاٌهتمام بمزيد من الدراسات حول داء السل، وطرق الكشف عنه، ووسائل مكافحته، ضرورة ملحة في ضوء المتغيرات المرضية، وظروف اٌنتشار (الإيدز).

٤-ورم (كابوسي) :Kaposi Sarcoma ينتشر هٰذا الورم بشكل شبه وبائي بين المصابين (بالإيدز) من صغار السن من الرجال الشاذين جنسيًا (ممن يمارسون عمل قوم لوط)، وبين مدمني المخدرات بالحقن، والداعرات، ومرضىٰ تميع الدم الذين يحتاجون لعمليات نقل دم أو منتجاته بكثرة، هٰذا وتصل نسبة الإصابة به في الولايات المتحدة إلىٰ حوالي (٣١٪)، وفي أفريقيا حوالي (٢٦٪)، وفي بريطانيا (١٩٪) من بين مرضىٰ (الإيدز)، وتبدأ الإصابة به علىٰ شكل حبيبات زرقاء مائلة إلىٰ الحمرة تصيب الأطراف السفلية خاصة، ثم تنمو ببطء وتتكاثر أعدادها لتنتشر إلىٰ المناطق المجاورة من الجسم، وقد تصل الإصابة إلىٰ اليدين والذراعين.

وتصيب كذلك الجلد والأغشية تحت الجلدية علىٰ الشفاه، وتصيب الغشاء المخاطي المبطن لتجويف الفم والحنجرة، وقد تصيب الأحشاء كذلك مثل الجهاز الهضمي، حيث تسبب نزيفًا معويًا أحيانًا، والجهاز التنفسي والطحال والعقد اللمفاوية.

هٰذا ويصاحب هٰذه الأورام الإصابة بسرطان الجهاز اللمفاوي، أو بسرطان الدم، أو بسرطان الجلد في (٣٣٪) من الحالات، كما يصاحبها التهابات ثانوية خطيرة ناجمة عن جراثيم اٌنتهازية مثل (نيوموسستس).

وأورام كابوسي هٰذه عادة بطيئة النمو، ولكنها قد تتحول إلىٰ أورام سرطانية سريعة الٱنتشار، وخطيرة عند البعض، وقد تودي بحياتهم في حوالي (٣٥٪) من الحالات، بينما يموت الآخرون بسبب مرض الإيدز هٰذا وتشير الإحصائيات إلىٰ أن (٤٠٪) من المصابين بورم (كابوسي) هٰذا يموتون خلال السنة الأولي من الإصابة، وذلك بوجود التهابات ثانوية (جرثومية أو فيروسية أو فطرية) غالبا.

٥-سرطان الجهاز اللمفاوي: لاحظ الأطباء وجود ٱزدياد مستمر في نسبة الإصابة بهٰذا المرض منذ بداية الثمانينيات تمشيًا مع ظهور وباء (الإيدز)، ويتوقع لهٰذه الزيادة أن تستمر مع التطور في علاج حالات (الإيدز)، هٰذا ولقد لوحظ وجود علاقة بين هٰذا السرطان وبين (الإيدز) في عام ١٩٨٢م، كما لوحظ أن معظم مرضىٰ الإيدز المصابين به هم أصغر سنا من أولئك المرضىٰ غير المصابين بالإيدز، كما أن هٰذا السرطان - الذي يصيب العقد اللمفاوية أولًا في العادة لوحظ أنه يصيب الأحشاء أولا (مثل المستقيم والكبد ونخاع العظام) عند مرضىٰ (الإيدز)، ولذلك فإن (١٥٪-٤٠٪) من مرضىٰ هٰذا السرطان المصابين بالإيدز يتم تشخيص حالاتهم بعد وفاتهم (أي: بالتشريح الذي يجرىٰ علىٰ الجثة).

هٰذا وتشير الإحصائيات في الولايات المتحدة إلىٰ وجود (١٠٠) ألف حالة مرحلة حادة من (الإيدز) هناك، وذلك حتىٰ شهر حزيران لعام (١٩٨٩م)، منهم (٣٪) مصابون بسرطان الجهاز اللمفاوي، وهي نسبة أعلىٰ بـ(٦٠٪) ضعفًا من النسبة بين غير المصابين بالإيدز، أمَّا في بريطانيا فتشير الإحصائيات لعام (١٩٨٩م) إلىٰ أن نصف الوفيات بين مرضىٰ (الإيدز) كانت بسبب الإصابة بسرطان الجهاز اللمفاوي أو بورم (كابوسي).

٦-سرطان الشرج والمستقيم: الإصابة بفيروس (الإيدز) تمهد للإصابة بسرطان الشرج والمستقيم؛ خاصة عند الشاذين جنسيًا من ممارسي عمل قوم

لوط (عند المفعول به)، ومن العوامل المساعدة علىٰ الإصابة بهٰذا السرطان كون المصاب يعاني من أمراض تناسلية أخرىٰ، أو كونه من المدخنين.

٧-سرطان عنق الرحم : تؤدي الإصابة بفيروس (الإيدز) إلىٰ الإصابة بسرطان عنق الرحم، كما أن الحالة الصحية للمريضات اللواتي يعانين من هٰذا السرطان تزداد سوءا إذا ما أصيبت (بالإيدز).

هٰذا ومن العوامل المساعدة علىٰ الإصابة بهٰذا السرطان كون المرأة تمارس الاٌتصال الجنسي بكثرة، ومع أكثر من شخص واحد (الزنا)، أو كونها من المدخنات.

٤-الهربس التناسلي Genital Herpes

وهو مرض تناسلي ينتج عن التهاب فيروسي كامن، بحيث يمكن أن يصاب نفس المريض بالمرض مرات عديدة، فيخبو المرض ويعود للظهور مرة أخرىٰ حيث أن ٢/ ٣ من المصابين يعانون من تكرار الإصابة حوالي (٥) مرات سنويًا.

يدخل الفيروس المسبب للمرض إلىٰ جسم الإنسان عن طريق الجلد والأغشية المخاطية ليصل إلىٰ ألياف الأعصاب، حيث يعيش بداخلها.

أسباب ٱنتشار الهربس:

يقول الدكتور أوتس في كتابه «حقائق عن الهربس» .. أن سبب هٰذا الٱنتشار الذريع في حالات الهربس هو ما يسمىٰ بالثورة الجنسية التي ٱبتدأت في الستينيات والتي أدت إلىٰ موجة عاتية من التحلل والإباحية الجنسية، بحيث أنَّ المرء أصبح يجامع بدون تمييز عددا كبيرا من الأشخاص، وممَّا ساعد علىٰ ٱنتشار الإباحية وسائل الإعلام التي يديرها ويمتلكها اليهود.

كما ساعد علىٰ ذلك ٱنتشار وسائل منع الحمل .. ولأول مرة في التاريخ فك الٱرتباط بين الجنس والحمل ممَّا أدىٰ إلىٰ حرية أوسع للمرأة في علاقاتها الجنسية دون أن تخشىٰ عواقب علاقاتها الجنسية.

وقد كان الحمل أحد العوائق الهامة للمرأة في علاقاتها الجنسية المتحررة وقد أدت الثورة الجنسية إلىٰ :

١-انتشار الإباحية الجنسية.

٢-انتشار الممارسات الجنسية التي كانت تعتبر شاذة مثل مص القضيب أو الفرج أو الإيلاج في الشرج.

٣-وهٰذه الممارسات أدت بدورها إلىٰ ٱنتشار الأمراض الجنسية بأجمعها وإلىٰ ٱنتشار الهربس بصورة خاصة.

وقد أدىٰ ٱستخدام الجنس عن طريق الفم Orogenital sex إلىٰ مزيد من

ٱنتشار الهربس .. لأن الهربس يعيش في أفواه كثير من الناس دون أن يحدث أي مرض فإذا ٱنتقل إلىٰ الجهاز التناسلي أدىٰ إلىٰ إصابته بمرض هربس التناسل.

أنواع الهربس

ينقسم هٰذا المرض إلىٰ ثلاثة أنواع:

١. الهربس الأولي : وهو الٱلتهاب الذي يصيب الشخص لأول مرة ويستمر لمدة (٢٠) يوما في المعدل.

تظهر قروحات شاملة علىٰ الأعضاء التناسلية وحولها، مع ألم موضعي تصاحبه حرقة في البول، مع خروج إفرازات من مجرىٰ البول، أو من الشرج أو من المهبل، ويكون هناك ٱرتفاع في درجة حرارة الجسم وآلام بالعضلات والمفاصل وصداع.

في العادة تكون الإصابة لأول مرة شديدة الوقع، حادة الأعراض عند النساء وعند الشواذ جنسيًا -ممارسي عمل قوم لوط- من الرجال المصابين بآفات شرجية.

هٰذا وتظهر بعد ذلك حبيبات صديدية مع تضخم مؤلم في العقد اللمفاوية الأربية ثم تنفقىء هٰذه الحبيبات لتتكون قروح حمراء مغطاة بإفرازات بيضاء رمادية، ثم تلتئم هٰذه القروح في المناطق الرطبة من الجسم مثل (فتحة الفرج) دون تكوين قشرة أما في المناطق الجافة من الجسم(مثل الأرداف) فإنها تلتئم مع تكوين قشرة.

هٰذا وتظهر الآفات غالبا عند النساء داخل الفرج، وعلىٰ المنطقة المحيطة به، كما تظهر علىٰ الشرج، وتصيب عنق الرحم في (٨٠٪) من الحالات، أما عند الرجال فإنها تصيب القضيب والشرج والمنطقة المحيطة به.

٢. الهربس المتكرر: حوالي (٢/٣) النساء اللواتي يصبن بالهربس الأولي يعانين من الهربس المتكرر.

في هٰذا النوع من (الهربس) تحدث التهابات متكررة لفترات أقصر، وتكون أقل حدة من (الهربس) الأولي، وتصيب منطقة واحدة عادة مثل الأعضاء التناسلية، أو منطقة الأرداف.

يشكو المصاب من ألم شديد يبدأ في منطقة الظهر ويمتد إلىٰ الفخذين والردفين، وقد يصل إلىٰ الكعبين، وذلك قبل ظهور الحبيبات، أو قد يستمر بعد ظهورها، هٰذا ويدوم الإحساس بالألم لعدة أيام.

ويشكو المصاب من ضعف عام، وارتفاع في درجة الحرارة، مع فرط الحساسية في منطقة الإصابة، ويكون المصاب سريع الغضب، وصعب المزاج.

٣. الهربس الولادي: ينتقل مرض (الهربس) من الأم المصابة إلىٰ الجنين عن طريق الدم أحيانا، ممَّا يؤدي إلىٰ الإجهاض، أو إلىٰ ظهور تشوهات خلقية علىٰ المولود؛ مثل التخلف العقلي، أو كون رأسه أصغر حجمًا من الطبيعي، أو تكون عيونه أصغر من الحجم الطبيعي، أو يعاني من تصلب مفاصل عظام الجمجمة فلا تنمو الجمجمة، ولا ينمو الدماغ.

أنواع الإصابة بالهربس:

١-هربس الشفاة وما حولها.

٢-هربس قرنية العين .

٣- هربس السحايا والدماغ.

(١-٣) عادة ما يكون من فصيلة هربس [١] أي هربس الشفاة.

٤-هربس التناسل .

٥-هربس الأجنة والمواليد حديثا.

٦-ارتباط الهربس بسرطان عنق الرحم.

٧-الهربس في ضعيفي المقاومة .

(٤-٧) وعادة ما يكون من فصيلة هربس [٢] أي هربس التناسل .

وقد يصيب الهربس نوع [١] الجهاز التناسلي نتيجة الأتصال الجنسي الشاذ بواسطة الفم.

الهربس التناسلي في الذكور:

يصيب الهربس عادة القضيب وكيس الصفن والمناطق المحيطة بالشرج في الشرج لدىٰ المخنثين.

وتبدأ البثور في الظهور علىٰ قلفة القضيب عند غير المختونين وتكون أشد إيلامًا بالمقارنة مع المختونين.

ولا يستطيع المصاب أن يلمس هٰذه البثور ومجرد أحتكاكها بثيابه يسبب له ألمًا، ومن حسن حظ الرجل أن بثور الهربس لا تصل مجرىٰ البول إلا نادرا علىٰ عكس حال المرأة، ولذا يمكن للمريض الذكر التبول دون صعوبة بالغة في معظم الأحيان، وقد ينتقل الهربس إلىٰ قناة البول وإلىٰ المثانة والبروستاتا والحويصلات المنوية مما يسبب آلاما بالغة وخاصة عند التبول

وتتضخم الغدد الليمفاوية الموجودة في المنطقة الأربية والمغابن ولكنها لا تتقرح.

وتصيب بثور الهربس مناطق الشرج وما حولها، وخاصة لدىٰ الشاذين جنسيا أو نتيجة زحف الميكروب من المناطق المجاورة .

هربس التناسل لدىٰ النساء:

إن المشكلة الحقيقية هي في إصابة النساء بهربس التناسل، إذ إن جهاز المرأة التناسلي يتعرض لهجوم الهربس المؤلم والمزعج، فعادة ما يصيب الفرج أو المنطقة المحيطة به بتقرحات وبثور الهربس، ويصبح التبول عملية في منتهىٰ الألم مما يجعل المرأة تصرخ عندما تهم بالتبول؛ ذلك أن نزول البول علىٰ هٰذه القرح تسبب ألمًا فظيعًا لا يحتمل ممَّا يؤدي إلىٰ أن تمتنع المصابة عن التبول فتمتلئ المثانة بالبول المحتبس، ويضطر الجراح للتدخل فيدخل القسطرة عن طريق فتحة في أسفل البطن لإخراج البول المحتبس، ولا

يمكن إدخال القسطرة عن طريق مجرىٰ البول لأن ذلك معناه ٱنتقال الفيروس من الفرج إلىٰ المثانة ورغم ذلك الٱحتياط فإن الهربس قد ينتقل إلىٰ المثانة، أمَّا عن إصابة عنق الرحم بفيروس الهربس فتسبب قروحا سرعان ما تندمل لتعود من جديد ممَّا يؤدي إلىٰ إصابة عنق الرحم بسرطان الرحم، وتتضخم كذلك الغدد الليمفاوية الموجودة في المغابن والمنطقة الأربية، وينتقل الٱلتهاب إلىٰ داخل المهبل.

وفي بعض الأحيان ينتقل الٱلتهاب الفيروسي إلىٰ داخل الرحم ذاته.

وقد ينتشر الهربس من الجهاز التناسلي إلىٰ العين، حيث تصاب القرنية، وذلك قد يؤدي إلىٰ نوع من العمىٰ إذا لم يتدارك بالعلاج السريع، ويكون سبب الٱنتقال هو أن المريضة تعدي نفسها عندما تغسل المناطق المصابة ثم لا تغسل يديها فينتقل الميكروب من اليد إلىٰ العين.

وقد ينتقل الفيروس إلىٰ مناطق أخرىٰ في الجسم داخلية مثل الكبد، وهو مرض خطير ولكنه نادر الحدوث، أو إلىٰ السحايا وهو أمر غير نادر الحدوث، وقد ينتقل من السحايا إلىٰ النخاع الشوكي أو إلىٰ الدماغ، وهٰذا مرض خطير إلا أنه نادر الحدوث لحسن الحظ.

وفي كثيرٍ من الحالات يضعف فيروس الهربس المقاومة الطبيعية الموجودة في جهاز المرأة التناسلي مما يؤدي إلىٰ نمو وتكاثر فطريات كانديدا، والتي عادة ما تعيش معنا في وئامٍ وسلامٍ حتىٰ إذا ما لمحت ضعفا في المقاومة ٱنتهزت الفرصة فغزت الجسم.

وإصابة الفرج بالهربس تجعل عملية الوقاع مستحيلة بسبب الآلام الشديدة المروعة التي تصحبها، ممَّا يؤدي إلىٰ البرود الجنسي، وإلىٰ أن يتولد لدىٰ المرأة كره عميق للوقاع، فإذا حصل ذلك بين زوجين أدىٰ إلىٰ عديد من المشاكل التي تنتهي بالطلاق.

تكرر هجوم الهربس:

إن نسبة ٧٠٪ ممن أصيبوا بالهربس التناسلي يجب أن يتوقعوا عودة الهربس مرة أخرىٰ ولمدد طويلة من الزمان، تبلغ في أكثر الأحيان مدىٰ الحياة.

ومن حسن الحظ نسبيا أن الهجمات التالية للهربس تكون في العادة أخف وطأة من الهجمة الأولىٰ التي تتميز بالشراسة.

ويؤدي تكرار الإصابة بالهربس التناسلي إلىٰ البرود الجنسي في المرأة، وإلىٰ العنة في الرجل، بسبب الآلام الشديدة التي تصحب الوقاع ممَّا يؤدي إلىٰ كره الوقاع ليس ذلك فحسب ولٰكن يصحب الهربس قلق شديد وحالة سوداوية وكآبة فظيعة قد تؤدي بصاحبها إلىٰ الٱنتحار؛ لفرط ما يعانيه من الضيق والكآبة.

وقد بحث الأطباء لماذا يعود الهربس مرة أخرىٰ بعد أن ٱختفىٰ، ولكنهم لم يعرفوا السبب الحقيقي وراء ذلك، وإن كانوا يعلمون أن الهربس يختفي في العقد العصبية العجزية القريبة من الجهاز التناسلي، فإذا ما وجد نقصًا في المقاومة ٱستغل الفيروس ذلك وعاد إلىٰ الظهور.

ومما وجد أن المقاومة في جهاز المرأة التناسلي تصل إلىٰ أدنىٰ مستواها في أثناء الحيض، وذلك لوجود مادة البروستاجلادين، والتي تساعد الفيروس في هجمته .

ولذا فإن أغلب ظهور حالات الهربس المتكررة تأتي مباشرة بعد الحيض وإذا حصل جماع أثناء الحيض -كما يحدث أحيانًا وخاصة في الغرب- فإن ذلك يعتبر الطامة لجهاز المرأة التناسلي، ويؤذن ذلك بهجوم الميكروبات من كل حدب وصوب .

وتقول المصادر الطبية إن ميكروب السيلان ينمو بشراسة في دم الحيض وكذلك تنمو مجموعة من الميكروبات الأخرىٰ .

ولهذا فإن الجماع في الحيض يؤدي إلىٰ كثير من الأذىٰ، وصدق الله العظيم حيث يقول : ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾.

ويكون المصاب بمرض الهربس معديا لكل من يتصل به جنسيًا، وخاصة في فترة وجود البثور والقروح .

والغريب حقًا أن العدوىٰ قد تحصل حتىٰ في فترات كمون الفيروس واختفائه، إذ إن الفيروس يظهر بكميات بسيطة علىٰ فرج المصاب مما يؤدي إلىٰ ٱنتقاله إلىٰ من يتصل به جنسيًا، فإذا كانت المقاومة غير قوية فإن ذلك يؤذن بمرض الهربس .

لهٰذا فيجب أن يوقف كل ٱتصال جنسي بمصاب الهربس، وحتىٰ القبلات قد تكون معدية، ولذا فيجب الٱمتناع عنها، وخاصة في الفترات التي تظهر فيها بثور الهربس .

مضاعفات الهربس

سرطان عنق الرحم :

لقد لاحظ الطبيب ريجوني سترن Rigoni Stern عام ١٨٤٢ أن سرطان عنق الرحم نادر في الراهبات بالمقارنة بالمتزوجات، وهو نادر أيضًا في اليهوديات رغم أنهن يمارسن الجنس.

وقد لوحظ كذلك أنه نادر في البلاد الإسلامية والعربية، ومن الدراسات المستفيضة حول هٰذا الموضوع تبين أن سرطان عنق الرحم منتشر وبصورة كبيرة بين المومسات .

وخرج الباحثون بالنتائج التالية حول سرطان عنق الرحم:

أولًا : إن سرطان عنق الرحم مرتبط بالزنا وعدد المخاللين للمرأة الواحدة، فكلما زاد عدد المخاللين والمخادنين لها كلما زاد ٱحتمال إصابتها بسرطان عنق الرحم .

ثانيا : إن الأتصال الجنسي بواسطة الزواج لا يسبب سرطان عنق الرحم ما لم يكن الزوج زانيًا أو الزوجة زانية .

ثالثًا : تبين أن الختان عامل مهم في كبح ما يسمىٰ عامل الذكر في إيجاد سرطان عنق الرحم لدىٰ المرأة .

فاليهوديات المتزوجات بيهود هم أقل الناس إصابة بسرطان عنق الرحم في الغرب ويعود السبب في ذلك إلىٰ أن اليهود يختتنون .

وهٰذا العامل هو من أهم العوامل في خفض نسبة السرطان لدىٰ اليهوديات في إسرائيل؛ لأن مستواهن الأخلاقي ليس بأفضل من مستوىٰ المرأة الأوروبية أو الأمريكية .

ويعتبر سرطان عنق الرحم نادر الحدوث جدًا في الجزيرة العربية، وذلك لندرة الأسباب المؤدية إليها وهو الزنا وتكراره، وختان الرجال وقلة الألتهاب المتكررة لجهاز المرأة التناسلي .

وقد وجد الباحثون علاقة وطيدة بين الهربس وسرطان عنق الرحم .

وبما أن الهربس فيروس يدخل إلىٰ الخلايا ويبقىٰ في جهاز المرأة التناسلي لمدة طويلة من الزمان، وبما أنه يسبب تغييرات باثوليجية مؤدية إلىٰ السرطان، فإن الهربس متهم بتسبيب سرطان عنق الرحم .

وقد وجد أن المصابات بالهربس معرضات للإصابة بسرطان عنق الرحم بنسبة تصل إلىٰ ٨٠٪ عمَّا هي عليه لدىٰ النساء الأخريات غير المصابات بالهربس، وكذلك وجد أن فيروس عائلة الهربس مرتبط بأنواع من الأورام الخبيثة مثل كابوسي ساركوما (الذي يسببه فيروس يتو مجالوا فيروس) Burkit Lymphoma وبركت لمفوما Cytomegalo Virus وهو ورم خبيث في الفك، وسببه أيضًا فيروس من عائلة الهربس (هو فيروس إيبشتاين وبار) .

وهناك مجموعة من فيروسات الهربس تسبب أورامًا خبيثة في أنواع مختلفة من الحيوانات مثل الضفادع والدجاج والقردة .

وقد وجد أن معظم حالات سرطان الرحم عند فحصها تحتوي علىٰ

فيروس الهربس (فصيلة ٢) وكما أن حالات قبل السرطان . (وهي التي بها تغيرات باثوليجية تسبق السرطان) وجد بها فيروس الهربس .

لهٰذه الأسباب مجتمعة يعتقد الأطباء أن للهربس دورًا خطيرًا في تسبب سرطان عنق الرحم .

إصابة الأطفال المواليد :

وتعتبر هٰذه الإصابة من أخطر أنواع الإصابة، إذ إن الفيروس ينتقل أثناء الولادة إلىٰ المولود، ويخترق جلده ليصيب الدماغ و ٩٥٪ من الحالات التي تصيب الدماغ مميتة، وقد ذكر الدكتور ناهيماس وصحبه في بحثه الذي قدمه إلىٰ المؤتمر المنعقد بشأن الأمراض الجنسية في لندن ١٩٧٥ أنه جمع ٣٠٢ حالة من حالات الهربس الذي أصاب المواليد، وكانت النتيجة ٦٠٪ منهم توفوا نتيجة المرض و ١٨٪ أصيبوا بعاهات مستديمة شديدة، و٢٢٪ منهم أمكن شفاؤهم بإذن الله.

وينتقل الهربس إلىٰ المولود بعد ٱنفجار جيب المياه أثناء الولادة في الغالب[١] ولذا فإن الأطباء ينصحون بإجراء عملية الولادة القيصرية قبل

---

(١) حيث لوحظ أنه عندما تصاب الحامل بهٰذا المرض قبل الأسبوع (٣٢) من الحمل، فإن فرص إصابة الجنين بالمرض تصل إلىٰ (١٠٪)، في حين أنه إذا لم يتم علاج الحامل، وبقيت تعاني من الإصابة حتىٰ وقت الولادة فإن نسبة الإصابة قد ترتفع إلىٰ (٤٠٪-٨٠٪) أمَّا الحوامل اللواتي يصبن بالمرض خلال الـ(٢٠) أسبوعًا الأولىٰ من الحمل فإنهن أكثر عرضة للإجهاض بثلاثة أضعاف، أمَّا إذا حدثت الإصابة بالمرض بعد الـ(٢٠) أسبوعًا فهناك فرصة لحدوث ولادة مبكرة قبل الموعد لأطفال دون السن والوزن الطبيعيين، هٰذا وتزداد الخطورة علىٰ الأم وجنينها عندما تكون الإصابة أولية، حيث تظهر علىٰ المولود، بعد (٢-١٢) يومًا من الولادة أعراض مثل التهاب العيون، وظهور حبيبات علىٰ الجلد، ويرقان وازرقاق (بسبب نقص كمية الأكسجين في دمه)، كما قد يصاب بتشنجات، أو بنزيف معوي نتيجة لإصابة العيون، والجلد، والجهاز العصبي، والغدد فوق الكلوية، والرئتين والطحال ونخاع العظام=

ٱنفجار جيب المياه أو علىٰ الأكثر بعد ٱنفجاره بسويعات، أما إذا أجريت العملية بعد ٱنفجار جيب المياه بأربع ساعات فإن نسبة الإصابة ترتفع إلىٰ ٩٤٪ فإذا أجريت العملية القيصرية قبل ٱنفجار جيب المياه فإن إصابة المولود تقل إلىٰ نسبة ٧٪ مما يدل علىٰ أن معظم الإصابات ناتجة عن مرور المولود في المهبل أثناء الولادة، وأن طريق العدوىٰ عن طريق المشيمة أي عبر من الأم إلىٰ الجنين نادرة نسبيا، وإنها ليست السبب الرئيسي في العدوىٰ، ويجرى فحص الأم الحامل قبل الولادة بأسبوعين فإذا وجد أن الهربس في عنق الرحم أو المهبل أو الفرج فينصح بإجراء عملية الولادة القيصرية.

ويصاب كثير من هٰؤلاء المواليد إصابات بالغة في أدمغتهم وفي الجهاز العصبي وفي الكبد، وقد ذكرنا أن نسبة الوفيات في إصابة الدماغ تبلغ ٩٥٪، وتلك المنتشرة في الجسم دون إصابة الدماغ تبلغ ٩٢٪، وهناك إصابات محددة أما في الجهاز العصبي وتبلغ الوفيات ٣٨٪، أو غيره من الأجهزة مثل العين (١٦٪) والجلد (٣٪) والفم (٢٪) أما تلك التي تصيب الكبد والأحشاء فتعتبر من النوع المنتشر الذي تبلغ وفياته ٩٢٪. . وأخطر مرحلة في العدوىٰ عندما يكون الهربس نشطًا وخاصة في الهجمة الأولىٰ.

وللأسف فإن الحمل عامل مهم في زيادة عدد مرات الإصابة بالهربس وتكرار هجومه، ولهذا فقد ٱستطاع العلماءُ إيجادَ طرق فنية متقدمة لتشخيص حالات الهربس بالمجهر الإلكتروني خلال ساعتين فقط، وبهذا يمكن أن ينصح الطبيب المولد هل يجرىٰ عملية قيصرية أم يجعل الولادة طبيعية؟ فإذا كانت الحالة هربس وجيب المياه لم ينفجر بعد أو ٱنفجر ولم تمض علىٰ ٱنفجاره أربع ساعات، فإن الطبيب المولد يلجأ إلىٰ إجراء عملية قيصرية،

= بهٰذا المرض، ويعتبر المرض خطيرًا جدًا إذا ما أصاب المولود حديث الولادة، حيث تصل نسبة الوفيات عند هؤلاء من (٦٠٪-٦٧٪)، بينما ينجو منهم حوالي (١٨٪) يصاب معظمهم بعاهات عصبية دائمة.

وبهذه الطريقة تقل نسبة الإصابة من ٩٤٪ إلىٰ ٧٪ فقط، وليس خطر الإصابة مقتصرا علىٰ ٱنتقال الفيروس من الأم إلىٰ الوليد، بل الخطر أيضا موجود من ٱنتقاله من الممرضة أو المولدة إلىٰ الطفل الوليد؛ إذ وجد أن ١٠٪ من الممرضات يفرزن فيروس الهربس في لعابهن.

ومعظم المختبرات الكبيرة تستطيع الآن بواسطة زرع الأنسجة أن تشخص الهربس خلال ٤٨ ساعة فقط بدلا من الأسبوع الذي كان ينبغي أن ينتظره الشخص للوصول إلىٰ التشخيص بطريقة زرع الفيروس في أجنة الدواجن وهي الطريقة المتبعة سابقا.

إصابة الجهاز العصبي:

إن فيروس الهربس بجميع أنواعه يحب العيش في الجهاز العصبي، وفترة كمون هربس التناسل تكون في العقد العصبية العجزية sacral ganglia وقد ينتشر منها إلىٰ الجهاز العصبي فيصيب السحايا meninges وقد ينتقل إلىٰ الدماغ وخاصة إذا أصيب الفم والشفتان، ونادرا ما ينتقل عبر الدم إلىٰ الدماغ.

وإصابة الدماغ مميتة في أغلب الحالات (أكثر من ٩٠٪) وأما حالات التهاب السحايا Meningitis فهي خطيرة ولكنها ليست مميتة بنفس الدرجة.

وعادة ما يختفي الفيروس في العقد العصبية ليعاود الهجوم مرة أخرىٰ ولمدة طويلة من الزمن، ويبقىٰ المريض في تلك الفترة معديا.

الهربس لدىٰ الشاذين جنسيا:

ينتشر الهربس لدىٰ الشاذين جنسيا، ويصيب الشرج وقناتها، وينتقل إلىٰ المثانة، وفي بعض الحالات ينتقل إلىٰ بقية أجزاء الجسم، أما الفاعل فيظهر الهربس علىٰ جهازه التناسلي.

انتشار الهربس:

نادرا ما ينتشر الهربس في أجسام البالغين، ويصيب الكبد بصورة خطيرة، ويعتبر التهاب الكبد الناتج عن فيروس الهربس في ٱزدياد خلال السنوات العشر الأخيرة.

الهربس أثناء الحمل:

لا يعتبر الهربس أثناء الحمل خطرا علىٰ الجنين فحسب، حيث وجدت زيادة في حالات الإجهاض وإصابات الكبد والدماغ لدىٰ المولدين لأمهات مصابات بالهربس، ولكن الهربس خطر أيضا علىٰ الأم الحامل لأن جهاز مقاومتها يضعف أثناء الحمل، مما يؤدي إلىٰ ٱنتشار الهربس إلىٰ الكبد أو الرئتين أو الجهاز العصبي.

الهربس والأمراض الجلدية:

يعاني المصابون بالأكزيما والحساسية والأمراض الجلدية من ٱضطراب في جهاز مناعتهم، فإذا أصيبوا بالهربس كان ذلك نذير شؤم بالنسبة لهم، إذ يستفحل المرض لديهم ٱستفحالا خطيرا، وينتشر في الجلد علىٰ هيئة نقاط كبيرة تشبه الجدري وتكون مليئة بالصديد والدم، كما أنها تنتشر إلىٰ الأحشاء الداخلية.

الهربس والأمراض الجنسية الأخرىٰ:

بما أن الهربس التناسلي ناتج في الغالب عن الزنا واللواط، فإنه عادة ما يكون مصحوبا بأمراض الزنا واللواط الأخرىٰ مثل الجونوريا (السيلان)، والكلاميديا، والزهري، وغيرها من الأمراض الجنسية.

الهربس ونقص المناعة:

يعاني المرضىٰ المصابون بنقص المناعة إما خلقيا أو نتيجة الأدوية التي تعطىٰ لعلاج السرطان أو زرع الأعضاء مثل القلب والكلىٰ أو ٱستخدام الكورتيزون ومشتقاته بكميات كبيرة لمختلف أنواع الأمراض، أو الحروق

البالغة أو المسنين، فإن كل هٰذه العوامل تؤدي إلىٰ ٱنتشار الهربس في الجسم، وإصابته بإصابات بالغة خطيرة مميتة في كثير من الأحيان.

ويرتبط الهربس بكثير من أمراض الجلد، ويزداد شراسة في وجود الأكزيما وبقية أمراض الحساسية، كما أن الهربس بذاته يمكن أن يسبب مرض الحمرة المتلونة Erythema Multiforme مع وجود الأكزيما أو الأمراض الجلدية الأخرىٰ يستشري الهربس، ويظهر في الجلد علىٰ هيئة نقاط كبيرة تمتلئ بالصديد والدم (غسلين)، وسرعان ما تنتشر إلىٰ بقية أجزاء الجسم الأخرىٰ مثل الجهاز العصبي والتنفسي والهضمي، وإلىٰ الكبد بصورة خاصة مما يجعله مميتا في كثير من الحالات .

٥ . الثولول التناسلي Genital Warts

هٰذا المرض التناسلي ينتج عن التهاب فيروسي ينتشر بين الأشخاص النشيطين جنسيًا، وينتمي هٰذا الفيروس إلىٰ فصيلة Papova التي تسبب مجموعة من الأورام الحميدة مثل Papilloma PolyOma

الأعراض:

وفي الذكور : تظهر حليمات Popillomataعلىٰ الحشفة وجسم الإحليل وأحيانًا علىٰ فتحة الإحليل مما يسبب آلامًا عند التبول، وقد تكون الحلمة داخل مجرىٰ البول ولذلك تسبب آلامًا أيضًا، وتسبب إفرازًا قد يكون مدممًا .

أما إذا كانت الثآليل علىٰ الحشفة أو جسم القضيب فالألم عادةً يسير، وقد لوحظ أن المختونين لا يصابون بهٰذه الثآليل إلا بنسبة ضئيلة بالمقارنة مع غير المختونين: كتاب «الأمراض التناسلية في المناطق الٱستوائية» لآربا وكتاب: «الأطلس الملون للأمراض التناسلية».

أما المصابون بالشذوذ الجنسي فإن الثآليل توجد في القناة الشرجية

وتكون الإصابة عادةً متعددة .

ويصاب الشاذون جنسيًا بسبعة أضعاف ما يصاب به الزناة من هٰذه الثآليل، أما في الإناث فتكون الثآليل عادةً علىٰ فتحة الفرج وعلىٰ الشفرين الكبيرين والصغيرين وعلىٰ العجان Perineum، ونادرًا ما تكون الإصابة في المهبل أو في عنق الرحم .

وللثآليل أشكال متعددة وأحجام مختلفة، فقد تكون صغيرةً وقد تكون كبيرة، وقد تكون ذات شكل خيطي، أو قد يكون لها ساق وقد تكون بغير ساق .

وتزداد هٰذه الثآليل بوجود أي مرض جنسي آخر مثل السيلان أو الكلاميديا أو الترايكومونس أو الزهري أو غيرها من الأمراض الجنسية التي كثيرًا ما تجتمع سويًا في الشخص الواحد .

كما أن هٰذه الثآليل تزداد شراسة ونموًا أثناء الحمل، وقد تنتقل هٰذه الثآليل إلىٰ حلق المولود أثناء نزوله من الرحم، وتسبب ورمًا ثؤلوليًا في حنجرته .

المضاعفات :

١. عند النساء : تشير الدراسات إلىٰ إصابة النساء المصابات بهٰذا المرض في (٥٢٪) من الحالات بسرطان المهبل، أو عنق الرحم، أو الفرج، أو الشرج، وتزداد فرص الإصابة بهٰذه السرطانات في وجود عوامل مساعدة أخرىٰ، مثل كون المرأة تعاني من أمراض تناسلية أخرىٰ . أو كونها من المدخنات .

كما قد ينمو الثولول الموجود علىٰ فتحة الفرج، ويكبر في فترة الحمل لدرجة قد تعيق الولادة الطبيعية .

٢. عند الرجال: قد ينمو الثولول الموجود علىٰ القضيب ويكبر مما قد يسبب تلف القضيب، أو إصابته بالسرطان أحيانًا .

٦. الألتهابات الفطرية Moniliasis

وهو مرض تناسلي ينتج عن التهاب ثانوي تسببه فطريات (مونيليا)، ولا يصيب الأنسجة السليمة في الجسم، وإنما يحدث بعد الإصابة بأمراض أخرىٰ مثل (الهربس) التناسلي، والثولول التناسلي و(الأكزيما)، والتهاب الجلد، وهو منتشر عالميًا، ويصيب النساء بعد سن البلوغ، وينتشر عن طريق الأتصال الجنسي .

العوامل المساعدة علىٰ الإصابة :

أ . أستعمال أقراص منع الحمل .

ب . الإصابة بمرض سكري الدم .

ج . الإصابة بمرض (الإيدز) .

د . الحمل(خاصةً في الأشهر الثلاثة الأخيرة) .

هـ . الإصابة بالسرطان .

و . الإصابة بأمراض الغدد الدرقية .

ز . أستعمال المضادات الحيوية لفترات طويلة .

هٰذا وتزداد فرصة حمل الفطريات علىٰ القضيب إلىٰ أربعة أضعاف عند الرجال الذين يتصلون جنسيًا بنساء مصابات بالمرض، ولٰكن حمل الفطريات لا يعني أنتقال المرض إلىٰ الرجل، بل هو دليل علىٰ وجود المرض عند الرجل، وعند شريكته (الزوجة أو غيرها)، ولكنه والحال هٰذه يكون قادرًا علىٰ نقل المرض إلىٰ أمرأة أخرىٰ إذا ما أتصل بها جنسيًا .

الأعراض :

١. عند الرجال : يصيب هٰذا المرض الرجال المختونين، وغير المختونين علىٰ حد سواء، ولكنه أكثر شيوعًا بين غير المختونين .

يشكو المصاب من حكة وحرقة في رأس القضيب، مع ظهور حبيبات حمراء اللون، وإفرازات لزجة صفراء اللون، كما قد تتورم الحشفة عند غير

المختونين مما يؤدي إلىٰ ٱنقباضها حول القضيب، وضغطها عليه بشكل يستدعي إجراء عملية ختان طارئة وفورية.

هٰذا وقد تمتد الأعراض عند البعض لتشمل جلد القضيب كله، وكيس الخصيتين، وأصل الفخذ .

ومن الملاحظ أن كثيرًا من المصابين لا يعانون من أية أعراض .

٢. عند النساء : تشكو المرأة المصابة من حكة شديدة في منطقة الفرج والمهبل، مع الشعور بألم (شديد أحيانًا) أثناء عملية الٱتصال الجنسي، كما تشكو من ألم وصعوبة أثناء التبول .

هٰذا وبالكشف تظهر فتحة الفرج جافة حمراء اللون مع تورم، وتظهر شقوق دقيقة علىٰ الجلد المصاب مع بقع سميكة بيضاء، وإفرازات غير لزجة بيضاء اللون، مع نزيف دموي خفيف من المهبل أحيانًا .

أما إذا ما أصيبت المنطقة المحيطة بالشرج، فإن المريضة تشكو من حكة في هٰذه المنطقة .

٧. الدويبات المشعرة Trichomona Vaginalis

وهو مرض تناسلي ناتج عن التهاب يسببه نوع من الأوليات التي تصيب المهبل عند المرأة، والقضيب عند الرجل، وينتقل عن طريق الٱتصال الجنسي المباشر، ولا يحتمل ٱنتقاله عن طريق ٱستعمال الأدوات الشخصية للمصاب، مثل المناشف وغيرها .

وتعتبر الإصابة بطفيل الترايكومونس المهبلي من أكثر الإصابات الجنسية ٱنتشارًا بين النساء .

ينتشر هٰذا الطفيلي عادة عن طريق الٱتصال الجنسي، يقول شوفيلد في كتابه «الأمراض الجنسية» : (إن الأغلبية العظمىٰ من هٰذه الحالات في الإناث، وجميع هٰذه الحالات في الذكور ناتجة عن الٱتصال الجنسي) ..

وفي كثير من الأحيان يرتبط وجود الطفيلي بوجود السيلان أو الأمراض

التناسلية الأخرىٰ، إذ أن الزناة والشاذين جنسيًا يصابون بعدة أمراض جنسية في كثير من الأحيان في آن واحد، وتشخيص مرض واحد منها لا ينبغي أن يُنسي الطبيب البحث عن الأمراض الأخرىٰ، فقد يكتشف الأبسط والأسهل مثل الكانديدا أو الترايكومونس وينسىٰ الأخطر والأهم مثل الهربس والزهري والسيلان .

الأعراض:

١. عند النساء : تشكو المصابات من سيلان مهبلي صديدي ذي رائحة كريهة، مخضر اللون، غزير ورغوي، ويحتوي علىٰ دم في بعض الأحيان،وذلك بسبب التهاب الغشاء المخاطي المبطن للمهبل، هٰذا وقد يكون الٱلتهاب شديدًا لدرجة أن تشكو المصابة من ألم شديد في المهبل، خاصة أثناء عملية الجماع .

وقد يؤثر هٰذا الٱلتهاب علىٰ الجنين عند المرأة الحامل، فينتقل المرض إلىٰ المولود أثناء عملية الولادة بسبب ملامسته للإفرازات الملوثة.

أما في الحالات الإصابة المزمنة بالمرض فإن الأعراض تظهر قبل وبعد كل دورة شهرية، وتختفي بين الدورات .

كما تشكو بعض المصابات من تهيج في المسالك البولية مع إحساس بألم وحرقة أثناء التبول .

٢. عند الرجال : قد تسبب الإصابة بهٰذا المرض التهابًا في مجرىٰ البول الأمامي، أو التهاب غدة البروستاتا، فيشكو المصاب من ألم وحرقة أثناء التبول، كما يشكو من كثرة عدد مرات التبول .

هٰذا وقد لا تظهر أي أعراض علىٰ المصاب أحيانًا، ويبقىٰ حاملًا للأوليات المسببة للمرض، ويكون قادرًا علىٰ نقل هٰذا المرض إلىٰ ٱمرأة أخرىٰ في حالة ٱتصاله بها جنسيًّا .

٨. مرض التهاب الحوض Pelvic Inflammatory Disease

وهو مرض تناسلي يصيب صغار السن من النساء النشطات جنسيًّا .

وأهم أسباب هٰذا المرض هو العلاقات الجنسية التي تسببها ميكروبات: الكلاميديا والسيلان والميكوبلازما وغيرها من الميكروبات السبحية، أو ميكروب السل الذي ينتقل بوساطة الدم إلىٰ قناتي الرحم، أو ميكروب البكترويدز التي لا تحتاج إلىٰ الهواء ANAETIBES

ويعتبر من أسباب ٱنتشار هٰذا المرض . بالإضافة إلىٰ الأمراض الجنسية (أمراض الزنا) إدخال اللولب لمنع الحمل، كما أن الجماع أثناء الحيض يعتبر من الأسباب المؤدية إلىٰ هٰذا المرض، كما يعتبر الإجهاض الجنائي النتن أحد الأسباب الهامة لهٰذا المرض الخطير.

ويسبب هٰذا المرض ألمًا في الحوض وفي الظهر، وآلامًا شديدة عند الوقاع، كما يسبب الحمل خارج الرحم، أو العقم والتهاب المبايض، وقد يسبب أيضًا الإجهاض، وكما يسبب عسرًا في الطمث وألمًا شديدًا عند العادة.

وقد سجلت حالات عدة من ٱنتقال الميكروب من الحوض إلىٰ الكبد Perihepatitis أوالقلب Endocarditis وأول حالة سجلت ٱنتقلت إلىٰ القلب كانت في عام ١٩٧٨ في الولايات المتحدة .

وقد يتحول الٱلتهاب إلىٰ خراج قد ينفجر ويؤدي إلىٰ الٱلتهاب البريتوني الحاد، أو خراجات منتشرة في الجسم، ورغم المعالجة فإن ١٠٠ بالمائة من الحالات تكون مميتة .

ومنذ بداية الستينات من هٰذا القرن زادت في الغرب خاصة حالات مرض التهاب الحوض وذلك مع زيادة ٱنتشار الأمراض الجنسية، وزيادة ٱستعمال اللولب، مع زيادة حالات الإجهاض الجنائي، وفي البلاد النامية تعتبر هٰذه الأسباب أيضًا هامة بالإضافة إلىٰ حالات الولادة في ظروف قذرة مما يؤدي إلىٰ التهاب الرحم، وحمىٰ النفاس والتهاب قناتي الرحم .

إن مرض التهاب الحوض P.I.D يعني بالذات التهابًا لقناتي الرحم أو أحدهما مع وجود التهاب مصاحب في المبايض، أو التهاب في البريتون (الأغشية الخفيفة المغطية للأحشاء).

وقد يكون هٰذا الٱلتهاب حادًا أو تحت الحاد أو مزمنًا، وأهم أسبابه كما أسلفنا الأمراض الجنسية المتسببة عن ميكروب السيلان أو ميكروب الكلاميديا أو ميكروب المايكوبلازما.

٩. النمو المغبني الألتهابي Lymphogranuloma Inguinale

وهو مرض تناسلي حاد أو مزمن، تسببه جرثومة (كلاميديا)، وينتقل عن طريق الأتصال الجنسي.

الأعراض :

تظهر الأعراض علىٰ المصاب بعد فترة حضانة تتراوح ما بين (٣-٣٨) يومًا، وذلك علىٰ مراحل :

١. المرحلة الأولىٰ : تظهر الأعراض عند الجنسين علىٰ الأعضاء التناسلية الخارجية (القضيب والفرج وفتحة المهبل) علىٰ شكل بثرات أو حويصلات مصلية أو صديدية صغيرة، أرجوانية اللون، تتحول إلىٰ قرح خلال أيام، لتلتئم تلقائيًا بعد عدة أيام دون أن تترك أثرًا في مكانها .

٢. المرحلة الثانية : بعد فترة قد تمتد من (٤) أيام إلىٰ (٤) أشهر من ظهور البثرات، تلتهب العقد اللمفاوية في منطقة الأعضاء التناسلية، ثم تتضخم وتصبح متلبدة ومؤلمة، ويشكو المصاب من حمىٰ مصحوبة بقشعريرة ومن صداع وتعرق، مع إرهاق عام، وفقدان للشهية، وغثيان مع تقيؤ، كما قد يصاب بالتهاب الملتحمة في العين، وقد يظهر طفح جلدي علىٰ جسمه .

أما النساء والشاذون جنسيًا من الجنسين (عمل قوم لوط)، فإنهم يصابون بالتهاب في الشرج والمستقيم، فيشكو المصاب منهم من ألم في المنطقة المصابة مع ألم في أسفل البطن، يصاحبه خروج مخاط مخلوط بالدم والصديد من فتحة الشرج .

المضاعفات :

إذا لم تتم معالجة المصاب في الوقت المناسب فإنه يكون عرضة للإصابة بإحدىٰ أو جميع المضاعفات التالية :

أ . داء الفيلة : حيث تتضخم الأعضاء التناسلية المصابة بشكل شديد نتيجة أنسداد الأوعية اللمفاوية في المنطقة .

ب ـ تضيق وانسداد في قناة الشرج، وفي المستقيم، وفي مجرىٰ الجهاز البولي التناسلي، مع تكون خراجات ونواسير (بين الشرج والجلد، أو بين المستقيم والفرج، أو بين المستقيم والمثانة البولية)، كما قد تظهر تغيرات سرطانية في خلايا الأغشية المخاطية المبطنة لهٰذه الأعضاء.

جـ ـ التهاب السحايا والدماغ (نادر الحدوث) .

د ـ التهاب الكبد أحيانًا.

١٠- التهاب مجرىٰ البول الأمامي (غير معين السبب)
Non Specific Urethritis

وهو مرض تناسلي يصيب الجنسين؛ ناتج عن التهاب مجرىٰ البول الأمامي بسبب أية جرثومة أخرىٰ غير الجرثومة المسببة لمرض السيلان، وغير السيلان تسببه مجموعة من الميكروبات أهمها:

١- الكلاميديا Ch;amydia[(١)]

---

(١) تعتبر الكلاميديا أهم أسباب التهاب مجرىٰ البول غير معين السبب وقد اكتشف هٰذا الميكروب في القرن العشرين وذلك عام ١٩٠٧ بواسطة بروازيك وهاليستادر وذلك في إفرازات عيون المصابين بمرض التراخوما المشهور ويسبب هٰذا الميكروب مجموعة من الأمراض، ويمكن تقسيمه إلىٰ فئتين كبيرتين يندرج تحت كل فئة مجموعة من الأمراض، وهاتان الفئتان هما:

١- كلاميديا التراخوما: وهي تصيب الإنسان فقط، وتنقسم هٰذه إلىٰ مجموعات: المجموعة أ: ويمكن التعرف عليها من خصائصها في إفراز مصل خاص يرمز له بـ L 1,2,3 وتسبب هٰذه المجموعة مرض الاتهاب البلغمي الحبيبي التناسلي الذي يسبب مرضًا جنسيًا معديًا منتشرًا في المناطق الأستوائية.

المجموعةب: وتسبب مرض التراخوما المعروف الذي يصيب العين ويقدر عدد المصابين به في العالم بخمسمائة مليون شخصًا، وهو من أكثر الأمراض المعدية انتشارًا، وتعتبر التراخوما أهم سبب للعمىٰ في العالم، وتمثل هٰذه المجموعة ٤ أنواع مصلية، وتسبب العمىٰ لحوالي مليوني شخصًا في العالم سنويًا.

المجموعة ج: وتسبب ألتهاب مجرىٰ البول وألتهاب ملتحمة العين (غير التراخوما المشهورة) وألتهاب عنق الرحم، والتهاب قناتي الرحم، وألتهاب البربخ، وألتهاب الشرج، والألتهاب الرئوي في الأطفال، وتشمل هٰذه المجموعة ثمانية أنواع مصلية.

٢- كلاميديا الطيور Cpsittaci: وتنتشر هٰذه في الطيور وخاصة الببغاء، وطيور الزينة، وتسبب ألتهابات رئوية لدىٰ الإنسان ومأواها الأول هو الطيور ولكنها قد تصيب الثدييات والإنسان وهٰذه المجموعة تمثل أنواعًا عدة:

وتعتبر الكلاميديا الجنسية C. Trachamatis: من المجموعة ج هي من أهم=

= الأسباب الميكروبية في انتشار الأمراض الجنسية، وقد وجد أن هٰذه الميكروبات تسبب ٱلتهاب مجرىٰ البول (من غير السيلان)، وٱلتهاب البربخ، وقناتي الرحم، وٱلتهاب الحوض في النساء، وٱلتهاب المثانة في الرجال والنساء، والتهاب الشرج والقولون والإجهاض وتسبب العقم في الرجال والنساء، وتقول الأبحاث: أن ثلث حالات العقم ناتجة عن التهابات تسببها الكلاميديا.

وتسبب الكلاميديا في الأطفال والبالغين أيضًا نوعًا من ٱلتهاب ملتحمة العين Trachama Inclusion Conjun ctivitis كما تسبب الٱلتهاب الرئوي وخاصة لدىٰ الأطفال.

وبما أن الممارسات الجنسية الشاذة قد انتشرت، فقد وجد أن الكلاميديا تسبب أيضًا ٱلتهاب القانة الشرجية، كما تسبب ٱلتهاب الفم والحلق والبلعوم.

وقد أدت هٰذه الممارسات الشاذة أيضًا إلىٰ إصابة حول الكبد Perihepatitis كما أدت إلىٰ حالات ٱلتهاب غشاء القلب الداخلي وتعتبر الكلاميديا أكثر الميكروبات وجودًا في فروج النساء اللاتي لهن اتصالات جنسية غير شرعية (خارج أو قبل الزواج)، ويمكن القول بأن الكلاميديا هي أكثر الميكروبات شيوعًا لدىٰ النساء المترددات علىٰ عيادات الأمراض الجنسية وتسبب الكلاميديا ٱلتهاب عنق الرحم، كما تسبب إفرازًا صديديًا، وقد تحدث فيه تسلخات، Erosion وأحيانًا قد يبدو عنق الرحم سليمًا رغم وجود الكلاميديا وتتعايش الكلاميديا مع ميكروب السيلان وقد وجد أن ٥٠٪ من حالات السيلان مصابة أيضًا بالكلاميديا، ولذا فإن الٱنتهاء من علاج السيلان يحتاج في نصف الحالات إلىٰ إعادة العلاج للكلاميديا بأحد مجموعة التتراسيكلين.

تصيب الكلاميديا المواليد أثناء نزولهم في عملية الولادة، حيث يكون عنق الرحم والمهبل مصابان بالكلاميديا، وتصاب عدة أجهزة في الطفل المولود وهي:

١- ٱلتهاب ملتحمة العين: وهٰذه أكثرها ٱنتشارًا.

٢- التهاب الرئة Pnemonia: ويتميز هٰذا الٱلتهاب بأنه ٱلتهاب بدون ارتفاع في درجة الحرارة، وتظهر أشعة الرئة انتشار الٱلتهاب في الرئتين جميعًا، ويكون الٱلتهاب مسببًا لضيق في النفس ونهجان، ومصحوبًا بٱلتهاب ملتحمة العين.

ويمكن البحث عن الميكروب من الرئتين إذ أن وجوده بها يبلغ ٩٠٪ من حالات=

٢- الميكولازما[١].

٣- كانديدا[٢] وتريكومونوس.

= ٱلتهاب الرئة، وكذلك يمكن البحث عنه في ملتحمة العين، إذ يكون موجودًا بنسبة ٥٥٪.

وتكون هٰذه الحالات مصحوبة أيضًا بالصمم.

٣- ٱلتهاب الفرج والشرج للأطفال المواليد مع أو بدون ٱلتهاب الرئة.

وأما الكبار فتسبب لهم ٱلتهابًا في الملتحمة ولا يكون شديدًا في العادة، ومصدر العدوىٰ هو يد المريض التي تنتقل العدوىٰ من فرجه إلىٰ عينه، أو نتيجة استخدام الفوط والمناشف المشتركة أو حمامات السباحة؛ حيث تنتقل العدوىٰ من المصاب إلىٰ الموجودين في حمامات السباحة بواسطة الماء.

كما تصيب الكلاميديا القناة الشرجية لدىٰ الشاذين جنسيًا أو النساء اللاتي أتاهن الرجال من الخلف، أو في الأطفال المواليد حيث يأخذون الميكروب من عنق الرحم والمهبل أثناء الولادة.

كما تصيب أيضًا الفم والبلعوم لدىٰ الشاذين جنسيًا أو في الأطفال المواليد أو قد تنتقل العدوىٰ باليد من العين أو الفرج إلىٰ الفم.

(١) وتعتبر هٰذه أهم ثاني سبب بعد الكلاميديا لٱلتهاب مجرىٰ البول من غير السيلان، وقد اكتشف هٰذا الميكروب عام ١٩٣٧ حين وجد ٱلتهاب في فرج امرأة.

وهٰذه الميكروبات أنواعًا وأهمها بالنسبة لأمراض الجهاز التناسلي نوع يحلل البولينا ويدعىٰ: Urea Plasma، وتسبب هٰذه الميكروبات إفرازًا خفيفًا من مجرى البول، يتميز بوجود خيوط رفيعة فيه.

وتساهم الميكوبلازما وخاصة من نوع هومينيس Hominis (أي النوع الإنساني) في الإصابة بمرض ٱلتهاب الحوض الذي أسلفنا ذكره.

(٢) كانديدا من الفطريات، والفطريات كائنات نباتية ليس لها مادة اليخضور «الكلوروفيل» الذي بواسطته تصنع غذاءها، ولذا فهي تعيش علىٰ المواد العضوية المتحللة سواء كانت نباتية أو حيوانية، وهي أنواع عديدة تبلغ أكثر من خمسين ألف نوع.

وفطر كانديدا هٰذا يعيش في أجسامنا حياة قانعة بما يفيض عليه الجسم من خلايا=

= ميتة متحللة فيأخذها ويتبلغ بها، ويوجد هٰذا الفطر في الفم والأمعاء ونادرًا ما يوجد في المهبل بسبب حموضة المهبل التي تقتله عادة.

فإذا ما ضعفت المقاومة استشرت هٰذه الفطريات المسالمة، وعاثت في الجسم فسادًا، وعوامل ضعف المقاومة منها ما هو مجهول ومنها ما هو معلوم، فأما المجهول فلا كلام لنا عليه، وأما المعلوم فيرجع إلى أسباب عدة منها شرب الخمور والتدخين (بالنسبة للجهاز التنفسي)، ومنها أدوية كثيرة مثل الكورتيزون ومشتقاته والأدوية التي تعطىٰ في معالجة الأورام الخبيثة، والمضادات الحيوية وهي أكثرها ٱنتشارًا.

ومنها ما يرجع لأمراض تصيب البدن مثل السكر وأمراض الغدد الصماء، مثل الغدة الدرقية والكظرية، ومنها السل الرئوي ومنها الحمل وأمراض الكلىٰ وحبوب منع الحمل.

وفطر الكانديدا الذي يظهر في الجهاز التناسلي للمرأة له عدة عوامل داخلية في الجسم وخارجية، أما الداخلية فتلك التي أشرنا إليها من أسباب ضعف المقاومة، وأما الخارجية فأهم سبب لها هو الاتصال الجنسي.

ويقول كتاب (الأطلس الملون للأمراض التناسلية Atlas Of A colour Venereology) إن فطر كانديدا هو أكثر أنواع الفطريات ٱنتشارًا في عيادات الأمراض التناسلية.

الصور الإكلينيكية: قد تكون المرأة حاملة لفطر الكانديدا دون وجود أي أعراض وفجأة تظهر الأعراض وخاصة أثناء الحمل أو نتيجة لظهور مرض السكر أو بعد اتصال جنسي متكرر، أو بعد استخدام مضادات حيوية أو الكورتيزون أو حبوب منع الحمل، أو غيرها من الأسباب التي ذكرناها والتي تضعف المقاومة الموضوعية وذلك بنقصان حموضة إفراز المهبل الطبيعية.

وتبدأ الأعراض بحكة في الفرج وخاصة قبل العادة وفي الليل، وتؤدي الحكة وفي بعض الأحيان إلىٰ تسلخ الجلد وٱلتهاب فيه، ويصحب ذلك حرقة في البول، وآلام في الفرج، وتزداد بصورة خاصة عند الجماع.

وتزداد إفرازات المهبل وتكون ثخينة متجبنة وشكلها يشبه الكريم، وتتجمع هٰذه الإفرازات داخل المهبل. =

٤-هربس.

٥-ميكروبات أخرىٰ.

الأعراض:

تظهر الأعراض بعد فترة حضانة تمتد من (١-٤) أسابيع، فيشكو المصاب من تهيج في مجرىٰ البول، مع صعوبة في التبول، وخروج إفرازات مخاطية أو مخاطية صديدية من فتحة البول، مع صعوبة في التبول، تصبح حمراء ومتورمة . هٰذا وقد ينتج عن هٰذا الٱلتهاب ضيق في مجرىٰ البول أحيانا كما أنه من أهم أسباب التهاب البربخ (في الخصية) عند صغار السن من الرجال.

أما عند النساء فإن الٱلتهاب يمتد ليصيب عنق الرحم، وتجويف الرحم وقنواته، ومن ثم إلىٰ الكبد، وقد يؤدي إلىٰ التهاب الغشاء المبطن لأحشاء البطن.

وقد تسبب الإصابة عند الحامل التهابا في العيون أو الأذن الداخلية أو الرئتين عند الأطفال حديثي الولادة بسبب ملامستهم للأعضاء التناسلية المصابة أثناء عملية الولادة.

= وعند الفحص يجد الطبيب حمرة واحتقانًا في الشفرين والعجان Perineum مع وجود انتفاخ (أوديما) وتقشر علىٰ الفرج.

١١- الورم الحبيبي الإربي Granuloma Inguinale

وهو مرض تناسلي مزمن، ينتج عن التهاب خفيف العدوىٰ، يصيب الجلد والأغشية المخاطية والعقد اللمفاوية في منطقة الشرج والفرج وينتقل عن طريق الاتصال الجنسي المباشر كما أنه قد يصيب منطقة الوجه والفم والرقبة أحيانا (عند الشاذين جنسيا ممن يمارسون الاتصال الجنسي بالفم) ويصيب هٰذا المرض الرجال، وخاصة الشاذين جنسيا، أكثر من النساء بنسبة تصل إلىٰ (١٠: ١)، وعادة ما يكون المصاب يعاني من أمراض تناسلية أخرىٰ، من أهمها الزهري، الذي يمهد للإصابة بهٰذا المرض في بعض الحالات .

الأعراض :

تظهر الأعراض بعد فترة حضانة تمتد من (١- ١٢) أسبوعا، حيث تظهر حويصلة غير مؤلمة علىٰ القضيب، أو حول منطقة الشرج عند الرجال، وعلىٰ الفرج، أو داخل فتحة المهبل عند النساء، ثم تتورم الحويصلات وتنفقىء لتكون قروحا حمراء تشبه القروح السرطانية وتنزف دما إذا ما لمست، أما إذا ظهرت الحويصلة بداخل المهبل فإن المصابة تشكو من نزف مهبلي.

وقد تصاب هٰذه القروح بالتهابات ثانوية فتصبح مؤلمة وتنبعث منها رائحة كريهة. كما قد تنتشر القروح والأورام المرافقة لها ببطء إلىٰ المناطق المجاورة عن طريق الأوعية اللمفاوية،مما قد يؤدي إلىٰ إقعاد المصاب، أو وفاته، وذلك عندما تصل العدوىٰ إلىٰ العظام والمفاصل، أو إلىٰ الكبد، مما ينتج عنه إصابات مزمنة قد تدوم لسنوات عديدة.

المضاعفات:

١-ضيق في مجرىٰ البول، وفي فتحة المهبل، وفي فتحة الشرج.

٢- قروح عميقة علىٰ القضيب، وتورم الحشفة وانقباضها علىٰ القضيب

مما يسبب ٱنحصارا في البول، يستلزم إجراء عملية ختان طارئة وفورية.

٣-داء الفيلة.

٤-تغيرات سرطانية في خلايا الأغشية المخاطية المصابة.

١٢- القرح اللين Chancroid

هٰذا المرض التناسلي ينتج عن التهاب جرثومي حاد، وهو مرض نادر الحدوث، ولكنه معد، ينتقل عن طريق الأتصالات الجنسية المشبوهة (الزنا)، ويصيب الأعضاء التناسلية عند الجنسين، ولكنه يصيب الرجال أكثر من النساء بنسبة تصل إلىٰ (٥ : ١).

وتلعب الدعارة والعلاقات الجنسية غير الشرعية (الزنا)، وعدم النظافة الشخصية دورا هاما في المساعدة علىٰ أنتشار هٰذا المرض، كما يلاحظ أرتفاع نسبة الإصابة بين الرجال غير المختونين.

الأعراض:

تظهر الأعراض بعد فترة حضانة تمتد من (٢-١٠) أيام، حيث تظهر حويصلة مصلية صديدية صغيرة، تتحول إلىٰ قرحة خلال يومين أو ثلاثة أيام علىٰ القضيب عند الرجال، وعلىٰ الفرج وفتحة المهبل، وحول الشرج عند النساء، ويلاحظ أن الألم الذي تسببه هٰذه القروح يكون أكثر حدة عند النساء. بعد ذلك تنتشر القروح إلىٰ المناطق المجاورة، وفي خلال أسبوع من بدء الإصابة تتورم العقد اللمفاوية في المنطقة المصابة، وتلتهب لتكون أوراما تشبه الخراجات وتحتوي علىٰ مادة شبه صديدية، وذلك عند (٥٠٪) من المصابين.

المضاعفات :

١- تورم الحشفة وانقباضها علىٰ القضيب عند الرجل، مما يسبب إصابته بحصر في البول يستدعي إجراء عملية ختان فورية .

٢- التهابات ثانوية في القروح تؤدي إلىٰ تآكل الأغشية في المنطقة المحيطة بها.

٣- تقرح الخراجات وتفتحها.

١٣- الألتهاب الناتج عن فيروس (خلوية عرطل) Cytomegalo Virus

هو مرض تناسلي ينتج عن الإصابة بالتهاب فيروسي منتشر عالميا، ويصيب جميع فئات العمر من الجنسين، وخاصة المراهقين.

ينتقل هٰذا المرض عن طريق الأتصال الجنسي المباشر، وعن طريق التقبيل، وعن طريق نقل الدم ومنتجاته، وعمليات (زراعة) الأعضاء.

يبقىٰ الفيروس كامنا في خلايا جسم المصاب مدىٰ الحياة، لتعود الأعراض إلىٰ الظهور كلما حدث نقص في مناعة الجسم.

وينتشر هٰذا المرض بين المصابين بأمراض تناسلية أخرىٰ، وبين الشاذين جنسيا خاصة، أما مرض (الإيدز)، والمصابون بالسرطان، ومرضىٰ زراعة الأعضاء، الذين يعانون من نقص في المناعة، فهم عرضة لتكرار الإصابة بالمرض بكثرة، وذلك عند حاملي الفيروس منهم.

كما ينتقل المرض من الأم المصابة إلىٰ الجنين، سواء كانت مصابة به قبل الحمل، أو أنها أصيبت بعده، وذلك عن طريق الدم، أو عن طريق إفرازات عنق الرحم الملوثة بالفيروس لدىٰ ملامسة المولود لها أثناء الولادة الطبيعية.

كما يمكن أنتقال العدوىٰ إلىٰ الأطفال عن طريق حليب الأم الملوث بالفيروس، وتشير الدراسات في الولايات المتحدة إلىٰ أن (١٪) من الأطفال حديثي الولادة يكونون مصابين بالمرض قبل الولادة، وإلىٰ أن (٥٪) منهم يصابون به أثناء عملية الولادة أو بعدها مباشرة.

الأعراض:

١-المرض الخلقي: ينتقل المرض من الأم الحامل إلىٰ الجنين عن طريق الدم، ويعتبر هٰذا المرض أكثر الأمراض التي تصيب الجنين شيوعا، وقد تكون الأعراض خفيفة، كأن يصاب الطفل بيرقان خفيف، أو بصعوبة في التنفس، أو أن يكون وزنه دون الوزن الطبيعي، مما قد يؤدي إلىٰ إصابة جزء

من هٰؤلاء بالصمم العصبي، في حين يصاب جزء آخر بالتخلف العقلي.

أما عندما تكون الأعراض شديدة، فإن الطفل يصاب بتضخم في الكبد والطحال مع التهاب وتليف في الكبد، وتظهر علىٰ الجلد بقع أرجوانية اللون (مرض الفرفرية) مع طفح حويصلي جلدي، كما يصاب بالتهاب في الدماغ، ويصاب بتخلف عقلي، وبتخلف في النمو، كما تلتهب العيون والرئتان، أو يصاب الطفل بفقر الدم، هٰذا وقد يولد الطفل ميتًا في بعض الأحيان.

٢-المرض الولادي: تنتقل عدوىٰ المرض إلىٰ الطفل أثناء عملية الولادة، أو بعدها مباشرة، ويكون هٰؤلاء الأطفال حاملين لفيروس المرض، وقد لا تظهر عليهم أعراض المرض.

أما الأعراض التي قد تصيب هٰؤلاء فمنها بقاء وزن الطفل تحت المعدل الطبيعي مما يؤثر علىٰ نموه، وتضخم العقد اللمفاوية، وظهور طفح جلدي والتهاب الكبد وفقر الدم قد يصاب الطفل بالتهاب في الحنجرة والقصبة الهوائية، والرئتين في بعض الأحيان .

٣-المرض عند الكبار: وذلك يشمل الأطفال الطبيعيين والمراهقين فإنَّ الأعراض عند هٰؤلاء تظهر بعد فترة حضانة تمتد من (٣٠. ٦٠) يوًما وقد تمتد فترة الإصابة بالمرض إلىٰ (٣-٦) أسابيع.

يشكو هٰؤلاء من حمىٰ وضعفٍ عامٍ وإرهاقٍ مع آلام في العضلات، واحتقان مع ألم في الحلق، وتضخم العقدً اللمفاوية والكبد، كما يظهر طفح جلدي علىٰ جسم المصاب، هٰذا وقد يصاب البعض بالتهاب في الرئتين، أو بتضخم الطحال أو بالتهاب عضلات القلب، والتهاب الأعصاب، وفقر الدم، ومرض الفرفرية.

٤-المرض عند مرضىٰ نقص المناعة مثل (الإيدز) والسرطان (الدم والجهاز اللمفاوي) وفقر الدم المزمن، والفشل الكلوي، ومرضىٰ زراعة الأعضاء.

يشكو هٰؤلاء من حمىٰ وإرهاق، ومن التهاب مع أو دون تضخم في الكبد مع غثيان وآلام في البطن، وآلام في المفاصل والعظام، كما قد يصاب بعضهم بتقرحات في الجهاز الهضمي.

هٰذا وقد تصاب إحدىٰ أو كلتا العينين بالتهاب، وكذلك قد تصاب الرئتان بالتهاب شديد قد يؤدي إلىٰ فشل في الجهاز التنفسي، ووفاة المصاب أحيانا.

كما قد يصاب المريض بالتهاب معوي فيشكو من إسهال وقيء وحمىٰ مع آلام في البطن.

كما تمهد الإصابة بهٰذا المرض إلىٰ الإصابة بالتهابات ثانوية جرثومية أو فطرية خاصة بعد عمليات زراعة الأعضاء، مما قد يؤدي إلىٰ فشل هٰذه العمليات.

١٤- التهاب الكبد الفيروسي (ب) Hepatitis (B)

هٰذا المرض التناسلي ينتج عن التهاب في الكبد يسببه فيروس يصيب جميع فئات العمر من الجنسين.

وتشير الدراسات إلىٰ وجود حوالي (٢٠٠) مليون حامل لفيروس هٰذا المرض في عام (١٩٨٢م)، في حين تقدر منظمة الصحة العالمية عددهم في عام (١٩٩٤م) بحوالي (٢٨٠) مليونا، وهٰؤلاء هم الذين يشكلون المستودع الرئيسي للفيروس، ويعملون علىٰ نشره.

الأشخاص المعرضون للإصابة:

أ-مدمنو المخدرات بالحقن، كما يمكن ٱنتقال المرض عن طريق عملية الوشم.

ب-الشاذون جنسيا ممن يمارسون عمل قوم لوط: الرجال خاصة.

جـ- الأطفال المولودون لأمهات مصابات بالمرض، وذلك عن طريق الدم أثناء الحمل، أو أثناء عملية الولادة، ولٰكن ليس للرضاعة دورٌ في نقل المرض.

د- الٱتصال الجنسي والإباحية الجنسية وخاصة العلاقات التي تدوم لفترات طويلة (الزنا).

هـ- مرضىٰ غسيل الكلىٰ ومرضىٰ تميع الدم.

و- الأطباء (الجراحون خاصة) والفنيون في أقسام الجراحة والطوارئ والحوادث.

ز- العاملون في بنوك الدم والمختبرات.

هٰذا وتصل نسبة الإصابة بالعدوىٰ عند مرضىٰ سرطان الجهاز اللمفاوي، وسرطان الدم، والبرص، ومرضىٰ الفشل الكلوي (غسيل الكلىٰ)، ومدمني المخدرات بالحقن والإيدز إلىٰ (٣٠٪).

الأعراض:

تظهر بعد فترة حضانة تتراوح ما بين بضعة أيام إلىٰ ستة أشهر، حيث يشكو المصاب من حمىٰ مصحوبة بقشعريرة وصداع وضعف عام، وفقدان الشهية مع عدم الرغبة بالتدخين (بالنسبة للمدخنين)، كما يشكو أحيانا من غثيان وتقيؤ وإسهال، أو يشكو من ألم شديد (أحيانا) في منطقة أعلىٰ البطن يسبب تضخم الكبد كما تتضخم العقد اللمفاوية في منطقة الرقبة، وأحيانا يتضخم الطحال.

ويشكو بعض المرضىٰ من آلام في المفاصل مع ظهور طفح جلدي علىٰ الجسم، في حين يشكو البعض الآخر من حكة مع التهاب في عدة مفاصل أحيانا، بعد ذلك تظهر أعراض اليرقان، وهي : ٱصفرار العيون والجلد مع خروج بول أصفر غامق، يزداد ٱصفراره مع تقدم الحالة، ويصبح لون البراز أصفر شاحبا.

المضاعفات :

١-فشل كلوي حاد قد يودي بحياة المريض.

٢-التهاب متكرر في الكبد (٥-١٥٪).

٣-فقر الدم.

٤-متلازمة ما بعد التهاب الكبد: حيث يشكو المصاب من ألم في منطقة الكبد، مع ضعف عام، وفقدان للشهية، وغثيان دون وجود التهاب في الكبد.

٥-التهاب مزمن في الكبد بنسبة (١٠٪) عند الكبار، و(٢٥٪) عند الأطفال الكبار، وأمَّا عند الأطفال حديثي الولادة فتصل إلىٰ (٩٠٪).

هٰذا وقد يؤدي هٰذا الٱلتهاب إلىٰ الإصابة بتليف الكبد أو بسرطان الكبد والذي يسبب وفاة حوالي مليون شخص في العالم سنويًا.

وتبلغ نسبة الوفيات بسبب مرض التهاب الكبد الفيروسي (ب) حوالي (٠.٥٪)، في حين أن هٰذه النسبة ترتفع إلىٰ حوالي (٣٪) عند من هم فوق (٦٠) سنة من العمر، وعند المصابين بأمراض مزمنة، وعند النساء الحوامل.

١٥- التهاب الكبد الفيروسي (أ) (A) Hepatitis

وهو التهاب في الكبد ناتج عن فيروس، ويصيب الأطفال والمراهقين خاصة، وينتقل عادة عن طريق الأطعمة الملوثة بالفيروس الموجود في براز المصابين والحاملين للمرض، كما قد ينتقل عن طريق الدم الحامل للفيروس أو عن طريق الأتصال الجنسي الشاذ، خاصة عند الرجال الذين يمارسون عمل قوم لوط والجماع بالفم.

الأعراض :

فترة الحضانة تمتد من (٢-٧) أسابيع، ثم تظهر أعراض مشابهة لتلك في الألتهاب الفيروسي (ب) ولكن تكون أقل حدة منها، ولكن هٰذا المرض لا يسبب المضاعفات مثل فشل الكبد وتليفه، ولا يسبب الألتهاب المزمن للكبد، أما باقي المضاعفات فيمكن حدوثها.

١٦- التهاب الكبد الفيروسي (جـ) Hepatitis (c)

وهو التهاب في الكبد ناتج عن الإصابة بفيروس. فترة الحضانة (١٥-١٦٠) يوما.

ينتقل هٰذا المرض عن طريق الٱتصال الجنسي الشاذ خاصة عند الرجال الذين (يمارسون عمل قوم لوط)، كما ينتقل عن طريق الٱتصال الجنسي الطبيعي، ويمكن ٱنتقاله كذلك من الأم المصابة إلىٰ جنينها؛ إما عن طريق الدم أو أثناء عملية الولادة، كما ينتقل عن طريق الحقن الملوثة عند مدمني المخدرات، وعن طريق عمليات نقل الدم، أو منتجاته، وهو مرض أقل حدة من (ب)، ولكنه أكثر حدة من (أ)، كما يمكن أن يبقىٰ المريض حاملا للفيروس بعد شفائه.

ومن مضاعفاته الإصابة بالتهاب الكبد المزمن مما يؤدي إلىٰ الإصابة بتليف الكبد، وبسرطان الكبد عند (١٠-٥٠٪) من المصابين.

١٧- التهاب الأمعاء المتمور (الزحار الأميبي)Amoebiasis

هٰذا المرض ينتج عن التهاب الأمعاء الغليظة بسبب أحد الأوليات (الأميبا)، وينتشر عن طريق الطعام والشراب الملوث (بالأميبا) الموجودة في براز المصابين بالمرض، أو الحاملين له، ولٰكن هناك نسبة عالية من الإصابات تحدث الآن عن طريق الٱتصال الجنسي الشاذ (عمل قوم لوط والجماع بالفم).

الأعراض :

معظم الأشخاص الحاملين للمرض في أمعائهم لا يعانون من أية أعراض، ولٰكن بعد ٱنتشار الٱلتهاب في جوف الأمعاء الغليظة والذي يحدث عادة بعد (١-٦) أشهر من حدوث الإصابة، تبدأ الأعراض بالظهور، فيشكو المصاب من ألم مغصي في أسفل البطن، مع إسهال محتو علىٰ مادة مخاطية ودم، ويصاب بحمىٰ وتعرق وألم في منطقة الكبد الذي يتضخم أحيانا، هٰذا ويصاب الجدار الداخلي للأمعاء والمستقيم بقروح في بعض الحالات المتقدمة غير المعالجة.

المضاعفات :

١-التهاب الكبد، وتكون خراج كبدي أحيانا بسبب وصول (الأميبا) إلىٰ الكبد عن طريق الدم من الأمعاء (٥٠٪).

٢-انتشار المرض من الكبد إلىٰ الرئة اليمنىٰ عبر الحجاب الحاجز الفاصل بينهما كما ويمكن حدوث الٱنتشار أحيانا إلىٰ الرئة اليسرىٰ.

٣-انتشار المرض من الكبد إلىٰ الغشاء المغلف للقلب، مما يسبب التهاب الغشاء وذلك عبر الحجاب الحاجز أيضا.

٤-ظهور قروح مؤلمة، أو ناميات ثولولية علىٰ الأعضاء التناسلية الخارجية وحول الشرج، أو علىٰ جدار البطن الخارجي.

٥-خراج في الدماغ (نادرا)،أو خراج في الطحال (غير معتاد).

١٨- **حمىٰ التيفوئيد** Typhoid Fever

هٰذا المرض ينتج عن التهاب حاد يصيب الأمعاء الدقيقة بسبب جرثومة (سالمونيلا)، وينتشر عن طريق الطعام والشراب الملوث بالجرثومة الموجودة في براز المصاب، أو الحامل للمرض، ولكن هناك إصابات تحدث عن طريق ممارسة الشذوذ الجنسي (عمل قوم لوط والجماع بالفم).

الأعراض :

تظهر الأعراض بعد فترة حضانة تتراوح ما بين (٥-٢١) يوما، فيشكو المصاب من حمىٰ وإرهاق وصداع، مع ألم في البطن، ويصاب المريض بإسهال، أو بإمساك، ويتضخم الطحال، ثم يظهر طفح جلدي علىٰ جسم مريض، هٰذا ويشكو المريض من سعال ونزيف من الأنف أحيانا، ومع تقدم المرض يشكو المريض من هذيان، أو يصاب بغيبوبة بسبب تأثر الجهاز العصبي بالمرض.

المضاعفات :

١-نزيف معوي من القروح الموجودة في الأمعاء الدقيقة، والتي قد تخترق جدار الأمعاء لتخرج محتويات الأمعاء إلىٰ تجويف البطن، وتسبب التهاب الغشاء المغلف للأحشاء .

٢-التهاب الرئتين، والتهاب الحنجرة.

٣-التهاب المرارة، وتكوين (حصو) بداخلها.

٤-التهاب عضلات القلب.

٥-التهاب العظام والمفاصل : (يصيب الأطفال خاصة).

٦-التهاب السحايا. ٧-التهاب الكلىٰ.

١٩- الجرب Scabies

الجرب مرض سببه حشرة (حلمة أو قارمة أو عثة) Isabies Scabies وتعيش هٰذه الحشرة بأنواعها المختلفة علىٰ الثدييات مثل الكلاب والقطط والجمال والحمير وغيرها، كما يعيش نوع منها علىٰ الإنسان

ويمكن أن تصيب الحشرات التي تعيش علىٰ الحيوان والإنسان أيضا.

وقد ٱختفىٰ هٰذا المرض أو كاد من أوربا وأمريكا نتيجة لارتفاع في المستوىٰ الصحي العام، وارتفاع مستوىٰ الدخل والوعي الصحي، ولٰكن منذ الستينات ظهر المرض بصورة مزعجة مرة أخرىٰ في أوربا وأمريكا.

وكان السبب هٰذه المرة كما يقول روبرت نوبل في كتابه (الأمراض الجنسية): (هو ٱنتشار الإباحية Promescuity وانتشار اللواط والزنا، وكثرة السفر وعيش مجموعة من الشباب (الهيبيز) بصورة جماعية وبدون نظافة).

وينتقل المرض نتيجة الٱتصال الوثيق سواء كان بواسطة الجنس أو النوم في فراش المصاب أو ٱستخدام ثيابه. وإذا أصيب عضو من أفراد الأسرة فإن معظم أفراد الأسرة الباقين سيصابون في الغالب بهٰذا المرض.

الأعراض :

تبدأ الأعراض بالظهور بعد أسبوعين أو ثلاثة من الإصابة، وحيث يشكو المصاب من حكة شديدة في منطقة الصدر والبطن والأعضاء التناسلية الخارجية، وباطن الفخذين، كما تصيب اليدين، وبين الأصابع، وباطن الساعدين، والإبطين، وتحت حلمات الثدي، هٰذا ويمكن للإصابة أن تمتد إلىٰ جميع أنحاء الجسم، خاصة عند مرضىٰ نقص المناعة مثل (الإيدز)، وسرطان الجهاز اللمفاوي، وسرطان الدم، وغيرها.

كما تظهر حبيبات حمراء تشبه القروح علىٰ الأعضاء التناسلية ومنطقة الفرج والأرداف.

هٰذا وقد تسبب الحكة الشديدة، والتي تزداد أثناء فترة الليل؛ تسبب التهابات جلدية ثانوية فتظهر تقيحات حبيبية قد تؤدي إلىٰ ٱنتقال الجراثيم

المسببة لها إلىٰ الكلىٰ عن طريق الدم، فتسبب التهاب الكلىٰ إذا لم يتم علاجها في الوقت المناسب.

٢٠- التقمل العاني Pediculosis

هٰذا المرض ينتج عن التهاب جلدي يسببه القمل الذي يعيش علىٰ جذور شعر العانة، ومنطقة الشرج، وقد يصيب مناطق أخرىٰ من الجسم مثل الإبطين والجفون.

يعتبر هٰذا المرض من أمراض القذارة، ولم يكن منتشرا إلا في الحالات التي يعم فيها القذارة ويمتنع فيها الٱستحمام كما يحصل أحيانا في أسرىٰ الحرب وفي السجون الفظيعة وفي حالات الفقر المدقع والمجاعات.

وقد ٱختفىٰ هٰذا المرض أو كاد من أوربا وأمريكا لارتفاع مستوىٰ المعيشة، ولكنه عاد وبصورة وبائية لم تكن متوقعة أبدا بسبب ٱنتشار الزنا واللواط، وهو أكثر ٱنتشارا لدىٰ الزناة ذوي العلاقات الجنسية المتعددة، ولدىٰ الشاذين جنسيا.

ينتقل المرض عن طريق ٱنتقال القمل من جسم المصاب إلىٰ جسم شخص سليم عن طريق الملامسة أو النوم في فراش واحد، وعن طريق الٱتصال الجنسي، وعن طريق المناشف والملابس الداخلية الخاصة بالمصاب.

أعراضه:

يظهر طفح جلدي علىٰ هيئة بقع وحبيبات مكان عضة القملة التي تتغذىٰ بامتصاص الدم من الشخص الذي تكون علىٰ جسمه، وتسبب العضة حكة شديدة وتسبب الحكة تقرحا وتقشرا علىٰ الجلد، مما يؤدي إلىٰ التهاب ميكروبي ثانوي فيؤدي ذلك إلىٰ وجود بثرات صديدية، وتضخم في الغدد اللمفاوية المجاورة.

وتظهر بقع زرقاء (٢ إلىٰ ٢٠ ملليمتر) نتيجة تفاعل الجلد مع لعاب القملة وتظهر علىٰ مناطق متفرقة من الجسم، وخاصة في منطقة العانة وفي الفخذين وعلىٰ الظهر، وحتىٰ علىٰ الجفون والرموش، وقد يصحب ذلك التهاب حاد نتيجة غزو ميكروبي ثانوي.

٢١- المليساء المعدية :Molluscum Contagiosum

ينتمي فيروس المليساء المعدية إلىٰ الفصيلة النفاطية Pox Verus التي ينتمي إليها فيروس الجدري.

وتتراوح فترة الحضانة ما بين ثلاثة أسابيع إلىٰ ثلاثة أشهر.

وتظهر علىٰ هيئة حلمات لحمية صغيرة بيضاء اللون عادة، وفي وسطها نقرة أو سرة، وتختلف في عددها من واحدة إلىٰ عشرات وفي حجمها من رأس دبوس إلىٰ سنتميتر واحد.

وقد تصاب بالتهاب ميكروبي ثانوي مما يسبب تقيحا في الحلمة .. وأكثر الأماكن إصابة في الذكور هي القضيب والحشفة وكيس الصفن، وفي الإناث الفرج والعجان وداخل الفخذين.

وتنتشر هٰذه المليسيات بواسطة الٱتصال الجنسي وبواسطة الٱنتشار من موضع إلىٰ آخر في جسم المصاب.

٢٢- مرض النضج الجنسي المبكر

يصاب به بعض الأولاد نتيجة لتهيج الشهوة قبل أوانها، واستثارة الغريزة قبل ٱكتمال غددها .. ويسبب تشوهات بدنية، وأمراضا عصبية ونفسية .. إلىٰ غير ذلك من هٰذه الأمراض الصحية والجسمية ..

٢٣- الهوس الجنسي

من آفات الأمراض الجنسية أيضا الهوس الجنسي حيث ترىٰ المريض مشغولا في جميع أوقاته بتخيلات شهوانية غريزية .. من نكاح وتقبيل وضم وعناق وتصورات لأعضاء المرأة من وجه وعينين وشفتين ونهدين وسوأة وفخذين .. وتراه منصرفا عن كل شيء .. فيكثر نسيانه، ويقل ٱهتمامه، وتشتد غفلته، ويضعف ٱنتباهه .. وتراه كأنه غبي مخمور، أو كأنه مكروب محزون .. وتسبب هٰذه الظاهرة الأليمة نحولا في الجسم، وضعفا في الذاكرة، وقلقا في النفس ..

٢٤- مرض البرود الجنسي: قد يؤدي الانطلاق في الإباحية إلىٰ إضعاف الشهوة وكسر حدتها وهو ما يعرف بالبرود الجنسي.

جاء في صحيفة «الأخبار»[١] تحت عنوان: عالم أمريكي:

يقول: (إن المرأة الأمريكية باردة) حيث نقلت ما صرح به الدكتور جون كيشلر أحد علماء النفس الأمريكيين في شيكاغو، حيث قال: إن ٩٠٪ من الأمريكيات مصابات بالبرود الجنسي، وأن ٤٠٪ من الرجال مصابون بالعقم، وقال الدكتور: «إن الإعلانات التي تعتمد علىٰ صور الفتيات العاريات هي السبب في هبوط المستوىٰ الجنسي للشعب الأمريكي».

فهل يريد دعاة الاختلاط أن ينقلوا هٰذه العلل والأمراض إلىٰ مجتمعاتنا وقد كفانا الله شرها وأعاذنا منها؟! أم أن هٰذه الأرقام والإحصاءات غائبة عن أذهانهم؟!

لقد زعم (فرويد) ومن تبعه في مدرسة التحليل النفسي من علماء النفس: أن رفع القيود التقليدية عن الغريزة الجنسية يريح الأعصاب، ويحل عقد النفوس، ويمنحها الهدوء والاطمئنان.

وهاهي القيود قد رفعت، وهاهي الغرائز قد أطلقت، فلم تزد النفوس إلا تعقيدا، ولم تزد الأعصاب إلا توترا، وأصبح القلق النفسي هو مرض العصر هناك، ولم تغن آلاف العيادات النفسية عنهم شيئًا[٢].

---

(١) العدد ٢٦ محرم ١٣٧٧.

(٢) ينظر في هٰذا المبحث، «الأمراض الجنسية» للدكتور محمد علي البار.
و«الأمراض التناسلية بين الطب والدين» للدكتور غازي عبد اللطيف موسىٰ وللمزيد ينظر «الأمراض الجنسية عقوبة إلهية» للدكتور عبد الحميد القضاة و«هدايا لا يريدها أحد الإيدز» لسعد الله بن عبد الرحمن الغامدي و«داء الإيدز والأمراض التناسلية» للبروفيسور الفاضل العبيد عمر و«مفاسد الزنا» لمحمد إبراهيم الحمد.
و«الأمراض الجنسية» للدكتور نبيل صبحي.

المبحث الخامس

آثار الإباحية على الناحية النفسية

وللإباحية آثارها السيء في نفسية الفرد

فيتحدث ابن القيم عن صفات الزاني فيقول[١]:

والزاني يجمع خلال الشر كلها، من قلة الدين، وذهاب الورع، وفساد المروءة، وقلة الغيرة، فلا تجد زانيًا معه ورع، ولا وفاء بعهد، ولا صدق في حديث، ولا محافظة علىٰ صديق، ولا غيرة تامة علىٰ أهله، فالغدر، والكذب، والخيانة، وقلة الحياء، وعدم المراقبة، وعدم الأنفة للحرم، وذهاب الغيرة من القلب من شعبه وموجباته، ومن موجبات غضب الرب بإفساده حرمه وعياله، ومنها أنه يسلبه أحسن الأسماء وهو اسم العفة والبر والعدالة ويعطيه أضدادها كاسم الفاجر والفاسق والزاني والخائن. ومنها قلة الهيبة التي تنزع من صدور أهله وأصحابه وغيرهم له، وهو أحقر شيء في نفوسهم وعيونهم بخلاف العفيف فإنه يرزق المهابة والحلاوةگ ومنها أن الناس ينظرونه بعين الخيانة ولا يأمنه أحد علىٰ حرمته ولا علىٰ ولده.

يقول الدكتور محمد وصفي تحت عنوان أخلاق الزانية ونفسيتها: «فالزانية مخلوقة شاذة، وشذوذها لا يتفق مع طبيعة الرجل العادية من الناحية العقلية والنفسية والجنسية والأخلاق، فهي مسلوبة الشرف والعفاف، ظاهرة اللؤم والنفاق، ترضي كل طارق، وتدعي حب كل زانٍ، تبتسم ابتسامة ملؤها النفاق والخداع، وتقبل عن نفس سقيمة عليلة، وروح خادعة غاشة، ألفت برقع الحياء ولبست أثواب الخبث والخديعة لا كرامة لها، ولا قوام لأخلاقها، لها عقيدة فاسدة، ورأي ضال، فلا تصلح أن تكون شريكة رجل مسلم مهذب النفس قويم الأخلاق حسن الطباع، ولقد قال تعالىٰ: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ﴾.

---

(١) «روضة المحبين» ص٣٤٨ .

الفصل الثالث

تحذير عقلاء الغرب من الإباحية والاختلاط

تحذير عقلاء الغرب من الإباحية والاختلاط

ومن الملاحظ أن عقلاء الأوربيين بدأوا يحذرون قومهم من المصير الذي ٱنتهىٰ إليه الرومان؛ نتيجة الإفراط في تبرج المرأة واختلاطها، وإليك طائفة من أقوالهم:

إن فساد الأسس السياسية وجد في كل زمان، ومن الغريب المدهش أن عوامله في الزمن الغابر هي ذات عوامله في الزمن الحاضر، يعني أن المرأة كانت العامل الأقوىٰ في هدم الأخلاق الفاضلة.

لقد كان الرجال السياسيون في آخر عهد الجمهورية الرومانية يعيشون صحبة النساء ذوات الطبائع الخفيفة اللاتي كان عددهن بالغًا حد الكثرة فصار الحال اليوم كما كان في ذلك العهد، ترىٰ النساء ٱندفعن في تيار الحب البالغ حد الجنون وراء البذخ واللذات.

لويز برول ‹مجلة المجلات›

إن الٱختلاط يألفه الرجال، ولهذا طمعت المرأة بما يخالف فطرتها، وعلىٰ قدر كثرة الٱختلاط تكون كثرة أولاد الزنا، وهاهنا البلاء العظيم علىٰ المرأة.

أما آن لنا أن نبحث عما يخفف- إذا لم نقل: عما يزيل- هٰذه المصائب العائدة بالعار علىٰ المدينة الغربية؟ أما آن لنا أن نتخذ طرقًا تمنع قتل ألوف الآلاف من الأطفال الذين لا ذنب لهم، بل الذنب علىٰ الرجل الذي أغرىٰ المرأة المجبولة علىٰ رقة القلب.

يا أيها الوالدان! لا يغرنكما بعض دريهمات تكسبها بناتكما باشتغالهن في المعامل ونحوها، ومصيرهن إلىٰ ما ذكرنا، علموهن الٱبتعاد عن الرجال، أخبروهن بعاقبة الكيد الكامن لهن بالمرصاد، لقد دلنا الإحصاء علىٰ أن البلاء الناتج من حمل الزنا يعظم ويتفاقم؛ حيث يكثر ٱختلاط النساء بالرجال، ألم تروا أن أكثر أمهات أولاد الزنا من المشتغلات في المعامل

والخادمات في البيوت وكثير من السيدات المعرضات للأنظار، ولولا الأطباء الذي يعطون الأدوية للإسقاط لرأينا أضعاف ما نرىٰ الآن، لقد أدت بنا هٰذه الحال إلىٰ حد من الدناءة لم يكن تصورها في الإمكان.. وهٰذا غاية الهبوط بالمدنية.

الكاتبة الإنجليزية اللادي كوك

إن من أبرز فرص الخيانة: الٱختلاط في العمل الذي يوفِّر الفرصة لمغازلة الجنس الآخر، فقد يكون الرجل بحكم عمله علىٰ ٱتصال وثيق بالنساء: مثل السكرتيرة أو الزميلة.

وعدا الٱختلاط في العمل، فإن الٱختلاط في الحياة الٱجتماعية أيضًا يساعد الزوج علىٰ الخيانة، حتىٰ مع أقرب صديقة لزوجته وأعزّها علىٰ نفسها.

كارول بوتوين في كتابها «رجال بوسعهم أن يكونوا مخلصين»

الحجاب في نظر الإسلام وتحريم ٱختلاط النساء بالأجنبي عنهن، ليس معناه ٱنتزاع الثقة بهن، وإنما هو وسيلة إلىٰ الٱحتفاظ بما يجب لهن من الإكبار وعدم التبذل، فالحق أن مكانة المرأة في الإسلام قمينة بأن تغبط عليها.

فون هومر

قل هو الخلل العظيم في ترتيب أحوالنا الذي دعا المرأة لمشاركة الرجل في علو مجده وباذخ رفعته، وسهل عليها التعالي في مطامعها الدنيئة (كذا.) حتىٰ أفسدت المدنية الحديثة بقوىٰ سلطانها ودنيء آرائها (كذا..).

الفيلسوف الألماني شوبنهور في كتابه «كلمة عن النساء»

إن المجتمع العربي (المسلم) كامل وسليم، ومن الخليق بهٰذا المجتمع أن يتمسك بتقاليده التي تقيد الفتاة والشباب في حدود المعقول، وهٰذا المجتمع يختلف عن المجتمع الأوربي والأمريكي، فعندكم أخلاق موروثة

تحتم تقييد المرأة، وتحتم ٱحترام الأب والأم، وتحتم أكثر من ذلك عدم الإِباحية الغربية التي تهدد اليوم المجتمع والأسرة في أوربا وأمريكا ولذلك فإن القيود التي يفرضها مجتمعكم علىٰ الفتاة هٰذه القيود صالحة ونافعة؛ لهٰذا أنصح بأن تتمسكوا بتقاليدكم وأخلاقكم.. ٱمنعوا الاٱختلاط، وقيدوا حرية الفتاة، بل ٱرجعوا إلىٰ عصر الحجاب، فهٰذا خير لكم من إباحية وانطلاق ومجون أوروبا وأمريكا.. ٱمنعوا الاٱختلاط، فقد عانينا منه في أمريكا الكثير.. لقد أصبح المجتمع الأمريكي مجتمعًا معقدًا، مليئًا بكل صور الإباحية والخلاعة.. وإن ضحايا الاٱختلاط والحرية يملؤون السجون والأرصفة والبارات والبيوت السرية، إن الحرية التي أعطيناها لفتياتنا وأبنائنا قد جعلت منهم عصابات أحداث، وعصابات للمخدرات والرقيق.. إن الاٱختلاط والإِباحية والحرية في المجتمع الأوربي والأمريكي قد هددت الأسرة، وزلزلت القيم والأخلاق.

فالفتاة الصغيرة تحت سن العشرين في المجتمع الحديث تخالط الشباب وترقص وتشرب الخمر والسجائر، وتتعاطىٰ المخدرات باسم المدنية والحرية والإباحية.

والعجيب في أوروبا وأمريكا أن الفتاة الصغيرة تحت العشرين تلعب، وتلهو وتعاشر من تشاء تحت سمع عائلتها وبصرها، بل وتتحدىٰ والديها ومدرسيها والمشرفين عليها، تتحداهم باسم الحرية والاختلاط، تتحداهم باسم الإباحية والانطلاق. تتزوج في دقائق وتُطلق بعد ساعات، ولا يكلفها هٰذا أكثر من إمضاء، ومبلغ زهيد من المال، وعريس ليلة أو بضع ليال، وبعدها الطلاق وربما الزواج فالطلاق مرة أخرىٰ.

الصحفية الأمريكية هيلسيان ستانسبري

(لو تفكرت أيها المطالع فيما كانت عليه المرأة في عهد قدماء اليونان لوجدتها في حالة يقبلها العقل، ولعلمت أن الحالة الحاضرة (حالة المرأة) لم تكن غير بقية من همجية القرون الوسطىٰ (عند الغربيين) حالة مصطنعة مخالفة

للطبيعة، ولرأيت معي وجوب إشغال المرأة بالأعمال المنزلية مع تحسين غذائها وملبسها فيه، وضرورة حجبها عن الٱختلاط بالغير، وتعليمها الدين، وإبعادها عن الشعر والسياسة، وعن قراءة كل كتاب يبحث في غير الدين والطباخة).

اللورد بيرون في كتابه «الرسائل والجرائد»

إن العلامات المنذرة بقرب حلول الأزمة النهائية لهٰذا الشكل من المدنية الذي تعيش فيه كثيرة جدًا بحيث لا يمر يوم حتىٰ يقف الباحث علىٰ إنذارات جديدة فيه، فلنعطِ نحن أيضًا أنفسنا وظيفة الطبيب، ولنجتهد في مساعدة ما شخصه الأطباء من هٰذا المرض الٱجتماعي في زماننا هٰذا بدرس الشكل الجديد من الرهبنة التي مع عدم ٱستنادها إلىٰ دين تهددنا بأنها ستصل إلىٰ الحد الذي وصلت إليه الرهبنة الدينية في زمن من أزمنة القرون الوسطىٰ.

إلىٰ أن يقول:

إن الشروط الٱجتماعية الحالية تستدعي عفة المرأة في عزوبتها، والعفاف يقتضي حذف وظيفة الأمومة وهي الوظيفة التي خلقت المرأة لأجلها جسمًا وروحًا، لا شك إذًا أن في هٰذه الحالة يجب أن تفسد شخصيتها فسادًا ذريعًا، ولا شك أيضًا في أن عددًا كبيرًا من هؤلاء النسوة يحدثن آثارًا هائلة علىٰ الهيئة الٱجتماعية.

جيوم فريرو في المجلد الأول من «مجلة المجلات»

اتركوا للمرأة حريتها المطلقة كاملة بدون رقيب، ثم قابلوني بعد عام لتروا النتيجة، ولا تنسوا أنكم سترثون معي الفضيلة والعفة والأدب، وإذا مت فقولوا: أخطأ أو أصاب كبد الحقيقة.

الفيلسوف شوبنهور مجلة «الفتح» سنة ١٩٢٧م

إن الآمال التي كانت معقودة علىٰ وسائلنا الطبية الحديثة في القضاء أو علىٰ الأقل الحد من الأمراض الجنسية قد خابت وباءت بالخسران، إن أسباب ٱنتشار هٰذه الأمراض تكمن في الظروف الٱجتماعية وتغير السلوك

الإنساني، فقد ٱنتشرت الإباحية ٱنتشارًا ذريعًا في المجتمعات الغربية .

الدكتور كنج في كتابه «الأمراض الزهرية»

لقد ٱنتشر تساهل المجتمع تجاه كافة الممارسات الجنسية ولا يوجد أي إحساس بالخجل من الزنا أو اللواط أو أي علاقة جنسية شاذة أو محرمة، بل إن وسائل الإعلام جعلت من العار علىٰ الفتىٰ والفتاة أن يكون محصنًا، إن العفة بالنسبة للرجل أو المرأة أصبحت في المجتمعات الغربية مما يندىٰ له جبين المرء، إن وسائل الإعلام تدعو وتحث علىٰ الإباحية باعتبارها أمرًا طبيعيًا بيولوجيًا، ويرىٰ كثير من الخبراء أن أهم ثلاثة عوامل لانتشار الأمراض الجنسية هي: الإباحية، وانتشار ٱستخدام حبوب الحمل، والمضادات الحيوية.

الدكتور شوفيلد في كتابه «الأمراض الجنسية»

لئن تشتغل بناتنا في البيوت خوادم أو كالخوادم خير وأخف بلاء من ٱشتغالهن في المعامل، حيث تصبح البنت ملوثة بأدران تذهب برونق حياتها إلىٰ الأبد.

ألا ليت بلادنا كبلاد المسلمين فيها الحشمة والعفاف والطهر رداء.. الخادمة والرقيق يتنعمان بأرغد عيش ويعاملان كما يعامل أولاد البيت، ولا تمس الأعراض بسوء.. نعم إنه لعار علىٰ بلاد الإنجليز أن تجعل بناتها مثلًا للرذائل بكثرة مخالطة الرجال، فما بالنا لا نسعىٰ وراء ما يجعل البنت تعمل بما يوافق فطرتها الطبيعية، من القيام في البيت وترك أعمال الرجال للرجال؛ سلامة لشرفها.

الكاتبة آنى رورد جريدة «الإسترن ميل»

والآن، وبعد أن كادت أذهاننا تكف عن الخوف من الخطر الذري، ووجود (سترونيتوم ٩٠) في عظامنا وعظام أطفالنا، لا يفتقر العالم إلىٰ عناصر بشرية تقلق للأهمية المتزايدة التي يكتسبها الجنس في حياتنا اليومية، وتشعر بالخطر؛ إذ ترىٰ موجة العري وغارات الجنس لا تنقطع، ينشغل

هٰؤلاء الناس ٱنشغالًا جادًا بالقوة الهائلة التي يمكن أن تصل إليها الحاجة الجنسية، إذ لم يحدها الخوف من الجحيم، والأمراض السارية، والحمل.. وفي رأيهم أن أطنانًا من القنابل الجنسية تنفجر كل يوم، ويترتب عليها آثارًا تدعو إلىٰ القلق، قد لا يجعل أطفالنا وحوشًا أخلاقية فحسب، بل قد تشوه مجتمعات بأسرها.

جورج بالوشي هورفت في كتابه «الثورة الجنسية»

إن خطر الطاقة الجنسية قد يكون في نهاية الأمر أكبر من خطر الطاقة الذرية.

جيمس رستون في النيويورك تايمز مؤخرًا

سيطرة الجنس يمكن أن تؤدي إلىٰ تدهور الحضارات..

المؤرخ أرنولد توينبي

إن مستقبل أمريكا في خطر لأن شبابها مائع منحل غارق في الشهوات لا يقدر المسئولية الملقاة علىٰ عاتقه، وأنه من بين كل سبعة شبان يتقدمون للتجنيد يوجد ستة غير صالحين؛ لأن الشهوات التي أغرقوا فيها أفسدت ليقاتهم الطبية والنفسية.

كنيدي «الثورية الجنسية لجورج بالوشي»

يجب بذل كل الجهود الممكنة للتأثير علىٰ القوىٰ الفاعلة في ثقافة المجتمع مثل صانعي الأفلام، ودور النشر والصحافة.. لتخفيف درجة الحرارة وإيقاف ما يتعلق بالإثارة الجنسية.

وإلا فإننا سنشهد انهيار هٰذه الأمة -أي: أمريكا-.

الممثلة جين فوندا[1]

---

(١) ويأتي أهمية هٰذا الكلام من كونه صادر عن ممثلة كانت أداة من أدوات الفاسد، فهي تدرك أثره أكثر من غيرها وخطره علىٰ المجتمع، وتهديده للأمة كلها ففساد أي مجتمع هو مرحلة من مراحل انهيار الأمة.

هناك شرط مهم في دعم الحياة الزوجية ذلك هو خلو الحياة الاجتماعية من النظم التي تسمح بالمصادقة والمخالطة بين الزوجين من الرجال والنساء سواء في العمل أو في المناسبات.

ومشاكلها؛ ذلك أن العلاقات العاطفية بين المتزوجين وغير المتزوجين من الرجال والنساء خارج دائرة الحياة الزوجية هي سبب شقاء الأزواج وكثرة حوادث الطلاق، وليس عسيرًا أن تجمع أمثلة كثيرة عن البيوت التي انهارت بسبب اتصال الأزواج والزوجات بغير شركائهم في الحياة الزوجية.

الكاتب براتراند رسل في كتابه: «الأخلاق والزواج»

إن مستقبل روسيا في خطر وإن شباب روسيا لا يؤتمن علىٰ مستقبلها، لأنه مائع منحل غارق في الشهوات.

خروشوف «الثورة الجنسية» لجورج بلوشي

إننا نواجه مرة أخرىٰ تلك المشكلة التي أقلقت بال (سقراط) نعني كيف نهتدي إلىٰ أخلاق طبيعية تحل محل الزواجر العلوية التي بطل أثرها في سلوك الناس؟ إننا نبدد تراثنا الاُجتماعي بهٰذا الفساد الماجن.

واختراع موانع الحمل وذيوعها هو السبب المباشر في تغير أخلاقنا، فقد كان القانون الأخلاقي قديمًا يقيد الصلة الجنسية بالزواج.. لأن النكاح يؤدي إلىٰ الأبوة بحيث لا يمكن الفصل بينهما، ولم يكن الوالد مسئولًا عن ولده إلا بطريق الزواج.. أما اليوم فقد اُنحلت الرابطة بين الصلة الجنسية وبين التناسل، وخلقت موقفًا لم يكن آباؤنا يتوقعونه، لأن جميع العلاقات بين النساء والرجال آخذة في التغير نتيجة هٰذا العامل..

.. غير أنه من المخجل أن نرضىٰ في سرور نصف مليون فتاة أمريكية يقدمن أنفسهن ضحايا علىٰ مذبح الإِباحية، وهي تعرض علينا في المسارح وكتب الأدب المكشوف، تلك التي تحاول كسب المال باستثارة الرغبة الجنسية في الرجال والنساء المحرومين من (حصن) الزواج ورعايته للصحة.

.. فكل رجل حين يؤخر الزواج يصاحب فتيات الشوارع ممن يتسكعن في ٱبتذال ظاهر، ويجد الرجل لإرضاء غرائزه الخاصة في هٰذه الفترة من التأجيل، نظامًا دوليًا مجهزًا بأحدث التحسينات، ومنظمًا بأسمىٰ ضروب الإدارة العلمية، ويبدو أن العالم قد ٱبتدع كل طريقة يمكن تصورها لإثارة الرغبات وإشباعها..

وأكبر الظن أن هٰذا التجدد في الإِقبال علىٰ اللذة قد تعاون أكثر مما نظن مع هجوم داروين علىٰ المعتقدات الدينية، وحين ٱكتشف الشبان والفتيات أن الدين يشهر بملاذهم التمسوا في العلم ألف سبب وسبب للتشهير بالدين...

... ولا مفر من أن يأخذ الجسم في الثورة (الجنسية)، وأن تضعف القوة علىٰ ضبط النفس عما كان في الزمن القديم، وتصبح العفة التي كانت فضيلة موضعًا للسخرية، ويختفي الحياء الذي كان يضفي علىٰ الجمال جمالًا، ويفاخر الرجال بتعداد خطاياهم، وتطالب النساء بحقها في مغامرات غير محدودة علىٰ قدم المساواة مع الرجال، ويصبح الٱتصال قبل الزواج أمرًا مألوفًا، وتختفي البغايا أي الزانيات بأجر) من الشوارع بمنافسة الهاويات أي: الزانيات بدافع الهوىٰ لا برقابة البوليس.

ديل دورانت في كتابه «منهاج الفلسفة»

إن هٰذه الحرية الفاسدة، وحضارة الخنافس، لم تفسد فقط نظام الأسرة في أمريكا، ولكنها أيضًا قد جلبت لأمريكا ثقافة لا يمكن معالجتها بالبوليس والقضاء...

تقرير البوليس السري الأمريكي بشيكاغو

عندما تتحرك الغريزة الجنسية لدىٰ الإنسان تفرزًا نوعًا من المادة التي تتسرب بالدم إلىٰ دماغه وتخدره، فلا يعود قادرًا علىٰ التفكير الصافي.

«ينبغي ألا يسوىٰ بين الفتيات والفتيان في التدريب الفكري والبدني،

ولا في المطامح، وعلىٰ المتخصصين بالتربية أن يعيروا ٱهتمامهم الكبير للخصائص الفكرية والعضوية من الذكر والأنثىٰ، وللوظائف الطبيعية لكل منهما، فبين الجنسين من الفوارق ما لا يمكن نكرانه، وإنه ليتحتم أن نضع هٰذه الفوارق في حسابنا، حين نريد بقاء عالم متحضر، وثبت أن العيب ليس في التسوية المنهجية، بل العيب يكمن في الٱختلاط، إذ أنه يؤثر علىٰ التركيز والتحصيل».

الدكتور ألكسس كارليل في كتابه «الإنسان ذلك المجهول»

إن الطالبة في المدرسة والجامعة لا تفكر إلا بعواطفها والوسائل التي تتجاوب مع هٰذه العاطفة، إن أكثر من ستين بالمائة من الطالبات سقطن في الٱمتحانات، وتعود أسباب الفشل إلىٰ أنهن يفكرن في الجنس أكثر من دروسهن وحتىٰ مستقبلهن.

المربية الاجتماعية مرغريت سميث

جريدة الأحد اللبنانية العدد ٦٥٠

يقول العالم الطبيعي السوفييتي الكبير أنطون تيجيلوف في كتابه «بيولوجية المرأة» ما يلي:- الحق أن جميع العمال قد بدت فيهم أمراض الفوضىٰ الجنسية وهٰذه حالة جد خطيرة تهدد النظام الٱشتراكي بالدمار فيجب أن نحاربها بكل ما أمكن من الطرق. ولي أن أدلكم علىٰ آلاف الأحداث قد سرت فيهم عدوىٰ الإباحية الجنسية لا في العمال الأغرار فحسب بل في الأفراد المثقفين من طبقة العمال أيضًا.

ويقول الدكتور نيكول مدير قسم الأمراض الزهرية في مستشفىٰ سان باتوليجيو بلندن: إن المشكلة التي نواجهها اليوم هي تبدل قيمنا الأخلاقية التي شجعت وتشجع علىٰ إقامة العلاقات الجنسية المحرمة وهي بدورها سببت ٱزديادًا حادًا في إصابات الأمراض الناتجة عن الإباحية الجنسية عن كتاب «الأمراض الجنسية» للدكتور نبيل صبحي.

وتقول الدكتورة سيلياس دمشيم: ولن أفاجأ إذا سمعت بازدياد كبير في نسبة الأمراض الجنسية والمواليد غير الشرعيين؛ فذلك نتيجة طبيعية لما يجرىٰ في المجتمع الآن.

كتبت سكرتارية هيئة الأمم المتحدة للشئون الاجتماعية والاقتصادية في تقريرها ما يلي: إن الهاويات من الفتيات اللواتي يمارسن العلاقات الجنسية المحرمة هي السبب في انتشار الأمراض الجنسية. عن كتاب «الأمراض الجنسية».

وفي كتاب «الإسلام والحضارة» لمحمد كرد علي صفحة ٢-٩٢، يقول الفيلسوف براتراند رسل: إن الأسرة انحلت بسبب استخدام المرأة في الأعمال العامة وأظهر الاختبار أن المرأة تتمرد علىٰ تقاليد الأخلاق المألوفة وتأبىٰ أن تظل أمينة لرجل واحد إذا تحررت اقتصاديًا.

فهل يسرك يا أختي المسلمة أن تصل المرأة العربية المسلمة إلىٰ المستوىٰ التي انحدرت إليه المرأة الأوربية.

وتحت عنوان فشل التعليم المختلط نشرت جريدة «المسلمون» في عددها ١١٨ سنة ثالثة ما يلي:

صرح كينت بيكر وزير التعليم البريطاني أن بلاده بصدد إعادة النظر في التعليم المختلط بعد أن ثبت فشله وقال أحد أعضاء لجنة التعليم بالبرلمان الألماني (البوند ستاج): إنه يجب العودة للأخذ بنظام التعليم المنفصل (الجنس الواحد) وهو النظام الذي تأخذ به الدول الإسلامية.

كما أكدت دراسة أجرتها النقابة القومية للمدرسين البريطانيين أن التعليم المختلط أدىٰ إلىٰ انتشار ظاهرة التلميذات الحوامل سفاحًا وعمرهن أقل من ١٦ سنة كما تبين أن استخدام الفتيات لحبوب منع الحمل في المدارس تتزايد كمحاولة للحد من هٰذه الظاهرة دون علاجها واستئصالها من جذورها.

وجاء في جريدة «الاتحاد» العدد ١٠٨٨ بتاريخ ٤/٨/١٤١٧هـ ما يلي:

كشفت تجربة جديدة في الثانوية المختلطة في بريطانيا عن أن الأولاد عندما يتم فصلهم عن البنات في فصول دراسية قائمة بذاتها يحققون نتائج أفضل في شهادة الثانوية العامة المؤهلة لدخول الجامعات المعروفة باسم GCSE.

وقد بدأت هٰذه التجربة منذ عامين في بعض المدارس عند تدريس اللغة الإنجليزية خاصة فقد اعتقد المدرسون أن الأولاد في سن المراهقة يشعرون بثقة أكبر في أنفسهم عند الكتابة والقراءة أو عند مناقشة القضايا العاطفية المرتبطة بالمسرحيات والروايات المقررة عليهم. وهم في فصول مستقلة عنهم في وجود البنات. خاصة أن البنات يحتكرن عادة التفوق في اللغة الإنجليزية وآدابها. في حين أن انحطاط مستوىٰ الأولاد وتدهوره هو مشكلة مزمنة في التعليم الثانوي في بريطانيا.

وقد أثبتت التجربة الفعلية والنتائج التي أسفرت عنها في مدرسة «كوتسولد» أن عدد الأولاد الذين نالوا درجات مرتفعة تتراوح بين C و A تزايد ٤ مرات علىٰ ما كان الحال سيكون عليه لو أن الفصل كان مختلطًا.

ونشرت جريدة «المسلمون» ٩ مايو سنة ١٩٨٧ مقالًا عن التعليم المختلط جاء فيه: (أثبتت مجموعة من الدراسات والأبحاث الميدانية التي أجريت في كل من ألمانيا الغربية وبريطانيا ٱنخفاض مستوىٰ ذكاء الطلاب في المدارس المختلفة واستمرار تدهور هٰذا المستوىٰ وذكرت الدكتورة شوستر خبيرة التربية الألمانية أن توحد نوع الجنس في المدارس يؤدىٰ إلىٰ ٱشتعال المنافسة بين التلاميذ وبعضهم البعض وبين التلميذات وبعضهن إما ٱختلاط الٱثنين معًا فيلغي هٰذا الدافع إضافة إلىٰ أن الغيرة تشتعل بين أبناء الجنس الواحد إذا ٱختلط أبناء الجنسين).

والمدرسون الذين يدرسون في مدارس مختلطة يلاحظون ما يلي:

١- ٱنشغال معظم الطلاب والطالبات بالجنس.

٢- عدم رغبة الطلاب والطالبات بالمشاركة في الدرس خيفة أن يخطئ أحدهم فيخجل أمام الجنس الآخر فتشوه صورته أمام من يود كسب رضاه من الجنس الآخر.

٣- الحسد والكيد لبعضهم البعض فهٰذا خطف منه صديقته وتلك شدت إليها صديق الأخرىٰ وهكذا.

٤- وفي أوربا يتواعد المتآلفان من أبناء الجنسين فيقضون الوقت المخصص للدراسة في النزهة والمتعة، خاصة بين المراهقين والمراهقات الذي تطغي لقاءات الجنس عندهم علىٰ أوقات الدراسة.

يقول الأستاذ محمد رشيد العويد[1]:

المدارس التي حقق طلبتها تفوقًا في بريطانيا واحتلت المراتب التسع والعشرين الأولىٰ هي مدارس غير مختلطة، أي بنين فقط أو بنات فقط، فقد حققت ١٥ مدرسة خاصة بالذكور و١٤ مدرسة خاصة بالإناث التفوق في شهادة الـ (A- Level).

هٰذه النتائج جعلت مجلس إدارة مدرسة «شين فيلد» الثانوية في منطقة «برنت وود» يقرر فصل الطالبات عن الطلاب، بعد أن تأكد لديه أن كل جنس يعطي منفردًا نتائج إيجابية أفضل في العملية التعليمية، حتىٰ في المواد الإنسانية، مثل التاريخ.

وقال مدير المدرسة الدكتور«أوزبورن»: قد يبدو القرار عودة إلىٰ الماضي، ولكننا نقول: إن القرار اتخذ لصالح مستقبل الطلبة من الجنسين، فقد اكتشفنا أن الطالبات -في التعليم المختلط- يضيعن وقتًا في الاهتمام بمظهرهن، وأنهن -مع وجود الطلاب- يفقدون زمام السيطرة ولا يعرفن الهدف.

وتؤكد الإحصائيات أنه عندما يدرس الطلبة من كل جنس بعيدًا عن

---

(١) «رسالة إلىٰ مؤمنة» ص٢١٠-٢١١ .

الجنس الآخر فإن التفوق العلمي يتحقق، ففي وسط التعليم المختلط تخفق البنات في تحقيق التفوق في مجال الرياضيات والعلوم والكيمياء والطبيعة والتكنولوجيا والكمبيوتر؛ وقد أيدت الإدارة التعليمية في منطقة «نيوهام» هٰذه الحقائق في دراسة تحليلية لنتائج GCSE.

إليزابيث فليجوري -رئيسة رابطة مدارسة البتات الخاصة- لم تؤكد هٰذه الإحصاءات فحسب، بل أكدت أيضًا أنه مع التوسع في استخدام التكنولوجيا في العملية التعليمية تزايد معدل التفوق لدىٰ البنات في المدارس غير المختلطة، وأن نسبة النجاح بينهن ارتفعت في الشهادات العامة إلىٰ ٩٣٪ ونسبة التفوق بامتياز إلىٰ ٥٠٪.

وقالت فليجوري مضيفة: إنه في محيط نسائي خالص، بعيدًا عن الضغوط النفسية والاجتماعية والسيطرة الرجالية، استطاعت البنات أن يؤكدن ليس فقط تفوقهن؛ بل قدرتهن علىٰ استيعاب المعلومات واستخدامها وتحليلها واتخاذ قرارات فيها.

ولعل شهادة «شيرلي وليامز» -الأستاذة في جامعة هرافارد- والتي أمضت حياتها الدراسية في مدارس غير مختلطة حتىٰ حصلت علىٰ شهادة الـ (A-Level) ثم التحقت بكلية سرفيل -غير مختلطة أيضًا- بجامعة أكسفورد؛ لعل شهادتها توضح الكثير من تميز التعليم غير المختلط.

تقول «شيرلي وليامز»: في هٰذا الجو الخالي من الضغوط التي يسببها وجود الرجال؛ يكون عطاء البنات عاليًا وإيجابيًا وممثيرًا يؤكد قدرتهن علىٰ الإبداع والعطاء والتفوق، كما أن وجود بنات فقط في الفصول يزرع فيهن قدرًا عاليًا من الثقة بالنفس والصداقة الحميمة.

يقول د/ محمد رجب البيومي[1]:

---

(١) جريدة «الأزهر» بتاريخ ٢ رجب سنة ١٤٢٦هـ، ٢٦ أغسطس سنة ٢٠٠٥م.

إن التعليم المختلط أحد أسباب الكارثة الاجتماعية التي عرفت بالزواج العرفي وأن الكليات التي لا تعرف الاختلاط مثل كليات البنات بالأزهر، وكلية البنات بجامعة عين شمس لمم تنشأ بها حالة واحدة من حالات الزواج العرفي مما يجعل الاختلاط سببًا رئيسيًا في هٰذا البلاء، وهو أمر من البداهة بحيث لا يحتاج إلى تقرير.

كما أذكر أني تحدثت عن موقف الدكتور طه حسين حين أنشأ الأزهر كليات حاصة بالبنات، فقد أفرد مقالًا كبيرًا بالجمهورية يسخر فيه من هٰذا الاتجاه، ويعلن أنه سيكون نكتة ساخرة في أوربا وأمريكا لأن الفصل بين الجنسين في القرن العشرين دليل علىٰ التأخر الاجتماعي، وعلىٰ أن قرونًا كثيرة تفصل بيننا وبين الغرب المتحضر وقيام كليات البنات بالأزهر يؤكد هٰذا التأخر بما لا يحتاج إلىٰ دليل.

وكان من رحمة الله حينئذ أن تكتب المربية الفاضلة الدكتورة أسماء فهمي عميدة معهد البنات العالي مقالًا مفحمًا ترد به علىٰ الدكتور طه حسين حيث أعلنت أن بأمريكا وحدها مائة وأربعًا وخمسون كلية خاصة للبنات وأنها كانت أستاذة زائرة في عشرات منها فلمست من الهدوء والجد والانضباط ما لم تلمسه في كليات الاختلاط ولم يقل أحد ما قال الدكتور طه حسين من أن انفراد البنات بكليات خاصة مصدر سخرية واستهزاء كما توهم الكاتب الكبير.

واليوم تطالعنا الصحف الإنجليزية باستطلاعات ميدانية تؤكد أن الفصل بين الجنسين في المدارس أفضل من الاختلاط فقد نشرت جريدة «الوفد» الصادرة بتاريخ أول يونيو

««م تقريرًا عن دراسة بريطانية بشأن الفصل بين الجنسين في المدارس قالت فيه:

إن هٰذخ الدراسة التي نشرتها جريدة «الجارديان» الإنجليزية قد ابتدأت

بقول الجريدة إن دراسة مثل هٰذه عن الفصل بين الجنسين لو صدرت عن دولة إسلامية لتم اتهام هٰذه الدولة بالتخلف والرجعية واضطهاد المرأة، ولكن الدراسة الإنجليزية أثبتت بعد فحوص ميدانية دقيقة أن الفصل بين الجنسين خلال مراحل التعليم خصوصًا في مواد دراسية معينة قد حقق نتائج أفضل، وقد استغرقت الدراسة أربع سنوات تحت رعاية الحكومة البريطانية نفسها، وكانت هٰذه الدراسة الميدانية بجامعة «كامبريدج» العريقة حيث أجرت بحوثها علىٰ خمسين مدرسة إنجليزية فخرجت بنتيجة هامة، هي أن الفصل بين الجنسين يصنع فارقًا كبيرًا في نتائج الأولاد علىٰ وجه الخصوص كما يحسن أداء الفتيات، والأولاد يشعرون بانتباه علمي أكثر من تلاميذ الفصول التي يحدث بها اختلاط، يوكونون أكثر قدرة علىٰ التواصل والتعليم والاهتمام بالمسائل العلمية دون انصراف إلىٰ شيء آخر مما يؤدي إلىٰ تحقيق نتائج أفضل، كما أثبتت الدراسة أهمية الانفصال في ارتفاع السلوك الاجتماعي وتقويمه لديٰالمراهقين، بعكس ما يحدث من انحرافات خاطئة في مدارس الاختلاط تؤثر علىٰ النتائج العلمية والسلوك الاجتماعي.

هٰذه الدراسة قامت بها هيئة علمية تنتمي إلىٰ أرقىٰ جامعات انجلترا، ولم يكن لديها تحيز خاص باتجاه معين، وكنها تنشد الحقيقة التي يجب أن تكون موضع الامتياز وسيترتب عليها أن يؤثر أولياء الأمور مدارس الجنس الواحد، إذ قامت الدلائل الميدانية علىٰ أنها أجدىٰ علىٰ الطلاب والطالبات معًا، وأهم ما أشار إليه هٰذا التقرير هو تشتيت الأذهان بين الفريقين، وعدم التركيز العلمي لاشتغال المراهقين بحساسيات خاصة نحو زميلاتهم ليس لها وجود حين تكون المدرسة أو الجامعة خاصة بجنس واحد، وما يقوله التقرير هو البداهة التي لا يجوز الاختلاف عليها، ولكن هٰذه البداهة لا تجد من ينزلها منزلة التقدير في محيطها التعليمي، بل يعد الحديث عنها تأخرًا لا يليق.

علقت صحيفة «التايمز اللندنية» بتاريخ ٢٣/ ١٢/ ١٩٧٤ علىٰ كتاب الأستاذ خورشيد أحمد «الحياة العائلية في الإسلام».

إن القواعد التي تقوم عليها الحياة العائلية في الإسلام والتي وضعت الأسس في أمور كالإرث وحقوق اليتامىٰ واختلاط الجنسين كل ذلك مرسوم لدعم تماسك الأسرة في صورة من الصور».

وتقول: «اعتقاد السيد خورشيد أحمد بأن المحافظة علىٰ الحياة الأسرية ضروري لخير ورفاهية الأمم يشاركه فيه كثير من النصارىٰ واليهود، بل كثير من محبي الإنسانية، ومن هنا فإن الشعوب والأمم الإسلامية تتمتع بمركز قوي في العالم اليوم، لا لمجرد أن العرب يمتلكون الثروة النفطية، وإنما لأنهم يملكون نظامًا عائليًا مستقرًا، وهو نفس النظام الذي يسعىٰ الغرب بجنون للتفلت منه.

يقول الدكتور (جولد):

تسمىٰ الأمراض الجنسية الآن بحق «الأمراض الاجتماعية» ورغم أن هٰذا التعبير قد استحدث؛ لتحاشي الإحراج إلا أنه مناسب تمامًا ويتابع (جولد) قائلًا: وهناك علاج سريع وأكيد لأكثر الإصابات التي تحدث، ولكن رغم كل هٰذه العوامل المواتية، فإن محاولاتنا لإنقاص الحوادث فشلت بشكل مرعب، وهٰذا راجع إلىٰ أن المواقف العصرية بالنسبة لموضوع الجنس، وطريقة حياتنا العصرية بما فيها التحرك السريع والتنقل كل ذلك عمل علىٰ نشر هٰذه الأمراض بصورة أقوىٰ مما عمل الوعي والأدوية الحديثة علىٰ احتوائها، ويختم (جولد) مقاله بأسلوب فيه من اليأس أكثر مما فيه من الرجاء قائلًا: وليس أمامنا إلا التربية والتعليم، ولكن هل يكفي هٰذا؟.

وكان علىٰ الدكتور (كوس) أن يفصل ما يجري في الغرب قائلًا: (أول العوامل التي تزيد من فرص الاحتكاك بين الجنسين هو التحضر -أو التمدن- فعدد إصابات الأمراض الجنسية في المدن هو ثلاثة أضعاف مثيله في

الأرياف، وكذلك التصنيع وعمل المرأة خارج البيت، وهجرة العمال والسفر للأعمال والسياحة، بالإضافة لذلك حدثت تغيرات اجتماعية وثقافية أدَّت إلىٰ تبديل المواقف والنظرات، وظهر في بعض المجتمعات سلوك سُمِّي إباحيًا أو غير أخلاقي، ويتعرض الأفراد بازدياد للإثارات الجنسية، وضعف نفوذ الدين والعائلة والرأي العام وكان لها -كلها- تأثير فاعل في هٰذا المجال، وظهرت أدوات منع الحمل فشجعت الاتصالات الجنسية خارج إطار الزواج دون خوف من حدوث الحمل.

وظهرت حفلات الجنس الجماعية، وانحرافات الشذوذ الجنسي، وانتشرت (حرية ممارسة الجنس).

ويشير البروفسور (جيوفاني كالتي) الخبير الإيطالي بإصبع الاتهام إلى حضارة المادة والتكنولوجيا، فيقول: «مع التصنيع والتقدم التكنولوجي حصل اضطراب في العائلة نفسها... وفي المجتمعات الاستهلاكية المعاصرة دفع هٰذا التصنيع جماهير الناس؛ ليجعلوا من الحاجات الاستهلاكية آلهة... كأنما القيم الذاتية: الروحية والثقافية والسياسية لم تكن موجودة أبدًا»، ويتابع قائلًا: «ويبدو أن البشرية تسرع الخطىٰ نحو مجتمعات الإثارة الجنسية والاضطرابات مُضَيَّعةً هكٰذا الأبعاد الإنسانية دون أن تترك الوقت الكافي للثقافة والحاجات النفسية، والركض خلف اللذة والمتعة هو محاولة هروب من المسئولية، ومواجهة مصاعب الحياة التي تزداد باطراد».

ويقول الدكتور (نيكول):

«إن المشكلة التي تواجهنا اليوم هي تبدل قيمنا الأخلاقية، وهٰذا ما شجع ويشجع علىٰ إقامة علاقات جنسية محرمة!!!.

وهٰذه بدورها سببت ازديادًا حادًا في إصابات الأمراض الجنسية».

أما الخبيرة الاجتماعية الأمريكية (سيليا ديشيم) فتقول: إذا انغمس الجيل الناشئ في الجنس مبكرًا فسبب ذلك راجع لتعرضه الدائم للإثارة

الجنسية من حوله في المجتمع، والتي تسد عليه المنافذ، ولن أفاجأ إذا ما سمعت بازدياد كبير في نسبة الأمراض الجنسية ومواليد السفاح، فذلك كله نتيجة طبيعية لما يجري في المجتمع الآن».

هٰذه أمثلة واقعية صادقة للمجتمعات الغربية المنحلة التي تنتشر فيها الأمراض الجنسية، فهل هٰذا ما يريده لشبابنا وشاباتنا (المتغربون) الذين يسعون جاهدين لتغريب المجتمعات المسلمة؟!!.. قليلًا من المنطق والأمانة العلمية والحياء أيها المتغربون[1]؟.

تقول الكاتبة الأمريكية دانييل كرتندن في كتابها: «ما لم تخبرنا أمهاتنا به»[2]:

كمنتقدة للحركة النسوية اتهمت دومًا بدعوتي لإرجاع المرأة إلىٰ الوراء. أما ما هو هٰذا الوراء فهو ما لا يوضحه أحد؛ إذ من المفترض أنه واضح: العودة إلىٰ المطبخ، إن مجرد مناقشة تأثير التغيرات الاجتماعية التي دارت خلال الثلاثين عامًا المنصرمة علىٰ حياة النساء في الغرب يعتبر أمرًا استفزازيًا، أو أنه يصبح كذلك إذا كان المثير للتساؤل منطلقًا من وجهة نظر غير نسوية، ورغم أن الحركة النسوية الغربية غير قادرة اليوم إلا علىٰ تجنيد أعداد قليلة من الأنصار تمامًا كمقدرة الحزب الشيوعي التشيكي، فإن افتراضاتها حول كيف يجب أن تعيش النساء في الغرب فإن حياتهن ما تزال قوية.

فنحن تشربنا أن علينا أن ننسىٰ أو نؤجل الزواج وإنجاب الأطفال؛ لأجل الوظيفة، وأننا عندما نتزوج يجب ألا نعتمد علىٰ أزواجنا ماليًا، سواء أنجبنا أم لا.

كما ينبغي ألا نتطلع إطلاقًا تجاه عائلاتنا لتحصيل الرضا والسعادة،

---

(١) مجلة «الأمة» شوال سنة ١٤٠٢هـ ص٢٨-٢٩.

(٢) مجلة «الشرق الأوسط» العدد ٧٤٣١، ٣/ ٤/ ١٩٩٩م.

لأن هٰذه الأشياء ينبغي أن نجنيها من وراء أعمالنا ووظائفنا كأفراد.

عندما تأتي واحدة مثلي وتقول بخطأ تلك النصائح والأفكار، فقولها حينئذ عسير علىٰ الهضم. فالكثيرات منا أقنعن أنفسهن بها ورسمن حياتهن وفقًا لها.

وحتىٰ عندما نتنحىٰ بعيدًا منها نتنحىٰ لا نريد رفضها ألبتة، ولكن المعضلة أن التخلي عن تلك الأفكار هو أول الطريق لحل المشكلات التي تواجهها النساء اليوم.

وعندما ننظر إلىٰ حياة النساء العصريات من حولنا، أعتقد أن قليلات منا قادرات علىٰ القول بثقة: إن التقدم الذي وصلنا إليه عاد علينا بمنافع كبيرة.

نعم، نحن اليوم أكثر حرية من أي جيل من النساء في التاريخ كله؛ إذ نستطيع شغل مواقع متنفذة في العمل أو الحكومة، إلا أن ذلك كان علىٰ حساب قدرتنا علىٰ إرادة حياتنا الخاصة. لقد أنصت إلى العديد من النساء العصريات من ذوات الإنجازات يشتكين من دون تهكم أنهن لا يملكن الخيارات التي كانت متاحة لأمهاتهن في الماضي. بعض أولئك النساء خريجات جامعات لا يدرين ببساطة كيف سينجزن كل شيء في حياتهن، أو حتىٰ كيفية إنجاز أمر واحد من بين عدة أمور، مثل العثور علىٰ رجل محترم للزواج، وإنجاب أطفال وبناء وظيفة، وفوق ذلك كله التمتع بحياة عائلية غالبًا ما افتقدناها خلال طفولتنا. إننا إذا جلسنا، كنساء وحاولنا بصدق تحديد المطالب التي من شأنها أن تشعرنا بالسعادة فأنا أعتقد بافتراض امتلاكنا للأساسيات الحياتية وترك خيالات الغنىٰ والشهرة أن معظم ردودنا ستكون متشابهة من جهة ومختلفة كثيرًا عن الرجال من جهة أخرىٰ إن ردودنا ستكون شبيهة بالتالي: نرغب في الزواج من رجال يحبوننا ويحترموننا ويبقون إلىٰ جانبنا، ونريد إنجاب الأطفال كما نريد أن نكون أمهات جيدات،

والعديدات منا سيرغبن في ملاحقة اهتماماتهن خارج البيت، وهٰذه اهتمامات تعتمد علىٰ الطموح والمقدرة أو تختلف من امرأة إلىٰ أخرىٰ، فبعضنا يقنع بالعمل وإدارة مسئوليات البيت، أما البعض الآخر فسيرغب أو يحتاج للعمل من داخل البيت، وثمة أخريات سيطلبن أو يحتجن للعمل خارجًا في دوام كامل أو نصف كامل.

وربما كانت بعض النساء ذوات طموح عريض، ويرغبن في مواقع تنفيذية أو سياسية أو إبداعية.

وهكٰذا فإن معظم مطالبنا ستقاسم الكثير مما نعده من الأساسيات، إن النقطة الأساسية ليست إن كانت المرأة محصورة بين خيارين: إما العمل أو الإنجاب، بل النقطة الأساسية تدور حول مقدرتنا كنساء علىٰ إدراك آمالنا في وقت واحد. لتحقيق ذلك يجب أن نبدأ برفض افتراض الحركة النسوية، إن السعادة شيء تحققه بشكل مستقل وبعيد عن الرجال والعائلة. نعم إن ما أقترحه هو العودة إلىٰ الوراء إلىٰ فكرة الزواج والأمومة الأولىٰ، ستفرض النشاطات في الحركة النسوية هٰذه الفكرية. بالطبع فهن مصرات علىٰ أخذ موقف حيادي تجاه الاختلافات البيولوجية بين المرأة والرجل. موقفهن يقوم علىٰ أن الطريقة الوحيدة التي تتيح للمرأة تحقيق المساواة مع الرجل هي القيام تمامًا بذات الأشياء والوظائف والأدوار التي يقوم بها الرجال في حياتهم، وفي أي لحظة تعترف امرأة منا ما برغبتها في أن تكون زوجة ومربية لأطفالها فإنهن ينظرن إليها علىٰ أنها دون طموح.

لكن الحقيقة هي أن تلك الرغبات ملحة بشدة علىٰ عدد كبير من النساء، إذ العديدات من نساء جيلي خلصن إلىٰ أنه ربما تكون الاستقلالية جميلة ومريحة عندما تكون المرأة عازبة وشابة، غير أنها ليست كذلك إطلاقًا عندما تكون المرأة أمًا بلا زوج أو عازبة في الأربعينيات من عمرها، ويبقىٰ أننا إذا أردنا كنساء في الغرب تغيير وضعنا ومشاكلنا فربما لن يتطلب منا ذلك العودة

إلىٰ الوراء، بل ربما احتاج منا فقط النظر إلىٰ الوراء بصدق ووضوح، وتحديدًا النظر إلىٰ بعض الأفكار التي لفظناها مفضلين عليها حرية غالبًا ما تكون جوفاء.

«أليس شفارزر» امرأة ألمانية تحمل راية الدفاع عن الحقوق الإنسانية للمرأة في مواجهة استغلالها في تجارة «الخلاعة».

بدأت «أليس شفارزر» حملتها قبل عامين تقريبًا حين نشرت مجلة «إيما» النسائية ملفًا خاصًا حول الخلاعة، وأعطت الكلمة في هٰذا الملف إلىٰ عالمة الاجتماع الأمريكية «أندريا دوراكن» التي نشرت كتابًا في العام **١٩٧٩**م «قبل عشر سنوات» تحت عنوان «خلاعة».

وكتبت العالمة الأمريكية: «بدافع اللذة يربطوننا وكأننا قطع لحم ويعلقوننا علىٰ الأشجار، ويصورون الاغتصاب، ويعرضونه في السينما وينشرونه في المجلات».

ودعمًا لأقوال عالمة الاجتماع نشرت مجلة «إيما» صورًا لنساء عدة يخضعن لممارسات كريهة.

واقترحت «أليس شفارزر» من أجل وضع حد لهٰذه الممارسات قانونًا لمكافحة الخلاعة رفع مشروع بشأنه إلىٰ أعضاء البوندستاغ -البرلمان الألماني.

وكما توقعت أليس شفارزر فلم يوافق علىٰ مشروع قانونها الذي تقدمت به ولكنها نجحت في تحقيق هدفها في أن يثار جدل عام في وسائل الإعلام حول الموضوع، وقد خصصت الصحف والمجلات الألمانية أعمدة كاملة للمشكلة[١].

ماري وايت هاوس: امرأة بريطانية ذات مركز مرموق في المجتمع البريطاني في لندن، وهي ترأس جمعية تعرف باسم رابطة المستمعين

(١) «رسالة إلىٰ حواء» ص ٤٠١-٤٠٣ .

والمشاهدين، هٰذه المرأة قالت في تصريح لها: إن موجة الانحلال الخلقي والعنف في برامج التلفزيون والإذاعة هي من الآفات الاجتماعية الأكثر خطورة من مشاكل الجوع التي تجتاح بعض بلدان العالم في الوقت الحاضر.

وقالت «وايت هاوس»: إن موجة الانحطاط الخلقي المتفشي في كل مكان يسبب الجوع وحاجة البطون فقط دون مراعاة إصلاح النفوس والحد من البرامج الفاسدة في الإذاعة والتلفزيون.

ودعت وايت هاوس الحكومة البريطانية لبذل الجهد لإنقاذ المجتمع البريطاني من كارثة أخلاقية وثقافية محققة.

جاءت كلمة «واين هاوس» هٰذه في رسالة بعثت بها إلىٰ وزير الداخلية البربطاني، «دوغلاس هيرد» تحثه فيها علىٰ وضع لائحة جديدة تنظف التلفزيون والإذاعة البريطانية من برامج التحلل والفساد التي وصفتها بأنها أخطر علىٰ المجتمع من مشاكل الجوع.

نعم، عزيزتي حواء، فكثيرًا ما تكون مشكلات التحلل والفساد أخطر من مشكلات الجوع.. ذلك أن ضرر الجوع لا يغادر صاحبه الجائع في الأغلب، بينما ضرر الفساد يتجاوز صاحبه إلىٰ محيط أوسع من الناس.

ومما يزيد التصريح السابق قيمة أنه صدر عن امرأة، امرأة تدرك مدىٰ خطورة تفشي الفساد في المجتمع وانتشار التحلل بين أفراده، ولم يصدر عن رجل؛ فيقال: إنه يريد أن يعيد المرأة إلىٰ البيت بزعم المحافظة علىٰ الأخلاق.

علىٰ أي حال فهٰذه صيحة تحذير؛ لئن كانت تتحدث عن الفساد في الغرب وخطره.. لهي أو مثلها يحتاج الشرق إليها اليوم[1]..!

مجلة «لوبوان» الفرنسية نشرت في عددها الصادر في بداية شهر آب (أغسطس) **١٩٨٣**م تحقيقًا حول الجنس في فرنسا تحت العناوين التالية:

(١) «رسالة إلى حواء» ص١٩١-١٩٢ .

«الجنسيون مُتعبون -الثورة الجنسية لم تحمل السعادة إلى أصحابها- الرجال والنساء قد تبادلوا الأذىٰ لأنفسهم. . ويشعرون اليوم بحاجة ماسة إلىٰ فترة راحة».

وجاء في التحقيق أن مؤسسة «كوفرمكا» -وهي مؤسسة تبحث في العلوم الاجتماعية التطبيقية -قالت في بحث لها: «لقد اجتاحت الحرية الجنسية ثمانية ملايين من الرجال والنساء خلال ثماني سنوات بين عامي ١٩٧٤ و١٩٨٢م».

ولاحظت هٰذه المؤسسة النجاح الذي حققته موسوعة بعنوان: «من أجل أحسن العلاقات العاطفية» أصدرتها دار «هاشيت» واعتبرتها دليلًا علىٰ ظهور إرادة لتنظيم هٰذه العلاقات لا إلىٰ انتهاكها، وقد بيع من هٰذه الموسوعة مليون نسخة.

ومنذ ذلك الوقت ظهرت علامتان أخريان تؤكدان رأي هذه المؤسسة، وهما: الإقلاع عن تناول حبوب منع الحمل، ثم العودة إلىٰ العفاف والاحتشام.

الطبيبة النسائية «ميشال بارزاك» التي لا تخلو عيادتها من المترددات عليها تقول: «إن ظاهرة الامتناع عن تناول حبوب منع الحمل تتسع بصورة مطردة، وتعود إلىٰ ظهور حالة تعب شديد، كما تتحدث في الوقت نفسه عن نوع من نفور النساء من مقاومة قوانين الطبيعة».

«وهٰذا الموقف هو في نتيجته البدهية، التفكير في الخطر الناجم عن العلاقة الجنسية الحرة، كما يعني تشجيعًا علىٰ الالتزام بالعفة، وربما الامتناع وقتيًا عن ممارسة الجنس».

وتمضي صحيفة «لوبوان» فتنقل أقوال بعض أولئك النسوة، ومنهن الفتاة فرانسوازف موظفة في الواحدة والثلاثين من عمرها امتنعت عن تناول حبوب منع الحمل، واختارت الامتناع عن ممارسة الجنس. والسبب هو

إحساسها بالتعب من تلك النشوات القصيرة.. ورغبتها في الحصول على شريك موثوق تطمئن إليه.

وهكذا تثوب النساء في الغرب إلىٰ الصواب.. بعد أن أدركن وَهْمَ تلك الحرية الجنسية المطلقة من أي ضابط أو تنظيم.

وبعبارة أخرىٰ .. فإنهن يملن إلى تلبية هٰذه الحاجة مع رجل تثق به المرأة وتطمئن إليه. أي إلىٰ زوج في إطار أسرة.. وفي توازن مع الحاجات الأخرىٰ ومتفق مع أصل الخِلْقة البشرية[١].

وجاء في جريدة «المسلمون»[٢] ما يلي:

أوردت بعض المجلات الفرنسية تحقيقات حول ظاهرة غير معتادة في المجتمع الغربي الذي صارت الإباحية خبزه اليومي.

أعلنت أنه يوجد الآن بفرنسا مئات من الشباب والمراهقين الذين تتراوح أعمارهم ما بين ١٧، و ٢٥ سنة يلتزمون كتابة بالمحافظة علىٰ عفافهم وطهارتهم، أي عدم ممارسة علاقة غير شرعية.

تأسست هٰذه الحركة سنة ١٩٩٣م في ضواحي باريس وتسمي نفسها «الحب الحقيقي يستطيع الانتظار» وتضم حوالي ٦٠٠ عضوًا وسبقتها حركة مماثلة في الولايات المتحدة الأمريكية بها حوالي ٢٥٠ ألف شاب وشابة يجمعهم هدف واحد وهو المحافظة علىٰ العفة.

الحركة الفرنسية نشأت تحت إشراف جميعة تدعو إلىٰ العودة إلىٰ القيم العائلية وهي مستقلة في نشاطها.

وإذا كانت حركتهم تغري الشباب الخجولين فإنها أيضًا تجتذب الشبان الذين تعرضوا للإحباط في تجربة مبكرة، وكذلك أولئك الذين يريدون الانطلاق في حياتهم علىٰ أسس أخلاقية جديدة.

---

(١) «رسالة إلىٰ حواء» ص١٥٣-١٥٤ .

(٢) جريدة «المسلمون» العدد ٦٦٢ بتاريخ ١٠/ ١٠/ ١٩٩٧م.

وتقول «كاريت» ٢٦ سنة، في تصريح أدلت به لصحيفة «الفيجارو» الفرنسية: إن الحفاظ علىٰ العفة ليس خروجًا عن الطبيعة فقد كان هٰذا الأمر سائدًا في زمن أجدادنا دون أن يصدم أحدًا، أصحاب هٰذه الحركة يريدون وضع علاقة الرجل والمرأة في إطارها الشرعي، أي: أن تكون قائمة علىٰ الزواج.

ويقول المسئول عنها ويدعىٰ «جوناتان» يجب ادخار هٰذه العلاقة لشريك العمر الذي هو الزوج أو الزوجة، و«جوناتان » طالب في مدرسة الهندسة ينظم لقاءات عامة لمحاربة الإحساس بالذنب الذي ينتاب أولئك الذين يرفضون التلوث بعلاقات جنسية متكررة. وأنصار عدم ممارسة العَلاقة غير الشرعية.

وأعلن رئيس وزراء سنغافورة «لي كوان يو» أن شباب بلاده الذين ترتفع فيهم نسبة المتعلمين عازفون عن الرغبة في الزواج بسبب طموح الكثيرين منهم في البحث لا عن الزوجة المناسبة بقدر العثور علىٰ نموذج للحسناء المثالية.

ويحذر رئيس الوزراء مواطني بلاده من مغبة السعي وراء الكمال في العلاقات الاجتماعية التي يندر توفرها عادة، ويطالبهم بتخفيف شروطهم وقبول شريكة الحياة التي تتوفر لديها الرغبة في بناء أسرة، والرضا بمن حصلت علىٰ قدر معقول من التعليم؛ بدلًا من أوهام العثور علىٰ الحسناوات حاملات الدرجات العلمية العالية.

من جهة أخرىٰ دعا وزير الصحة السنغافوري الأزواج إلىٰ زيادة إنجاب الأطفال باعتباره هدفًا قوميًا تعمل الحكومة علىٰ تحقيقه.. من أجل إحداث تغيير في ثبات معدلات السكان منذ عدة سنوات.

يأتي هٰذان التصريحان من الوزيرين السنغافوريين في الوقت الذي تعرب فيه المصادر السنغافورية عن قلقها من تفشي ظاهرة إقبال المتعلمين على بناء علاقاتهم الاجتماعية خارج رباط الزواج الشرعي، والإحجام لسنوات طويلة

عن إنجاب الأطفال.

وبدأ المسئولون التنفيذيون عن السياسات السكانية في سنغافورة في الآونة الأخيرة القيام بحملات شعبية مكثفة ترفع شعارات الحث علىٰ الزواج والإنجاب المبكر لعدد من الأطفال ٣ أو ٤ علىٰ قدر الإمكان وبمعدلات لا تقل عن ٥٠ ألف طفل كل عام.

هل تأملت في الكلام السابق الذي اقتطعته لك من خبر طويل نقلته وكالة الصحافة الفرنسية؛ إنهم يدعون إلىٰ المبادئ الإسلامية وهم لا يشعرون:

- الحث علىٰ كثرة الإنجاب.

- الحث علىٰ الزواج وجعله الرابطة الأساسية بدلًا من العلاقة غير الشرعية.

- الحث علىٰ عدم الاشتراطات الكثيرة في مواصفات الزوجة.

إنهم يدعون إلىٰ مبادئنا وقيمنا، فما أقبح أن يطبقوها هم، وننصرف نحن عنها!

- أوصت هيئة في حزب المحافظين البريطاني الحاكم بضرورة تشجيع الزواج والعودة إلىٰ القيم الأسرية علىٰ وجه السرعة.

الهيئة التي تعرف باسم «مجموعة بامر» أشارت في تقريرها الذي نشرته الصحف البريطانية إلىٰ ظاهرة الإباحية الخطيرة التي عمت المجتمع البريطاني، وطالبت بتشديد القوانين علىٰ السلوك الإباحي والمطبوعات الإباحية.

وأهم ما جاء في تقرير المجموعة، ما أشارت إليه من انتشار ظاهرة الأمومة سفاحًا؛ أي الإنجاب دون زواج، وهو ما أصبح يلقىٰ قبولًا عامًا يجب العمل علىٰ تثبيطه كما جاء في التقرير.

هٰذا الخبر من بريطانيا واحد من أخبار كثيرة جميعها يشير إلىٰ تزايد

التحلل والفساد والحمل من الزنا، بسبب ضعف الرقابة، وتفكك عرى الأسرة.. ليس في بريطانيا وحدها.. بل في جميع المجتمعات الغربية تقريبًا.

وعلىٰ الرغم من أن أولي الألباب في تلك البلاد بدءوا يطلقون صيحات التحذير، ويدعون إلىٰ تشديد القوانين علىٰ السلوك الإباحي، فإننا نجحد في بلداننا من يدعو إلى إطلاق المرأة المسلمة، واختلاطها بالرجال، ونزعها للحجاب.

هل يريدون أن تذوق مجتمعاتنا ما ذاقته المجتمعات الغربية من ويلات ومآسٍ اجتماعية خطيرة.. تاركين شرع الله وراءهم ظهريًا؟!

من هٰذا كله، تدركين أختنا المسلمة، عظم المسئولية الملقاة عليك، فإن صلحت حالك، وتمسكت بأهداب دينك فوّت الفرصة عليهم، ورددت كيدهم في نحورهم.

إنهم يعلمون يقينًا أن الخطوة الأولىٰ في إفساد مجتمعاتنا الخطوة الأساسية، هي في دفع المرأة المسلمة في خطىٰ المرأة الغربية: تختلط بالرجال، وتنزع الحجاب، وتتخلىٰ عن قيم دينها.

لكنك -بإذن الله- يقظة لكل وساوس شياطين الإنس والجن، بصيرة بكل ما يزينونه لك، عارفة بأساليبهم.. خبيرة بأحابيلهم.

وإني لأكاد أرىٰ المرأة الغربية وهي تقلد المرأة المسلمة، وتقتدي بها، ثم تسلم مثلها.. وإن غدًا لناظره قريب[1].

وتحت عنوان «المرأة اليابانية خائفة علىٰ نفسها من السماح باستخدام حبوب منع الحمل» نشرت إحدىٰ الصحف المحلية خبرًا مطولًا نقلته وكالات الأنباء العالمية، عن قرار الحكومة اليابانية باستخدام أقراص منع الحمل بعد

---

(١) «رسالة إلىٰ حواء» ص٢١٧-٢١٨ .

نقاش استمر عشرات السنين.

جاء في الخبر: إن القلق ينتاب نساء كثيرات، إنهن يخشين أن تؤدي هٰذه الخطوة إلىٰ مزيد من التدني لمركز المرأة في المجتمع الياباني المحافظ.

ويضيف الخبر: ويظهر مسح أجرته إحدىٰ الصحف أن ٣٥ في المائة فقط من النساء المتزوجات يرحبن بهٰذه الخطوة، و١٣ في المائة غير راغبات في استخدامها لخوفهن من الآثار الجانبية.

وقالت ياريكو شينو مسئولة الاتحاد الياباني لتنظيم الأسرة لوكالة رويتر: إن الآثار الاجتماعية لاستخدام الأقراص أكثر خطورة من آثارها الجانبية البديلة.

ويقول المشتغلون في ميدان تنظيم الأسرة -أطباء ومسئولون-: إنهم يخشون أيضًا تدهور الأخلاقيات الجنسية إذ أصبح في استطاعة النساء السيطرة علىٰ خصوبتهن باستخدام الأقراص.

وانتشر استعمال أقراص منع الحمل في الغرب في الستينيات، ولكن إدخاله إلىٰ اليابان تأخر؛ لأسباب يرجع معظمها إلىٰ الخشية من آثارها الجانبية طبيًا وأخلاقيًا. حتىٰ قبل السماح باستعمال أقراص منع الحمل هبط معدل المواليد في اليابان باطراد ولعدة سنوات ووصل إلىٰ ١١,٤ في الألف في العام الماضي، وهو أقل معدل منذ عام ١٨٩٩م.

أما تعليقنا علىٰ هٰذا الخبر فنحاول إيجازه فيما يلي:

١- لعل كثيرًا من الناس كانوا لا يعلمون أن اليابان تحظر استعمال أقراص منع الحمل، ولا شك في أنهم فوجئوا حين قرأوا هٰذا الخبر وهٰذا يفسر بعض الشيء نجاح المجتمع الياباني في المحافظة علىٰ أخلاقه وعاداته الاجتماعية، منذ الحرب العالمية الثانية، رغم التقدم الصناعي الهائل الذي حققه في تلك الفترة. وهٰذا بدوره يجعلنا نسأل دعاة تقليد الغرب في بلادنا لماذا لا تفعلوا مثل اليابان أخذت من الغرب تقدمه الصناعي وسبقته فيه دون

أن تضطر إلىٰ تقليده في تحرره وانفلاته الاجتماعيين؟

لماذا إذن تصرون علىٰ اقتفاء خطىٰ الغرب في المجتمع وترونه ملازمًا لاقتفاء خطاه في الصناعة؟

٢- جاء في أول الخبر أن النساء اليابانيات يخشين أن يؤدي السماح بتداول أقراص منع الحمل إلىٰ مزيد من التدني لمركز المرأة في المجتمع الياباني المحافظ.

ترىٰ لو نسبت هٰذه الخشية إلىٰ النساء المسلمات في بلادنا، فكيف سيكون رد فعل رافعي شعارات «تحرير المرأة» وتقدمها؟

سيقولون: ما هٰذه الرجعية؟ أو يقولون: لماذا تخاف المسلمة من أقراص منع الحمل وما هٰذه العقد؟ أو يدعون إلىٰ إسكات «الرجعيين» الذين يحولون دون تقدم النساء في بلادنا ويقولون: لهٰذا نحن متأخرون!

أما وقد صدر هٰذا الكلام عن النساء اليابانيات فإن جميع الألسن تخرس.. ولا تنبس ببنت شفه. فمن يستطيع أن يقول: إن المرأة اليابانية سبب في تأخر اليابان.. واليابان سبقت أمريكا وأوروبا؟!

٣- الخشية الأخرىٰ صدرت عن المشتغلين في تنظيم الأسرة -أطباء ومسئولين- إنهم يخشون تدهور الأخلاقيات الجنسية.. إذ أصبح في استطاعة النساء السيطرة علىٰ خصوبتهن باستخدام الأقراص، كما جاء في الخبر.

ونحن نؤكد علىٰ هٰذه الخشية بل نضع تحتها خطًا أحمر! أتراهم -في أمريكا وغيرها- عجزوا عن سبق اليابان في تفوقها الاقتصادي.. فأرادوا أن يهزموها بإفساد مجتمعها المحافظ؟![1]

«بدأ في لندن تشغيل باصات للنساء فقط، ابتداء من السادسة مساءً وحتىٰ منتصف الليل، وذلك للحد من حوادث الاعتداء المتكرر عليهن.

---

(١) «رسالة إلىٰ حواء» ص٢٧٦ - ٢٧٨ .

وتقوم السيدة بالاتصال هاتفيًا بمقر قيادة الباصات، وتحدد لها وجهتها ويخطرها المسئول بموعد وصول الباص أسفل منزلها لتوصيلها إلىٰ المكان الذي تريده.

والجدير بالذكر أن هٰذا المشروع كلف بلدية لندن حتىٰ الآن ٣٨ ألف جنيه استرليني دفعتها من أجل راحة النساء فقط.

هٰذا الخبر الذي نقلته وكالات الأنباء، لو كان عن دمشق أو القاهرة أو أية مدينة عربية أخرىٰ، لخرج علينا كثير من الناس يستنكرون هٰذه الخطوة «الرجعية» في زمن «التقدمية» ويستكثرون هٰذا الملبغ الذي دفعته بلدية لندن، لو دفعته بلدية عربية قائلين: «إن كثيرًا من المشاريع أولىٰ بهٰذا المبلغ وأحوج إليه من دفعه؛ لتسيير باصات خاصة بالنساء؟!

هكٰذا يكون رد فعل المتحللين ودعاة الاختلاط تجاه هٰذه المبادرة من أجل حفظ النساء من تحرش الرجال أو إيذائهن أو خطفهن، لو أقدمت عليها بلدية عربية...!

أما وقد أقدمت عليها بلدية لندن في عقد الثمانينيات من القرن العشرين، فلم يعترض أحد ولم يستنكر؛ لأن ما تقدم عليه لندن أو باريس أو واشنطن أو موسكو، عند أولئك الفرقاء لا يأتيه الباطل. أما ما تقدم عليه بلادنا، أو ما تدعو إليه جهات مخلصة فيها، فهو الرجعية والتأخر والتخلف!!.

إن من الدلالات الأولىٰ لهٰذا الخبر، أن الاختلاط الذي دعا إليه الغرب لم ينجح، ويشهد علىٰ هٰذا عشرات الآلاف من جرائم الاغتصاب ومئات آلاف الخيانات الزوجية في الغرب.. وهٰذه الخطوة التي أقدمت عليها لندن رجوع واضح عن الاختلاط في وسائل النقل العامة طوال ست ساعات من ساعات اليوم.. وهٰذه بداية والبقية تأتي[1].

(١) «رسالة إلىٰ حواء» ص٣٢٥ - ٣٢٦.

وقد جاء تقرير لإحدىٰ المربيات قالت فيه: إنني أجد حرجًا شديدًا في توضيح الكثير من الأمور لطلاب وطالبات في صفوف مختلطة، فكثيرًا ما ألجأ إلىٰ الفصل بينهما، حتىٰ يتسنىٰ لي التخلص من الإشكال.

وقد أكدت الدراسة البريطانية التي أجراها معهد البحوث الٱجتماعية والتربوية بلندن ونشرت نتائجها مؤخرًا: أن الفصل بين الجنسين يحقق نتائج تعليمية وتربوية وسلوكية أفضل في مختلف المراحل التعليمية، بالإضافة إلىٰ ٱرتفاع مستويات الطلاب والارتقاء بقدراتهم في فنون الإلقاء والخطابة والاندماج مع أصدقائهم، وذلك بعكس ما يحدث في المدارس المختلطة.

وهٰذه الدراسة لم تأت بجديد بالنسبة لنا- كما يقول الدكتور طه أبو كريشة نائب رئيس جامعة الأزهر لشئون الطلاب- لٰكن الجديد الذي جاءت به هو أن تكون هٰذه هي رؤية المجتمعات الغربية الآن للاختلاط الذي روجوه في بلادنا وأقنعونا به وبنتائجه الإيجابية علىٰ الذكور والإناث، وهٰذه خديعة كبرىٰ ووسيلة من وسائل الغزو الفكري التي يتسللون من خلالها إلىٰ كياننا الٱجتماعي والتعليمي والتربوي.

فهٰذه الوقائع التي سردناها عن واقع الأمم الغربية وتجربتهم للاختلاط ما هو إلا غيض من فيض، ونقطة من بحر للانحرافات الجنسية، والخلقية التي آلت إليها المجتمعات العالمية قاطبة كنتيجة أليمة للعنة التبرج والسفور والاختلاط في عصور الٱنتكاس والضلال.. علمًا بأن الٱختلاط عند الغربيين والشرقيين يبدأ من الروضة إلا الٱبتدائي إلىٰ الإعدادي إلىٰ الثانوي إلىٰ الجامعي.. بل الٱختلاط- كما نوهنا- شائع وموجود ومطبق في سائر حياتهم الٱجتماعية علىٰ الإطلاق.

فهل يصدق عاقل ذو بصيرة - بعد الذي أوضحناه- أن الٱختلاط بين الجنسين- كما يدعي دعاة الٱختلاط اليوم- يحد من ثورة الغريزة، ويخفف من هياج الشهوة، ويجعل ٱجتماع الرجال بالنساء أمرًا مألوفًا وعاديًا؟

ومن طرائف ما ذكره الشيخ زاهد الكوثري في مقالاته: (أن سفير الدولة العثمانية في بلاد الإنجليز ٱجتمع مرة مع كبراء الدول البريطانية، فقال له أحد الكبراء الموجودين: لماذا تصرون أن تبقىٰ المرأة المسلمة في الشرق متخلفة، معزولة عن الرجال، محجوبة عن النور؟!! فقال له السفير العثماني: لأن نساءنا في الشرق لا يرغبن أن يلدن من غير أزواجهن، فخجل الرجل ولم يُحْرِ جوابًا!!).

فبأي حديث بعد هٰذا يؤمنون؟.

فالذين يبيحون الٱختلاط، ويبررونه بتعويدات ٱجتماعية، ومعالجات نفسية وحجج شرعية، فإنهم في الواقع يفترون علىٰ الشرع، ويتجاهلون الفطرة الغريزية، ويتجاهلون الواقع المرير الذي آلت إليه المجتمعات الإنسانية قاطبة..

أما أنهم يفترون علىٰ الشرع- في دعواهم إلىٰ الٱختلاط- فللنصوص الكثيرة التي سبق ذكرها قبل قليل.

أما أنهم يتجاهلون الفطرة الغريزية.

فلأن الله سبحانه لما خلق الرجل والمرأة ركب في كل منهما الميل الجنسي إلىٰ الآخر.

﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠].

فهل يريد دعاة الٱختلاط والسفور أن يغيروا نواميس الكون، وأن يبدلوا فطرة الإنسان، وأن يحولوا سنن الحياة، ولا سيما إذا كان كل من الرجل والمرأة- في حال ٱختلاطهما- جائعين جنسيًا ومائعين خلقيًا فإن الفتنة- لا شك- أشد والانجذاب إلىٰ الفاحشة أبلغ وأقوىٰ!!.

ولو كان الٱختلاط منذ الصغر، وفي جميع مراحل العمر يجعل النظر إلىٰ المرأة أمرًا مألوفًا عاديًا لا يحرك في نفس الرجل والمرأة غريزة ولا شهوة.. لانقلبت المودة بين الزوجين إلىٰ عداوة، والرحمة بينهما إلىٰ ظلم،

والاتصال الجنسي إلىٰ برود.. ولما رضي أحدهما البقاء مع الآخر في ظلال الزوجية، وهٰذا خلاف المشاهد والواقع!!.

أما أنهم يتجاهلون الواقع المرير الذي آلت إليه المجتمعات الإنسانية في تجربتها للاختلاط فليسألوا مجتمعات الدول الغربية والشرقية عما وصلت إليه المرأة من تحلل وفساد، وإباحية وفجور.. علمًا بأن الاٌختلاط أمر شائع في كل الطبقات، وعلىٰ مختلف المستويات، في الشارع، في المدرسة، في المتجر، في الدائرة، في الجامعة، في المنتزهات.. في كل مكان..

الموازنة

من خلال هٰذه الدراسة يتبين لنا أن المرأة المسلمة لقيت من التشريع الإسلامي عناية فائقة كفيلة بأن تصون عفتها وتجعلها عزيزة الجانب سامية المكانة.

والقيود التي فرضت عليها في ملبسها وزينتها وفي تعاملها مع رجل أجنبي عنها لم تكن إلا لسد ذريعة الفساد الذي ينتج عن التبرج بالزينة، فما صنعه الإسلام ليس تقييدًا لحرية المرأة؛ بل وقاية لها من السقوط من درك المهانة ووحل الاٌبتذال.

أما المرأة في حضارة الغرب خرجت؛ لتختلط بالرجال دون حدود أو قيود، خرجت لتظهر بأبهىٰ زينة وأجذبها للجنس الآخر، وتجاوز ذلك التبرج الحدود كلها واحدًا بعد واحد ليصل إلىٰ العري المشين والسقوط في الهاوية. وهكذا تحررت من كل معنىٰ للفضيلة أو العفة أو الحياء وغدت سلعة معروضة في الشوارع والطرقات والمصانع لمن يدفع الثمن، بل قد تدفع هي الثمن فلم يعد الرجل بحاجة لأن يتزوج أو ينشئ أسرة، ويتحمل تكاليفها ومسئوليتها، فالدافع الجنسي الذي يقهره علىٰ تحمل ذلك يمكن إشباعه بأسهل الطرق وأيسرها فلمَ كل هٰذا العناء!؟

وضاعت المرأة وأضاعت الرجل وتحطمت في المجتمع الغربي كل القيم الدينية والخلقية، فالمرأة هناك لا تجد من والدين رعاية أو من زوج حماية أو من أولاد عناية. وبذلك خسرت المرأة الغربية -فيما ظنته مكسبًا- كل شيء، خسرت معنىٰ الحياة، ومعنىٰ أن تعيش الحياة فأي الفريقين خير مقامًا المرأة في شريعة الإسلام أم في حضارة الغرب؟!

يقول د/ البوطي[1]:

---

(١) «يغالطونك إذ يقولون» ص٢٢٧-٢٦٤ باختصار.

مصدر حقوق المرأة في المجتمعات الغربية أنوثتها!

أجل.. هٰذه الأنوثة هي التي تجعل المجتمع الغربي يدللها وتجعل المجتمع الغربي يكرمها، وتجعل الأضواء الساطعة في الليل تطوف حولها بالتقدير والترحاب، هٰذه الأنوثة هي التي تجعل الرجل ينحني أمام المرأة؛ ليقبل يدها، وبالجملة فهٰذه الأنوثة هي مصدر مال يسمىٰ بحقوق المرأة في الغرب.

وإني لأرجو أن تتأملوا فتتساءلوا: أهو في الحقيقة رعاية حقوق المرأة أم لحقوق الرجل؟! ستجدون بعد التأمل أنه ليس إلا رعاية لحقوق الرجل!. فأنا عندما أكرم المرأة لأنوثتها، إنما أمتع نفسي من خلال تكريمي لها، ذلك لأن الأنانية هي التي تسوقني إلىٰ أن أطوف حول أنوثة لأنثىٰ بالتقرب والتبجيل وهٰذا شيء واضح للعيان، ولٰكن إذا أردتم أن تعلموا البرهان العملي والمحسوس علىٰ ذلك، فلاحظوا ما يلي:

علاقة الرجل بالمرأة في الغرب تكون عن طريق الصداقة أو الزواج وقد غدت الصداقة في السنوات الأخيرة هي الطريقة الغالبة، وقد ٱطلعت علىٰ مقال نشرته مجلة «Newsweek» في عددها الصادر يوم ٢٠ كانون الثاني عام ١٩٩٧ بعنوان: موت الزواج، وعنوانه الفرعي: معظم النساء الأوربيات يحصلن علىٰ الأطفال بعيدًا عن الزواج دون أن يبدو أي ٱكتراث من أي منهن بذلك!!.

أقول: وحتىٰ عندما يقبل الرجل إلىٰ الزواج لا يقبل إليه إلا بعد أن يقضي معظم وطره من النساء، ويكون قصده من الزواج علىٰ الأغلب ٱستقرارًا بعد نشاط أو راحة بعد تعب أو نحو ذلك، وهو الأمر الذي يجعل الفتاة التي لم تنل حظها من الرجال تبتعد عن الزواج؛ إذ هي تعلم أنها لن تجد في أولئك الأزواج بغيتها.

وأيًا كانت الفتاة أو المرأة التي يسكن إليها الرجل الغربي، صديقة أو

زوجة، يقبل إليها ما دامت في مقتبل العمر وريعان الشباب، فإذا دبت إليها الكهولة وغاض عنها رونق الشباب، يملها الزوج أو الصديق ويتبرم بها، ثم يعرض عنها إن لم يتمكن من أن يطلقها رسميًا، أي: فيطلقها بالهجر دون إعلان ولا إعلام، والأمر في الإعراض في غاية اليسر إن كان الموثق الذي بينهما موثق صداقة .

ذلك لأن رأس مالها الذي كان يخولها حياة مشتركة مع رجلها الصديق أو الزوج إنما هو أنوثتها، فلما خسرت رأس مالها هٰذا أصبح عليها أن تعلم أنها وقد أفلست، لم تعد تملك أي شركة معه. لا سيما وإن العروض المغرية من حوله رخيصة وكثيرة.

وتجرب حظها المسكينة بأن تقاوم بدافع من الغيرة أو الكرامة.. تجادل دون جدوىٰ.. تغلظ له في الكلام.. ربما تهدده بكلمات فارغة من ضعفها.. فما الذي يفاجئها من الرجل الذي كان يقدسها.. يسبح بحمد حقوقها ينحني لها في الحفلات والمناسبات؟

يفاجئها منه الضرب واللكم والإيذاء الجسدي بكل أنواعه!.. ولقد تكاثر هٰذا الوضع حتىٰ عم المجتمع الغربي كله، وظهر من جراء ذلك المجتمع المأساوي المتمثل في النساء اللائي بلغن أواخر عهد الكهولة!

وينتهي مصير أكثرهنّ عادة إلىٰ الملاجئ الكثيرة الخاصة بهن، هربًا من الأذىٰ الذي يلاحقهن من أولئك الذين كانوا إلىٰ الأمس القريب يتغزلون بهن ويدافعون عن حقوقهن.. وتتكاثر اليوم هٰذه الملاجئ الفريدة من نوعها في الغرب عامة وفي أمريكا بصورة خاصة، وهي خاصة للنساء اللائي يهربن من ضرب الأصدقاء أو الأزواج السابقين، وتقام عادة وراء ديكورات ٱصطناعية أو حواجز وهمية مضللة كي لا يجد الزوجُ الوحش أو الصديق الضاري سبيله إليها في ملجئها الذي لاذت منه به. وبوسع الذين يزورون أمريكا أن يجدوا الكثير والكثير من هٰذه الملاجئ.

إذن مصدر حقوق المرأة في الغرب أنوثتها لا إنسانيتها!.

ونظرًا إلىٰ أن أنوثة المرأة تغيب إذا ٱنطوىٰ شبابها، فلابدَّ أن تغيب معها حقوقها.. تغيب في الواقع العملي كما قد أوضحت، وإن كانت مسطورة علىٰ الورق محبوسة في الأدراج!

والمقالات التي تكتب اليوم في الغرب عن هٰذا الوضع المأساوي الذي يمزق كرامة المرأة ويهدد حياتها، مقالاتٌ كثيرةٌ لا تحصىٰ. وأضع أمامكم علىٰ سبيل المثال واحدًا منها. مقالٌ كتبه ريتشارد جونز الأستاذ في معهد القبالة وأمراض النساء في أمريكا.. كتب مقالًا في المجلة العائدة لهٰذا المعهد والذي تصدر باسمه في عدد يناير عام **١٩٩٢** بعنوان: العدوان المنزلي، فلندع أصواتنا تسمع.

يقول كاتب المقال: هناك وباء يجتاح بلادنا، إنه لشنيع، وإنه غير قابل للتجاوز عنه، أو للتساهل في أمره إنه يجب أن يوقف. إنه في كل ٱثنتي عشرة ثانية في الولايات المتحدة الأمريكية ٱمرأة تضرب إلىٰ درجة القتل أو التحطيم من قبل زوج أو صديق!.. وفي كل يوم نرىٰ آثار هٰذا الضرب والتحطيم، نرىٰ آثار ذلك في مكاتبنا في غرف الطوارئ لدينا، وفي عياداتنا.. إلىٰ آخر الغرائب المثيرة التي يفيض بها هٰذا المقال، وهو واحد من مقالات وشكاوىٰ كثيرة لا تحصىٰ!.

هل للغرب أن يتكلم بعد هٰذا عن مصير حقوق المرأة وأن ينصب من نفسه قاضيًا يقاضي الشريعة الإسلامية في ذلك؟!

أنا لن أتحدث عن المرأة والغرب في الماضي البعيد أو القريب، لن أتحدث عما قبل ستين عامًا، يوم كان القانون الفرنسي ينص علىٰ أن المرأة لا تملك أن تتاجر بمال أو ترفع دعوىٰ أو تقاضي أحدًا إلا بتوكيل زوجها أو والدها بذلك، ولن أذكِّر باليوم الذي ألغي فيه هٰذا القانون الفرنسي، وكيف ٱزدهىٰ الفرنسيون ورأوا أنهم قد خطوا خطوة عظيمة لم تخطها الإنسانية من

قبل.. لن أتحدث عن هٰذا الماضي البعيد أو القريب.

ولكني سأتحدث عما يجري اليوم في عمق العالم الغربي..

عندنا في الشريعة الإسلامية، إذا عملت المرأة ٱستحقت ما يستحقه الرجل من الأجر. أي أن أنوثة المرأة لا تتدخل في الحط من أجرها بأي حال. ٱقرؤوا باب الجعالة، باب الإجارة في موسوعات الفقه الإسلامي تجدوا القانون القائل: الأجرة تقابل نوع العمل ومدىٰ إتقانه، ولا تقابل شخص العامل أو نوعه، أي أن هوية العامل رجلًا أو ٱمرأة ساقطة عن الٱعتبار.

أما الغرب -الذي يقاضي الإسلام لإهماله حقوق المرأة- فأكثر بلدانه ودوله لا يزال إلىٰ اليوم يحّط من أجر المرأة؛ لأنها ٱمرأة، ومهما تساوي العمل والجهد بينهما فالقانون يقضي بأن تكون المرأة أقل أجرًا من الرجل!.. وكم قامت المرأة هناك ولم تقعد، وكم شكت واحتجت وسارت مظاهرات نسائية، ومع ذلك فلا يزال جلّ المجتمع الغربي يُصمّ أذنيه عن الإصغاء إلىٰ هٰذا الحق!.

وإليكم طائفةٌ من الٱحتجاجات والكتابات التي تقدم بها كتاب ومفكرون غربيون من نساء ورجال:

يقول الدكتور شارل فيتس أستاذ ومدير المعهد الأمريكي للدراسات الإسلامية، في محاضرة ألقاها في الملتقىٰ الحادي عشر للفكر الإسلامي الذي عقد في الجزائر تحت عنوان: (الدور المفيد للمرأة في المجتمع الغربي اليوم) يقول: «كثير من الرجال وافقوا علىٰ قدرة المرأة في القيام بوظيفة الرجل، إلا أنهم رفضوا في الغرب قبول تقاضيها نفس راتب الرجل لنفس العمل، هٰذا الٱعتقاد بالمساواة في القدرة، وعدم المساواة في التعويض مازال سائدًا في معظم الأقطار الغربية بما فيها الولايات المتحدة. وقد نجم عن ذلك كثير من الحقد».

وتقول الكاتبة الفرنسية (فرانس كيري) في المؤتمر ذاته:

«إن المرأة الغربية تفقد حق المساواة المهنية وتفقد حق الكرامة الزوجية أو المنزلية..» ثم تمضي قائلة: «إنه مع تساوي المؤهلات، فإنَّ المرأة لا تجد نفسها إلا في وضعية جائرة، تتمثل في أعمال أكثر رتابة وسلطات أقل، وأجر أدنىٰ» ثم تمضي الكاتبة فتتحدث عن مأساة المرأة الغربية في فقدها لحق الكرامة الزوجية والمنزلية والحقوقية العامة فتقول: «لماذا يفشل الكثير من الأزواج والزوجات، ويكفون سريعًا عن التحابب؟ ذلك لأن علاقاتهم تقتصر علىٰ علاقة ما بين المسيطر والمسيطر عليه، فالرجل يأمر، والمرأة تطيع، لٰكن ما من شيء هو أكثر تقويضًا للحياة من سلطة مجمّدة. إننا غالبًا ما نشاهد هٰذا المخلوق الحر، المرأة يتحول إلىٰ عبد، وهٰذه الوظيفة تتحول إلىٰ عبودية، وهٰذه التلقائية تتحول إلىٰ يأس وقنوط» ثم تمضي قائلة: «إننا نتطلع إلىٰ وجه آخر من وجوه الحضارة أحنىٰ علىٰ المرأة وأكثر رعاية لحقوقها؛ ذلك؛ لأن المكتسبات الشخصية المحددة لم يغمرها بأي نعيم، إنها ستظل مضطهدة ما لم نعد النظر في طريقة حياتنا وفي ثقافتنا عاجلًا لا آجلًا».

هٰذا الواقع أيها السادة واقع بسيط جدًا من مظاهر بؤس المرأة في المجتمع الغربي. وهٰذا باختصار ما يجري هناك: تتجاوز المرأة مرحلة الشباب والكهولة، فيتخلىٰ عنها الرجل الصديق أو الرجل الزوج، ويئول الأمر بها إلىٰ أن تعيش منفردة في بيتها الصغير في أحسن الأحوال، وقد تخلىٰ عنها من كانوا يبجلونها بالأمس، ويقبلون يدها وينحنون لها، وتمضي بقية حياتها وهي تجتر ذكريات أيامها السعيدة التي غابت ولم تعد!.

أمَّا في حالات كثيرة أخرىٰ فمآلها إلىٰ أن تمضي بقية حياتها في إحدىٰ الملاجئ المعدّة خصيصًا لهٰؤلاء البائسات.

ماذا أقول لكم عن الغرب الذي يفيض اليوم بمجتمع المطلقات.. مجتمع العوانس.. المجتمع المأساوي الذي لا يشعر به سمّار الليالي الحمراء واللاهثون في زحمة المنافسة علىٰ مزيد من الرفاهية والمال.. ومع ذلك ففي

المجتمع الغربي من لا يبالي أن يتربع - متلبسًا بهٰذا كله- علىٰ أريكة القضاء؛ ليحاكم الشريعة الإسلامية بتهمة إهدارها حقوق المرأة وعدم إنصافها لها!..

أليس هٰذا من أغرب غرائب القرن العشرين؟!

هٰذه الأوضاع والكلمات التي نقلتها لكم قليل من كثير.. وكلها دخان لنار هٰذا الظلم الذي تصطلي به المرأة في الغرب، وكم أودّ من السذّج الذين يسبِّحون بحمد الغرب في بلادنا، ويرددون معهم فن الاحتجاج علىٰ مصير حقوق المرأة في الإسلام، إذا زاروا أي صقع أوروبي أو أمريكي، أن يتجاوزوا ويخترقوا المظاهر الخداعة اللماعة علىٰ سطح تلك المجتمعات، وأن يراقبوا عن كثب حال المجتمع المأساوي المتمثل في دنيا العوانس والمطلقات والمتقاعدات عن عرش التكريم الذي كن يتبوأنه (أيام زمان).

تعيش الواحدة منهنَّ كما قلت منفردة في بيتها الصغير، ليس معها فيه سوىٰ كلبها الوفي الذي تأنس به، وقد أثبتت خلف الباب أكثر من رتاج واحد، كي تطمئن إلىٰ أن أحدًا لن يسطو علىٰ بقايا مدّخراتها!

تخرج صباح كل يوم مصطحبة كلبها إلىٰ السوق؛ لتشتري ما تحتاج إليه من قوت وطعام، فإذا عادت استراحت في طريقها مع كلبها في بعض الحدائق، ثم تواصل سيرها عائدة إلىٰ مثابتها في تلك الدار. وحيدة إلا من ذكرياتها التي تطوف بذهنها يوم كانت أنوثتها مقبلة وكان الرجال يصفقون لها ويهتمون بحقوقها، ويفرشون ورود الحب القانية تحت قديمها.

فإذا ألمّ بها مرض ما فإن كانت لها بقية مال لحسن الحظ، اتجهت إلىٰ أحد المشافي؛ لتمرّض فيه، ونظرًا إلىٰ أنها لن تجد هناك أبًا أو أخًا أو زوجًا أو ولدًا يحنو عليها، فلابّد من أن تستأجر من يكون إلىٰ جانبها للخدمات التي لا مندوحة عنها.. أما إن كان المال قد نضب من بين يديها، فلابد أن يضطرها الحال إلىٰ إحدىٰ دور العجزة؛ لتحنو عليها وتنهض بما ينبغي من شأنها.

وهل أتيح لكم أن تدخلوا إحدىٰ هٰذه الدور؟.. حاولوا ذلك إن بدافع

من حب الاطلاع، وإن بدافع الوقوف علىٰ المأساة الإنسانية الهائلة التي تختفي وراء خطوط الدعاوى والإعلانات اللماعة الكاذبة!.

إذا أتيح لك أن تدخل إلىٰ إحدىٰ هٰذه الدور، فستجد مظاهر الراحة وأسباب المتعة متوفرة بأنواعها، ولا شكَّ أن لسان حال النساء اللائي تفيض بهن الدار تنطق بالشكر لأولئك الذين وفروا لهنَّ ذلك كله.. ولٰكن نظرة واحدة إلىٰ وجوههن تطالعك بالمشاعر التي تجول في خواطر كل منهن!.. إنها تعلم أنها تقيم من هٰذه الدار الجميلة الفخمة في صالة ٱنتظار.. قد تكون في جمالها وأسباب الراحة التي فيها من الدرجة الأولىٰ، ولكنها علىٰ كل حال صالة ٱنتظار، كالتي يحشر فيها المسافرون في ٱنتظار طائراتهم.. فهي تقيم فيها معزولة عن صخب المجتمع وأيامها الخوالي معه، في ٱنتظار الرحيل.. الرحيل إلىٰ النهاية فيما قد تتخيله، وإلىٰ العالم الثاني فيما نعلم ونستيقن.

فتصور حجم الكآبة التي تهيمن علىٰ مشاعر هٰؤلاء النسوة، وقد حوصرت بين شفق محرق من ذكريات الماضي وخيال مخيف من ظلمات المستقبل الآتي!! .

هٰذا هو واقع التعامل مع المرأة في الغرب، وهكذا تتم رعاية حقوقها!!.

أما ما يقابل ذلك من حال المرأة في ظل المجتمع الإسلامي الذي يتهم من قبل الغرب بهدر حقوق المرأة، فإنَّ المرأةَ في ظل الإسلام كلما ٱمتدّ بها الأجل وتقدم بها السن في ظل هٰذا المجتمع، تكون الأسرة والمجتمع أكثر تقديرًا واحترامًا، بل تقديسًا لها. ادخل إلىٰ بيت أي أسرة يهيمن عليها النظام الإسلامي إن كليًا أو جزئيًا، تجد أن المرأة كلما تقدم بها السن، كان الذين من حولها أكثر تقديرًا لها، هي الآمرة والناهية في الدار.. فلا يقطع دونها بأمر، وكل من في الدار من شباب وبنات وفتيات كبار وصغار، خدم وحشم لها.

أجل هٰذا هو حال المرأة في المجتمع الإسلامي. فلماذا؟

لأنَّ مصدر حقوق المرأة في الإسلام إنسانيتها، لا أنوثتها، ونظرًا إلىٰ أن إنسانية الإنسان تصحبه إلىٰ الموت، بل تزداد مع الزمن صفاء ونضجًا، فإن الحقوق المنبثقة عنها لابدَّ أن تستمر، بل أن تزداد أهمية، كلَّما تقدمت بالمرأة السن.

ألم يكن أولىٰ بالغرب أن يحال هو إلىٰ قفص الاٰتهام، وأن يكون هو المجرَّم في هٰذه القضية الواضحة التي لا تحتاج إلىٰ بينة ولا إلىٰ شهود؟!

كان هٰذا واحدًا من آثار ما قد قلت لكم من أن أنوثة المرأة هي مصدر حقوقها في المجتمعات الغربية، وهنالك آثارٌ مأساوية خطيرة أخرىٰ.

ولقد قلت لكم: عندما يكرم الرجلُ المرأةَ لأنوثتها فهو في الصورة يكرمها هي، ولكنه في الواقع والحقيقة إنما يكرم نفسه.

ومما يكشف عن ذلك ويحيل مظهر التقدير إلىٰ أخطر أنواع الإجرام أن المجتمع الغربي كثيرًا ما يقتنص المرأة ٱقتناصًا بوسائل شتىٰ، ويجعلها سلعة لتجارة الجنس في سوق النخاسة!!.. وما من ٱمرأةٍ غربيةٍ في أي صقع من أصقاع المجتمعات الغربية إلا وهي معرضة للوقوع في شباك واحدة من شباك النخاسة الكثيرة هناك، وهي تعني: التجارة بالرقيق!.. واستمعوا معي إلىٰ هٰذا التقرير الذي يوضح لنا مدىٰ ما ٱنحدر إليه المجتمع الغربي من ٱستهانة بالمرأة وإجرام في حقها، نتيجة للواقع الذي ذكرته وأكدته، من أن مصدر حقوق المرأة في الغرب إنما هو أنوثتها.

في عام **١٩٩٢** كانت ثمة شبكة نخاسة واحدة تنشط ما بين هولندا وبلجيكا وألمانيا، نجحت في ٱصطياد ثلاثة آلاف ٱمرأة جمعتهن من أمريكا اللاتينية وآسيا!.. وجُرِّدن من جوازاتهن وهوياتهن، وزج بهن رقيقات في سوق النخاسة.

تؤكد تقريراتٌ لمؤتمر المنظمات النسائية الذي عقد عام **١٩٩١** أن هناك

ما لا يقل عن ثلاثين مليون ٱمرأة تم ٱقتناصهن وبيعهن، وفرض عليهن الرق لتجارة الجنس في شبكة تمتد إلىٰ سائر أنحاء العالم.

وكيف يتم ذلك؟ .. تستدرج المرأةُ عن طريق الإغراء بعقود أعمال متنوعة سخية الأجور، حتىٰ إذا صدّقت وتم خداعها واستدراجها، سرعان ما تقع في الشباك الذي ينتظرها، وعندئذٍ يحاط بها من كلِّ جانب، وتستلب منها مقومات شخصيتها وهويتها وجوازها، ويلتصق بها ٱسم آخر، وتنقطع صلتها عن وطنها وأرضها ومجتمعها وبلدتها التي هي مسقط رأسها. ومن ثم لا تملك إلا أن تنقاد لهٰؤلاء الذين ٱصطادوها رقيقة للتجارة في سوق النخاسة الجنسية!.

هٰذه الأعداد الهائلة تتزايد الآن، وهٰذا الإحصاء إنما كان في أواخر عام ١٩٩١، أمَّا اليوم فالأعداد مضاعفة، وأولياء الأمور في المجتمعات الغربية يرون وينظرون ويشاهدون.. وليس هنالك من يعالج هٰذا الواقع بأي طريقة فعالة أبدًا. ومن أصغىٰ السمع بلغَتْه زفراتُ النساء من خلال صيحاتهن.. من خلال بكائهن واستنجادهن، في المقالات والكتابات!.

أين هي حقوق المرأة في المجتمعات الغربية، وهٰذه هي الحال؟!

العجيب جدًا أيها الناس أن الذين يوجهون إلىٰ الشريعة الإسلامية أصابع الٱتهام، ويصطنعون الغيرة علىٰ المرأة وحقوقها، هم إمَّا ممَّن يشتركون بطريقة ما في ممارسة هٰذه الفظائع، وإما ممن يشاهدونها ولا يقفون عندها بأي معالجة أو تحريك لإصبع ٱتهام!.

وإني لأرجو أن تتأكدوا أن ما قد ذكرته ليس نسيج خيال، وليس صادرًا من معين حقد يصطنع الأكاذيب، إنها أمورٌ واقعيةٌ جاريةٌ تستند إلىٰ وثائق ومعلومات ثابتة، لم نتقوَّلها علىٰ الغرب، وإنما قالها الغرب عن نفسه. ثم إن بوسع كل من يغشىٰ تلك البلاد أن يرىٰ بعينيه مصداق ما قد ذكرت .

يقول الأستاذ أنور الجندي[١]:

وهكذا نعرف ماذا أعطىٰ الإسلام للمرأة، وماذا أعطتها الحضارة، أعطاها الإسلام الكرامة والعفة والشخصية المستقلة، واليوم تحاول الحضارةُ الغربيةُ إخراجها من كل كرامة وفضل، إنه التقليد والرغبة في التبعية ودخول جحر الضب؛ لأنَّ أوروبا دخلته، وقد تبين اليوم للغرب فساد النظم الاجتماعية التي حاول بها أن يساوي بين الرجل والمرأة في كل مجال، وخطأ الفلسفات الوجودية التي تحرض الرجل والمرأة للانطلاق في ميدان الغرائز والشهوات دون قيود أو حدود، وما نراه من موجات انحلالية تشيع في المجتمعات الغربية من طوائف الهيبز والخنافس.

لقد كان أعظم ما حرص عليه الإسلام: تأكيد رجولة الرجل وأنوثة الأنثىٰ، وللاحتفاظ برجولة الرجل حرم عليه لبس الذهب والحرير، وللاحتفاظ بأنوثة الأنثىٰ حرم عليها أن تخوض المجتمعات العامة ولا تعرض جسدها علىٰ الأنظار، لقد حرص الإسلام علىٰ إبقاء المرأة علىٰ أنوثتها وعاطفتها، كما حرص علىٰ أن يبقىٰ الرجل علىٰ رجولته وإرادته، فلا تتحول المرأة إلىٰ رجل أو يتحول الرجل إلىٰ امرأة، كما حرص بمساواتها بالرجل في القيم الإنسانية المشتركة، وفيما يتصل بموقفها أمام القانون وفي الحقوق العامة فلا تحرم حقها إلا إذا ثبت أنه يلحق ضررًا بالمجتمع، غير أنَّ الإسلام فرَّق بين الرجل والمرأة في الأعباء الاقتصادية والميراث والقوامة علىٰ الأسرة والشهادة وحق الطلاق، وقد جاء خطاب التكليف موجهًا إلىٰ الرجل والمرأة معًا، وقد شاركت المرأةُ في الحياة الإسلامية وأخذت مكانها وأدت دورَها وعملت حيث حالت الظروف دون عمل للرجل.

وقد أحاطها الإسلامُ بالكرامةِ والعفافِ، سترًا في الملابس، وتحريمًا

---

(١) «التحديات في وجه المرأة المسلمة» ص٣٠-٣٢.

للخلوة بالأجنبي، وغضًا للطرف، وعكوفًا في المنزل حتىٰ في الصلاة، وبعدًا عن الإزراء بالقول والإشارة وكل مظاهر الزينة، وبخاصة عند الخروج، كلُّ ذلك يراد به أن تسلم المرأة من فتنة المجتمع ويسلم المجتمعُ من فتنةِ المرأة، ومن ذلك جعل النظرةَ سهمًا من سهام إبليس، واشترط لها شروطًا شديدةً في البعد عن مظاهر الزينة ومن ستر الجسم، ومن إحاطة الثياب بها، فلا تصف ولا تشف، وهكذا جعل الإسلامُ صيانة المرأة هي المحور الذي تدور حولها أكثر الأحكام: صيانة المرأة من جور العرف والمواضعات وتقلباتها في المستقبل، وحفظ مقامها الاجتماعي من الابتذال المحاط بالمجاملة والرياء علىٰ نحو ما نرىٰ في المجتمعات الغربية، فهناك احترامٌ ظاهرٌ ثم ابتذال غير رحيم.

أين هٰذا كله مما تريده اليهوديةُ التلمودية التي أخرجت المرأةَ لتحقق هدفها كله باعتبارها عقدة هٰذا الهدف في إقامة (إمبراطورية الربا) معارضة في ذلك مفاهيم الأديان أخرجتها إلىٰ الرقص والمسرح والسينما، ثم عملت إلىٰ إزالة الحاجز العازل والحد الفاصل بين الحرة والأمة، وبين سيدة البيت وبين الراقصة.

وأقامت نظام الأزياء والزينة وبدلت فيه وغيرت من أجل السيطرة علىٰ المرأة وإذلالها واستعبادها، وتعريتها وتغطيتها، تغطية الصدور وكشف النحور وتعرية السيقان وتغطية الظهور، وبذلك يتم سيطرتها علىٰ المرأة مما يؤدي إلىٰ هدم الأسرة وتحطيم العلاقة بين الرجل والمرأة، والقضاء علىٰ الأجيال الجديدة (من ناحيتين: من ناحية عجز المرأة عن تربية أبنائها ومن ناحية رفض التوجيه لها) وبذلك أدخلت سموم الفساد إلىٰ مختلف مفاهيم المرأة وإلىٰ عقليتها وإلىٰ فكرها وقلبها، وإثارة مشاعر العواطف والأهواء تحت اسم الحب والغرام في القصة والأغنية، وهٰذا هو الخطر الحقيقي الذي يواجه المجتمعات الإسلامية اليوم، بعد أن توالىٰ بث السموم والأفكار

الخاطئة سنوات وسنوات عن طريق الصحافة والإذاعة والسينما والمسرح، حتىٰ باتت محاولة إخراجها منها أمرًا عسيرًا، لقد ٱستهدف النفوذ الأجنبي خلق عقلية (زائفة) للمرأة تصورها بصورة القادرة علىٰ الحياة في المجتمع بغير سلطة الأب أو الأسرة أو الزوج من حيث هي قادرة ماديًا علىٰ أن تجد موردها الذي تعيش منه، ومن هنا فإن هٰذا القدر يعطيها الحق في أن تختار الطريق الذي ترضاه في الحياة الٱجتماعية، كذلك فإن ٱختيار موانع الحمل والإجهاض كفيلة بأن تفتح لها الطريق أمام كل الرغبات ومن ثم أصبحت الفتاة قبل الزواج أو بعده قادرة علىٰ ممارسة كل رغباتها في ظل مناعة طبيعية مقررة تعيد دم البكارة الأحمر إلىٰ مكانه، أو تحول دون وقوع الحمل، وفي هٰذا الإطلاق ما فيه من آثار ونتائج من شأنها أن تصرف الرجل عن الزواج أو تجعله يتردد في تكوين الأسرة.

وكل المحاولة تهدف إلىٰ تدمير كرامة المرأة وعفافها، وهي مؤامرة علىٰ حساب الأسرة والبيت والأجيال القادمة، لقد كانت النظريات التي قدمها ماركس وفرويد ودور كايم وليفي بريل من العوامل العامة في تشكيل هٰذه المفاهيم.

إن كثيرًا مما تنشره القصص والصحف هو من مؤامرات الصهيونية التلمودية، ويديره الجبابرة العتاة، وليس صحيحًا إلا ما تقبله الفطرة ويصدق مع العلم والدين وواقع الحياة، وكلُّ هٰذه المحاولة لإخراج المرأة من طوابعها وفطرتها ومهمتها هو من عمليات الهدم الشديد الخطر ويجب أن تعود المرأةُ إلىٰ مكانها الطبيعي وحجمها الحقيقي.

فإذا قيل لنا: أن المرأة في أمريكا قد أنفقت علىٰ صباغة الشعر ما يقرب من ٣٠٠ مليون دولار، يضاف إلىٰ ذلك ما ينفق لدىٰ عشرات الآلاف من مصففي الشعر وفي شراء مستحضرات الشعر الأخرىٰ، قلنا: إن المرأة في حاجة إلىٰ قارعة تكشف الحقائق أمام عينيها اللتين لا ترىٰ، ومن الخطأ أن

تنساق المرأة المسلمة والمجتمع المسلم مغمض العينين وراء هٰذا السفه، ونحن نقرأ الآن ما يكتبه المنصفون من كتاب الغرب حين يقولون: إن واقع المرأة الغربية واقع مقلق مرتاب؛ لأنه يتحرك بعنف ضد التيار وضد الفطرة وسلامة القصد، وهو إعصار مدمر قد فرض خطره علىٰ الأسرة الغربية وعلىٰ الأمومة والطفولة جميعًا، أليس في هٰذا نذير لنا عن التقليد وردع عن التبعية؟

عابت الكاتبة الأمريكية (مارجريت ماركوس) فهم دعاة تحرير المرأة في المجتمعات العربية والإسلامية الخاطئ لمعنىٰ التحرر، علىٰ أنه الإباحية المطلقة للنساء في الٱختلاط بالرجال في الوظائف والأعمال والأسواق دون قيد ولا شرط في ٱرتدائهن الأزياء غير المحتشمة وفي ٱنصرافهن عن مسئولياتهن في تربية الأولاد ورعاية الزوج اللتين هما أساس تكوين الأسرة السعيدة.

وقد سجلت كتابات عدد من النساء الأوربيات اللائي أسلمن: (إستان، رانيس، إني بيزانت، إيفلين كوبلاد).

وكتبن عن الإسلام ومكانة المرأة المسلمة حيث تتمتع في ظل الإسلام بكرامة شخصية وحقوق نسائية لم تتحقق للنساء في أوربا وأمريكا حتىٰ الآن.

ويقول الأستاذ أنور الجندي[1]:

لا ريب أن المرأة في الغرب قد وقعت تحت تأثير محظور شديد الخطر فهي مستغلة اقتصاديًا واجتماعيًا، وأصبحت تحس اليوم بأنها تجري ضد الفطرة وتتمنىٰ عودتها إلىٰ الأسرة والبيت، أما المرأة المسلمة فقد حماها الإسلام من الخطر، وحفظ لها شخصيتها وكيانها، وهيأ لها الظروف؛ لتكون عفيفة ظاهرة، وفي سبيل هٰذه الحماية، ومن أجل حماية عفتها، وسلامة نفسيتها أعطاها حقوقها الاقتصادية؛ حتىٰ لا تكون أداة في يد الرجل الفاسد،

(١) «معلمة الإسلام» ١/ ٢٧٣.

وبذلك حفظها من أن تكون تحت ضغط الحاجة التي يتطلع بعض الناس من ورائها إلىٰ السيطرة عليها واستغلالها، فاعتبر سلامة المرأة في سلامة نفسيتها وفي حماية عفتها لأن دمار نفسية المرأة من شأنه أن يهدم حياتها ويجعلها مادية إباحية مندفعة وراء مطامع الرجل وأهوائه.

ويقول د/ محمد محروس الأعظمي[1]:

جعل الإسلام المرأة «المخطوبة» والمخطوبة مطلوبة، والمطلوبة مرغوبة، والمرغوب يسعىٰ إليه الآخرون، ولا يسعىٰ هو إلىٰ أحد! فيأتي لطلب يدها من أهلها من أعيان الرجال: العلماء والأشراف، وذوي الوجاهة، وذوي المروءة، والمكانة.

لكن ما الذي فعلته بها المدنية الحديثة؟

جعلتها تسعىٰ هي إلىٰ الرجل فتعرض نفسها عرضًا، وتحاول أن تستهويه بإظهار المفاتن، وقد يعرض عنها فتصبح «مرفوضة» بعد أن كان الرفض بيدها وهي مخطوبة، والطلب من غيرها.

ومن كان هٰذا من شأنها ستجعل الرجل -ولو بعد الزواج- ينظر إليها نظرة استعلاء لما بذلته له من كرامتها، ونظرة ريبة لما بدأته من طلبها إياه لنفسها، فسيتصور أنها فعلت ذلك مع غيره، ولا يستبعد منها فعل ذلك في حين -ولو بعد زواجه منها- فالمعتاد يستسهل تكرار العادة.

---

(١) انظر «التسامح في الحضارة الإسلامية» أبحاث ووقائع المؤتمر العام السادس عشر للمجلس الأعلىٰ للشئون الإسلامية ص١٢٢٠ .

الباب الثالث

دعاة تحرير المرأة

الباب الثالث

دعاة تحرير المرأة

ويشتمل هٰذا الباب علىٰ فصلين:

الأول: التعريف بحركة تحرير المرأة ونشأتها.

الثاني: إلىٰ دعاة تحرير المرأة.

الفصل الأول

التعريف بحركة تحرير المرأة ونشأتها

حركة تحرير المرأة

التعريف:

حركة تحرير المرأة حركة علمانية، نشأت في مصر في بادئ الأمر، ثم ٱنتشرت في أرجاء البلاد العربية والإسلامية. تدعو إلىٰ تحرير المرأة من الآداب الإسلامية والأحكام الشرعية الخاصة بها مثل الحجاب، وتقييد الطلاق، ومنع تعدد الزوجات، والمساواة في الميراث، وتقليد المرأة الغربية في كلِّ أمرٍ.. ونشرت دعوتها من خلال الجمعيات والاتحادات النسائية في العالم الغربي .

الأفكار والمعتقدات:

نجمل أفكار ومعتقدات أنصار حركة تحرير المرأة فيما يلي:

- تحرير المرأة من كلِّ الآداب والشرائع الإسلامية وذلك عن طريق:
- الدعوة إلىٰ السفور والقضاء علىٰ الحجاب الإسلامي.
- الدعوة إلىٰ ٱختلاط الرجال مع النساء في كل المجالات في المدارس والجامعات والمؤسسات الحكومية، والأسواق.
- تقييد الطلاق، والاكتفاء بزوجة واحدة.
- المساواة في الميراث مع الرجال.
- الدعوة العلمانية الغربية أو اللادينية بحيث لا يتحكم الدينُ في مجال الحياة الٱجتماعية خاصة.
- المطالبة بالحقوق الٱجتماعية والسياسية.
- أوروبا والغرب عامة هم القدوة في كلِّ الأمور التي تتعلق بالحياة الٱجتماعية للمرأة: كالعمل، والحرية الجنسية، ومجالات الأنشطة الرياضية والثقافية.

تاريخ حركة تحرير المرأة

يعود تاريخ حركة تحرر المرأة في مصر منذ قدوم الحملة الفرنسية علىٰ مصر بعد أن ٱستولي الفرنسيون علىٰ مصر و ٱستقر لهم الأمر وأصبح الفرنسيون بعد ذلك يتصرفون في مصر تصرف المقيم، فبنوا في الأزبكية أبنية علىٰ هيئة مخصوصة؛ لإقامة مسرح ومنتزه، وهي أبنية كما يقول الجبرتي: **(يجتمع بها الرجال و النساء للهو و الخلاعة في أوقات مخصوصة، وجعلوا علىٰ كل من يدخل إليه قدرًا مخصوصًا يدفعه، أو يكون مأذونًا وبيده ورقة)**، وعلىٰ هٰذا يكون الفرنسيون أول من أسس في مصر مكانًا يجتمع فيه الرجال والنساء معًا وجعلوه مفتوحًا أمام جميع الطبقات.

ثم لم يكتفوا بذلك بل أقاموا داخل الأحياء السكنية، ومنها الأزبكية حيث أخذوا يتسلقون البيوت بحثًا عن النساء؛ لإرضاء شهواتهم، وقام بعض الضباط الفرنسيين بتشجيع يهودي علىٰ فتح مقهىٰ وجمع الناس للسهر فيها، فاستأنسوا بالإجتماعات والتسلي والخلاعات، وعم ذلك جهات تلك الخطة ووافق ذلك هوىٰ العامة، لأن أكثرهم مطبوع على المجون والخلاعة وتلك هي طبيعة الفرنساوية، فساروا يجتمعون عنده للسمر والحديث واللعب والممازحة، ويحضر معهم ذلك الضابط و معه زوجته وهي من أولاد البلد المخلوعين....

ولم يقف الأمر عند هٰذا الحد بل ٱدعي جاك مينو الإسلام عندما كان حاكمًا علىٰ رشيد وتزوج ٱمرأة مسلمة وعاملها معاملة النساء الفرنسيات فحرضت نساء رشيد أن يحررن عرضًا لنابليون يطلبن فيه أن يأمر أزواجهن ويحملهم علىٰ معاملتهن بنفس الطريقة التي يعامل بها(مينو)زوجته الرشيدية.

وهكذا بدأت التقاليد الفرنسية تغزو المرأة المصرية عن طريق الزواج حينًا، وعن طريق النساء الفرنسيات اللواتي جئن إلىٰ مصر بصحبة أزواجهن، وهن حاسرات الوجوه لابسات الفستانات والمناديل الحرير الملونة، ويركبن

الخيول والحمير ويسوقونها مع الضحك والقهقهة، ومداعبة المكارية معهم وحرافيش العامة، فمالت إليهم نفوس أهل الأهواء من النساء الأسافل و الفواحش، فتداخلن معهم لخضوعهم للنساء ودفع الأموال لهن، وكان ذلك التداخل أولًا مع بعض ٱحتشام وخشية عار ومبالغة في إخفائه، فلما وقعت الفتنة الأخيرة بمصر(**يقصد ثورة القاهرة الأولي**) وحاربت الفرنسيس بولاق وفتكوا في أهلها وغنموا أموالها، وأخذوا ما ٱستحسنوه من النساء، والبنات صرن مأسورات عندهم فزيوهن بزي نسائهم، وأجروهن علىٰ طريقتهن في كامل الأحوال، فخلع أكثرهن نقاب الحياء بالكلية وتداخل مع أولئك المأسورات غيرهن من النساء الفواجر، ولما حلّ بأهل البلد من الذلّ والهوان وسلب الأموال؛ واجتماع الأموال في حوز الفرنسيين ومن والاهم وشدة رغبتهم في النساء وخضوعهن لهم وموافقة مرادهن وعدم مخالفة هواهن ولو شتمته أو ضربته بتا سومتها[1]، فطرحن الحشمة والوقار والمبالاه وعدم الٱعتبار، واستملن نظرائهن واختلسن عقولهن لميل النفوس إلى الشهوات وخصوصًا عقول القاصرات، وخطب الكثير منهم بنات الأعيان وتزوجهن رغبة في سلطانهم ونوالهم، فيظهر حالة العقد الإسلام...وصار مع حكام الٱخطاط منهم النساء المسلمات متزييات بزيهم، ومشوا معهم في الٱخطاط للنظر في أمور الرعية والأحكام العادية والأمر والنهي والمناداة، وتمشي المرأة بنفسها أو معها بعض أترابها أو أضيافها علىٰ مثل شكلها، وأمامها القواسة والخدم و بأيديهم العصي يفرجون لهن الناس مثلما يمر الحاكم ويأمرن وينهين في الأحكام).

والواقع أن هٰذا النص الذي أورده الجبرتي يعتبر من أخطر النصوص، وقد تعمدنا نقل أكثره؛ لأنه يساعدنا في دراسة ظاهرة ٱختلاط بعض نساء

---

(١) الحذاء: وهي كلمة عامية.

القاهرة بالفرنسيين من جميع جوانبها، فالجبرتي يعترف أن النساء في مصر كن في البداية ملتزمات طريق الحشمة والتصون، وإن وقع شئ من الٱختلاط بين الفرنسيين وبعض النساء الساقطات، لٰكن هٰذا الأمر لم يصبح ظاهرة عامة، وإنما ٱزداد الأمر سوءًا عندما وقعت بعض من نساء بولاق أسيرات لدي الفرنسيين أثناء ثورة القاهرة، فقد أباح الفرنسيون لأنفسهم ما ٱستحسنوا من النساء الأسيرات، وفرضوا عليهن أن يعشن حسب نظام الحياة الذي عرفوه، فتأثرن بسلوكهم وطبائعهم وأثرن علىٰ غيرهن من النساء، فكأن هٰؤلاء الأسيرات كنّ واسطة لنقل التقاليد الفرنسية إلىٰ عدد كبير من النساء، ولم يقف الأمر عند حدّ تأثر الأسيرات و تأثيرهن بل ٱتسع نطاق التداخل بين أعيان المصريين و جنود الحملة، فتزوجوا من بناتهم وأصبحت النساء المسلمات يخرجن مع أزواجهن من الفرنسيين يشاركنهم في الأمور العامة، ولهٰذا نستطيع القول: أن التزاوج بين الفرنسيين وبنات الأعيان أصبح تحت قسوة الظروف الجديدة ظاهرة معروفة، وصار خروج بعض النساء المسلمات مع الفرنسيين أمرًا غير مستغرب، حدث ذلك كله في السنة الثانية من دخول الحملة إلىٰ مصر، ومعنىٰ هٰذا أن التفاعل بين المحتلين وبين بعض طبقات المجتمع أصبح يسير بخطىٰ حثيثة تدعو إلى الدهشة والعجب.

واتخذ الفرنسيون من الأعياد ذريعة لهم مرة أخري كي يشاركوا الناس ٱحتفالاتهم و يفرضوا من خلالها عاداتهم و تقاليدهم، فجروا فيها حسب أهوائهم وانطلقوا أثنائها مع متعهم وغرائزهم. فاحتفلوا في السنة الثانية بعيد وفاء النيل، يقول الجبرتي:(لما أوفىٰ النيل أذرعه و جرت فيه بعض السفن وقع عند ذلك من تبرج النساء واختلاطهن بالفرنسيس ومصاحبتهم لهن في المراكب و الرقص والغناء والشرب في النهار والليل، وعليهن الملابس الفاخرة والحلي والجواهر المرصعة، وصحبتهم آلات الطرب، وملاحو السفن يكثرون من الهزل والمجون؛ ويتجاوبون برفع الصوت في تحريك

المقاديف بسخيف موضوعاتهم، فيصرخون ويطلبون ويرقصون ويزمرون، ويتجاوبون بمحاكاة ألفاظ الفرنساوية في غنائهم وتقليد كلامهم شئ كثير. وأما الجواري السود فإنهن لما علمن رغبة القوم في مطلق الأنثىٰ ذهبن إليهم أفواجًا فرادىٰ و أزواجًا. فنططن الحيطان وتسلقن إليهم من الطيقان، ودلّوهم علىٰ مخبآت أسيادهن وخبايا أموالهم....).

وهكذا حاول الفرنسيون بشتى الحيل و بكل ما أوتوا من وسائل أن يوجدوا في مصر جوًا أشبه ما يكون بجو باريس. فلم يتركوا عادة من عاداتهم إلا وأظهروها في ٱحتفالاتهم التي كانوا يقيمونها بمناسبة أعيادهم وفي مواقعهم، وقصدوا بذلك إفساد أخلاق أهل البلاد وتشجيع العامة علىٰ إتيان المخازي ومشاركتهم في ٱرتكاب الآثام جهرًا، وازداد عدد المواخير في نواحي المدينة، وراقصت نساء الفرنسيين الرجال في الشوارع أثناء الٱحتفالات فدفعن بعض القاهريين إلى الغواية، لكن كثرة عدد الفرنسيين المصابين بأمراض معدية ٱضطرهم إلىٰ فرض رقابة صارمة لمنع ٱختلاط جنودهم بالنساء الساقطات وأصدروا أوامرهم بعزل هٰؤلاء النسوة فقبض(أغا الإنكشارية) علىٰ حوالي أربعمائة منهن. وضعهن في أكياس وقذف بهن في النيل. وكان أعضاء الديوان قد ٱحتجوا قبل ذلك لدىٰ جاك مينو، وطالبوه أن يصدر تعليمات يمنع بموجبها المومسات من الٱستمرار في العبث، فوافقهم علىٰ ذلك ليس حرصًا منه على ٱحترام الدين الذي يمنع مثل هٰذِه المعاصي، بل حفاظًا علىٰ صحة جنوده الذين توفي الكثير منهم.

علىٰ أن ما ذكرنا من مظاهر الفساد لا يعنىٰ أن القاهرة بأكملها قد تحولت إلىٰ حياة اللهو، إذ يبدوا أن حرص الجبرتي علىٰ سلامة المجتمع هو الذي دفعه إلىٰ ذكر هٰذِه المظاهر وإلى الدقة في وصفها، وإذا تمعنّا فيما ذكره الجبرتي وجدنا أن فئات معينة كان لها دور كبير في نشر المفاسد، وهٰذِه الفئات هي: النصارى الشوام، والإفرنج المقيمون، والأروام، والأقباط،

وسفلة الناس وأراذلهم الذين ٱندفعوا إلىٰ معاملة الفرنسيين حرصًا على الكسب السريع، وكان النصارىٰ أول من فتح الخمارات، وكان لكبار الأعيان دور كبير في ٱتساع رقعة الفساد، وذلك عندما قبل بعضهم أن يزوجوا بناتهم من الفرنسيين، ولكن وقوع الكثير من نساء بولاق أسيرات في أيدي الفرنسيين بعد ثورة القاهرة وزواجهن بهم وتخلقهن بأخلاقهم و ٱختلاطهن بغيرهن من النساء، دفع عجلة الفساد إلى الأمام، ولولا عودة الأتراك إلىٰ مصر بعد ثلاث سنوات من مجيء الحملة لحدث تحول خطير في الحياة الٱجتماعية، لأن الضعيف مغرم بتقلد القوي، وهكذا عرفت مصر القيم المادية التي سادت الحضارة الغربية، ونقل الفرنسيون معهم إلىٰ مصر في هٰذِه السنوات القليلة كثيرًا من مظاهر حياتهم وطرحت الحملة علىٰ مصر مفهومًا جديدًا للمرآة ومخالفًا لما عرفوه وبعيدًا كل البعد عن المضمون الإسلامي فظهرت المرأة سافرة، تجالس الرجال في المقاهي وتمشي معهم في الطرقات دون رادع من دين أو خوف من ضمير، وإذا كانت الحملة قد فشلت عسكريًا فإنها فقد نجحت في زرع بذور القيم الغربية، وقدمت الحضارة الغربية للشرق المسلم بوجه سافر، ومن تلك اللحظة بدأت عملية الموازنة بين القديم الموروث والجديد الطارئ بكل أشكاله ومغرياته، ودخل الشرق ممثلًا في مصر صراعًا حضاريًا ضاريًا لم يتوقف حتى الآن.

لٰكن إذا كان الٱحتلال الفرنسي لمصر قد أحدث خللًا في أخلاق بعض نساء الطبقتين السفلىٰ والعليا، فإن أخلاق أكثر نساء الطبقة الوسطىٰ ظلت كما كانت قبل الٱحتلال. ذلك ما لاحظه علماء الحملة وسجلوه، كما لاحظوا أن كثيرًا من الظواهر التي سادت المجتمع المصري خصوصًا ما يتعلق بالزواج وغيره كانت مرتبطة بالمبادئ الدينية وأنه ليس هناك شيء يسمي قوانين مدنية، وسنحاول أن نرسم صورة للمرآة المحافظة من خلال ما كتبه هٰؤلاء العلماء وبعض الفرنسيين الذين عملوا في مصر بعد رحيل الحملة حتىٰ

لا يتبادر إلى الأذهان أن المرأة المصرية قد أصبحت أثناء الحملة أقرب إلىٰ نساء فرنسا منها إلىٰ نساء الشرق، وحتىٰ يعيننا ذلك علىٰ فهم التغيرات التي ستطرأ علىٰ حياة المرأة المصرية فيما بعد، ومما لاحظوا وسجلوا أن المرأة كانت تتزوج في سن الثانية عشرة ومن النادر أن تبقىٰ وحيدة دون زواج حتىٰ سن السابعة عشرة، ولا يتم الزواج إلا بعد أن تعلن النسوة أن الزوجة الشابة قد بلغت مرحلة النضوج، وكانت المرأة تعطي موافقتها بنفسها أو من خلال وكيل لها، وتحتم الشريعة على الزوج أن يقدم مهرًا للعروس، وهٰذا المهر عماد أساسي للزواج وهو حق مطلق للمرأة، وهٰذا الزواج لا يحتاج إلىٰ تصديق ديني أو قانوني، إذ يتمثل فقط في الإرادة التي يعبر عنها الطرفان المتعاقدان بحضور شاهدين، ويحدث ألا يكون الزوج الشاب قد رأىٰ من قبل المرأة التي تزوجها، ولٰكن إذا ألح الرجل علىٰ رؤية تلك التي يعرضون عليه الزواج منها، فإن الشريعة تبيح أن تكشف الفتاة عن وجهها ويديها أمامه ويتم هٰذا الأمر بحضور أهلها، وعند تحديد وقت الزفاف تدعى النساء إلىٰ منزل والد الزوجة.

ويقام حفل بهيج لانتقال العروس من بيت أبيها إلىٰ بيت زوجها، وعندما تصل بيت الزوجية يحتفل بقدومها: عمل وجبة باذخة في مسكن النساء، بينما يتوجه العريس إلى المسجد في المساء يصحبه أقاربه و أصدقاؤه وتتلقىٰ الزوجة مهرها عند دخولها إلىٰ بيت الزوجية، ويكون هٰذا المبلغ ملكًا خاصًا بها تستطيع أن تتصرف فيه على النحو الذي يعجبها، ولا يمكن للزوج أن يحاسبها عليه مطلقًا، بل ليس لديه مجرد الحق في سؤالها عنه.

ويتكفل أهل الزوجة قبل ٱنتقالها إلىٰ بيت الزوجية، بتعليمها واجباتها وحقوق الزوجية، ويعلق علماء الحملة علىٰ هٰذا الوضع بقولهم: (ويحسن بنا أن نلاحظ بأننا سوف نكون قد أخطأنا علىٰ نحو كبير إذا ما ٱعتقدنا أن المسلمات-برغم خضوعهن إلىٰ نفوذ أزواجهن-يمكن أن يعاملن باستبداد

وطغيان من قبل أزواجهن، فإن وضعهن على العكس من ذلك طيب إلىٰ حد كبير، كما أنهن في نفس الوقت الذي تقضي فيه التقاليد والقوانين عليهن بنوع من الٱنسحاب و التقوقع الدائم يتوصلن لامتلاك نفوذ -لا شك فيه- علىٰ عقول أزواجهن، ورغم الولاية التي تعطيها الشريعة للرجال علىٰ زوجاتهم، فإن النساء سعيدات بقدرهن، ولا يمكن لهن أن يتصورن مجرد تصور، كيف يمكن أن تكون نساء الغرب في حالة أكثر ٱمتيازًا مما هن عليه).

وتعني المرأة بإظهار التواضع والإخلاص لزوجها، وليس لها هم إلا ٱتخاذ الوسائل لنيل رضاه، والقيام بتوفير أسباب السعادة والهناء له، وكما يحترم الأبناء آباءهم فإنهم يوقرون الأمهات ويتحينون الفرص لإظهار عواطف الرفق بهن ومخاطبتهن بالقول الكريم.

أما نظام تعدد الزوجات الذي أصبح من الموضوعات التي شغلت كثيرًا من الباحثين، فإن علماء الحملة لم يهملوه، فقد لاحظوا أنه يمكن للمسلم أن يتزوج من أربع زوجات شرعيات بشرط أن يوفر لهن جميعًا حياة طيبة وحقوقًا متساوية، ولفت أنظار علماء الحملة أن المسلمين من كافة الطبقات يحرصون علىٰ ألا يفيدوا من هٰذِه الرخصة التي أباحتها الشريعة إلا باعتدال بالغ، وليس لكبار الشخصيات في العادة إلا زوجة شرعية واحدة، وقد تدفع أحدهم الرغبة في إنجاب الأطفال أو الحصول علىٰ مصاهرة ممتازة إلى الحصول علىٰ زوجة ثانية، وعلى الشخص المتزوج من أكثر من زوجة أن ينام في مسكن كل واحدة من زوجاته بالتبادل، أما إذا تصرف بطريقة مخالفة فسوف يلام علىٰ سلوكه علنًا، وعندما لا تكون الزوجات في حالة وفاق فإن الزوج ملزم بتخصيص منزل لأي واحدة تطلب منه ذلك، ومن المُسَلَّم به أن متوسط عدد الزواج الذي تتعدد فيه الزوجات في القطر المصري لا يتجاوز خمسة في المائة من مجموعه.

لٰكن(كلوت بك)[1]على الرغم من ٱعترافه بهٰذِه النسبة جعل تعدد الزوجات سببًا في شلّ حركة شعوب الشرق وإيقافها عن التقدم إلى الأمام بما لابسها من الطبائع البهيمية وغيرها من العلامات المنذرة بهرم الأمم والشعوب، فتعدد الزوجات هو الذي جرّ عليها بغي أوروبا، وهكذا يتخذ هٰذا المستشرق من نظام تعدد الزوجات سببًا لتأخر الشرق وتعلة لاستعمار أوروبا له مع أن نظام تعدد الزوجات أصون للمرأة وأحفظ للرجل. فالأفضل للمرأة أن تكون زوجة ثانية لها كل حقوق الزوجة الأولىٰ من أن تكون خليلة.

ويمكننا القول إن الأوروبيين ٱتخذوا من الطعن في عادات الشرق وتقاليده وسيلة لهم يهدمون بها أخلاقه التي لم يبق لديه شيء غيرها، ليحلوا تقاليدهم محلها، والغريب في الأمر أن(كلوت بك) الذي هاجم نظام تعدد الزوجات وعدّه سببًا في ٱنحطاط الشرق، قد وصف العدل الذي تعامل به الزوجات من قبل الزوج، حتىٰ وإن كن من الجواري، حيث يقول: (وكثيرًا ما يشاهد في البيت الواحد الجواري السود والجواري البيض ويتزوج مولاهنّ بجارية جركسية منهن وأخري حبشية وثالثة سودانية، ويرىٰ في هٰذِه الحالة صارفًا كل همته إلى العناية بهن وبأبنائهن علىٰ وتيرة واحدة ونمط لا يتغير ومحافظًا على العدل بينهن).

وإذا كان من حق الرجل أن يطلق زوجته إذا تعذرت سبل الحياة بينهما، فإن للمرأة أيضًا أن تطلب من القاضي هٰذا الحق، وإذا ٱقتنع القاضي بالأسباب التي قدمتها، فإن المرأة لا تفقد أي حق من حقوقها و تحتفظ بكل

---

(١) كلوت بك/ طبيب فرنسي ولد في غرينبول بفرنسا عام ١٧٩٣م وجاء إلىٰ مصر عام ١٨٣٣.حيث عمل طبيبًا في جيش محمد علىٰ باشا. طبع كتابه(لمحة عامة إلىٰ مصر) بالفرنسية عام١٨٤٠م، ووصف فيه أحوال مصر في مجلدين، وأسس أول مدرسة طبية في مصر. نقلًا عن كتاب «تراجم مشاهير الشرق» في القرن السابع عشر لجرجي زيدان. منشورات دار مكتبة الحياة...بيروت٢/ ٩١٥.

مهرها وامتيازاتها، ويعلق علماء الحملة علىٰ شيوع الطلاق بقولهم:(ومع ذلك لابد أن نقر بأن ليس ثمة ما يشين ٱمرأة مطلقة، فهي تستطيع العثور علىٰ زوج آخر بسهولة، لٰكن حياة الناس تتأثر على الدوام من مثل هٰذِه الحرية المعيبة، وإن كان التقدم الحضاري قد جعل مثل هٰذا الفعل المعيب أقل ٱنتشارًا بين الطبقات العليا في المجتمع).

ولاحظ علماء الحملة أن مسكن الحريم مكان له حرمته، والأزواج وحدهم هم الذين يستطيعون التردد عليه بحرية، ولا تفتح أبوابه لرجل آخر غير الطبيب والكاتب، وتراعىٰ هٰذِه التقاليد عند الأسر المتميزة والتي تتباهىٰ بنسبها العالي.

وينبغي القول: إن كل العائلات ليست علىٰ هٰذِه الدرجة، فلسيدات الطبقة الراقية إماء من جنسهن يعهد إليهن بالعناية بأمورهن، ونادرًا ما تخرج المصريات خارج بيوتهن، وإذا حدث ذلك فإنهن يفضلن ساعة قدوم الليل لقضاء مشاويرهن الصغيرة. ومن الآداب المتبعة أن يستأذن الزوج في الدخول إلىٰ حجرة زوجته، ولكنه لا يظهر مطلقًا إذا كان في قسم الحريم غريبات، ويذكر علماء الحملة أن زوجات(البكوات)يذهبن إلىٰ حدّ تقديم الإماء الجميلات كهدايا لأزواجهن، ولم يكن من النادر كذلك أن تتزوج أرملة أحد(البكوات) بواحد من مماليك زوجها.

ومن العادات التي سادت مجتمع المرأة وسجلتها أقلام علماء الحملة تجمع النساء في الحمامات، ويذكر(كلوت بك) أن الموجود منها في القاهرة سبعون حمامًا، بعضها للرجال وبعضها للنساء، ويضيف قائلًا: (إن ٱنتشار الحمامات في الشرق سبب من أهم أسباب نقص الأمراض الجلدية، وإني أتمنىٰ علىٰ الله المنىٰ أن يشيع ٱستعمالها في أوروبا).

ولفت ٱنتباه علماء الحملة محافظة المرأة على الخمار، ذلك أن النساء في كل الظروف لا يخرجن مطلقًا سافرات الوجوه، بل يغطين وجوههن

بالبرقع، وتميل نساء مصر على ٱختلاف الطبقات إلىٰ حب التأنق والتزين بالحلي، وتبالغ بعض النساء فيلبسن الخواتم المرصعة بالأحجار الكريمة في أرجلهن، وليس من النادر أن تتزين زوجة حرفي بسيط بمجوهرات ثمينة؛ لأن المرأة تعتبر ذلك جزءًا من كرامتها.

كما لاحظوا أن المرأة المصرية فخورة بأمومتها، وتضع كل ٱهتمامها في طفلها وتركز حوله عواطفها، ومن الصعب أن تسلم طفلها لعناية سيدة أخرىٰ غريبة عنه، والمرأة المصرية ترضع ابنها من لبنها؛ لذلك لا تعرف في مصر هٰذِه الأمراض التي تثير أحزان الأمهات الشابات اللائي يمتنعن عن إرضاع أطفالهن، وإذا شاء الله أن لا يشبع طفلها من لبنها، فإنها تطلب معونة سيدة أخرىٰ مرضعة، ويعلق علماء الحملة علىٰ ذلك بقولهم: (وهكذا يبدوا أن العناية الإلهية تقيم نوعًا من التعويض بين المزايا التي توزعها على الشعوب، فهٰذا هو المصري الذي له نفس ملذاتنا ومباهجنا يعرف أكثر منا العواطف الطبيعية، فأطفاله هم كل شيء في حياته وهم مصدر كل سروره وآماله، وهو يدين بذلك إلىٰ براءة عاداته وبساطة تقاليده).

أما بالنسبة للتعليم فقد ذكر علماء الحملة أن الفتيات في مصر لا يتعلمن حتىٰ مجرد القراءة، ويندر أن يتعلمها بعضهن، ولكنهن يحفظن بعض الآيات من القرآن الكريم، ويعالجن بعض أعمال التطريز والنسيج و الوشىٰ، بالإضافة إلىٰ قيامهن بالأمور البيتية جميعها.

وإذا كان الغربيون قد أخذوا على المسلمين نظام الحريم و عدّوه سجنًا للنساء ووكرًا للشهوات، فإن(كلوت بك) الذي عاش أكثر حياته في مصر يدحض هٰذِه التهمة فيقول:(في منازل الأتراك قسم مستقل للنساء عن القسم الذي يسكنه الرجال، وهو خاص بسكني النساء، والفكرة الشائعة في أوروبا عن الحرم لا أثر لها من الصحة، فإن هٰذِه الكلمة مستعملة في المعنىٰ الذي يؤخذ علىٰ لفظ السراي أو القصر، وليس في القسم الداخلي للحرم ما يعد

خارجًا عن القواعد المألوفة...والفكرة السائدة في أوروبا عن الحرم أنه معهد للفسق والفجور وبؤرة للعهارة ٱتخذتها أمة فاسقة لتمتعاتها الشهوية العديدة والمضي في تيار الفساد الذاهب بالعقل وهٰذا هو الوهم الباطل بعينه، فإن الحرم مكان يسود فيه نظام أساسه الصيانة الدقيقة).

ويري(كلوت بك) أن النساء لا يرين في بقائهن داخل الحرم شقاء وعذابًا لاعتبارهن هٰذا الوضع مما قضىٰ به الزمن والعادة، ذلك أن الرجل المسلم يخصص كل ما يملكه من حسن ونفيس لنسائه، ولا تستقبل النساء في الحرم أحدًا من الرجال غير الزوج، وفيما عدا ذلك فإن الحرم مفتوح علىٰ مصراعيه لجميع السيدات على ٱختلاف طوائفهن، ونساء الحرم لسن ممنوعات من الخروج فلهن الحرية في زيارة الأهل والأقارب والصديقات، والواقع أن نساء الحريم-كما أطلق عليهن الأوروبيون-كن يعرفن أوضاعهن جيدًا ويعلمن رأي السيدات الأوروبيات، وقد عبّر (كلوت بك) عن هٰذا الموقف علىٰ ألسنة نساء الحريم بقوله: (ما سمعت النساء المسلمات الأوروبيات يرثين لحالهن، ...لما هنّ فيه من الٱحتجاب وعدم البروز للجمهور، ألا وقد ٱعتراهن الدهشة وقابلن عواطف الرحمة والحنان التي لم يكلفن أحدًا بالإعراب عنها بالملاحظات المرّة القارصة، وإذا ما سئلن عن فائدة التزين والتجمل إذا كن مرغمات علىٰ سترها عن الأنظار، أجبن: إنّا إذا تزينّا فإنما لأجل الزوج، أما أنتن فلغير أزواجكن من الرجال والنساء تتزين وتتجملن).

ويبدو أن هٰذا الرد كان موفقًا حيث كشف عن طبيعة المرأة المسلمة التي تعرف حدودها وعن مظاهر الحضارة الغربية التي جعلت من المرأة دمية متنقلة، أضف إلىٰ ذلك أن(كلوت بك)كشف عن المكانة التي ٱحتلتها نساء الحريم خاصة وقت الحرب، عندما ذكر حماية المرأة للمقاتل المغلوب علىٰ أمره، إذا لجأ إلى الحرم واحتمىٰ بحماه.

وقد وصفت (لوسي دوف جوردون) قسم الحريم فقالت:(أما الحريم فقد دخلته يومًا وشعرت كأنما كنت في حفل أقيم في قصر ملكي من قصور إنجلترا، نساء جميلات يرفلن في الدّمقس والديباج وفتيات منعمات.. ليس هناك من شيء ألطف من الحريم التركي، فهو من هٰذِه الجهة أرقىٰ ما يمكن أن يتصوره الإنسان...).

وإذا كنا قد ٱسترسلنا في الكلام عن الحريم ووصف حياة النساء فيه، فليس معنىٰ ذلك أن كل النساء في مصر كن يعشن هٰذِه الحياة؛ لأن الحياة الناعمة لم تكن ميسرة إلا لطبقة قليلة من نساء أعيان المصريين والأتراك.

ويشير(كلوت بك)إلىٰ أن عدم ٱختلاط النساء بالرجال أدىٰ إلىٰ عدم تفرغهن للتدابير والحيل الغرامية، وبذلك كان شرف الأزواج في الشرق آمن منه في الغرب، وليس بالإمكان العثور في مصر على ٱمرأة متزوجة تعيش عيش الخليلة مع رجل غير زوجها.

ولو أعدنا النظر ثانية فيما كتبه علماء الحملة وآخرون غيرهم، لوجدنا أن المرأة في مصر قبل مجيئهم كانت مصونة من عبث المماليك على الرغم من فساد إدارتهم وسوء تصرفهم، فمن الصعب أن تجد كاتبًا أو مؤرخًا ممن أرخوا للمماليك يشير إلىٰ سوء معاملتهم للمرأة، فكأنهم كانوا يرون أن كل شيء مباح لهم إلا ٱمتهان المرأة والعبث بها، بل لقد بلغت مكانة المرأة عندهم من التقدير والاحترام حدًا يصعب تصديقه، ذكر (كلوت بك)أنه(بلغ الأمر في عهد المماليك أن المجرم الذي يساق إلى الإعدام كانت تعصب عيناه، حتىٰ إذا التقىٰ في طريقه بموكب لحرم أحد الأمراء وٱغتنم هٰذِه الفرصة ليلمس طرف ثوب إحدى النساء السائرات فيه. فإن هٰذِه الحركة -التي يقصد بها الٱستغاثة، كانت تؤدي حتمًا إلى العفو عنه وإخلاء سبيله).

وعلى الرغم من ٱعترافهم بالاحترام الذي كانت تلاقيه المرأة والحماية والرعاية اللتين كانت تتمتع بهما رأوا في ثبات أخلاق الشرقيين واعتمادها

على الدين مشكلة تواجههم وتعيق محاولاتهم التي يبذلونها من أجل السيطرة على الشرق، فأرادوا أن يحلوا «الموضة» محل النظام الاجتماعي الذي كان يراعي الروح الدينية في كثير من العادات والتقاليد، وفعلًا بدأ الفرنسيون تطبيق هٰذا المبدأ عند دخولهم إلىٰ مصر كما مر معنا، وقد شكا علماء الحملة من تمسك الشرقيين بعقيدتهم وحاولوا أن يوهموهم؛ بأنهم لن يتقدموا ما لم يتخلصوا من سيطرة الدين ويخلعوا ربقته من أعناقهم إذ يقول أحدهم: (ولسوف تظل عقيدته- أي محمد ﷺ -هٰذِه في أوج فاعليتها في الشرق، طالما ظلت شعوب هٰذا الشرق بعيدة عن مدارج التقدم والحضارة الحديثة... إذن فليس المجتمع هو الذي ينظم التقاليد في مصر، كما أن «الموضة»لا تغير من هٰذا المجتمع حسب أهوائها وتقلباتها، فكل شيء فيه يستند إلى النظام الروحي والديني و إلىٰ أن يحين ذلك الوقت الذي تتفجر فيه ثورة يبدو أنها ما تزال شديدة البعد، فلسوف تظل عادات الشرقيين الأسرية هي هي...).

عاد الموقف يفسر لنا إصرار الفرنسيين علىٰ نقل كل ما لديهم من قيم مادية إلىٰ مصر وغزوها بالمسارح والملاهي وتبرج النساء واختلاطهن بالرجال... ولٰكن عودة الأتراك إلىٰ مصر وضعت حدًا لهٰذا الغزو الحضاري ولو إلىٰ حين.

وعاد الأتراك إلىٰ مصر بعد غياب استمر ثلاث سنوات، وكان خبر عودتهم إليها مفاجأة أذهلت الفئات التي انغمست في التعامل مع الفرنسيين، فها هو على الرشيدي عضو الديوان وشقيق زوجة عبد الله جاك مينو يهرب من رشيد إلى القاهرة مع أخته بمجرد سماعه بمقدم الأتراك، فيلتجأ معها إلى القلعة التي كان يسيطر عليها الفرنسيون، وها هي«هوىٰ» التي كانت امرأة لأحد أمراء المماليك ثم تزوجت بنصراني يدعىٰ«نقولا» في عهد الفرنسيين تهرب من القلعة، وتحاول الاختفاء من وجه العثمانيين، ولٰكن زوجها الذي عاد مع الأتراك يمسك بها ويستأذن الوزير في قتلها مع غيرها من النساء

اللواتي خرجن عن التقاليد، وكانت ابنة الشيخ خليل البكري أحد أعضاء الديوان ممن طلبهن الأتراك؛ لتبرجها مع الفرنسيين وأحضروها مع والدها؛ ولما سئلت عما كانت تفعله قالت: (تبت من ذلك، فقالوا لوالدها: ما تقول أنت؟ فقال: أني بريء منها، فكسروا رقبتها...).

وسرعان ما عادت النساء اللواتي جرفهن تيار الخلاعة في عهد الفرنسيين إلىٰ وضع الحجاب؛ بعد أن كن قد ألقينه جانبًا، فتزوج بهن كثير من عساكر العثمانيين؛ مما دفع القائمين على الجيش أن يأمروا الأهالي بعدم مصاهرة العثمانيين وتزويجهم النساء.

وأصدر الباشا العثماني أمرًا جديدًا يقضي بإغلاق جميع المقاهي التي ٱستحدثت في عهد الحملة، وأمر بعدم بيع المسكرات أو شرائها إلا من قبل الكفرة سرًا.

وطوت مصر ماضيها الذي عاشته زمن الحملة لتبدأ عهدًا جديدًا في ظل حكم محمد علىٰ باشا الذي تسلم زمام الأمور في مصر بعد سلسة طويلة من المؤامرات والدسائس بينه وبين منافسيه من المماليك والأتراك، حيث تمكن من الوصول إلى الحكم عن طريق العلماء والمشايخ الذين طلبوا من الباب العالي إسناد أمور مصر إليه، وكان لسفير فرنسا في الأستانة رغبة شديدة في بقاء محمد علىٰ حاكمًا علىٰ مصر، وسعىٰ لدي الباب العالي في تثبيته والتخلص من منافسه (محمد بك الألفي) الذي كان علىٰ علاقة بإنجلترا، ويبدو أن محمد علىٰ كان علىٰ علاقة بالفرنسيين قبل قدومه إلىٰ مصر، وكان أول شبابه يتردد علىٰ تاجر فرنسي يدعىٰ «ليون» فيقدم له المساعدة، وكان سعي السفير سببًا آخر لوثوقه بالفرنسيين واستخدامه أفرادًا منهم في إدارة شئون البلاد، وأظهر محمد علىٰ حزمًا في كل الأمور، وبدأ بتطهير البلاد مما علق بها من الفساد الذي أباحه الفرنسيون، فبادر إلىٰ قطع دابر المتهتكات نفيًا وقتلًا، وإذا علم بارتكاب أحد رجاله منكرًا أمر بإلقائه مع شريكته في النيل.

وما أن ٱستقر به الحال في مصر حتى ٱتجه إلىٰ إصلاح الجيش وتجديده؛ ليكون قادرًا علىٰ تحقيق طموحه، ولم يقصر ٱهتمامه على الجيش، بل وجه عنايته إلى التعليم؛ فاهتم بتعليم بنات أسرته وجواريه، فاستعان بالسيدة «ليدز» زوجة أحد مبشري الإنجليز التي أنشأت عام ١٨٣٥م أول مدرسة إفرنجية للبنات في مصر بتشجيع من تلميذتها«الخانم»بنت محمد على البكري، فكانت بناته أول بنات درسن علىٰ أيدي مدرسات أجنبيات مما سيكون له أثر بالغ، حيث أصبح تعليم البنات في أيدي الإرساليات التبشيرية التي كان لها أهداف خاصة تسعىٰ إلىٰ تحقيقها، ولن نستغرب من الآن فصاعدًا التغير الكبير الذي سيطرأ علىٰ سلوك بنات الطبقة العليا.

وأمر محمد علىٰ عام ١٨٣٢ بإنشاء مدرسة القابلات بمساعدة(كلوت بك)وكانت كل تلميذاتها أول الأمر عشرًا من جواري قصره السودانيات والحبشيات وكان يشترك في التدريس إلىٰ جانب (كلوت بك) طبيبة تدعىٰ (جولييت) علمت تلميذاتها اللغة الفرنسية، ولم يكتف محمد علىٰ بما فتحه من مدارس في مصر فأرسل أول بعثة علمية إلىٰ إيطاليا عام ١٨٠٩م، ثم حول وجهة البعثات إلىٰ فرنسا فأرسل أول بعثة كبيرة إليها عام١٨٢٦م، وعين الشيخ رفاعة الطهطاوي إمامًا لها.

لم يقتصر الطهطاوي في فرنسا علىٰ مهام إمام البعثة، بل تعلم الفرنسية وأتقن فن الترجمة وتأثر بما شاهده في المجتمع الفرنسي، ونستطيع أن نلاحظ فيما كتبه عن فرنسا صدىٰ تفكير أوروبا في أوائل القرن التاسع عشر، نقرأ كلامًا كثيرًا عن المرأة مستوحىٰ من الحياة الٱجتماعية الفرنسية، والغريب في أمر رفاعة الطهطاوي أنه بدأ الباب الأول من كتابه(تخليص الإبريز في تلخيص باريز)بوصف فرنسا علىٰ أنها ديار كفر وعناد، ولكنه بعد ذلك سوّغ كثيرًا من الأخلاق والعادات الفرنسية، حتىٰ أن منزلة باريس في نفسه زاحمت منزلة القاهرة، يقول رفاعة:

لقد ذكروا شموس الحسن طرًا وقالوا: إن مطلعها بمصر
ولكن لو رأوها وهي تبدو بباريس لخصّوها بذكر

ثم تتبع أحوال المجتمع الفرنسي وما يسوده من عادات وتقاليد. فلاحظ أن الرجال في فرنسا عبيد النساء، وأنهم لا يشعرون بالغيرة علىٰ نسائهم اللواتي لا يحرصن علىٰ عفافهن، وذكر أن الزنا عندهم من العيوب؛ ولكنه لا يصل إلىٰ درجة الذنوب خصوصًا في حق الغير متزوج، ولم ير رفاعة عيبًا في تبرج النساء الفرنسيات واختلاطهن بالرجال؛ بل أعجب بجمالهن(والنساء الفرنساوية بارعات الجمال واللطافة حسان المسايرة والملاحظة؛ يتبرجن دائمًا بالزينة ويختلطن دائمًا بالرجال في المتنزهات، وربما حدث التعارف بينهن وبين بعض الرجال في تلك المحال).

ولا يخفي رفاعة إعجابه بملابس النساء بالرغم من خلاعتها، (وملابس نساء الفرنسيين لطيفة بها نوع من الخلاعة خصوصًا إذا تزين بأغلىٰ ما عليهن)، ويبدي إكباره لملابس الرجال فيقول: (ومن العوائد العظيمة ٱنتشار لبس القمصان والألبسة والصديريات...)، ويبدوا أن ٱنبهاره بما شاهده في باريس دفعه إلىٰ تبديل اللباس العربي من الجبة والقفطان والعمامة باللباس الإفرنجي عندما عاد إلىٰ مصر.

وكان رفاعة يدقق نظره في كل مكان تقع عليه عيناه، حتىٰ أن طريقة تصفيف الفرنسيات لشعورهن لفتت ٱنتباهه واستحسنها بل عدّها خصلة حميدة(ومن خصائصهن التي لا يمكن للإنسان إلا أن يستحسنها منهن عدم إرخائهن الشعور كنساء العرب).وعندما يتكلم رفاعة عن أماكن الرقص «البال»فإنه يسهب في الحديث، يقول: (والرقص عندهم فن من الفنون...ويتعلق بالرقص في فرنسا كل الناس، وكأنه نوع من العياقة والشلبنة لا من الفسق، فلذلك كان دائمًا غير خارج عن قوانين الحياء، بخلاف الرقص في أرض مصر فإنه من خصوصيات النساء؛ لأنه لتهييج

الشهوات، وأما في باريس فإنه نمط مخصوص لا يشم منه رائحة العهر أبدًا...وقد يقع في الرقص رقصة مخصوصة، يرقص الإنسان ويده في خاصرة من ترقص معه).

والواقع إن موقف رفاعة هٰذا يدل علىٰ مدىٰ إقباله على المجتمع الفرنسي وتقبله لعاداته، فالرقص عندهم فن وليس عهرًا كما هو الحال في مصر، على الرغم من إمساك الرجل للمرأة التي يراقصها من خاصرتها، وهٰذا يعني أن رفاعة تقبل فكرة الحرية الشخصية التي سادت المجتمع الفرنسي بعد الثورة، ويزداد فكر رفاعة وضوحًا في تقبله لسفور المرأة الفرنسية، حيث يقول: (وملخص ذلك أن وقوع اللخبطة بالنسبة لعفة النساء لا يأتي من كشفهن أو سترهن، بل منشأ ذلك التربية الجيدة والخسيسة والتعود علىٰ محبة واحد دون غيره. وعدم التشريك في المحبة...)، وهٰذا يعني أن رفاعة لا يؤمن بأن وجود المرأة في بيئة تتيح الٱختلاط بين الجنسيين قد يكون له تأثير كبير على التربية الجيدة أو السيئة!؟

أما بالنسبة لعمل المرأة، فقد لاحظ رفاعة أول نزوله باريس وجود بائعات في المحال التجارية، ولم يستغرب الأمر، بل عدّه هو الأصل إذ يقول: (والعادة أن البيع والشراء بالأصالة للنساء، وأما الأشغال فهي للرجال، وكأن أول ما وقع عليه بصرنا قهوة عظيمة، والقهوجية ٱمرأة جالسة علىٰ صفة عظيمة...).

وهو يدعو لتعليم المرأة لا لتحسن تربية أبنائها والقيام بواجبها نحو زوجها وأسرتها، ولٰكن حتىٰ يصلحن لمشاركة الرجال في الكلام والرأي فيعظمن في قلوبهم، ويعظم مقامهن لزوال ما فيهن من سخافة العقل والطيش مما ينتج من معاشرة المرأة الجاهلة لمرأة مثلها، وليمكن للمرأة عند ٱقتضاء الحال أن تتعاطىٰ من الأشغال والأعمال ما يتعاطاه الرجل علىٰ قدر قوتها وطاقتها. فكل ما يطيقه النساء من العمل يباشرنه بأنفسهن... فالعمل يصون

المرأة عما لا يليق ويقربها من الفضيلة، وإذا كانت البطالة مذمومة في حق الرجال، فهي مذمة عظيمة في حق النساء...).

فالتعليم في رأي رفاعة يفسح المجال للمرأة في مجالس الرجل كي تبدي رأيها فتعظم مكانتها في قلب الرجل؛ والتعليم عنده طريق للاختلاط والعمل، وهٰذا الرأي هو الذي تبناه قاسم فيما بعد، فكان الطهطاوي على النقيض من الجبرتي، فبينما أدان الجبرتي سفور المرأة واختلاطها بجنود الحملة جملة وتفصيلًا، نجد رفاعة لا يقف موقف التأييد من سفورها واختلاطها وعملها فحسب، بل يسوغ هٰذِه الأمور ويحسنها كذلك.

ولم يكتف الطهطاوي بإثارة ما سبق من قضايا بل أشار إلىٰ ضرورة الٱقتصار علىٰ زوجة واحدة وعدم التسري بالإماء.

ومما سبق نلاحظ أن رفاعة بسفره إلىٰ فرنسا عاد بفكر جديد يخالف كل المخالفة ما درسه في الأزهر، وأبرز في مؤلفاته للمرأة قضايا و أمورًا لم تكن معروفة من قبل، وكان له تأثير علىٰ معاصريه لا سيما الشدياق.

وقد أشار الشدياق إلىٰ كتاب رفاعة (تخليص الإبريز في تلخيص باريز) وذكر سبقه في وصف باريس إذ يقول: (ولهٰذا أستأذنه في ذكر ما أضرب عنه بالكلية أو أشار إليه إشارة فقط).[1] فهو يعد عمله تكملة لعمل رفاعة، ولٰكن الشدياق كان أكثر وضوحًا في رؤيته للمجتمعين الإنكليزي والفرنسي، فذكر كثيرًا من متاعب النساء فيهما وانتقض عادة ٱصطحاب الكلاب عند الإنجليزيات وترك شعورهن منفوشة، ورأىٰ أن ٱشتراك النساء في الأعمال الزراعية وبأجرة رخيصة ٱمتهان للمرأة، وأن قسوة الرجال هي السبب في هٰذا الٱبتذال، ورأىٰ أنه لا شيء أرخص من الجمال في إنجلترا، ولاحظ أن عامة

(١) «كشف المخبأ عن أحوال أوروبا»، تأليف أحمد فارس الشدياق، مطبعة الجوائب في القسطنطينية، الطبعة الثانية، ١٢٩٩هـ ص٢٢٢.

الإنجليز رجالًا ونساء عندهم من التفاؤل والتشاؤم ما عند عامة بلادنا، وشاهد بعض النساء يتكسبن بالعزف على آلات الطرب، وهاله ما يحدث في بلاد الإنجليز من تسميم الزوجات لأزواجهن وقتل الأولاد من قبل الآباء والأمهات أو العكس، ويرى الشدياق أن الطمع هو الدافع وراء هٰذِه الحوادث.

ومما أخذه الشدياق على المجتمع الإنجليزي حصرهم الإرث في الٱبن الأكبر مع حرمانهم البنت من الإرث واللقب حتىٰ لو كانت كبرىٰ بنات الأسرة أو أبنائها، ومما ٱستغرب أمره واستهجنه لجوء العامة في إنجلترا إلىٰ بيع زوجاتهم لعدم إمكان الطلاق، ولاحظ كذلك أن التقاليد تبيح للأب الإنجليزي أن يجبر ابنته على الزواج بمن شاء قبل بلوغها سن الرشد.

ومن الأمور التي لفتت ٱنتباه الشدياق أن كبراء الناس في إنجلترا لا يتزوجون عن حب؛ بل عن طمع في زيادة المال؛ ولذلك كثيرًا ما يتزوج الشاب الجميل بامرأة شوهاء، وعلل سبب تأخر سن الزواج عندهم بانتشار السفاح، ووصف ما يؤدي إليه الزواج المتأخر من نتائج وخيمة، فقد شاهد ألوف البنات المشردات في أسواق لندن وغيرها، ولاحظ أن أكثرهن لا تزيد أعمارهن عن خمسة عشرة عامًا وأنهن ممتهنات، ويعلق علىٰ هٰذِه الظاهرة بقوله: (يعيبون علينا هٰذِه العادة - يعني الزواج المبكر- وهي مستعملة عندنا علىٰ وجه الحلال وعندهم بالحرام، فلو كن مكفيات المئونة لما فعلن ذلك...).

فهو يرىٰ أن المجتمع الشرقي مصيب في ٱتجاهه إلىٰ تزويج البنت في سن مبكرة صونًا لها ومنعًا من ٱنحرافها، علىٰ عكس الفرنج الذين يعيبون على المسلمين هٰذِه العادة، فتبقىٰ البنت عندهم في وضع مؤلم؛ حيث لا تجد لها مكانًا إلا في محلات البغاء التي لاحظ الشدياق و جودها في أمكنة خاصة، وهٰذِه الظاهرة نقلها الإنجليز معهم إلىٰ مصر عندما ٱحتلوها.

وكما سجل الشدياق آراءه في نساء الإنجليز، صور أيضًا ٱنطباعه عن نساء باريس، فكانت أولىٰ ملاحظاته أن أهل باريس يعيشون مع النساء عيشة المتعة ويرزقون بالبنين والبنات وهم علي هٰذِه الحالة، ويعلق علىٰ ذلك بقوله: (وكيف يحب الرجل ٱمرأة ولا يتزوجها، لا سيما وقد ولدت له أولادًا؟)وهو يرىٰ أن عشق الفرنسيين للنساء وإرضائهم لهن و تفانيهم في خدمتهن لا يمنعهم من تبديلهن، فتبديلهن عندهم أهون من تبديل اللباس، ولاحظ أن تهافت الفرنسيين على المرأة ليس لاحترامها بل للتمتع بها، وأن تهافت المرأة على المراقص جعلها تظن أن في كل مكان تذهب إليه مرقصًا، يقول: (ومن ذلك أنه من طول ترددهن علىٰ مواضع الرقص يحسبن كل مكان يطأنه مرقصًا فترى المرأة منهن تمشي في الأسواق والشوارع، وهي تميد وتميل وتتخلع، ومن ذلك تحكمهن على الرجال وتعززهن عليهم في كل حال وبال، فترىٰ الرجل يماشي المرأة وقلبه بين رجليها، وإذا خلا معها في البيت، فهي الآمرة الناهية المستعلية).

ولاحظ الشدياق غرام الفرنسيات بالأزياء وتكليفهن الأزواج ما لا يطيقون، ذلك أن المرأة المتزوجة في باريس ينفق زوجها علىٰ كسوتها فقط ما ينفقه الإنجليزي علىٰ أسرة بأكملها، فدأب المتزوج في باريس وهمه إرضاء زوجته، ولكثرة مطالب الزوجة وما تفرضه على الزوج من نفقات، قلت نسبة المتزوجين في باريس، وهٰذا ما يفسر كون (ثلاثة أرباع سكان باريس مسافحين) وكونهم كما لاحظ لا يفرقون بين الحرة والبغي، وعنده أن من أسباب ذلك أيضًا بعدهم عن الدين، فقد أقاموا سنة **١٧٩٣**م، أثناء الثورة(امرأة عريانة علىٰ مذبح إحدىٰ الكنائس وسجدوا لها، فهو لا يرىٰ في الثورة الفرنسية ما رآه فيها رفاعة إذ هي عنده فتنة وخروج على الدين، ومع أن الشدياق قد عد الثورة مسئولة عن هدم سلطة الدين وعدم الٱهتمام بالقيم الخلقية؛ رأىٰ أن هناك أسبابًا أخرىٰ أدت إلى الفساد في هٰذِه الديار، ومنها:

ٱشتغال النساء (وذلك أنه لما كانت جميع الأشغال في باريس تديرها النساء، وكان منهن غسالات وخدمات وخياطات وفراشات وبياعات للمأكول والمشروب والملبوس أمكن للرجل أن يصاحب واحدة فتأتيه...بل ربما صاحب ٱمرأة من نفس الدار التي يسكنها، ولهٰذا فإن المتزوجين في هٰذِه الديار لا يأمنون علىٰ نسائهم وبناتهم...ولهٰذا كان أهل باريس أقل غيرة علىٰ نسائهم من جميع الناس...).

فعمل المرأة واختلاطها بالرجال أدىٰ إلىٰ فساد حياة كثير من الناس وعدم ٱطمئنانهم علىٰ زوجاتهم وبناتهم لسهولة الٱختلاط، مع عدم وجود أي دافع ديني أو خلقي يمنع الإنسان من إشباع شهواته بطرق غير شرعية، ورأى الشدياق أن ٱشتغال النساء بمحلات البيع سهل ٱتصال الرجال بالنساء، وزاد في ٱنتشار الفساد، (فأما أمر النساء فإن أصحاب البيع والشراء لما كانوا قد ٱتخذوا لإدارة أشغالهم نساء حسانًا، فإذا خرجن في الليل بعد ٱنقضاء أشغالهن ترصدتهن الرجال ودعتهن إلىٰ مواضع الأكل والقهوة واللعب، فتذهب كل واحدة مع من تحب فمتىٰ رافقته إلىٰ أحد هٰذِه المواضع، علم أن حقه عليها صار لازمًا...)، وقد خرج الشدياق بنتيجة تدل علىٰ وعي وبصيرة ودقة نظر، وهي أن حب النساء من قبل الفرنسيين وتوددهم إليهن ليس له دافع سوىٰ إشباع رغباتهم، فهم لا يعنون براحتهن (ويدعونهن يعملن الأعمال الشاقة ليكسبن بعض شيء...وتراهن يتعاطين من الأعمال الخسيسة ما تأنف منه أخس نساء الإنجليز كتكنيس الطرق وحمل الأحمال وتنظيف الأحذية وصيد السمك والمناظرة على المراحيض....).

ولا ريب أن ما شاهده الشدياق من ٱمتهان لكرامة المرأة في فرنسا وإنجلترا هو الذي دعاه إلىٰ رفض كثير من القيم الغربية، فكان من القلائل الذين تنبهوا إلى الٱمتهان الذي تعرضت له المرأة في فرنسا، خصوصًا بعد الثورة الفرنسية، فالمرأة عندما شاركت في أحداث الثورة وفي المظاهرات

التي أسقطت النظام الملكي لم تكن تطالب بالخروج إلىٰ ميدان العمل، وإنما طالبت بالعودة إلىٰ بيتها، فقد ٱحتجت نساء باريس لدىٰ الملك لويس السادس عشر على ٱغتصاب الرجل لحرفهن، إذ قلن في العريضة التي رفعنها إليه: (لو ترك الرجال لنا الإبرة والمغزل ٱستطعنا أن نترك لهم الفارة والمخراز...).

فالشدياق عندما يذكر عمل المرأة في حمل أثقال المسافرين علىٰ ظهورهن ورؤوسهن يستغرب الأمر، ويرىٰ أن ٱمتهان المرأة دليل علىٰ عدم التمدن، فكيف يزعم الفرنسيون أنهم متمدنون؟... إلىٰ مصر بلاد الحظ والأدب، إلى الشام مغاني الفضل والأدب)، فهو يرىٰ أن المرأة في مصر والشام أوفر حظًا وأكثر ٱحترامًا من المرأة في باريس ولندن، وهكذا كشف الشدياق عما تعانيه المرأة في إنجلترا وفرنسا، وأن المساواة التي أعلنوها بين المرأة والرجل ليست في حقيقتها إلا ٱستغلالًا للمرأة في أبشع صورة.

علىٰ أن ذلك لا يعني أن الشدياق لم يتأثر بما شاهده في رحلاته، بل نراه يعجب بلباس النساء الإفرنجيات اللائي رآهن في مالطة، وقد رأىٰ أن هٰذا اللباس أدعىٰ إلى الوقار والحشمة.

ويبدو أن ما شاهده من الظلم الواقع على المرأة في أوروبا جعله يدافع عن جهل النساء في الشرق، فالنساء في مصر والشام لا يعبن بشيء إلا بالجهل، فأما الجاهلات من الإفرنج فإنهن يضفن إلى الجهل مكرًا وخبثًا، ولهٰذا دعا إلىٰ تعليم النساء القراءة والكتابة بشرط ٱستعماله علىٰ شروطه، ويعني بذلك مطالعة الكتب التي تهذب الأخلاق، فإن المرأة إذا ٱشتغلت بالعلم كان لها به شاغل عن ٱستنباط المكائد واختراع الحيل، يقول: (والأولىٰ عندي أن تشغل البنت بأحد الفنون أو العلوم النافعة، سواء كان ذلك عقليًا أو يدويًا...فإن النساء إذا علمن من أنفسهن أنهن أكفاء للرجال في الدراية والمعارف تترسن دونهم بمعارفهن، وتحصن بها عند تطاول الرجال عليهن، بل الرجال أنفسهم يشعرون بفضلهن...)وباختصار كان تعليم البنت

عند الشدياق ضرورة من ضرورات العصر.

وعلى الرغم من تطواف الشدياق في أوروبا ظل يرىٰ أن الحجاب ضرورة تجنب الناس الفتنة ويرىٰ في المتبرقعات سحرًا لا تملكه السافرات، فالقلوب برؤية المتبرقعات أولع منها برؤية السافرات.

ومن القضايا التي أثارها الشدياق وكثر تناولها بعده، قضية زواج الفتاة بالكهل، فالكهل الذي يتزوج بنتًا في عمر أقل من نصف عمره يضطر إلىٰ مداهنتها والنفاق لها، مع علمه أن فارق السن من الأسباب الباعثة علىٰ بغضه و فركه.

ومن خلال ٱستعراضنا لآراء الشدياق في مختلف القضايا المتعلقة بالمرأة نستطيع القول: إنه كان موفقًا في دعوته إلىٰ تعليم المرأة ما ينفعها، ومع ذلك لم يخدعه سراب الحضارة الغربية، فتنبه إلى المأساة التي تعيشها المرأة الغربية في ظل المدنية الحديثة التي ٱتخذت من المساواة بين الجنسين شعارًا لها.

وهكذا ٱتجه بعض المفكرين بأبصارهم نحو أوروبا؛ ليتعرفوا على الجديد الذي لديها وكان الشدياق أحدهم، وكذلك ٱتجه بعض الذين أرسلهم محمد علي إلىٰ أوروبا أو تخرجوا في المدارس التي أنشأها على النمط الأوروبي، وكانت تحت إشراف الأوروبيين وتلاميذهم وجعلت طلابها يتطلعون إلىٰ نواح من الثقافة الغربية وكان رفاعة الطهطاوي رائدًا لهم، فاتجهت مدرسة الألسن التي أشرف عليها رفاعة نفسه نحو الٱهتمام بالأدب الفرنسي، وكان لخريجي تلك المدرسة دور في الترجمة عن الفرنسية.

وبدأت مصر في عهد محمد علىٰ ترحب بالأجانب الذين ٱهتموا بإنشاء المسارح في وقت مبكر من عهده، فأقام بعض الفرنسيين مسرحًا لهم في نوفمبر تشرين ثاني عام١٨٢٩م، وعرضوا عليه مسرحية «المحامي باتلان»ومسرحية «النهم المفلس»وذكر جيراردي نرفال (أنه أمضىٰ في

مسرح القاهرة سهرة لطيفة، (حيث كان بعض ضباط الباشا - أي محمد علي- يجلسون عند مقدمة المسرح، وأما المقاصير فكانت تعج بالنساء، وكن في غالبيتهن يرتدين ملابس شرقية، ولم تكن ثمة ٱمرأة سافرة، كما لم تكن ثمة ٱمرأة مسلمة لم تعن بمشاهدة التمثيل...وعند خروجنا من المسرح كانت النساء جميعًا وقد بدت عليهن سيماء اليسر يرتدين لباسًا موحدًا، يتألف من حبرة سوداء وبرقع أبيض يغطي الوجه، ولما كنّ مسلمات ينتمين إلى الطبقة الراقية صعدن إلىٰ ظهور الحمير...).

وهٰذا يعني أن المسرح الذي عرفته مصر لأول مرة عن طريق الحملة وانتهىٰ أمره بعودة الأتراك؛ عاد إلى الحياة مرة أخري في عهد محمد علي، ولفت ٱنتباه نساء المسلمين من الطبقة الراقية اللواتي ترددن عليه، ولم يقتصر إنشاء المسارح على القاهرة وحدها، فقد ذكر الرحالة «رينو» الذي وصل إلىٰ مصر عام ١٨٥٤م أنه أعجب في مدينة الإسكندرية بمسرح أقيم في الهواء الطلق، وقد شاهد فيه(دراما إيطالية كانت بطلتها ممثلة مصرية).

ويبدو أن تولية عباس السلطة في مصر كانت إيذانًا بتغير جذري في سياسة الدولة، حيث قام بتعديلات واسعة النطاق شملت جميع نواحي الحياة، فألغىٰ مدرسة الطب والهندسة والألسن وأعاد البعوث من باريس ونفىٰ رفاعة إلى السودان، وامتاز عصره بكراهية الأجانب كراهية تنسحب على الحضارة الأوروبية بكل مظاهرها.

وخلف سعيد باشا عباسًا، فسار في ٱتجاه معاكس لسياسة سلفه حيث أظهر ٱهتمامًا بالغًا بالمدارس الأجنبية المؤسسة في مصر بمعرفة الإرساليات التبشيرية، ومنح المساعدات لراهبات الراعي الصالح في الإسكندرية والقاهرة، وأمد راهبات المحبة بخمسة آلاف فرنك سنويًا؛ ليتمكن من الٱستمرار في أعمالهن، ووهب للإرساليات الأمريكية في مصر بناءً سنة ١٨٥٥م، وتبرع لأول مدرسة إيطالية تأسست في القطر المصري في عهده

بمبلغ ألفين وأربعمائة جنيه، ووهبها ثمانية آلاف زراع من الأرض في أحسن جهات الإسكندرية.

وكان يدعو فرق التمثيل الفرنسية لتسليته بالتمثيل المتنوع والرقص، وأقام لهٰذا الغرض صالة للتمثيل.

وتولىٰ بعده إسماعيل الذي أمعن في ٱعتماده على الدول الغربية، وحاول جعل مصر قطعة من أوروبا، وحصر وراثة العرش في أبنائه من بعده.

ويصح القول إن إسماعيل كان رائد مصر في طريق العلمانية، وقد أهله لذلك أنه قضىٰ زمنًا من طفولته وشبابه في أوروبا، فأرسله جده إلىٰ فينَّا وهو في الرابعة عشرة من عمره، ليعالج من مرض ألم به ويربىٰ تربية أوروبية ثم أمر جده محمد علي باشا أن ينتقل إلىٰ باريس، حيث عاش هناك تحت إشراف رجل أرمني يدعىٰ«اصطفان بك»وأتقن اللغة الفرنسية.

فلما تولي أمر مصر فتح أبوابها علىٰ مصاريعها للأجانب ومهد لهم السبيل، وأخذ يناصرهم ويؤيد مشروعاتهم حتىٰ أن ربع سكان القاهرة في عصره كانوا من الأجانب، وقد بدت رغبته في تقليدهم بإدخال الزي الأوروبي إلىٰ مصر فأجبر جميع مستخدمي الحكومة على ٱرتدائه، وتأسست في عهده المحافل الماسونية وانتظم في سلكها نجله توفيق وجماعة كبيرة من أمراء البلاد ووجهائها، ويبدوا أن إسماعيل فعل ذلك كسبًا لتأييد أوروبا له في محاولته الٱستقلال بمصر عن الدولة العثمانية، وكثيرًا ما كان يردد: (إن أخلاق المصريين وعوائدهم التي ورثوها ستصبح بمساعيه بعد قليل مماثلة لعوائد أوروبا وأخلاقها).

ولم تكن خطط إسماعيل التي أراد بها أن يفرض الثقافة الأوروبية علىٰ مصر ويفصل الدين عن الدولة خافية علىٰ رجالات عصره، بل إن سعيه لدىٰ السلطان عبد العزيز في تعديل نظام وراثة العرش الخديوي كان المقصود به أن يفوت على الباب العالي أي فرص تتيح له التدخل في شئون مصر، فأنفق أثناء

زيارته للأستانة عدة ملايين من الجنيهات وحصل على التعديل المطلوب، وسمح له السلطان أن يصك النقود باسمه، وذلك بموجب(الفرمان السلطاني)الذي صدر عام ١٨٦٦م.

وبعد أن ضمن إسماعيل عدم تدخل السلطان العثماني بدأ يعمل علىٰ تحويل مصر إلىٰ قطعة من أوروبا، فشيد مسرح (الكوميديا) عام١٨٦٧م في «الأزبكية» وأمر ببناء (دار الأوبرا) عام ١٨٦٨م، وكلف إسماعيل الموسيقي الإيطالي«فردي»بوضع رواية«عايدة»للاحتفال بافتتاح دار الأوبرا وبحضور الإمبراطورة «أوجيني»التي دعاها إسماعيل لترأس حفلات ٱفتتاح قناة السويس، حيث أقام علىٰ شرفها مرقصًا بذل فيه(ما لم يستطيع قلم وصفه من البذخ وصنوف اللذات...حتىٰ لم يبق أحد لم يعتبر أنه ٱنتقل إلىٰ عالم الخيالات، فكانت ليلة لم تر العيون لها مثيلا ولن ترىٰ شبهها الأجيال المقبلة، ولا غرابة في ذلك، فلقد بلغت نفقات الحفلة أربعة ملايين من الجنيهات الذهب).

ولم يكتف إسماعيل بهٰذِه الٱحتفالات، بل أدخل عادة الليالي الراقصة التي أصبحت موسمًا سنويًا في قصر عابدين، حيث كان يفتتح إسماعيل الرقص مع عقيلة أقدم القناصل عهدًا، ويفعل أبناؤه ما فعله، وكان يختم الحفل بالشراب.

ثم لم يقف إسماعيل عند هٰذا الحد في تقليد الأوروبيين، بل إن المدرسة السيوفية التي أشرفت عليها ثالث زوجاته «جشم أفت هانم» والتي كان من المتوقع أن تكون أول مدرسة للإناث في مصر غير تابعة للإرساليات التبشيرية، لم تنج من محاولات إسماعيل في جعلها على النمط الأوروبي، فأمر بإخراج تلميذات هٰذِه المدرسة مكشوفات الوجوه،(وقد رآهن الناس وهنّ علىٰ ذلك وعلىٰ رؤوسهن البرانيط في عربات كثيرة يتفسحن في أرجاء المدينة)، مما كان له أكبر الأثر في إحجام الآباء عن إرسال بناتهم إلىٰ هٰذِه

المدرسة، فاضطرت زوجته أن تأخذ صغار الجواري التي عندها وعند غيرها من الأميرات لإكمال العدد اللازم.

وسار الخديوي إسماعيل سيرة سلفه سعيد في الإغداق علىٰ مدارس الإرساليات، فمنح الإرسالية الأمريكية أرضًا، ووهبها سبعة آلاف جنيه لبدء البناء، وكان يشجع تلك المدارس بإرسال أبنائه لحضور حفلات توزيع الجوائز في المدارس الأجنبية، وبلغ نشاط الإرسالية الأمريكية إلىٰ أسيوط والصعيد، ولم تكن فتح المدارس الأمريكية بقصد التعليم فقط، وإنما لخدمة الأهداف الدينية للإرسالية أيضًا، وبلغت مدارس الإرسالية الأمريكية وحدها في مصر عام١٨٩٦م حوالي ثمان وستين و مائة مدرسة، منها ثلاث وثلاثون و مائة مدرسة للبنات.

وبلغ حب إسماعيل للأجانب مبلغًا عظيمًا مما جعله يختار للأميرات الصغيرات في قصره مربية سويسرية.

وهكذا جرت سياسة إسماعيل الويلات علىٰ مصر وأغرقتها في الديون التي بلغت في نهاية حكم إسماعيل مائة مليون جنية، فاستغلت الدول الأوروبية الفرصة وتدخلت في شئون مصر الداخلية.

وحين ٱحتل الإنجليز مصر لم يضيعوا وقتهم؛بل عملوا منذ البداية علىٰ تثبيت الٱحتلال وتوجيه كل ما في مصر لمصلحتهم، واهتموا بنشر اللغة الإنجليزية التي بدأت تنافس اللغتين العربية والفرنسية، حتىٰ أن كثيرًا من المصالح الحكومية لم يكن يتعامل بالعربية، واستمالوا الصحف الصادرة في مصر «كالمقطم» من أجل خدمة مصالحهم.

وضاعف الإنجليز عدد المدارس الأجنبية مرات عديدة بالنسبة إلىٰ ما كانت عليه قبل الٱحتلال، فمثلًا وفد إلىٰ مصر قبل الٱحتلال خمس إرساليات كاثوليكية نسائية، لكنها زادت بعد الٱحتلال حتىٰ بلغت ثماني عشرة إرسالية، وكان لهيئة الفرير خمس مدارس، فأصبح لها ثلاثون مدرسة بعد الٱحتلال،

وكان لهٰذِه المدارس أثر سيء في توجيه أفكار الطلاب؛ لأن مناهجها تمجد الأفكار الٱستعمارية وتهتم بتاريخ بلادها، هٰذا إلىٰ إهمالها اللغة العربية، حتىٰ أصبحت تخرج طلابًا عاجزين عن الكتابة بها فضلًا عن القراءة.

أما من الناحية الٱجتماعية، فإن الإنجليز شجعوا ٱنتشار الخمّارات، ومحلات البغاء، ليس في المدن فحسب، بل في القرىٰ أيضًا، ووقف الأوروبيون ضد أي محاولة من جانب الحكومة المصرية لإغلاق الملاهي والمراقص مستغلين قوانين الٱمتيازات الأجنبية.

ولاحظ عبد الله النديم ما طرأ على العادات من تغيير، فطالب المصريين بعدم الٱفتتان بالأجانب وعدم الٱشتغال بتقليد المظاهر الأوروبية، ورأىٰ أنه لا يليق بهم القعود على المقاهي والخمارات، وحذرهم من ٱتخاذ الأجانب لهم وسيلة لتنفيذ مآربهم ودعاهم إلى الوحدة الوطنية، وهو يرىٰ أن الأمر قد ساء حتىٰ (صرنا إلىٰ زمان فتحت فيه المواخير في الشوارع بلا نكران، وصارت مجامع الوجهاء والأعيان، وعم الأمر حتىٰ شربها النساء والأولاد، وقد تنقلت من المدن إلى الأرياف، واجتمع عليها مشايخ القرىٰ والعمد والأجلاف)، وكلما زاد تهالك الناس في مصر علىٰ الخمور واصلت أوروبا إرسالياتها، ووجدت المومسات في مصر سوقًا رائجة فارتحلن من أوروبا إليها.

وحمل النديم أوروبا مسئولية ٱنتشار الموبقات في مصر، فقد كانت النساء محافظات، وكان المسلمون لا يعرفون الخمر، وحتى اليهود والنصاري في مصر ما كانوا يشربونها إلا في الأعياد، وأن الحكومات الشرقية كانت تعاقب البغايا، وتحافظ على الآداب الشرعية، وظل الأمر كذلك حتىٰ أدخل الأوروبيون معهم نظام البغاء، فأفسدوا أخلاق النساء والرجال، وأصبحت لدىٰ النساء الجرأة على الخروج من البيوت، وشربهن الخمر فزاد التهتك، ثم ترقىٰ الفجور فصارت النساء تحضر مجالس اللهو

وتشرب الخمور في المواخير.

والواقع أن هٰذا الداء عمّ وانتشر وظل ينخر في المجتمع المصري مدة طويلة من الزمن، وقد تناولت الصحف هٰذا الموضوع وحذرت من مخاطره، وعدته بعض المجلات جناية من أوروبا علىٰ نفسها وعلى العالم، وطالب الاتحاد النسائي المصري فيما بعد بتطهير البلاد منه.

وتنبه عبدالله النديم كذلك إلىٰ خطورة الدور الذي تلعبه المدارس الأجنبية، فحث علىٰ إنشاء مدارس وطنية، يقول: (أفلا يحسن في أعينكم أن تفتحوا مدارس لأبنائكم، تهذبونهم فيها وتعلمونهم؛ وتحولون بينهم وبين الوجهة الأوربية، تداركوهم قبل أن تفقدوهم، عرفوهم أنكم آباؤهم قبل أن ينكروكم، لقّنوهم ما أنتم عليه من الدين قبل أن يخالفوكم، حفظوهم تاريخ بلادكم وأجدادكم قبل أن يجهلوكم، ردوهم إلى الوطنية قبل أن يحملوا سلاح العداوة ليتقربوا بدمائكم إلىٰ من ربوهم)، ولم تعجب مواقف النديم هٰذِه (اللورد كرومر)فسعىٰ لدي الخديوي عباس الثاني، لينفيه من مصر.

وكثرت المدارس الأجنبية في مصر وتعددت اتجاهاتها باختلاف أخلاق أصحابها ومعتقداتهم، فهناك مدارس للفرير، وأخري للجزويت، وثالثة للأمريكان، ورابعة للإنجليز، وغيرهم، وهٰؤلاء الأجانب لهم قيمهم وأهدافهم التي يزرعونها في نفوس الطالبات،(فهم يعلمون الفتاة قبل كل شيء أن تحتقر مبادئ قومها وترفض معتقداتهم فتخرج من المدرسة، وهي أقرب من الدين المسيحي أقرب منها إلى الإسلام و إلى الأخلاق والعادات الإنجليزية أو الفرنسية... أقرب منها إلى الأخلاق والعادات العربية الإسلامية، فإذا رأت أمها تلبس(الحبرة والبرقع) هزأت بها وضحكت منها؛ لأنها لم تلبس قبعة ولم تخرج بلا نقاب...).

هٰذا مع إهمال المدارس تعليم ما يؤهل الفتاة، كي تكون زوجة وأمًا، ومع التركيز علىٰ تعليمهن الرقص والموسيقي، لذا كانت هٰذِه المدارس من

أعوان الزمان علىٰ هدم الأمة وإفساد أخلاق بناتها وبنينها، فدعا بعضهم كما دعا النديم إلي أخذ زمام المبادرة من أيدي المدارس الأجنبية بتأسيس المدارس الأهلية وتأليف الكتب المناسبة.

ويبدو أن الأجانب لم يسيطروا على التعليم فحسب، بل تعدَّىٰ الأمر إلىٰ سيطرة المربيات الأوروبيات علىٰ بيوت الأعيان، وربما كن قبل ذلك من الساقطات أو العاملات في الملاهي.

وأدىٰ إهمال اللغة العربية في بعض المدارس الأجنبية ببعض المجلات أن تعلن عن ٱستعدادها لترجمة ما يصلها من القارئات لعدم قدرتهن على الكتابة بالعربية، تقول مجلة «فتاة الشرق»: (ومن المعلوم أن أكثر سيدات الشرق يتعلمن في مدارس أجنبية، فيذخرن منها العلوم، ويبقينهن في صدورهن لجهلهن العربية، لذلك فإن «فتاة الشرق»تعلمهن أنها مستعدة لخدمتهن، ونشر ما يرد منهن من الرسائل بعد تصحيحها أو ترجمتها، بحيث تستفيد الأمة من مدخرات آدابهن المدفونة)، وقد تنبه كثيرون لخطر ٱنتشار اللغات الأجنبية.

فدعوا إلىٰ ضرورة إتقان اللغة العربية قبل تعلم اللغات الأخرىٰ، حتىٰ لا تكتفي الفتيات باللغات الأجنبية التي تعد عندهن لغات التمدن.

ونهجت مدارس أخرىٰ طريقًا يفضي بها إلى القضاء على المشاعر الدينية، فكان بعض خريجي هٰذِه المدارس يعد ترك الصلاة تقدمًا ورقيًا، ويعد المحافظة عليها من الخرافات، بل قد يترقىٰ به الحال إلىٰ أن يعتقد أن الدين حجر عثرة في طريق المدنية والأخلاق الفاضلة.

وعندما لاحظ القائمون علىٰ هٰذِه المدارس صعوبة تنصير أبناء المسلمين ٱتجهوا نحو التعليم العلماني الذي يلائم حاجات العصر ويخلصهم علي حد تعبير مجلة «فتاة الشرق» من التعصب الذميم.

ويبدو أن هٰذا النمط من المدارس وخاصة الأمريكية لقيت تشجيعًا

كبيرًا، فقد زار (روزفلت) الذي كان رئيسًا للولايات المتحدة كلية البنات الأمريكية في القاهرة، وانتقد عدم جلوس الطالبات في صدر القاعة، ودعا طالبات المدرسة أن يقتدين بالنساء المبشرين، ونعىٰ على المسلمين تعصبهم علىٰ-حد تعبيره-ودعا الفتيات أن يقمن بدور فعال في الهيئة الٱجتماعية.

وكان تأثير المدارس الأجنبية كبيرًا بين نساء الأغنياء خاصة ممن أتقن في هٰذِه المدارس اللغات الأجنبية والعزف والرقص، وقلدن الإفرنجيات في الأزياء ولعب القمار.

والواقع أن الشكوىٰ من المدارس الأجنبية بدأت في وقت مبكر، خصوصًا ما يتعلق بإهمال المدارس الأجنبية إعداد الفتاة لمستقبل حياتها، فقد لاحظت مجلة «اللطائف» أن هٰذِه المدارس تسعىٰ إلىٰ هدم القواعد التي تعلمتها الفتاة في بيتها دون أن تقدم لها شيئًا يتعلق بتدبير شئون المنزل والاقتصاد وفن الطبخ والقواعد الصحية، كما لاحظ المويلحي أنها تخرج أجيالًا فقدت صلتها بالدين، واقتصرت بضاعتها علىٰ ما تلقته في المدارس من العلوم الآلية والفنون الصناعية دون أدنىٰ ٱهتمام بالتربية النفسانية والفضائل الدينية، ورأىٰ أن هٰذِه المدارس أصابت الآباء في أبنائهم ولم يزدهم تعليمهم في هٰذِه المدارس إلا وقاحة وكبرياء.

وإنما أطلنا الحديث عن المدارس الأجنبية، لأن هٰذِه المدارس بما كانت تزود به الطالبات من ثقافة قد أثرت تأثيرًا كبيرًا على ٱتجاه النساء، وأسرعت في إخراج المرأة من بيتها لتقذف بها في لجّ الحياة، ثم إن خريجات هٰذِه المدارس ربين فيما بعد أجيالا تقبلت الحضارة الأوروبية بسيئاتها قبل حسناتها، وحتىٰ نتصور المثل العليا التي كانت تقدمها المدارس لطالباتها ننقل بإيجاز الصورة التي رسمتها «المقتطف» للاحتفال الذي أقامته مدرسة البنات الإنجيلية الأمريكية بمناسبة منح الشهادات للمنتهيات من تلميذاتها إذ تقول: (...ومن أبدع ما جرىٰ في هٰذا الٱحتفال باللغة الإنجليزية، أن

المنتهيات مثلن شهيرات النساء في كل العصور، فمثلت إحداهن الملكة «فكتوريا» والثانية، «جان دارك» والثالثة ملكة اليابان «أستير»...والسابعة «كليوبتره»ثم تغنت الطالبات أغنية مطربة وانصرفن).

وإذا كنا نعد المدارس الأجنبية مسئولة إلىٰ حد كبير عما أصاب القيم الاجتماعية من تغيير، لتصبح قريبة من القيم السائدة في الغرب عند طبقة الأغنياء والأعيان، فإن المجلات والصحف كان لها دور كذلك لا يقل عن دور تلك المدارس، حيث أكثرت من تسليط الأضواء على المرأة الغربية، وجعلتها المثل الأعلىٰ للمرأة العربية، ولم تشر ولو إشارات طفيفة إلى الاحترام الذي تمتعت به المرأة المسلمة في عهودها الأولي، خذ مثلا مجلة«الجنان»إذ تقول عما وصلت إليه المرأة الغربية من تقدم في ظل الحضارة الأوروبية: (ولما أشرق نور التمدن في ممالك أوروبا... سلك الرجال بإعطاء الإكرام الواجب للجنس النسائي... إلىٰ درجة لا يكون معها تمييز لهن عن الرجال حتىٰ في الجلوس على التخوت الملوكية...).

واهتمت كثير من المجلات بالمرأة الأمريكية، وأشادت بفائدة التعليم المختلط الذي طبقته بعض الولايات الأمريكية في مدارسها، ودعت بعضها إلىٰ إعطاء المرأة حقها في الانتخابات السياسية والوظائف العامة أسوة بالنساء في إحدى الولايات المتحدة الأمريكية، مع أن الرجل في الشرق لم يكن قد حصل علىٰ شيء من حقوقه السياسية بعد، وربما كان أسوأ حظًا من المرأة.

واهتمت مجلات أخرىٰ بنشر أخبار المغنيات في أوروبا وأمريكا والثروات الطائلة التي يجمعنها عن طريق هٰذِه المهنة.

وعنيت مجلة «اللطائف» بتقديم إحصاءات عن أعمال النساء في الولايات المتحدة، فذكرت أن هناك (مليونين من النساء تأكل خبزها بعرق جبينها، منهن: ستمائة ألف يعملن في الزراعة ولا سيما حقول القطن،

وستمائة وأربعون ألفًا في المعامل، وثلاثمائة وخمسون ألف غسالة...)، وذكرت نفس المجلة خبرًا عنوانه «حكومة النساء»، قالت فيه: (تولت النساء هٰذِه السنة حكومة مدينة «ستكتون»في ولاية«كنساس»فكانت الحاكمة وكل أعضاء الشورىٰ سيدات لا رجل بينهن).

إن هٰذا الإعجاب بالمرأة الأمريكية في هٰذِه المجلات، يعني أن تنظر المرأة في مصر حولها فلا تجد شيئًا من ذلك، والنتيجة، أن تصبح المرأة الأمريكية مثلها الأعلىٰ، أليست تأكل خبزها بعرق جبينها؟ أليست تكسب الثروات الطائلة من وراء الغناء؟ مما جعل مجلة «أنيس الجليس» تطلق علىٰ«مارغريت برنت»أول أمريكية طالبت بحقوق النساء لقب «الجدة الكريمة». وهكذا أصبح الٱستشهاد بأحوال النساء في أمريكا وأوروبا قاعدة متبعة لدىٰ المجلات إذا عرضت لموضوع حقوق المرأة أو عملها أو تعليمها، وأثارت «الهلال» موضوع حقوق النساء في مقال بعنوان (هل للنساء أن يطلبن كل حقوق الرجال؟)، ويرى الكاتب أن هٰذا الأمر من حق النساء، ولٰكن بعد القيام بأعمال الرجال، فتساوىٰ الأعمال يقتضي تساوي الحقوق، ثم يضيف: (ولا حاجة بنا إلى البرهان البعيد، بل يمكننا النظر إلىٰ نساء عصرنا الحاضر بأمريكا وأوروبا، وفيهن الطبيبة والمحامية والمحررة والمخترعة، ومن تعاطين المصالح العامة وغير ذلك من الأعمال التي نظنها تختص بالرجال فقط)، ومن المجلات من ٱستشهدت بأحوال المرأة الفرعونية إذا ٱقتضى الأمر.

ثم إن المجلات بقيت فترة طويلة تكتب عن المرأة وحقوقها ومساواتها بالرجل، دون أن تصرح بوجوب تقليد الغربيين حتىٰ ظهرت مجلة «أنيس الجليس»التي أصدرتها«الكسندرة أفرينو»فدعت إلى الأخذ بالطريقة الأوروبية في معاملة المرأة وتطبيقها في الشرق، فقالت: (وهٰذِه السياسة وهي السير بالمرأة مع الحال الحاضرة إنما هي السياسة التي نتقاضاها الآن في بلادنا،

ونطلب تدبير المرأة علىٰ موجبها، فنحن قد عرفنا عن أوروبا التي هي قدوة الدنيا وقائدتها أنها كانت مثلنا، وكان الرجل و المرأة فيها كلاهما بأقصىٰ درجات الجهل والبداوة، بحيث كانا والبهائم سواء، ولكن لما أخذ الرجل يرتقي ويتعلم، شرع يشارك المرأة في علمه وعمله وتعلمت منه ما علم... أما نحن أبناء الشرق فالمرأة عندنا عبء ثقيل، وهي عالة على الرجل، إذ لا تشاركه في شئون الحياة بسوىٰ أنها تلد...فهي بذلك والحيوان سواء).

ولو حاولنا أن نتصفح أكثر المجلات والصحف الداعية إلىٰ تقليد المرأة العربية أو المصرية للإفرنجية لما عثرنا علىٰ سبب واضح سوىٰ حب التقليد، فالمرأة الشرقية في منزلة الحيوانات، لأنها لا تقلد المرأة الأوروبية التي هي قائدة الدنيا وقدوتها؟ و المرأة التي تقوم بواجباتها نحو أسرتها عالة على الرجل.

وأيضًا من العوامل التي كان لها تأثير كبير على التطور الذي أصاب القيم المتعلقة بالمرأة «صالون الأميرة نازلي فاضل» حيث كانت لها علاقات قوية بجمال الدين الأفغاني وتلاميذه، فقد كانت خليفة الأفغاني في الجمع بين تلاميذه، لتكوِّن منهم مدرسة كبيرة، سيكون لها شأن كبير في التأثير علىٰ سير الأحداث في مصر من ناحية، وعلىٰ قضايا المرأة من ناحية أخرىٰ، وكانت نازلي فاضل أول ٱمرأة شرقية تجالس الرجال سافرة، وهي بنت مصطفي فاضل أخي إسماعيل وولي عهده، غير أن إسماعيل كما قدمنا سعىٰ لدي السلطان حتىٰ جعل وراثة العرش لأكبر أبنائه وبذلك حرم أخاه من هٰذِه الوراثة، فانضم إلى الأحرار العثمانيين نكاية في السلطان، وأنفق عليهم بسخاء حتىٰ سمي أبا الأحرار، وكان مصطفىٰ فاضل قد ٱهتم بتربية ابنته نازلي، فدرست علىٰ أيدي جماعة من الأساتذة الأوروبيين، ولما رافقت والدها إلى الأستانة أعجب بها «مراد» ولي عهد السلطنة فمنعه عمه السلطان عبد المجيد من الٱقتران بها؛ لأن التقاليد كانت تمنع السلاطين وأولياء

عهودهم الزواج إلا من الجواري.

فتزوجت نازلي من خليل باشا وزير خارجية السلطان، الذي عين بعد ذلك سفيرًا للدولة العثمانية في بعض العواصم الأوروبية، وكانت نازلي تتقن الإنجليزية والفرنسية والألمانية والتركية إلىٰ جانب العربية، فأفسحت لها الصالونات الأوروبية في مجالسها والتقت من خلالها بكبار رجال السياسة، ولٰكن موت زوجها وإفلاس والدها الذي كان يقيم في باريس، جعلاها تعود إلىٰ مصر في عهد الخديوي توفيق، وكان الأفغاني ما يزال موجودًا، وبعودتها إلىٰ مصر نقلت معها فكرة الصالونات المختلطة، حيث فتحت صالونها لرجال السياسة والوزراء وكبار القوم، وأفسحت كذلك المجال للأفغاني وتلاميذه أمثال محمد عبده، سعد زغلول، فتحي زغلول، محمد إبراهيم المويلحي، أديب إسحاق، وسعيد البستاني وغيرهم، مما دعا مجلة «فتاة الشرق»أن تطلق عليها لقب زعيمة حزب السفور.

ومما يؤيد صلتها بالأفغاني أن محمد عبده بعث برسالة إلى الأفغاني، وهو في الأستانة يسأله فيها عما إذا كانت موجودة في الأستانة أم لا، وكان الأفغاني يسعىٰ لدىٰ السلطان كي يمنحها وسامًا، فرد الأفغاني علىٰ محمد عبده بقوله: (وأما تمثال الكمال والجمال حضرة «البرنسس» التي لها من قلبي المنزل الأسنىٰ والمقام الأبهىٰ، فلا أعلم من أمرها شيئًا).

ويبدو أن نازلي فاضل كانت مولعة بالسياسة، وهٰذا وجه الشبه بينها وبين الأفغاني كما قال الشيخ محمد عبده في حديث له مع رشيد رضا: (فاشتغال هٰذِه المرأة بالسياسة كاشتغال السيد جمال الدين بها).

ولم يطل الوقت بالأفغاني إذ سرعان ما طرده الخديوي توفيق من مصر، ولٰكن تلاميذه ظلوا علىٰ صلة بنازلي، وفي هٰذِه الأثناء قام عرابي يطالب بتصحيح الأوضاع فاشترك محمد عبده في صياغة مبادئ الحزب الوطني بمساعدة المستشرق «بلنت»، وقد وصف هٰذا الحزب نفسه بأنه حزب سياسي

لا ديني، وعندما هزم الجيش المصري نفىٰ زعماء الثورة مدىٰ الحياة، ونفىٰ محمد عبده ثلاث سنوات إلىٰ بيروت، وفيها كان يعقد دروسًا دينية في التفسير يحضرها بعض اليهود والنصارىٰ إلىٰ جانب المسلمين، وكان بعض قسس الكنائس في بيروت يعرضون عليه مواعظهم، ولقي هناك البهائي عباس زعيم البهائية فكان يحتفي به، ومن بيروت ٱرتحل محمد عبده إلىٰ باريس، حيث أصدر مع أستاذه الأفغاني مجلة«العروة الوثقىٰ»، ولكنه عاد ثانية إلىٰ بيروت، وظل فيها حتىٰ عام ١٨٨٨م، وفي هٰذِه الأثناء وطد اللورد «كرومر» أقدامه في مصر وصار من رواد صالون نازلي فاضل[١] وكان سعد زغلول وكيلًا لها.

وقد ظل سعد على ٱتصال بمحمد عبده أثناء نفيه، فذكر أستاذه في مجلس نازلي فاضل التي كانت مقبولة الرجاء عند كرومر، فضغط كرومر على الخديوي توفيق وأرغمه أن يصدر عفوًا عن محمد عبده على الرغم من ٱتهامه للخديوي توفيق بالخيانة أثناء نفيه.

واشترط الإنجليز على الشيخ محمد عبده ألا يشتغل بالسياسة؛ لذا عندما عاد من المنفىٰ أصدر تصريحًا لعن فيه السياسة، ثم عمل علىٰ تقريب الشريعة الإسلامية وتطويعها كي تتقبل الحضارة الأوروبية عندما صار في منصب الإفتاء.

وقد أشار اللورد «كرومر» إلى الفتوى التي أجاز المفتي بموجبها للمسلمين تثمير أموالهم في صناديق التوفير، وجعل الدور الذي قام به محمد عبده في مصر شبيها بدور«السير أحمد خان» في الهند، إذ كان يرىٰ عدم ٱستقلال الهند عن الإنجليز إلا بعد العلم بكل شيء أتت به المدنية الحديثة،

---

(١) انظر كتاب «سعد زغلول ودوره في السياسة المصرية»، تأليف عبد الخالق لاشين، دار المعارف بمصر١٩٧٣م ص٣٥، ينقل المؤلف عن مذكرات محمد فريد أن نازلي فاضل(كان لها شغف بالضباط الإنجليز؛ وكانت تحيي ليالي موسيقية في دارها وتكثر من شرب الخمر).

والواقع أن محمد عبده كان مقلدًا لأحمد خان، وكان ينوي تأسيس مدرسة للقضاء شبيهة بمدرسة العلوم في«عليكرة» تلك المدرسة التي أنشأها أحمد خان، ولم يكتب لمحمد عبده أن ينفذ رغبته في حياته، فنفذها تلميذه سعد زغلول الذي أسس مدرسة القضاء الشرعي عام١٩٠٧، على الرغم من ٱعتراض الخديوي عباس الثاني وكثير من علماء الأزهر.

ونظرًا لمواقف الشيخ محمد عبده وتلاميذه غير المتشددة من الإنجليز، وجدوا كل تشجيع من اللورد كرومر الذي كان يرىٰ أنهم حقيقون بكل ميل وعطف وتنشيط من الأوروبيين.

ويمكننا القول: إن الشيخ محمد عبده وتلاميذه ٱنتهجوا بعد الٱحتلال الإنجليزي لأنفسهم منهجًا لا يتعارض مع السياسة الإنجليزية ولا يهدد مصالحها، فوجهوا عنايتهم إلى الٱهتمام بالقضايا غير السياسية، وبذلك خالفوا منهج الأفغاني.

ويبدو أن جلوسه في مجالس مختلطة أثر علىٰ سمعته، فنشرت بعض الجرائد صورة لا تليق بمكانته آثارت دهشة الجمهور، وكانت سببًا في قضية جنائية، كذلك نشرت له صورة أخرىٰ، وهو واقف مع ٱمرأة في ثياب الرقص، وحصل بعض خصومه علىٰ صورة شمسية له مع بعض نساء الإفرنج، ويبدو أن النساء كانت تحضر مجلس الشيخ أحيانًا، فقد ذكر اللورد كرومر في معرض دفاعه عنه، «أن الأستاذ يزورنا هنا وتحضر مجلسه «ليدي كرومر» وغيرها من عقلائنا، فهل يصح أن نعد هٰذا إهانة له أو لنا»، ولو عدنا نبحث في مؤلفات محمد عبده ومقالاته، لوجدنا أنه كتب أكثرها بعد تتلمذة على الأفغاني، وأثناء عمله في الوقائع المصرية وأنه تناول في مقالاته الزواج وتعدد الزوجات والطلاق، وتناولها بطريقة مخالفة لآراء معاصريه، وسنجد قاسم أمين يتأثر به، ويضمن كتابه «تحرير المرأة» بعض مقالاته بأكملها.

كتب محمد عبده مقالة عن الزواج، بدأها بالاعتراض على التعريف

الذي وضعه الفقهاء للزواج، ورأىٰ أن هٰذا التعريف يوحي بأن رابطة الزواج ليست غير التمتع بقضاء الشهوة الجسدية؛ لأنه لا يشير إلىٰ واجبات الزوجين الأدبية، فهو تعريف ناقص لا يفي بتوضيح العلاقة التي ينبغي أن تكون بين الزوجين، وحتىٰ تتصف العلاقة الزوجية بالمودة، يقترح محمد عبده على الزوجين ألا يقدما على الزواج إلا بعد التأكد من ميل كل منهما للآخر.

وحتىٰ تستطيع المرأة أن تشارك برأيها في ٱختيار زوجها عن روية وتفكير واقتناع، يقترح أن تتعلم المرأة؛ لأنها إذا تعلمت وشعرت بقيمة نفسها، عند ذلك يكون الزواج الواسطة الطبيعية لتحقيق سعادة الرجل و المرأة معًا، وتؤسس الزوجية على ٱنجذاب شخصين يحب أحدهما الأخر، فتنتخب المرأة من بين الرجال، من تحبه وتميل إليه.

أما بالنسبة لموقف محمد عبده من تعدد الزوجات فهو يرىٰ أن الشريعة أباحت للرجل الأقتران بأربع نسوة، إن علم من نفسه القدرة على العدل بينهن، وإلا فلا يجوز الأقتران بغير واحدة، وعنده أنه لا يجوز الجمع بين الزوجات عند توهم عدم القدرة على العدل،(فكيف يسوغ لنا الجمع بين نسوة لا يحملنا علىٰ جمعهن إلا قضاء شهوة فانية واستحصال لذة وقتية غير مبالين بما ينشأ عن ذلك من المفاسد ومخالفة الشرع).

ويحدد الشيخ محمد عبده موقفه من التعدد في مكان آخر في معرض رده علىٰ سؤال عن موقف الإسلام من التعدد وعن جواز إبطال هٰذِه العادة، ويمكن تلخيص إجاباته إجابته: فيما يلي: (فإذا كان العدل غير مستطاع، والخوف من العدل يوجب الأقتصار على الواحدة، فما أعظم الحرج في الزيادة عليها، فالإسلام قد خفف الإكثار من الزوجات ووقف عند الأربعة، ثم أنه شدد الأمر على المكثرين إلىٰ حد لو عقلوه لما زاد واحد منهم على الواحدة...).

ويرى الشيخ محمد عبده أنه يجوز للحاكم أو القائم على الشرع أن

يبطل عادة التعدد؛ لأن شروط التعدد هو التحقق من العدل، وهٰذا الشرط مفقود حتمًا، فإن وجد في واحد في المليون فلا يصح أن يتخذ قاعدة، ومتىٰ غلب الفساد على النفوس، وصار من المرجح أن لا يعدل الرجال في زوجاتهم جاز للحاكم أن يمنع التعدد، أو للحاكم أن يمنع التعدد مطلقًا؛ مراعاة للأغلب...وبالجملة يجوز الحجر على الأزواج عمومًا أن يتزوجوا غير واحدة إلا لضرورة تثبت لدىٰ القاضي، ولا مانع من ذلك في الدين ألبتة، وإنما الذي يمنع ذلك هو العادة فقط.

ورأي محمد عبده هٰذا قريب من رأي السيد أمير علي الهندي الذي يرىٰ أن الإسلام قيد عادة تعدد الزوجات بقيود هي عين النهي المطلق، ويعلق رشيد رضا علىٰ كلام أمير علي بقوله: (إن الشريعة ضيقت من شروط التعدد بحيث يتعذر إلا في حالة الضرورة وإقامة المصلحة دون قصد التمتع).

وأما الطلاق، فقد أوضح رأيه فيه عندما وضع له نظامًا فصل فيه الشروط التي يجب أن يكون عليها، وأهم ما فيه أنه لا يجوز للرجل أن يطلق زوجته إلا أمام القاضي، ورأىٰ أن تخول النساء حق الطلاق حسبما تقتضيه العدالة والإنسانية، (لدرء الظلم الواقع عليهن من فئة غير قليلة من الرجال...).

وأما الحجاب فيرىٰ أن المعروف في عصره ليس علىٰ حسب ما جاءت به الشريعة؛ لأن الشريعة أباحت للمرأة أن تظهر بعض أعضاء جسمها للأجنبي،(وأنها وكلت تعيين هٰذِه الأعضاء للعادة).

هٰذِه هي الآراء التي عرض لها الشيخ محمد عبده فيما يتعلق بالمرأة، وهي التي عدّها معاصروه خروجًا عن المألوف.

والواقع أن كثيرًا من هٰذِه الأمور كانت مطروحة للبحث في المجلات، والصحف من وجهة نظر ٱجتماعية، على أننا نلاحظ أن قاسم أمين تبنىٰ هٰذِه المواقف في كتابه «تحرير المرأة»حتىٰ أن الدكتور محمد عمارة الذي قام

بتحقيق أعمال الشيخ محمد عبده وقاسم أمين، قد نسب كل ما كتبه قاسم عن العائلة في كتابه«تحرير المرأة»إلى الشيخ محمد عبده.

التقىٰ محمد عبده بقاسم أمين في باريس سنة١٨٨٣م تقريبًا، واتخذه مترجمًا له وجعله عضوًا في جمعية«العروة الوثقىٰ»، وعمل قاسم أمين بعد عودته إلىٰ مصر في سلك القضاء، وكان تعيينه نائبًا قاضٍ في الٱستئناف مع سعد زغلول وبقرار واحد عام ١٨٩٢م، وكان تعيين سعد من الحوادث الغريبة في القضاء.

ومن هٰذا التاريخ بدأت صلة قاسم بسعد تزداد وثوقًا علىٰ حد قول سعد: (فاختلطنا مع بعض ٱختلاطًا شديدًا وتلازمنا تلازمًا عظيمًا، فلم يمر يوم لم نأكل فيه معًا، وكلما عرض لأحد أمر أو فعل مهما كان، حادث فيه الآخر عند أول ٱجتماع معه...).

وعرف قاسم الطريق إلىٰ صالون نازلي فاضل الذي كان فيه سعد ركنًا مهما، نظرًا لصلته القوية بنازلي، وفي الصالون التقىٰ بالشيخ محمد عبده ثانية، وفي هٰذِه الآونة ظهر كتاب بالفرنسية للدوق«داركور» تناول فيه مختلف مظاهر الحياة في مصر بالنقد والتجريح، فعاب علي نساء مصر ٱستعمالهن الحجاب، ورأي أن نظام تعدد الزوجات والطلاق قد أضعف الأسرة، ولما كان قاسم أكثر أعضاء الصالون فهمًا للفرنسية، كلف برد الٱتهامات التي ألصقها الدوق«الداركور» بمصر والمصريين، وهال قاسمًا ما رأىٰ في الكتاب من الكذب، فكال للمؤلف الصاع صاعين، ورد هجومه على الحضارة الإسلامية، والنظام الٱجتماعي في مصر.

ولكن من يقرأ ما كتبه قاسم في رده لا يشعر أن دفاع قاسم عن الحضارة الإسلامية والنظام الٱجتماعي في مصر، كان عن ٱقتناع بهما، والدليل علىٰ ذلك أنه عندما يدافع عن عدم ٱختلاط النساء بالرجال، لا يرىٰ في عدم الٱختلاط أمرًا ساميًا يجب الحفاظ عليه، بل يرىٰ أن الرجال كذلك ممنوعون

من الاختلاط بالنساء، يقول: (ولما كان محرمًا علينا -نحن الرجال- أن ندخل إلىٰ مجتمع النساء، فيبدو لي من الطبيعي أن يقع نفس التحريم علىٰ نسائنا، و إنني أكرر من وجهة النظر هٰذِه، أن وضع الرجل هنا مشابه لوضع المرأة تمامًا، ورغم ذلك فإن أحدًا من الأوروبيين لم تحركه طيبة قلبه إلىٰ أن يرثىٰ لوضعنا نحن الرجال، ولهذه الحياة التعيسة التي نعيشها).

فكيف نتصور أن قاسم أمين دافع في رده عن القيم السائدة في مصر، وهو يعدُّ حياة الرجال في مصر تعيسة؛ لعدم اختلاطهم بالنساء؟، وعندما يقارن قاسم بين المرأة الأوروبية والمرأة المصرية يقول: (حقًا ليست لدينا سيدات بلاط ولا نساء سياسيات ولا متحذلقات...ولكن هل يعد هٰذا شيئًا سيئًا؟ إنني أجيب على استحياء: كلا)، فقاسم مقتنع بالنموذج الأوروبي للمرأة، وهو يعتذر باستحياء؛ لعدم وجود هٰذا النوع من النساء، كأنما كان في رده على الدوق داركور يقصد الدفاع عن الذات فقط.

وعلى الرغم من حماسة قاسم في موقفه هٰذا رأىٰ زملاؤه أن رده لم يكن في صف النهضة النسائية التي تتزعمها نازلي فاضل، ذلك أن قاسمًا اضطر إزاء هجوم «داركور»على الحجاب أن يرفع من شأنه ويعده دليلًا علىٰ كمال المرأة، حتىٰ عدوا موقفه هٰذا تنديدًا بالداعيات إلى السفور، وخصوصًا نازلي، وأرادوا أن يكلفوا فارس نمر صاحب «المقطم» أن يرد علىٰ قاسم، ولكن الشيخ محمد عبده وسعد زغلول وغيرهما توسطوا في الأمر، علىٰ أن يتقدم قاسم بالاعتذار إلىٰ نازلي، فقبلت اعتذاره وعاد يتردد علىٰ صالونها.

وفي هٰذِه الأثناء تزوج من فتاة تركية كانت تحت رعاية مربية إنجليزية، وكانت النساء التركيات أسبق من غيرهن إلى السفور، فكان لهٰذا الزواج أثره علىٰ تفكير قاسم، وتوسط قاسم لسعد فزوجه من ابنة أستاذه مصطفي فهمي الذي كان رئيسًا للنظار، فأصبحت زوجة قاسم وزوجة سعد صديقتين، حتىٰ إن زوجة قاسم كانت لا تجد مكانًا أقرب إليها من بيت صديقتها صفية زغلول

عندما تغضب من زوجها.

وعندما تصدىٰ قاسم أمين لموضوع المرأة ثانية، وجد من الشيخ محمد عبده كل تشجيع، وربما يكون قد أشرف بنفسه علىٰ ما كتبه قاسم، ووضع بين يديه ما كان كتبه في هٰذا الموضوع، فقد ٱجتمع قاسم أمين بمحمد عبده وسعد زغلول وأحمد لطفي السيد، وتلا عليهم بعض فصول كتابه «تحرير المرأة» في جنيف عام ١٨٩٧م، ولم يقف الأمر عند هٰذا الحد، بل ٱتخذ الشيخ محمد عبده من «المنار» مجلة تؤيد آراءه وآراء تلاميذه، وكان يعهد إلىٰ رشيد رضا بكتابة بعض المقالات تأييدًا لآرائه وتفنيدًا لحجج معارضيه، مما دعا«تشارلز آدمز» أن يطلق لقب «حزب المنار» على الذين تأثروا بتعاليم محمد عبده، ومما يؤيد ذلك أن «المنار» تناولت أكثر من مرة كتابي قاسم بالمدح والتقريظ، وهٰذا يعني أن الشيخ محمد عبده كانت له اليد الطولىٰ في تأليف كتاب«تحرير المرأة».

ويبدو أن ٱنشغال نازلي فاضل بأمورها الخاصة لم يتح لها أن تقوم بدور مباشر، ذلك أنها سافرت عام١٨٩٩م إلى المغرب وأسبانيا، واقترنت أثناء رحلتها بشاب تونسي، علىٰ أن ذلك لا يمنعنا من القول إن كتاب «تحرير المرأة»كان ثمرة من ثمرات صالونها.

وفيما يلي نعرض أهم القضايا التي طرحها قاسم أمين في كتابه«تحرير المرأة»وأثارت نقاشًا طويلًا، علىٰ أن نتجاوز موقفه من الزواج وتعدد الزوجات والطلاق، فقد ذكرنا أنه تابع فيها مواقف الشيخ محمد عبده، بل نقل آراءه نقلًا، ولهٰذا لن نعود إلىٰ عرضها ثانية.

ذكر قاسم في بداية كتابه أنه ليس ممن يطمح في تحقيق آماله في وقت قريب؛ لأن تحويل النفوس إلىٰ وجهة الكمال في شئونها مما لا يسهل تحقيقه، وإنما يظهر أثر العاملين فيه ببطء شديد، وهو يتوقع أن يلاقي عنتًا وإرهاقًا؛ نتيجة تصديه لهٰذا الموضوع، ولكنه يذكر أن نضوج الفكرة عنده

فيما يتعلق بحالة النساء المصريات دفعه أن يعلنها، وإن كان بعض معاصريه سينظر إلىٰ رأيه علىٰ أنه بدعة، كذلك دفعه إلى الكتابة ما رأىٰ من رقي النساء في البلاد التي تقدمت، حيث بدأن في تلك البلاد بقطع المسافات التي كانت تبعدهن عن الرجال، وعنده أن المرأة الأمريكية أرقى النساء وبعدها الإنجليزية، ثم الألمانية وتليها الفرنسية.

وهكذا جعل قاسم المرأة الأمريكية مثلًا أعلىٰ دون أن يفكر في الٱلتفات إلىٰ نموذج المرأة المسلمة؛ لأن الدين في رأيه لا سلطة له على العادات، (ولو كان لدين ما سلطة وتأثير على العوائد، لكانت المرأة المسلمة اليوم في مقدمة نساء الأرض).

ويرىٰ أن تربية المرأة الغربية لأبنائها تفوق تربية الرجال، وأن أحسن الناس حظًا في الغرب من ساعدهم الدهر في أن تتولىٰ تربيتهم ٱمرأة، ولهٰذا نلاحظ أن قاسمًا عندما رزق بابنتين أتىٰ للأولىٰ بمربية فرنسية وللصغرىٰ بمربية إنجليزية.

وفضّل نساء الإفرنج على النساء المصريات العفيفات، ذلك أن الإفرنجيات يمتزن- علىٰ حد تعبيره- بالوقار والسكينة والجدّ ويغضضن أبصارهن عن الرجال، أما العفيفة من المصريات فمتىٰ رأت رجلًا نظرت إليه وتأملته ولوت عنقها إليه.

ولثقته بالقيم الغربية، يرىٰ أن الصحابية الأنصارية أم عطية بمداواتها للجرحىٰ في المعارك التي ٱشتركت فيها أقرب ما تكون إلى ٱمرأة غربية من الممرضات اللائي وهبن حياتهن لخدمة الإنسانية، كما أنه لهٰذِه الثقة تقبّل الإحتلال الإنجليزي، وأشاد بالحرية التي تمتعت بها مصر في عهده إذ يقول: (نحن اليوم متمتعون بعدل وحرية لا أظن أن مصر رأت ما يماثلها في أي زمن من أزمانها).

وسلك قاسم بالنسبة للحجاب مسلكًا حذرًا في البداية، إذ رأىٰ أن

التغلب علىٰ هٰذا الأمر لا يتم إلا بالتدرج قال: (ربما يتوهم ناظر أنني أرىٰ الآن رفع الحجاب بالمرة، لٰكن الحقيقة غير ذلك، فإنني لا أزال أدافع عن الحجاب، وأعتبره أصلًا من أصول الآداب التي يلزم التمسك بها، غير أنني أطلب أن يكون منطبقًا علىٰ ما جاء في الشريعة الإسلامية)، ولٰكن ٱنتهىٰ حذره بعد هٰذا الكلام، ورأىٰ أن الحجاب دور من الأدوار التاريخية التي تلاشت طوعًا لمقتضيات الٱجتماع وجريًا علىٰ سنة التقدم.

وكما يحول الحجاب بين المرأة وارتقائها وبين الأمة وتقدمها، يمنع المرأة أن تتمتع بحريتها وأن تملك نفسها وتحقق وجودها، وحتىٰ يمكن تحقيق رفع الحجاب، رأىٰ أنه لابد من إعداد نفوس البنات في زمن الصبا، فيعودن بالتدريج على الٱستقلال، حتىٰ يعتقدن بأن العفة ملكة في النفس لا ثوب يختفي تحته الجسم، فتسهل عليهن معاملة الرجال، وهٰذا يعني أن دعوة قاسم للتخلص من الحجاب هي دعوة للاختلاط في الوقت نفسه؛ لأن عدم ٱختلاط المرأة بالرجل ينسيها-حسب رأيه-ما تعلمته في زمن قليل كأنها لم تتعلم شيئًا من قبل، وحتىٰ لا يضيع من الفتاة ما تعلمته، يرىٰ أن يستمر الٱختلاط حتىٰ بعد المرحلة الٱبتدائية؛ لأن السن الذي تحجب فيه الفتاة عن الرجال، هو السن الذي تظهر فيه حاجة كل من الرجل و المرأة إلى ٱختبار العالم، وهو السن الذي تظهر فيه الملكات.

وعنده أن أغلب نساء نصارى الشرق يعرفن لوازم الحياة؛ لكثرة ما سمعن ورأين باختلاطهن بالرجال، فارتفعن بفضل هٰذا الٱختلاط إلىٰ مرتبة أعلي من مرتبة المرأة المسلمة، لٰكن المرأة الأمريكية هي مثل أعلي في ذلك كما يبدو من قوله: (ومن المشاهد الذي لا جدال فيه أن نساء أمريكا هن أكثر نساء الأرض تمتعًا بالحرية، وأكثرهن ٱختلاطًا بالرجال، حتى البنات في صباهن يتعلمن مع الصبيان...ومع هٰذا يقول المطلعون علىٰ أحوال أمريكا: إن نساءها أحفظ للأعراض، وأقوم أخلاقًا من غيرهن، وينسبون صلاحهن

إلىٰ شدة الٱختلاط بين الصنفين من الرجال والنساء في جميع أدوار الحياة).

وبينما عدّ قاسم ٱختلاط النساء بالرجال في أمريكا مقومًا للفضيلة نشرت إحدى المجلات العربية نقدًا للمرأة الأمريكية يبين أن الحرية التي حصلت عليها كانت سببًا في فسادها، والنقد عبارة عن حديث لكاتبة أمريكية تحدثت فيه عن شيوع الطلاق في جميع الولايات المتحدة الأمريكية، حتىٰ إن المرأة الواحدة تزوجت و تطلقت خمس مرات، وتذكر هٰذِه الكاتبة أن ثمانين في المائة من حوادث الطلاق كانت بناءً علىٰ طلب من النساء، وتضيف الكاتبة الأمريكية، أن المرأة هناك تزدري المعيشة المنزلية والزواج فلا تستعد لهما؛ لأنها تسترجل سعيًا وراء الحياة وطلبًا للرزق، ووصفت الكاتبة نفسها المرأة الأمريكية بأنها فوضوية تكره النظام، ولا شريعة لها تسيرها غير شهواتها، وهي عاطلة من الفضائل الشريفة كالصبر على المكاره، كما أنها عاطلة من التدين، تحب لذاتها وتبيع من أجلها ما عز وغلا بأبخس الأثمان.

هٰذِه هي المرأة الأمريكية كما صورتها واحدة من بنات جنسها، وهي التي أراد قاسم أن يجعل منها مثلًا أعلىٰ تقتدي به نساء مصر.

أما بالنسبة لتعليم المرأة، فيرىٰ قاسم أن المرأة المتعلمة تخشىٰ عواقب الأمور أكثر مما تخشاها الجاهلة التي تتصف بالخفة والطيش، وأن ٱعتقاد معاصريه بأن التعليم يفسد أخلاق الفتاة ٱعتقاد باطل وسخيف.

وأما عمل المرأة ففي رأيه أن لا شيء يمنع المرأة المصرية أن تشتغل بالعلوم والآداب والفنون الجميلة والتجارة والصناعة مثل المرأة الغربية إلا جهلها وإهمال تربيتها، ولو أخذ الرجل بيدها، لصارت تنتج بقدر ما تستهلك مما يؤدي إلى ٱزدياد الثروة العامة.

ويستهزئ قاسم أمين برأي بعض المسلمين الذين يقولون: إن النساء ربات الخدور يعمرن المنازل وأن وظيفتهن تنتهي عند عتبة البيت، ويرىٰ أن هٰذا قول من يعيش في الخيال.

هٰذِه هي أهم الآراء التي عرض لها قاسم في كتابه «تحرير المرأة» فأثارت كثيرًا من المفكرين في عصره وشغلت الصحافة، ويبدو أن السبب يعود إلىٰ كون قاسم أول كاتب مسلم تصدىٰ لقضايا المرأة وحاول أن يعالجها من وجهة نظر غربية، ومن يمعن النظر في كتابه يلاحظ أن همه كان منصبًا على التوفيق بين الإسلام و الحضارة الغربية، وبمعنىٰ آخر أراد أن يضفي الصبغة الشرعية علىٰ دعوته، ويتضح ذلك من سخطه علىٰ رجال الدين، وزعمه أنهم يصدرون فيما يحلون وما يحرمون عن التقاليد والأوهام، التي ورثت عن الأسلاف علىٰ أنها دين.

وكان ردّ الفعل تجاه كتابه متفاوتًا، فبينما أيده بعض المفكرين ندد آخرون بما جاء فيه، وعلىٰ رأسهم الخديوي عباس الثاني؛ لأنه كان متحمسًا لفكرة الجامعة الإسلامية التي تبناها مصطفي كامل.

ومن هٰؤلاء الشيخ محمد حسنين البولاقي الذي ألف كتابًا في الرد علىٰ قاسم أسماه «الجليس الأنيس في التحذير عما في تحرير المرأة من تلبيس»، فنقض كثيرًا من آراء قاسم في القضايا التي أثارها، وذكر أن ٱستحسان الناس لدعوة قاسم وإعجابهم بها دفعه إلىٰ مراجعة كتب الشرع المعتمدة، ليُعلم الناس (فساد منتحله وتقوله على الشرع بما لم يوجد فيه بما يدل عليه أدنىٰ دلالة، دعاني ذلك إلىٰ أن أجمع في هٰذا الكتاب ما جاء به الشرع الشريف مما يدل علىٰ طلب الٱحتياط في شأن المرأة وسترها جميع بدنها عن نظر الرجال الأجانب، وعدم مخالطتها للرجال غير المحارم، ومنعها من الذهاب إلى الأندية...).

وذكر البولاقي أن كتاب قاسم مليء بالخرافات، وأنه يزخرف الباطل، ويصف دعوة قاسم بأنها طلب لتغيير ما جاءت به الشرائع، ورأىٰ أنه بما دعا إليه إنما يريد التشريع برأيه.

ووضع محمد فريد وجدي كتابه «المرأة المسلمة» ردًا علىٰ دعوة قاسم، وهو مع إيمانه بأن المرأة ذات شأن كبير في تكميل الأمة وتحسين حالها، يخالف قاسمًا في ٱحتذاء أي أمة من الأمم في كل الشئون الحيوية وخصوصًا شأن النساء؛ لأن التقليد يعني ٱستعداد الأمم الضعيفة لقبول مؤثرات الأمم القوية والاستسلام لها، ومعنىٰ ذلك أن النصيحة بالتقليد نصيحة بالاستسلام، ويرفض محمد فريد وجدي تهذيب المرأة المسلمة باقتفاء أثر المرأة في المدنية المادية، ولهٰذا يخالف قاسمًا فيما يتعلق بالحجاب، ويعتقد ضرورته ليس لعدم الثقة في المرأة، بل لكونه الضمانة الوحيدة لحريتها واستقلالها.

ويرىٰ أن القدرة الإلهية خصصت المرأة بتكثير النوع الإنساني، وأن هٰذا الٱختلاف في الوظيفة والخلق لم يترك لها مجالًا للتسابق، وأن ٱشتغال المرأة في أعمال الرجال قتل لمواهبها وإذهاب لملكاتها ومفسدة لتركيبها، وأن المرأة الغربية خارج بيتها هو أثر من آثار أسر الرجال لها.

ويذكر أنه ألف كتابه؛ تقوية لأنصار الحجاب، وانتصارًا للفطرة السليمة، وتعضيدًا للحق، وردًا لكل الٱعتراضات التي وجّهت إلى المدنية الإسلامية.

ومن الكتّاب الذين تعرضوا لآراء قاسم بالنقد، محمد طلعت حرب الذي أصبح فيما بعد من ألمع رجال الٱقتصاد في مصر، فقد ألف كتابه «تربية المرأة والحجاب» وذكر أن الناس ٱنقسموا حول كتاب قاسم قسمين، قسم يرىٰ رأي قاسم، وهم قلائل، وقسم آخر وهو أعظم عددًا، وقد أجمع أفراده على ٱستهجان ما ورد في الكتاب، وقالوا بأنه يدعوا إلىٰ بدعة في الدين والعوائد.

ويرىٰ طلعت أن كلا الحزبين مُسلّم بأن الدين لا يمنع من تعليم المرأة وتهذيبها، بل يحض علىٰ ذلك ويأمر به. ولٰكن ٱختلافهما يدور حول ما ينبغي أن تتعلمه المرأة وطريقة تعليمها وتهذيبها، ويعتقد حرب أن سبب هياج الرأي

العام ضد قاسم ناجم مما هو راسخ في أذهانهم من أن رفع الحجاب والاختلاط أمران تتمناهما أوروبا لغاية يعرفها كل من وقف علىٰ مقصدها نحو العالم الإسلامي ومطامعها فيه، وهو وإن كان يؤيد قاسمًا فيما ذهب إليه من ضرورة تربية المرأة وتهذيبها يخالفه في غيره.

ويلاحظ حرب أن قاسمًا متأثرًا فيما كتب عن المرأة بأمير علي الهندي وكتاب «الرحلة الأصمعية»، واعترض حرب علىٰ تسمية قاسم لكتابه «تحرير المرأة»، وتمنىٰ لو أنه أسماه «تربية المرأة والحجاب»، لأن المرأة المسلمة حصلت علىٰ حقوقها منذ زمن بعيد.

ويري حرب أن للرجل القوامة على المرأة، فله عليها السيادة، ولها منه حسن المعاملة والاحترام، وأن وظيفة المرأة في البيت ليست أقل أهمية من عمل الرجل خارجه، فعملها في البيت يستغرق كل وقتها، و المرأة بنزولها إلىٰ ميدان العمل حلت محل الرقيق، وأن النساء اللواتي يتعاطين أشغال الرجال، ويتركن الزواج تصح تسميتهن بالجنس الثالث، وأن حصول المرأة الأوروبية علىٰ حريتها في العصر الحديث كان في جو من الإلحاد والمادية، فمالت إلى الشهوات البهيمية، وثارت على الزواج، واعتبرته من أثار الوحشية الأولي.

وحتىٰ لا تقع المرأة فريسة لطرق التربية المادية يقترح أن تقوم تربية البنات و البنين على الطريقة التي يقتضيها الدين، وأن تقوم المدارس الأهلية بتصحيح ما أفسدته المدارس الأجنبية.

وأما الحجاب فإن حربًا يصر علىٰ ضرورته؛ لأنه أعظم قائد للعفة، فاجتماع الرجال والنساء بلباس الزينة، يجعل مغالبة الإنسان لشهواته من الأمور الصعبة.

هٰذِه هي أهم الكتب التي عارضت دعوة قاسم إلى السفور والاختلاط، ولٰكن أصحابها كانوا مع قاسم في دعوته إلىٰ تربية المرأة وتعليمها بشرط أن

يكون هٰذا التعليم و هٰذِه التربية متفقين مع أصول الأخلاق الإسلامية.

أما موقف الصحافة، فكان يتراوح بين التأييد الذي لا حد له، وبين المعارضة لبعض جوانب دعوته، وكانت صحيفة اللواء من الصحف التي حملت علىٰ قاسم، فكتب مصطفي كامل يعلق علىٰ دعوة قاسم، أنه ٱطلع علىٰ أحوال المرأة في دول أوروبية كثيرة، فوجد أن الحرية قد أفسدت على المرأة آدابها، ومحت كثيرًا من الأخلاق الفاضلة عندها، حتىٰ عمت الشكوىٰ هناك، ونظرًا لاختلاف العادات والتقاليد، فإن ما يوافق البلاد الأوروبية غير ما يوافق البلاد الإسلامية، ولكنه لم يعترض علىٰ وجوب الٱلتفات إلىٰ تعليم النساء وتربيتهن، ورأىٰ أن الحرية التي نادىٰ قاسم أمين بضرورة إعطائها للمرأة ستكون عاقبتها سيئة، وقال: (والرجل منا أهون عليه أن يموت من أن يرىٰ من أهله أو من بيته ٱمرأة فاسدة ولو كانت بهجة العلم وحليته).

وفتحت «اللواء» صفحاتها لأقلام المعارضين فاتهموه بأنه خدع بزخارف التمدن الأوروبي فرأى المحاسن ولم يبصر المساوئ، وأنه أخذ بآراء الدوق داركور، ولم يأخذ بآراء كثير من كتاب الغرب الذين عابوا على المرأة الأوروبية عبثها بحريتها، وتساءل بعض معارضيه عن موقفه من اليابان التي ٱرتقت إلىٰ مستوى الدول العظمىٰ على الرغم من أن نسائها لم ينلْن شيئًا من حرية المرأة الغربية، وأن المرأة هناك تربّي كي تكون زوجة مطيعة.

أما صحيفة «المؤيد»فقد نشرت كتاب «تحرير المرأة»، نظرًا للعلاقة الطيبة التي كانت تربط علي يوسف صاحب «المؤيد» بكل من محمد عبده وسعد زغلول، إلا أنها ٱضطرت تحت إلحاح من الرأي العام أن تفسح للمنتقدين علىٰ صدر صفحاتها، حيث نشرت مجموعة من المقالات لمحمد فريد وجدي.

ومن المجلات التي وقفت موقفًا غير متشدد من قاسم مجلة «المرأة في الإسلام» حيث دعت القراء أن يتأملوا كتاب قاسم قبل أن يتسرعوا في الحكم

عليه، ولكنها رأت أن قاسمًا تطرف عندما حكم على الحضارة الغربية أنها مبرأة من العيوب.

أما مجلة المنار فكانت علىٰ رأس المجلات المؤيدة والمتحمسة، ورأت أن التنديد بكتاب قاسم ليس ٱنتصارًا للدين، وإنما هو ٱنتصار للهوي، والوجدان، ودعت إلىٰ مساعدته في عمله.

وعدّت مجلة الموسوعات ما كتبه قاسم عن المرأة دررًا؛ لأنه علىٰ حد تعبيرها أفصح عن ٱحترام الدين للمرأة.

وأما المجلات التي كان يحررها أنصار دعوة قاسم فإنها فضلًا عن موقف التأييد نهجت نهجًا آخر، فكتبت مجلة «الضياء»التي كان يحررها إبراهيم اليازجي، أنه لم يكن من الصعب الفصل يين حجج الفريقين(لولا أن دخلت المسألة أخيرًا في دور ديني محض، وعاد الحكم فيها من خصائص الدين)، فالدين في رأي مجلة الضياء زاد مشكلة الإفراج عن المرأة تعقيدًا.

ونصح يعقوب صروف صاحب«المقتطف»قاسم أمين أن يعد موضوع المرأة بحثًا علميًا لا علاقة له بالأدلة الدينية، وطالبه أن يترك الشواهد الدينية، حتىٰ لا يترك المجال مفتوحًا لمن يريدون مناقشته من زاوية دينية، لأنهم سيجدون الأدلة متوفرة لديهم لنقض آرائه كما وقع فعلًا.

ودعت «ألكسندره أفرينو» في مجلتها «أنيس الجليس» المرأة أن تخرج من بيتها إلىٰ حياة المدنية الحقيقية، بتقليد نساء الإفرنج ومسيحيات الشرق، وذلك في معرض تقريظها لكتاب «تحرير المرأة» تقول: (...لقد كانت المسيحيات في الشرق الإسلامي من سنوات معدودة يحتجبن ويلزمن بيوتهن كالمسلمات، فأخذن يقلعن عن هٰذِه العادة بالتدريج حتىٰ صرن، يخرجن حاسرات ويحادثن الرجال، ثم ما ترتب علىٰ ذلك شيء...فقد دخلن في حياة جديدة من المدنية الحقيقية ومعونة الرجل، فإذا خسرن شيئًا موهومًا، فقد كسبن أشياء موجودة محسوسة... ولقد يقول البعض: إن للإفرنج دينًا ولنا

دين...ولكننا نعلم أننا قلدنا الإفرنج كثيرًا فيما هو ليس من عاداتنا فنجحنا...حتىٰ لقد قلدناهم في شرب الخمر المحرمة فنجحنا، فماذا يجري لو قلدت ٱمرأتنا ٱمرأتهم فتنجح نجاحها؟ أم نحن نكتفي بمجد الدنيا؛ بأن نساءنا مصونات وراء ستار...).

ولم يكتف أنصار تحرير المرأة بذلك، بل كانوا يبعثون إلىٰ قاسم رسائل التهنئة والتشجيع، فقد ذكر محمد طلعت حرب أنه أرسلت إلىٰ قاسم أمين خمس وسبعون رسالة يهنئه فيها أصحابها، ولٰكن ليس بين هٰؤلاء المهنئين سوىٰ ثلاثة مسلمين والباقي من النصارى الذين يفضلون مساواة المسلمين لهم(في هٰذا الأمر ما دام الٱبتذال مقدورًا عليه واحتجاب المبتذلات ضرب من المحال).

ويبدو أن المواقف المتباينة التي وجه بها كتاب «تحرير المرأة»، والتي تراوحت بين التجريح والتشجيع زادت صاحبه عنادًا ودفعته إلىٰ أن يستمر في دعوته، ولكنه هٰذِه المرة أخذ بنصيحة من نصحوه بالابتعاد عن الخوض في الأدلة الدينية، فألف كتابه الثاني «المرأة الجديدة».

أصر قاسم في كتابه الثاني «المرأة الجديدة» على الأخذ بالقيم الغربية، وذكر أن غرضه من تأليف هٰذا الكتاب، هو لفت أنظار النساء في مصر إلىٰ وضع المرأة الغربية الجديدة، التي تعد ثمرة من ثمرات التمدن الحديث، حيث بدأ ظهورها في الغرب علىٰ أثر الٱكتشافات العلمية التي خلصت العقل الإنساني من سلطة الأوهام والظنون وأبطلت سلطة رجال الكنيسة، ونسخت معظم ما كان الرجال يرونه من مزاياهم التي يفضلون بها النساء.

والمتمعن في كتاب قاسم يستطيع أن يميز أمورًا متعددة، منها عدم رضاه عن موقف العلماء والمشايخ الذين وقفوا في وجه دعوته، ويرىٰ أن المعترضين عليه والساخطين والساخرين منه، إنما يفعلون ذلك إرضاءً لعامة الناس والجهال منهم، وأن المشايخ الذين نددوا بآرائه هم أجهل الناس بأمور

دينهم، وأقلهم معرفة بكتاب الله، ورأىٰ أن الجرائد التي تسأل المشايخ عن آرائهم فيما يختص بالمسائل الاجتماعية وتستفتيهم في أمور المرأة مخطئة في ذلك، لأنهم يقفون في وجه الإصلاح، ولأن قضايا المرأة ينبغي ألا تبحث من زاوية دينية.

وقد جرته خصومته لرجال الدين إلى القسوة في الحكم على الحضارة الإسلامية، وكان خصومه يرون أن النهضة الحديثة ينبغي أن تستمد من التراث الإسلامي، دون الاعتماد علىٰ حضارة الإفرنج، ولهٰذا حاول في كتابه أن يثبت عدم صلاحيتها في أن تكون نموذجًا يحتذىٰ، فالحضارة الإسلامية شيدت في رأيه علىٰ أساسين، الأساس الديني الذي جعل من القبائل أمة واحدة، والأساس العلمي الذي ارتقت به عقول المسلمين، ولما كانت أصول العلم في ذلك الوقت ضربًا من الظنون سيطر رجال الدين علىٰ زمام الأمور، ووضعوا رجال العلم تحت مراقبتهم، ورموهم بالزندقة والكفر حتىٰ نفر الكل من دراسة العلم وهجروه.

فهو يرىٰ أن القائمين على الدين كانوا سببًا في إهمال العلم وتعطيل مدارك العلماء، وأن التمدن الإسلامي بدأ وانتهىٰ قبل أن يكشف الغطاء عن أصول العلم، وهٰذا يعني أن قاسمًا لا يعترف للمسلمين بأي دور علمي، ويرىٰ أن التمدن الإسلامي لا يمكن أن يكون نموذجًا للكمال البشري، بل يعتقد أن كل الفضل يعود إلى الأمم الأوروبية التي ورثت علم اليونان والرومان، وأحلت سلطة العلم محل سلطة رجال الدين بعد جهاد طويل.

ويرىٰ قاسم أن كثيرًا من مظاهر الحضارة الإسلامية لا يفيد في نظام المعيشة الحالية، ولا يجد في هٰذِه المظاهر ما يستحق أن يسمي نظامًا، وأن شكل الحكومة الإسلامية عبارة عن خليفة أو سلطان غير مقيد، وأن سلطة الشعب في ظل هٰذا النظام كانت لفظية فقط.

أما الناحية العائلية عند المسلمين فهي مجردة من كل نظام، حيث كان

الرجل يكتفي في عقد زواجه بأن يكون أمام شاهدين ويتزوج عدة نساء ..أين هٰذِه الفوضىٰ من النظامات والقوانين التي وضعها الأوروبيون؟ وأي شيء من هٰذا يمكن أن يكون صالحًا لتحسين حالنا اليوم، إن المدنية الإسلامية القديمة غير ما هو راسخ في مخيلة الكتاب الذين وصفوها بما يحبون أن تكون عليه، ولا يستغرب أن تكون المدنية الإسلامية قد أخطأت في فهم طبيعة المرأة وتقدير شأنها، فالتمسك بها إلىٰ هٰذا الحد من الأهواء التي يجب أن تحارب، لأن الميل إليها يجر إلى التقهقر.

والحل عند قاسم أن نربي أولادنا علىٰ معرفة شئون المدنية الغربية والوقوف علىٰ أصولها وفروعها ومجاراة الأمم المتمدنة؛ لأن التمدن يعني سوق الإنسانية في طريق واحدة، وهٰذا يعني أن قاسمًا يدعو إلى الأخذ بالقيم الغربية دون الٱلتفات إلى الخصائص التي تميز أمة عن أخرىٰ، والغريب في أمر قاسم ٱنه يدعونا إلىٰ تقليد الأوروبيين تقليدًا تامًّا على الرغم من معرفته بفساد عامتهم وخاصتهم، ويعتذر عن هٰذا الفساد بأن هٰذِه المدنية مؤسسة على الحرية الشخصية، وأن الفساد لاحق طبيعي من لواحق الحرية ونتيجة من نتائجها.

وعلى الرغم من وضوح موقفه من المرأة الغربية في «تحرير المرأة» زاده وضوحًا في «المرأة الجديدة» فدعا المصرية أن تجري علىٰ نسق الأوروبية والأمريكية وتحذو حذوهما، كما دعا الرجل إلىٰ ترك المرأة حرة لإرادتها واختيارها في ذهابها وإيابها، ورأىٰ أن أول عمل تخطوه المرأة في سبيل حريتها هو تمزيق الحجاب ومحو أثاره، ويرىٰ أن من حرية المرأة ألا يفتح الأب الخطابات التي ترد إلى ابنته، ويرىٰ أن سلطة الزوج لا تبيح له أن يطلع علىٰ أسرارها؛ لأن هٰذا العمل يعد تجسسًا مهينًا علىٰ حرية المرأة، ويبدي قاسم إعجابه بالرجل الغربي الذي بلغ ٱحترامه لحرية المرأة درجة كبيرة؛ لأنه لا يعترض عليها أن تسافر وحدها إلىٰ أبعد مكان في الأرض، ولأنه لا

يعترض أن يكون لزوجته أصدقاء غير أصدقائه.

ويرىٰ قاسم أن عمل المرأة ضروري لاستقلالها بمعيشتها، ولا يتم ٱستقلالها إلا إذا دخلت فيما دخل فيه الرجال من المهن، وتعلمت ما يمكنها تعلمه، حتىٰ تتغلب علىٰ مزاحمة الرجال، على الرغم من أنه يري أن نزول المرأة إلىٰ ميدان العمل سيخلق طبقة من النساء عاطلة عن الزواج أسوة بما حدث في فرنسا.

وليس من الصواب عنده أن تنقص تربية المرأة عن تربية الرجل، فيجب أن تتعود على الرياضة كما تفعل النساء الغربيات، وتشارك الرجل في أغلب الرياضات البدنية، وحتىٰ تحافظ المرأة علىٰ ما ٱكتسبته من علوم ينصحها ألا تقيم في البيت، بل لابد أن تشارك الرجل حياته(وما يلزم هو أن نضع يدنا في يدها، ونسير معها في الأرض.. وتحضر مجالسنا...إننا نريد أن تتحسن حال المرأة المصرية، بحملها علىٰ تقليد المرأة الغربية...).

هٰذا وبعد أن ٱستعرضنا معظم الآراء التي وردت في كتاب «المرأة الجديدة»، يمكننا القول: إن قاسمًا كشف عن رأيه في الحضارتين الإسلامية والأوروبية، وأنه لم يخف إعجابه الشديد بالقيم الأوروبية بينما حاول في «تحرير المرأة»، أن يوفق بين الٱتجاهين، ويقرب المسافة بين الحضارتين.

وسار قاسم في كتابه الثاني علي منهج يختلف عن منهجه في الكتاب الأول، فبينما أكثر في الأول من الأدلة النقلية المستمدة من الآيات والأحاديث والحوادث التاريخية، حاول في الثاني أن يأخذ بمناهج البحث الحديثة، فأكثر من إيراد الإحصاءات، ورفض كثيرًا من المسلمات، وفي الجملة حاول إتباع أسلوب علماء الٱجتماع الغربيين الذي لا يمكن تطبيقه بدقة إلا فيما يتصل بالعلوم التجريبية، و هٰذا يعني أنه أخذ بوجهة نظر يعقوب صروف بترك الٱستدلال بالنصوص الشرعية.

وإذا كان كتاب «تحرير المرأة» قد وجه بمعارضة شديدة من بعض

المفكرين، فإن كتاب «المرأة الجديدة» لم يواجه بنفس التشدد، ولم يقف في وجهه أحد غير طلعت حرب الذي ألف كتابه «فصل الخطاب في المرأة والحجاب» وقرر فيه موقفه الأول، وأصر علىٰ رأيه في أن الحجاب أصل من أصول الشريعة الإسلامية، وأنه لا يعيق تعليم المرأة وتربيتها.

وقد تعرض كتاب حرب هٰذا إلىٰ حملة شديدة من بعض المجلات كالمقتطف، التي دافعت عن التناقض الذي وقع فيه قاسم عندما دافع عن الحجاب في ردّه علىٰ«الدوق داركور» وبين هجومه عليه في كتابيه الأخيرين، ووجهت اللوم إلىٰ طلعت حرب (الذي ينسب كل تأخر تأخرناه إلى ٱختلاطنا بالأجانب.

كما دافعت مجلة «أنيس الجليس» عن قاسم أمين، ورأت أنه مسلم عريق في إسلامه، وطالبت الباحثين في أمر الحجاب أن يجتهدوا في تأويل النصوص الشرعية حتىٰ يمكن الأخذ بآراء قاسم بعد أن ملأت آداب أوروبا أسماعنا وقلدناها على الدوام، وترىٰ أن نساء المسلمين المحجبات قد صرن يلبسن لباس الباريزيات(فإذا نضون اللثام بعض الشيء فلا يكون هٰذا الخطب العظيم بمذكور، لأن نساء المسلمين يصبحن به مثل الأوروبيات، وليس في ذلك ما يشين...).

أما مجلة «الهلال» التي أصدرها جرجي زيدان، فأطلقت علىٰ قاسم أمين لقب (محرر المرأة المسلمة)، ووصفت ما قام به، أنه شجاعة أدبية يندر مثالها، ولا يتم الإصلاح إلا بها، وأن فضل قاسم ليس في معرفة حقوق المرأة فقط، بل في التصريح بذلك علىٰ رءوس الملأ.

ووصفت مجلة «الجامعة» -التي كان يصدرها فرح ٱنطون- قاسمًا بأنه «ديكارت جديد»؛ لأنه علىٰ حد قولها هدم السور الذي أقامته المدنية الإسلامية، والذي كان يحول بين المرأة والعالم الخارجي، وأن كتابي قاسم سيحدثان ٱنقلابًا في الشرق ينتظره العقلاء منذ زمن بعيد.

واعتذرت «المنار» عن مغالاة قاسم في بيان مضار الحجاب، وادّعت أنه لابد من شيء من الباطل لأجل الوصول إلى الحق، كما ٱعتذرت عن الشيخ محمد عبده عندما رفض أن يدلي برأيه في كتاب «المرأة الجديدة» وعللت ذلك بكثرة مشاغله، وأن وقته لا يسمح بقراءة الكتاب.

وكان «المقتطف» أكثر حماسًا من غيرها فأطلقت علىٰ قاسم لقب «لوثر الشرق»ودعت أهل الإسلام إلى القيام بثورة إسلامية إصلاحية، وجعلت قاسمًا من زعماء هٰذِه الثورة، ودعت غير قاسم أن يجري علىٰ طريقته في الدعوة إلىٰ إهمال المدنية الإسلامية والاتجاه إلى الحضارة الغربية.

علىٰ أنه لم يؤيد من المجلات والصحف فقط بل لقد أيده في دعوته رئيس النظار مصطفىٰ فهمي، وربما كان هٰذا من دواعي جرأة قاسم وتماديه.

ويبدو أن دعوة قاسم لتقليد الغرب لم تكن محصورة في مجال المرأة، لأنه فيما ذهب إليه عدّ الإيمان مسألة شعور صرف، وأن ٱختصاص الدين لا يتعدىٰ دائرة المجهول، كذلك ٱنتقد المبالغة في تقدير اللغة الغربية، ورأىٰ أنه لا ضرورة لاستبدال الكلمات الأجنبية بأخرىٰ عربية، فمثلًا كلمة (أتوموبيل) تقوم عنده مقام كلمة (سيارة) واقترح تسكين أواخر الكلمات حلًا لمشكلة اللحن وتقليدًا للغات الأوروبية.

وعندما عمل قاسم رئيسًا للجنة تأسيس الجامعة بالنيابة ٱتهمته مجلة المجلات العربية بإخفاء نشاطات أعمال اللجنة بقولها: (في الأسابيع الأولىٰ من حياة لجنة المشروع...كانت محاضر أعمالها ترسل إلى الجرائد، ولٰكن ٱحتجبت أعمال اللجنة عن الأمة بالمرة، فهل أصبحت اللجنة الآن من اللجان الماسونية السرية؟).

ويبدو أنه ظل حريصًا علىٰ تحقيق مبادئه في الٱختلاط حتىٰ آخر لحظة من حياته، فحضر ٱحتفالًا أقيم في نادي «دار العلوم» بمناسبة زيارة وفد من الطالبات الرومانيات لمصر، وخطب في هٰذا الٱحتفال قائلًا: (قرب الله ذلك

اليوم الذي نرىٰ فيه الطالبات المسلمات المصريات جالسات بجانب طلبتنا كجلوس زائرتنا بجانبهم)، وحتىٰ تتحقق أمنية قاسم ٱقترح«أخنوخ فانوس القبطي»في حفلة أقامها نادي النيل في أسيوط، لتأبين قاسم تطبيقًا عمليًا لمبادئه، وهو أن يأخذ الكبراء والأدباء والقضاه وغيرهم(كل بذراع ٱمرأته ويمشي معها في طرق رقي الأمة المصرية..).

وإذا صح ما ذكره سعد زغلول في مذكراته تحت عنوان «موت صديقي قاسم» أن موت قاسم كان نتيجة الٱنتحار؛ لأنه كان عاشقًا لزوجة أحد أصدقائه، فإن قاسمًا كان أول جان لثمرات الٱختلاط الذي دعا إليه.

وفي ظننا أن الضجة التي أثيرت حول آراء قاسم ما كانت تصل إلىٰ هٰذا الحد، لو لم يحاول أن يلبس دعوته ثوب الدين؛ لأنه بهٰذا كان أول مسلم يطرح لمشاكل المرأة المسلمة في مصر حلولًا ليست مستوحاة من حضارة المسلمين وتقاليدهم.

ومهما يكن فقد وجدت الصحف والمجلات في دعوته زادًا لحملتها على التقاليد، فمثلًا ترىٰ مجلة «الضياء» أن على المرأة المسلمة أن تطالب بإلغاء الحجاب والسماح لها بالاختلاط؛ لأنهما من دواعي تأخر المرأة، (وبالاختصار فإنها حائزة جميع الحقوق التي تتمتع بها سواها ما خلا الحجاب والمنع من مخالطة الرجال، وهو مهما قيل في وجوبه لا شك أنه من دواعي تأخر المرأة وانحصار معارفها في حدود ضيقة).

وعندما وجدت المجلات أن محاولاتها الدائبة مع المرأة المصرية لتقليد الأوروبية لم تؤت ثمارها المرجوة بالسرعة المطلوبة، ٱتجهت نحو المرأة التركية، عسىٰ أن تقتنع المصرية باتخاذها نموذجًا يحتذىٰ، فقالت مجلة الحكمة: (...و هاكم النساء في الأستانة العلية دار الخلافة الإسلامية، فإنهن يتجولن في الشوارع ويدخلن المنازل ويشترين ما شئن حاسرات الوجوه مظهرات السواعد...وأن النشأة هي المعول عليها في صيانة المرأة وليس

المعول على الحجاب...).

حتىٰ إذا أشبعت المجلات مسألة الحجاب بحثًا وتفنيدًا، ٱنتقلت إلى التركيز علىٰ موضوعات أخرىٰ مثل عمل المرأة واختلاطها، فدعت مجلة «أنيس الجليس» المرأة العربية إلى العمل بعد أن تحرر وتعتق- علىٰ حد قولها-، (لأن الشيء الذي كان يطلب من المرأة صنعه في بيتها وبيدها صنعًا خاصًا لها ولأسرتها قد صارت تصنعه في غير بيتها بمشاركة سواها، فيكون لها وللجميع... وعلىٰ هٰذا ٱنقطعت الخدمة البيتية وقامت مقامها خدمة الأسواق، وأصبح تحرير المرأة كأنه تحرير لها من منزلها، حتىٰ نسيت كل أشغال البيت المطلوبة) فالمجلة تدعو المرأة المصرية إلى التخلص من عبودية البيت كما فعلت المرأة الغربية، لتجعلها عبدة عند أصحاب المصانع.

ودعت مجلة «فتاة الشرق» المرأة المصرية إلىٰ ترك بيتها أسوة بالأمريكية التي لم تعد تحتمل أن تبقىٰ ضمن جدران البيت، وأن تبقىٰ معارفها محصورة في ترتيب أثاثه وفي الطبخ والغسل وغير ذلك من الأشغال المملة التي تسبب الضيق النفسي والعقلي، والتي ما تزال نساء الشرق تتعاطها، وحضت النساء أن ينزلن إلىٰ ميدان العمل بحجة أن أكثر الأشغال أصبحت آلية لا تحتاج إلىٰ جهد عضلي، وهٰذا ما تستطيع النساء أن تفعله بسهولة.

ودعا شبلي شميل إلى القيام بثورة عنيفة لاقتلاع العادات الراسية في المجتمع كالحجاب وغيره، ورأىٰ (أن تحرير المرأة إلى الغاية القصوىٰ لا يتم بدون تحرير الجسم إلى الغاية القصوىٰ أيضًا، فطالب تحرير المرأة لا يسعه أن يطلبه من جهة واحدة)، ولهٰذا فهو يعتبر الحجاب كفنًا وبقية باقية من ضروب الظلم، وهو يرىٰ أن المرأة المصرية لو تخلصت من حجابها لتخلصت من أكثر عيوبها.

وهكذا ٱتخذت بعض الصحف والمجلات من هدم الحجاب وسيلة

لفتح باب البيت المصري علىٰ مصراعيه للراهبات والمبشرات، كي ينفذن إليه بعد أن تعذر عليهن ذلك بسبب الحجاب، فقد ٱشتكي الفيلسوف الفرنسي «جول سيمون» في كتابه «المرأة في القرن العشرين»، (أن أرباب الدين يبعثون المرسلين إلى الشرق، لٰكن هٰؤلاء المرسلين لا يدخلون بيت الرجال إلا بصعوبة بالغة، فضلًا عن كونهم لا يستطيعون مخالطة النساء والنفوذ إليهن، أما الراهبات فانهن ينفذن إلى النساء، ولكنهن لا يخالطن إلا النساء المهجورات أو المتألمات...).

ومن الموضوعات التي خاضت فيها الصحف والمجلات موضوع الزواج، فدعا بعضها إلى الزواج المدني أسوة بما يحدث في أمريكا وأوروبا، فمثلًا كتب مرقص فهمي المحامي رواية بعنوان«المرأة في الشرق»طالب فيها مع رفع الحجاب والسماح بالاختلاط وحجر التعدد بضرورة (الترخيص بحل الزواج بين المسلمين والأقباط، فيجوز لقبطي أن يتزوج مسلمة، كما أباح الشرع عكسه، حتىٰ يمتنع التعصب وينتفي التصور المستحكم بين الجهتين، وتتم الحضارة والمدنية)، فالحضارة لا تدخل مصر إلا إذا أسفرت المرأة وتزوجت المسلمة من القبطي علىٰ حد زعم الكاتب.

وهكذا أصبح الزواج المدني من الموضوعات التي تطرقها المجلات باستمرار، وبعد أن كان الكلام عن الزواج المدني مجرد تعريف به، أصبح له أنصاره ودعاته والمدافعون عنه، فكتبت مجلة «أنيس الجليس» مقالًا عن الزواج المدني بينت فيه أن أمريكا والدول الأوروبية قد آثرت الزواج المدني المنسوب إلىٰ نابليون، حيث حدد هٰذا القانون سن الثامنة عشرة للرجال والخامسة عشرة للنساء، وهٰذا ما طالبت به الجمعيات النسائية في مصر فيما بعد.

أما مجلة «الٱستقلال» فنشرت مقالًا بعنوان (هل الزواج الدائم مفضل عن الزواج المؤقت)، وكتب بولس مصوبع في مجلة «المستقبل» داعيًا إلى الزواج المدني بقوله: (...أوليس من نكد الدنيا على الحر في شرقنا أن يتقيد

بالزواج الديني في حين أن الزواج عقد من صميم العقود المدنية، وأنه عند الأمم المتقدمة زواج مدني..).

ولم يقف أمر تقليد نساء أوروبا عند هٰذا الحد بل دعت بعض مجلات السيدات إلى ٱستعمال التبغ أسوة بنساء أوروبا فقالت: (...وأصبح الجميع - تعني في أوروبا- يستعملونه حتى النساء والأولاد، وأصبح ما كان عارًا على النساء بالخصوص، وهو كأنه من مكملات مدنيتهن ومتممات محاسنهن، ولهٰذا صار شيئًا مألوفًا أن تقدم تبغك لكل ٱمرأة تزورك...وهو وإن لم يكن جاريًا كل هٰذا المجرىٰ هنا، فجار في أوروبا، وسيجري عندنا بعد حين مدفوعًا بنفس السبب... وهو كون المرأة صارت حرة تشتغل لنفسها، كما يشتغل هو تمامًا فكان لابد لها مما لابد منه...).

وبدأت المدنية الغربية تغزو مصر في كثير من نواحي الحياة، ولم تعد المجلات تجد ضيرًا في الكتابة عن الجمعيات المختلطة ومسابقات الجمال بين النساء، فقد كتبت مجلة «فتاة الشرق» مقالًا بعنوان: «معرض الحسان» ذكرت فيه أنه (أنشئت جمعية مختلطة في الإسكندرية في أوائل هٰذِه السنة للسمر بين الأسر وإحياء الحفلات الراقصة، وقد أعلنت هٰذِه الجمعية أنها ستفتتح حفلات هٰذا الشتاء بمعرض للحسان تتسابق فيه الغيد؛ لإظهار ما أودع فيهن من أسرار الجمال...).

وهكذا أصبح المجتمع المصري مضطرًا أن يتقبل كل بدعة تصدر إليه من الغرب، وأصبح سيل جارف من العادات يدخل مصر، و المرأة المصرية تنظر حولها فلا تجد من ينقذها، بل على العكس من ذلك تجد كل شيء حولها يغري بالخروج علىٰ ما ألفت من العادات والتقاليد.

ويبدو أن إلحاح المجلات والصحف على النساء، كي يخرجن من دائرة البيت الضيقة قد أثمر، وبدأت بعض نساء أغنياء مصر يحاولن القيام ببعض النشاطات، فمثلًا دعت زوجة محمود رياض عام١٨٩٨م بعض النساء إلىٰ بيتها، واقترحت عليهن أن تنشئ في منزلها ميدانًا للعب كرة الطاولة، ولٰكن

ٱستجابة النساء اللواتي عرضت عليهن الفكرة لم تكن مشجعة رغم محاولاتها المتكررة، ويمكن وصف هٰذِه الدعوة بأنها كانت أول محاولة نسائية في مصر لتكوين تجمع نسائي ويلاحظ أن هٰذِه المحاولة كانت متجهة من البداية نحو النشاطات الرياضية، وهكذا أخفقت المحاولة الأولي.

وحاولت ألكسندره أفرينو[١] صاحبة مجلة «أنيس الجليس» أن تقوم بدور نسائي نيابة عن نساء مصر، دون أن يكلفها أحد بذلك، فأهدت للجمعية الباريسية راية مطرزة بالذهب باسم نساء الأمة المصرية، وألقت في باريس خطبًا عديدة عن المرأة الشرقية، والذي لا شك فيه أن صاحبة «أنيس الجليس» قامت بدور واسع في سبيل إقناع المرأة المصرية بالسير علي خطوات المرأة الغربية من خلال مجلتها، حتىٰ ليمكننا القول إن مجلتها قامت بدور مماثل لدور صالون نازلي فاضل، وحتىٰ كان من آثار ذلك النشاط أن ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين وجوه نسائية كان لها رأي فيما يدور حولها.

ومن هٰؤلاء عائشة التيمورية[٢] التي عبرت عن رأيها في نساء عصرها

---

(١) ألكسندره أفرينو: هي ابنة قسطنطين نعوم خوري ولدت في بيروت، ثم قدمت إلى الإسكندرية في العاشرة من عمرها، تزوجت من رجل يوناني يدعي «ملتيادي دي أفيرنوه»، نظمت الشعر وأنشأت مجلة «أنيس الجليس» في الإسكندرية عام١٨٩٨م، منحها نابليون الثالث عشر وسام القديس بطرس، ومنحها بطريرك القدس صليب القبر المقدس، وزارت البابا «بيوس العاشر» مرتين في روما، ٱنظر مجلة «فتاة الشرق» السنة العاشرة، الجزء الأول ١، أكتوبر/تشرين أول ١٩١٥م، ص٣-١١.

(٢) ولدت في القاهرة عام١٢٥٦هـ، درست علوم العربية والتركية والفارسية، وكتبت الشعر بهٰذِه اللغات، لها ديوان حلية الطراز، وكتاب «نتائج الأحوال»، كانت بينها وبين نساء عصرها مراسلات توفيت عام١٩٠٢م في القاهرة، ٱنظر كتاب «المرأة في عالمي العرب والإسلام»، تأليف عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولي٢/ ٢٩٨-٣٠١.

ورجاله، فهي تري أن الله تعالي فضل الرجال على النساء بما أنفقوا من أموالهم، ولكن الرجال والنساء ٱنحرفوا عن هٰذا الطريق، فأصبح هم كل رجل من الأقتران بامرأة بحثًا عن المال والضياع والعقار، دون أن يسال عن العفاف والنسب والتدين فيمن يقترن بها، وليس له من هم سوى الٱستيلاء علىٰ أموال زوجته؛ لينفقها خارج البيت علىٰ ملذاته؛ ليعود في آخر الليل مخمورًا، وواضح من موقف عائشة التيمورية أنها لا ترضىٰ عن هٰذِه التصرفات من قبل الرجل، وأنها تريد منه أن يعمل خارج بيته؛ ليسد حاجات أسرته، وأن على المرأة أن تدبر شئون منزلها،فإذا ٱختلف الحال واعتمد الرجل في تدبير أمور معاشه علىٰ زوجته فإن الأمور تختل، ويؤدي ذلك إلى ٱضطراب معيشة الزوجين وفسادها، وحتىٰ تدلل علىٰ وجهة نظرها ساقت قصة الأسد الذي ٱعتمد علىٰ أنثاه في طعامه وأطاعته الزوجة بعض الوقت، ثم صارت تعطيه ما تبقىٰ من طعامها، فلما ثار الأسد علىٰ هٰذِه الحالة، وطالب أن يتناول الطعام قبلها أجابته أنثاه، (كان ذلك منذ كنت أنت أنت وأنا أنا، أما الآن وقد ٱنعكس الحال وصرت أنا أنت وأنت أنا، فلك عليَّ ما كان لي عليك، ولي عليك ما كان لك عليَّ)، وبهذا عبرت عن رفضها فكرة عمل المرأة خارج بيتها؛ لأنها تعرض مقاييس المجتمع للخطر، كذلك رأت أن سبب فساد أخلاق بعض النساء ناجم عن سوء التربية وعدم التهذيب، وحتىٰ تستقيم حياة الأسرة وتنتظم أمورها فإن على الزوجة أن تنقاد لأوامر الزوج، وعليه أن يتحمل القيام بكل حقوقها، أما إذا ٱنقلب الموضوع، وصار لها الولاء، فإن الزوجة تلقي وشاح الحذر، وترمي برقع الحياء.

ودعت التيمورية إلىٰ ضرورة تربية البنات وتعليمهن؛ لأن العائلات لا تصلح إلا بذلك، وعلى الرغم من دعوتها إلىٰ تربية البنات وتعليمهن ظلت متمسكة برأيها في ضرورة المحافظة على الحجاب، ولم توافق علىٰ آراء قاسم أمين بضرورة تركه، فقالت:

بيد العفاف أصون عزّ حجابي وبعصمتي أسمو علىٰ أترابي

وكانت زينب فواز[١]من النساء اللواتي ساهمن في الحركة النسائية في مصر، وكانت معاصرة لعائشة التيمورية، وكان لها تأثير علىٰ نساء عصرها، وعلى الرغم من أن زينب فواز لم تكن ممن يطالبن بإلغاء الحجاب، وجهت اللوم إلى الرجل؛ لتشدده (بإغلاظ الحجاب وسد أبواب التعليم في وجه المرأة وعدم الخروج من المنزل وبحرمانها من حضور المحافل النسائية العامة إلىٰ حد أنه كان يخيل إليها أن تلك الأفعال من الموبقات..).

وتهيب زينب فواز بنساء عصرها أن يتعلمن الآداب والعلوم، ويشمرن عن ساعد الجد من أجل سعادتهن التي لا تتم إلا بالأخلاق الحميدة المهذبة والعفة والذكاء والرصانة وحسن السلوك، وترىٰ أن الحضارة والتمدن اللذين وصل إليهما الإنسان بحاجة إلى الشريعة كمرشد يدعو كل واحد إلى الوقوف عند حده، وتخالف زينب فواز قاسم أمين فيما يتعلق بالاختلاط، فهي ترىٰ أن لا ضرورة للاختلاط؛ لان الشرع نهىٰ عنه، ولكن لا حجاب بين المرأة ودرس العلوم واكتساب المعارف، ولهٰذا تدعو إلىٰ تشييد المدارس لتعليم البنات علىٰ مقتضي القواعد الدينية.

---

(١) ولدت زينب فواز عام ١٨٦٠م صيدا، وارتحلت في العاشرة من عمرها إلى الإسكندرية، حيث تعلمت القراءة والكتابة علىٰ يد أحد المشايخ في الإسكندرية وكتبت الشعر، ألفت كتاب «الدر المنثور»، وترجمت فيه لكثير من شهيرات النساء، قالت في مقدمة كتابها: ولم أرىٰ من أفرد لنصف العالم الإنساني بابًا باللغة العربية جمع فيه من اُشتهرن بالفضائل مع أنه نبغ منهن جملة سيدات لهن المؤلفات...فلحقتني الحمية والغيرة النوعية علىٰ تأليف سفر يسفر عن محيا فضائل ذوات الفضائل.

أنظر «الدر المنثور في طبقات ربات الخدور» تأليف زينب فواز، الطبعة الثانية، دار المعرفة-بيروت. وانظر في ترجمة حياة زينب فواز، كتاب «بلاغة النساء في القرن العشرين»، جمع فتحية محمد، القسم الأول ص١١٦ .

ويبدو أن زينب فواز بما دعت إليه من آراء كانت متأثرة بمبادئ الحزب الوطني الذي رفض دعوة قاسم إلى الاختلاط، ولكنه دعا إلىٰ تربية الفتاة وتعليمها، ولذلك وقفت تخطب في السيدات في الذكرى الأربعين لوفاة مصطفي كامل.

علىٰ أن محاولات النساء لتأسيس جمعيات نسائية كانت ما تزال تداعب أذهانهن، على الرغم من فشل المحاولة الأولىٰ التي أشرنا إليها، ويبدو أن التقليد كان هو الدافع وراء ذلك، فقد دعت الأميرة «عين الحياة» إلىٰ تكوين جمعية من السيدات المصريات علىٰ غرار الجمعية التي أنشأتها زوجة «كرومر»، وقد فشلت هٰذِه الجمعية أيضًا، لكن مؤسستها نجحت في عقد أول اجتماع نسائي في الجامعة الأهلية عام١٩٠٨م لسماع محاضرة ألفتها امرأة فرنسية متخصصة في الآداب، وكان هٰذا أول اجتماع من نوعه تلقىٰ فيه محاضرة علىٰ مسامع السيدات في مصر.

ثم كانت محاولة أخرىٰ عام١٩٠٩م حيث أنشئت جمعية المرأة الجديدة، التي انضمت إليها هدىٰ شعراوي وأصبحت رئيسة فخرية لها، ولكن الجمعية لم تواصل عملها.

وفي هٰذِه الفترة بدأ حزب الأمة يتغلب شيئًا فشيئًا على الحزب الوطني بعد موت مصطفي كامل، وكان اتجاهه غربيًا أوروبيًا، وكان يدير ظهره للخلافة، وينادي بالإصلاح على الطريقة الأوروبية، وبفصل الدين عن الدولة، واستبدال الرابطة الوطنية بالرابطة الدينية، ولما كان أحمد لطفي السيد هو مفكر الحزب والمسئول عن جريدته، بدأ يوجه الحركة النسائية فوضع قاعة صحيفة«الجريدة» تحت تصرف النساء أيام الجمع، كي يستمعن إلىٰ محاضرات تلقىٰ عليهن، ولم يقف الأمر عند هٰذا الحد، بل أنشأت الجامعة الأهلية قسمًا ليليًا تلقىٰ فيه المحاضرات على النساء، وبدأت الجامعة ترسل الدعوات إلى النساء بواسطة خطابات باسم كل مدعوة،

وقامت باحثة البادية بإلقاء بعض المحاضرات، فكانت أول خطيبة نسائية في حزب الأمة، ولكنها أصرت علىٰ أن الوقت ما يزال غير مناسب لترك الحجاب ودعت إلى المحافظة عليه؛ لأن إزالة الحجاب واختلاط النساء بالرجال سيجر على المرأة متاعب لا حصر لها ورفضت الدعوة إلىٰ تقليد الغرب في اللباس والأزياء؛ لأن ما عند الغربيين لا يوافق روح الشرق، وتقليد الشرق للغرب يفقده مقوماته؛ لأن الضعيف إذا قلد القوي فني فيه، ولهٰذا تري (أنه لابد من إيجاد مدنية خاصة بالشرق تلائم غرائزه وطبائع بلاده، ولا تعوقنا عن ٱجتناء ثمرات التقدم الحديث...).

وحملت باحثة البادية على المصريين الذين يتزوجون بالأجنبيات، ورأت أن أكثرهن(إن لم نقل كلهن من فريق الراقصات والخادمات وأضرابهن...أليس من العار أن تقدر علىٰ أن تجعل ابنك شريفًا من أم ذات حسب فتختار أن يكون ابن راقصة أوروبية...).

ولم تكتف بذلك بل حملت علىٰ خريجات مدارس الراهبات، وعلى النساء اللواتي يستعملن الأصباغ، وأنكرت على النساء تعاطي التبغ والخمر، (إنهن-والأسف ملء فؤادي- يتعاطين الخمر سرًا وجهرًا، أعوذ بالله من شر المدنية الحديثة ومن شر التقليد الأعمىٰ، الرجل أبشع ما يكون حين يسكر، و المرأة أبشع ما تكون حين تشرب الخمر...).

علىٰ أن باحثة البادية قامت بالموازنة بين المرأة الغربية و المرأة المصرية، ودعت إلى التمييز بين ما هو ضار ومفيد، (وإذا أردنا أن نكون أمة بالمعنى الصحيح تحتم علينا أن لا نقتبس من المدنية الأوروبية إلا الضروري النافع بعد تمصيره...).

وإذا أعدنا النظر في مواقف النساء التي ذكرناها وجدنا أنهن كن أكثر حذرًا من الرجال في الٱندفاع نحو التقليد وحرصًا على ٱنشاء جمعية خاصة بهن، وهٰذا ما نجحن فيه بعد ذلك، تألفت (جمعية النساء التهذيبي) حيث

ٱجتمعت فئة من النساء في دار الجامعة المصرية، وافتتحت الٱجتماع السيدة «بنج» قرينة قائد الإحتلال الإنجليزي، فألقت على النساء خطبة بالإنجليزية أبانت فيها عن الغاية التي تألفت من أجلها الجمعية، وهي تشجيع الفتيات اللواتي أنهين دروسهن في المدارس علىٰ متابعة التعليم، بترددهن إلى الجامعة واستماع المحاضرات.

وهكذا شكلت أول جمعية نسائية في مصر بتشجيع وتوجيه من سلطات الإحتلال الإنجليزي، حتىٰ إن الإنجليزية كانت لغة التخاطب، في جلسات هٰذِه الجمعية، كذلك كان أكثر عضوات مجلس الإدارة غير عربيات، حيث تألف مجلس الإدارة من السيدة «بنج» رئيسة، والسيدة «دفونشير» سكرتيرة عامة، وباحثة البادية سكرتيرة اللغة العربية، والسيدة «روبرتسون» سكرتيرة للغة الإنجليزية. ولو ٱستعرضنا أسماء عضوات الجمعية لوجدنا أكثرهن كذلك من الأجنبيات أو من الشاميات المهاجرات إلىٰ مصر، حيث كانت زوجة فارس نمر صاحب المقطم، ومي زيادة، ولبيبة هاشم من السوريات، ومن المصريات: برز ٱسم هدىٰ شعراوي وباحثة البادية.

وقد نص قانون الجمعية ألا تتعرض لأي نقاش ديني أو سياسي، وهٰذا يعني أن الجمعية أبعدت الدين عن نشاطها، ويبدو أن هٰذا المبدأ سيصبح قاعدة تسير عليها الجمعيات النسائية فيما بعد، ولٰكن هٰذِه الحركة أيضًا من قبل النساء لم يطل بها العمر، إذ سرعان ما هبت رياح الحرب الأولي سنة١٩١٤م، فقضت على المشروع.

وظل الأمر كذلك حتىٰ نهاية الحرب العالمية الأولي، وخشي المصريون أن تتحول الحماية الإنجليزية، إلىٰ ضم نهائي، ومن ثم كان ٱجتماع أحمد لطفي السيد وسعد زغلول ومحمد محمود باشا وعلي شعراوي حيث دعا محمد محمود إلىٰ ضرورة السعي للحصول علىٰ حقوق البلاد وتأليف وفد للعمل لهٰذِه الغاية، فأبىٰ سعد زغلول موافقته علىٰ هٰذِه الغاية

قائلًا : (إن الوقت غير مناسب الآن، الإنجليز منتصرون، وعددهم، ومعداتهم كثيرة تملأ البلاد، وهٰذا وضع لا أمل معه في مجرد الحصول علىٰ شيء منهم، ثم ٱستطرد قائلًا: أرى الأولىٰ من ذلك أن تؤلف جمعية يساعد أعضاؤها بعضهم بعضًا...).

ولٰكن سعدًا عاد فغير رأيه، وذهب مع عبد العزيز فهمي وعلي شعراوي لمقابلة السير«وينجت» لاستصدار تصريح منه لسفر الوفد إلىٰ أوروبا للمطالبة بحقوق مصر، لٰكن «وينجت» عدّ مقابلتهم مجرد زيارة ليس لها طابع رسمي، ولهٰذا فكر بعض المصريين في تعيين وفد للمطالبة باستقلال مصر، بشرط أن يحصل هٰذا الوفد علىٰ توكيل من الناس بنيابته عنهم، وأدىٰ ذلك إلىٰ نفي الزعماء الذين طالبوا برفع الحماية عن مصر، ومنهم سعد زغلول ومحمد محمود باشا وغيرهما، وفي هٰذِه الأثناء ٱستغل حزب الأمة غضب الجماهير واشتراكها في المظاهرات تعبيرًا عن سخطها على الإنجليز، فدفع بالمرأة كي تشترك في المظاهرات، تحقيقًا لمبادئ لطفي السيد الذي كان يرىٰ أن ترقية الفتاة وتعليمها(إتيان للاستقلال من بابه ودخول إلى التقدم من نهجه الواضح).

وهكذا ٱشتركت المرأة المصرية في المظاهرات، فخرجت بعض السيدات في ١٦مارس ١٩١٩م في مظاهرة طافت شوارع القاهرة، وحملت المتظاهرات الأعلام الصغيرة، وهتفن مطالبات بالحرية والاستقلال وبسقوط الحماية؛ ويبدو أن زمام المبادرة ٱنتقل إلىٰ أيدي النساء، حيث كان هتافهن يعلو، وكان الرجال يرددون الهتافات وراءهن، ووزعت النساء ٱحتجاجهن ضد الإنجليز على السفارات، ثم قصدن«بيت الأمة» أي بيت سعد زغلول، وعند وصلوهن إلىٰ هناك طوقتهن قوة من البوليس مدة ساعتين حتىٰ تدخل القنصل الأمريكي لدىٰ القيادة البريطانية التي أصدرت الأوامر بفك الحصار.

وهكذا ٱتخذ حزب الأمة(الوفد) من ثورة١٩١٩م فرصة لإحداث ما يبغي من تغييرات في بناء الأمة الٱجتماعي، فاستغل ٱنشغال الناس بالثورة

وتأييدهم له، فدعا إلىٰ إسهام المرأة في السياسة المصرية، فتكونت لجنة الوفد المركزية للنساء من زوجات وقريبات أعضاء حزب الوفد، وظهر أول تجمع نسائي سياسي في مصر علىٰ يد حزب الوفد، وأصبحت هٰذِه اللجنة فيما بعد نواة للاتحاد النسائي المصري.

ورأست هدىٰ شعراوي اللجنة المركزية للسيدات الوفديات علىٰ أثر ٱجتماع نسائي عقد في الكنيسة المرقسية حضرته خمسمائة سيدة مسلمة ومسيحية، وكان لإستر فهمي ويصا دور كبير في عقد هٰذا الٱجتماع، فكانت لجنة الوفد المركزية للسيدات وليدة الٱجتماع النسائي في الكنيسة المرقسية، وبعد ٱجتماع الكنيسة توالت اللقاءات بين السيدات المصريات مسيحيات ومسلمات، فزار وفدٌ من السيدات المسلمات دار البطريكية القبطية؛ لمشاركة زميلاتهن المسيحيات في العيد وتهنئة البطريرك به، وألقين الخطب داخل الكنيسة، وتلاه وفد النساء القبطيات إلى المسجد الزينبي؛ للتعبير عن شكرهن لوفد النساء المسلمات وتدعيمًا لعرى الإتحاد الوطني، وهكذا أصبحت دعوة حزب الأمة لاستبدال الرابطة الوطنية بالرابطة الدينية، مبدأ من مبادئ اللجنة المركزية للسيدات الوفديات، ولم يقتصر الأمر علىٰ نساء القاهرة، بل ٱجتمع وفد من النساء المصريات القبطيات والمسلمات في مسجد أبي العباس بالإسكندرية تعبيرًا عن غبطتهن بالنهضة النسائية وتضامن المصريين والمصريات.

وهٰذا يعني أن المرأة المصرية خرجت من عزلتها؛ لتضع نفسها تحت تصرف الأحزاب السياسية التي لم تتوان عن ٱستغلال النساء في سبيل تأييد مصالحها الخاصة، وقد عبّر سعد زغلول عن رأيه في ٱشتراك النساء في الحياة السياسية، فأثنىٰ علىٰ دورهن وطالب بالاهتمام بهن حيث قال: (إني أرىٰ أن التربية السياسية للنساء يجب أن تعدها الشعوب كأول دورة من أدوار الحضارة)، هٰذا إلىٰ أنه دعا زوجته إلىٰ مشاركته الحياة السياسية، فلما نفي

هو وبعض زملائه عام **١٩٢٢**م، أصدرت بيانًا دعت فيه الأمة المصرية إلى الٱلتفاف حول حزب الوفد، وقد نسبت إليها بطولات، منها أنها كانت تدخل المعتقلات سرًا؛ لتقوية الروح المعنوية للمسجونين.

وربما كان لسعد زغلول دور في تشجيع المرأة المصرية على السفور، فقد عاد سعد عام **١٩٢٣**م إلىٰ مصر وعادت معه علىٰ نفس الباخرة هدي شعراوي: (...ورفعنا النقاب أنا وسكرتيرتي سيزانبراوي، وقرأنا الفاتحة ثم خطونا علىٰ سلم الباخرة مكشوفتي الوجه لنرىٰ تأثير الوجه الذي يبدوا سافرًا لأول مرة بين الجموع، فلم نجد له تأثيرًا أبدًا؛ لأن كل الناس كانوا متوجهين نحو سعد متشوقين نحو طلعته).

والظاهر أن سعدًا أراد أن يكمل مسيرة قاسم، فتمنىٰ أن تكون المرأة جانب الرجل في الٱجتماعات العامة، فقال في خطبة من خطبه: (سادتي...كنت أود أن أقول سيداتي سادتي، وكنت أود أن أقول ذلك؛ لأن للنساء دخلًا كبيرًا في نهضة الأقوام عمومًا، وفي نهضة مصر خصوصًا، وأتعشم أن يأتي يوم أرىٰ فيه خطبائنا يبدأون بتلك البداية...)، كذلك نجده يحاول ٱستغلال المناسبات كي يلغي الحجاب، ولذلك عندما وقفت فكرية حسن تخطب في ٱحتفال عام بمناسبة عودته من المنفي، رفع الحجاب عن وجهها معلنًا بداية عهد السفور.

ولا ريب أن المرأة التي شاركت في المظاهرات قد تهيأت لهٰذا الإعلان بدليل قول فكرية حسن نفسها عما فعله سعد: (وكان اليشمك يضايقني، وسعدت جدًا عندما رفع سعد زغلول الحجاب عن وجهي أثناء خطبة من خطبي...).

وفي سنة **١٩٢٤**م وهو رئيس للوزراء عبر عن رأيه بصراحة في ضرورة تحرير المرأة، وذكر أنه شارك قاسمًا أفكاره، فقد زار سعدًا وفد من طلبة مدرسة الحقوق، وخاطبتة طالبة من الطالبات نيابة عن وفد الطلبة من

الجنسين، فرد عليها قائلًا: أيتها الآنسات، إني مبتهج بزيارتكن وأعبر بدوري عن سروري برؤيتكن راغبات في المعاونة في العمل الاجتماعي والفكري المفروض على الجميع، إني من أنصار تحرير المرأة ومن المقتنعين به؛ لأنه بغير هٰذا التحرير لا نستطيع بلوغ غايتنا، ويقيني هٰذا ليس وليد اليوم بل هو قديم العهد، فقد شاركت منذ أمد بعيد صديقي قاسم أمين في أفكاره التي ضمنها كتابة الذي أهداه إلي...).

ويبدو أن تصرفات سعد هٰذِه وأمثالها التي جعلت رشيد طه يصفه في قوله: (ثم إن سعدًا دخل في أطوار التفرنج في معيشته وأفكاره الاجتماعية والقانونية، وغلبت النزعة الوطنية عنده علىٰ فكرة الجامعة الإسلامية...).

لكن الغريب أن سعدًا الذي لقب بلقب الزعيم السفوري الجليل، أحجم بعد توليه رئاسة الوزارة عن إعطاء النساء شيئًا مما كان يعدهن به، وكان الخلاف قد دب بين سعد وبين هدي شعراوي علىٰ أثر قبول سعد تصريح **٢٨**فبراير عام **١٩٢٢**م، والقاضي بترك قضية السودان دون حل، وحق بريطانيا في حماية الأقليات، ومنح بريطانيا وحلفائها امتيازات في الأراضي المصرية في حالة الحرب أو التهديد بالحرب وبقاء جنود الاحتلال في المدن، فاتصلت هدي شعراوي بسعد وأبلغته بضرر هٰذِه الشروط ودعت النساء إلى القيام بمظاهرات ضد لجنة ملنر، وأدىٰ بها إلى المطالبة باستقالته قائله: (ألتمس منك ما دمت لم توفق وأنت في الحكم لتحقيق عمل إيجابي، ألا تكون على الأقل حجر عثرة في سبيل جهاد أمتك للتخلص من الحالة الحرجة التي وصلت إليها، لا أقول بسبب سياستك بل يكفي أن أقول أثناء حكمك، وذلك بعمل سلبي هو التخلي عن الحكم).

وازدادت شقة الخلاف بين سعد وبين النساء الوفديات، عندما افتتح البرلمان المصري لأول مرة في **١٥**مارس عام **١٩٢٤**م، فقد توقعت النساء الوفديات أن يتضمن خطاب العرش الإشادة بجهود النساء ضد الاحتلال

الإنجليزي، لكنه لم يشر إلىٰ دور المرأة بشيء، وبالإضافة إلىٰ ذلك أخذ الٱتحاد النسائي على الحكومة التي ألفها سعد عدم تبنيها لمطالب الشعب الحقيقية، فعقدت بعض النساء ٱجتماعًا في بيت هدىٰ شعراوي وأصدرت مذكرة بالمطالب التي ينبغي على الحكومة أن تتبناها.

وهكذا ٱنفصلت هدىٰ شعراوي بالاتحاد النسائي عن اللجنة المركزية للسيدات الوفديات، ومالت به نحو العمل الٱجتماعي ونحو المؤتمرات النسائية العالمية، حيث حضر الٱتحاد النسائي المصري مؤتمر الٱتحاد النسائي الدولي، وشكت هدىٰ شعراوي في هٰذا المؤتمر من تأثير الحجاب علىٰ(بقاء المرأة في درجة من العلم لا متأخر عنها ولا متقدم)، وتعرضت لقضية تعدد الزوجات، ورأت أن من حق النساء أن يطالبن بإلغاء هٰذِه العادة، التي توجد الشقاق في الأسر، وختمت هدىٰ شعراوي خطبتها أمام المؤتمر بقولها: (ولنا الأمل الكبير أن نصل بفضل نصائحكن التي هي لنا نعم الهادي، والاحتذاء بمثلكن التي نجد فيها خير مشجع إلىٰ تحقيق رغباتنا وبلوغ القصد، وأننا نضع أنفسنا تحت تصرفكن لخدمة مبادئكن ونشر أفكاركن...).

وبذلك وضعت المرأة الغربية مثلًا أعلىٰ تقتدي به في نشاطاتها النسوية، وعادت تطالب بتحقيق المساواة السياسية والاجتماعية بين المرأة والرجل أسوة بالأوروبيات، وطالبت بضرورة إصلاح العادات المتعلقة بالزواج حتىٰ يتيسر للطرفين التعارف قبل التعاقد، وبمعنىٰ آخر طالبت بالاختلاط، واعتبرته ضرورة من ضرورات الزواج، وطالب الٱتحاد بسن قانون يجعل سن الزواج عند البنت ستة عشر عامًا.

علىٰ أن جمعية الٱتحاد النسائي برئاسة هدىٰ شعراوي تقدمت عام١٩٢٤م بمطالب سياسية واجتماعية ونسوية، للمساواة بين الجنسين في التعليم، وإشراك النساء في حق الٱنتخاب أسوة بالرجال، وسن قانون بمنع

تعدد الزوجات إلا للضرورة، كعقم الزوجة ويتم ذلك بشهادة من الطبيب الشرعي، وإلزام الزوج إذا أراد طلاق زوجته ألا يفعل ذلك إلا أمام القاضي الشرعي.

فإذا علمنا أن هدىٰ شعراوي كانت تشكو ظلم زوجها لها بحكم التقاليد؛ لأنه كان يمنعها عزف بعض القطع الموسيقية على البيانو أو تدخين سيجارة لتهدئة أعصابها-أثناء وجود الرجال عنده في البيت-أدركنا سر حملتها على التقاليد، وعدّها البيت سجنًا، واشتراكها في المظاهرات والنشاطات النسائية، فهي ترفض أن تقوم المرأة بدور المربية والطاهية فقط، وترىٰ أنه لابد لها من الاشتراك في الحياة العامة، وهي تؤمن بالاختلاط، وترىٰ فيه وسيلة لتوسيع عقل المرأة، (فالتجارب وليدة الاحتكاك والاختلاط، لأنها بقدر ما تكسب من الرجل يكسب منها، ولا مندوحة من التعاون بينهما)، وتدعو إلى الاختلاط بين الجنسين منذ نعومة الأظفار حتىٰ يألفاه، وهٰذِه الألفة في نظرها أمان من الفطرة.

ويبدو أن هدىٰ شعراوي أصبحت رمزًا للسفور؛ لأنها لم تعد تمارسه فحسب، بل تدعو إليه كذلك، فاستحقت لقب «المجاهدة» علىٰ حد زعم «المجلة الجديدة» التي كان يصدرها سلامة موسىٰ، فحققت بذلك ما كان يدعوا إليه قاسم. علىٰ أن هدىٰ شعراوي لم تكن وحدها في مجال العمل النسائي بل شاركتها كثيرات، كانت منهن مي زيادة التي كان لها نشاط في الحقلين الاجتماعي والأدبي، كانت مي زيادة من أوائل النساء اللواتي شاركن في الحياة العامة، حيث ألقت عام١٩١٣م خطابًا في حفل أدبي أقيم لتكريم خليل مطران، ثم التقت عام١٩١٤م، بهدىٰ شعراوي في الجامعة المصرية وعرضت عليها أن تشاركها نشاطها، فأصبحت مي عضوًا في اتحاد النساء التهذيبي الذي لم تكتب له الحياة.

كانت مي تعلن تأييدها لآراء قاسم أمين وترىٰ رأيه في أنه لا يجوز

للأهل أن يفتحوا رسائل بناتهم وتعتبر ذلك من قبل الأهل أشبه ما يكون بقلم مراقبة، وكانت مي من أوائل من نادوا بحق المرأة في الٱنتخاب.

علىٰ أن تأثير مي لم يقف عند حدّ الجمعيات النسائية والكتابة في موضوع المرأة، بل تعداه إلىٰ كثير من أدباء مصر الذين وجدوا في صالونها الأدبي ضالتهم، ومنهم لطفي السيد، ولي الدين يكن، إسماعيل صبري، عباس العقاد، مصطفي صادق الرافعي، طه حسين، أحمد زكي باشا، يعقوب صروف، خليل مطران، وغيرهم كثيرون، حتىٰ أن العقاد في مقالة له بعنوان(رجال حول مي)عدّ ثلاثين من رواد ندوتها، وكان لندوة مي أثر علىٰ إنتاج بعض أعضائها، فقد بعث إليها ولي الدين يكن بأبيات غزلية عندما علم بمرضها، يقول:

أتسقم مي وأبقىٰ صحيحًا ألا إنني الصاحب الخائن
فيا ربّ هب لي مواجع ميّ بأضعاف ما يزن الوزان
وهب من حياتي لها وإني لأمثالها ضامن

كذلك أحب الرافعي ميًا حبًا روحانيًا ٱستوحىٰ منه كتاب أوراق الورد، حتىٰ أن الرافعي ٱستأذن زوجته في حبه لمي، ولابد من القول بأن تأثير مي علىٰ رواد ندوتها كان كبيرًا؛ لأنهم كانوا يجدون عندها مالا يجدون عند غيرها، أليست هٰذِه الندوة هي متنفسهم الوحيد الذي يرون فيه وجه شابة جميلة؟ ومما يؤكد عمق تأثير مي علىٰ أكثر رواد ندوتها كانوا من دعاة الٱختلاط، ولا عجب في ذلك، فقد ٱستمرت ندوة «الثلاثاء» في الٱنعقاد عشرين عامًا.

وإذا كان لمي هٰذا الدور في التأثير علىٰ سرعة ٱنتشار الٱختلاط عن طريق ندواتها ومحاضراتها ومقالاتها وصلتها بهدىٰ شعراوي، فإن شخصًا آخر ونقصد به سلامة موسىٰ دعا المرأة المصرية أن تلبس اللباس الٱفرنجي وتخرج سافرة، وهاجم كل من ناشد المرأة الٱعتدال، يقول: (تعيب علينا أمة

الشيوخ والرجعيين أننا نريد تحرير المرأة المصرية وفرنجتها بحيث تلبس اللباس الإفرنجي وتخرج سافرة الوجه؛ لأن هٰذا في نظرهم تهتك يجب أن نقي منه نساءنا المحصنات...)، والتهتك عنده أن تقوم المرأة بواجباتها نحو زوجها؛ لأن القيام بهٰذا الواجب تترفع عنه أحط البغايا الإفرنجيات، وعدّ سلامة موسى الحجاب علامة العبودية، (هل ثمة ٱمرأة مصرية متحجبة تستطيع أن تقول عن نفسها أنها حرة؟ إن الحجاب والعبودية كلمتان لمعنىٰ واحد...يأنف الحر ألا يرىٰ في زوجته غير بغي تلبي شهواته...) فالمرأة التي تلبي حاجات زوجها، ولا تسفر ولا تلبس اللباس الإفرنجي من البغايا.

وعنده أن «الزار» خاص بالمرأة المحجبة دون غيرها، وأينما يكون الحجاب يكون «الزار» و والواقع أن هٰذا الرأي لا يقصد به سلامة موسىٰ سوىٰ أن يدفع النساء إلى التخلص من الحجاب؛ لأنه جعل الزار ملازمًا للمرأة المسلمة دون المسيحية في مصر.

وتحامل سلامة موسىٰ على المجلات ذات الٱتجاه الإسلامي؛ لأنها لا تدعو إلىٰ سفور المرأة، وهو يريد من الصحفي السوري في مصر أن يغار علىٰ مصر، بأن يدعو إلى السفور بين نسائها، ويفتخر سلامة بمصر الفرعونية؛ لأنها لم تعرف الحجاب.

ويقترح على المرأة أن تنزل إلىٰ ميدان العمل الحر، فتعمل في المخازن والمتاجر أسوة بالأوروبيات، ويرىٰ في نزول المرأة إلىٰ ميدان العمل فرصة لها؛ كي تتخلص من الحجاب الذي فصل الناس في مصر شطرين؛ ولأنه أضر من أي مخترعات ضارة.

ولم يكتف سلامة موسىٰ بهٰذِه المواقف، بل إنه حرّض هدىٰ شعراوي أن تطالب بمساواة المرأة بالرجل في الميراث، على الرغم من أن قضايا الميراث في الإسلام أمور مفردة واضحة، ولٰكن هدىٰ شعراوي رفضت أن تستجيب لرأيه.

وعبّر سلامة موسىٰ عن فرحه لما يحدث في تركيا من تمزيق للحجاب، فالمحجبة في رأيه تعيش معيشة سلبية وتستجيب للعالم بلفظة «لا».

وأظهر سلامة سروره البالغ للإجراءات التي ٱتخذتها روسيا لتمزيق حجاب المسلمات في مدينة بخارىٰ التي خرج منها الإمام البخاري، (ومهما قيل في ضرر الشيوعية، فإنه ليس أقل شك في أن روسيا وتركيا قد أحسنتا بإلغاء الحجاب وتقرير السفور للمرأة المسلمة.).

ولم يكتف سلامة موسي بذلك بل أعجب بنساء الغرب اللواتي يرين في الزواج قيدًا لا بد من التخلص منه، ويرىٰ أن ذلك دليل على التقدم الذي وصلت إليه الحركة النسائية في العالم المتمدن.

ولكي ندرك الفرق بين حال المرأة المصرية قبل خروجها من بيتها وتمردها على التقاليد، وحالها بعد تحررها حسب رأي بعض أنصار دعوة قاسم ننقل ما قالته الكاتبة الإيطالية «دوينا داندريه»: (كانت المرأة المصرية هادئة مطيعة قانعة، بيتها المحراب وزوجها المثل الأعلىٰ، وإذا عدنا إلىٰ بيتها في أواخر القرن التاسع عشر...رأينا فيه روحًا عميقًا يحكي لنا صدىٰ تلك النفس الهادئة الوادعة...وقد ولدت لنا ثورة **١٩١٩**م ثورة نسوية كبرىٰ، فثارت المرأة علىٰ ذلك التراث من تقاليد الأولين، ومستها سنة ذلك التطور الذي بعثت به تلك الحياة الجديدة التي ٱصطلحوا علىٰ تسميتها (حياة ما بعد الحرب)، تشبهت بالمرأة الغربية في كثير من المظاهر والأساليب والشئون، فبدت سافرة الوجه حاسرة الرأس أو عليه قبعة مناسبة، عارية الذراعين متجردة الساقين ذات ثوب قصير دقيق التفصيل، بدت كأختها الغربية وقد تحاول أن تبرها في بعض مظاهرها...مزقت عن وجهها القناع تمزيقًا، ومحت من معالم حياتها ذلك المعنىٰ الشرقي القديم الذي سرىٰ في النفوس مسرى الدين؛ والذي يرمز إلىٰ فضيلة إنسانية سامية ويدفع عن النفس طغيان الشهوة، الذي إذا صادف تهاونًا لا يقف عند مدىٰ معلوم، ذلك المعنىٰ الروحي الذي

يرمز له الحجاب، تحاول مصرية اليوم بما ملكت من حيلة أن تكون كأختها الغربية وبخاصة في المظهر الخارجي المزخرف...تسافر المرأة المصرية في ظل زوجها إلىٰ بلاد الغرب، وهناك بعيدًا عن العمائم والطرابيش تطلق لنفسها العنان..تختلف إلى المقاهي وتدخن السجائر...وتتعرف إلىٰ أصدقاء زوجها وتسكن الفنادق...وتأتي كل ما تأتي فتاة الغرب...).

وهل نحن بحاجة أن نضيف شيئًا إلىٰ ما قالته الكاتبة الإيطالية عما كانت تتمتع به المرأة من عفة وترفع ووقار؟ وما آلت إليه من سقوط في أحضان المدنية الغربية دون تأن؟ إن المرأة التي سعت إلىٰ تقليد الغرب وطالبت برفع سن الزواج، ونادت بمنع تعدد الزوجات وأباحت لنفسها الاٰختلاط، بدأت تجني ثمرة سعيها فانخفض إقبال الشبان على الزواج، وكثر عدد العوانس وأصبح الحض على الزواج من الموضوعات التي اٰضطرت الأقلام أن تتناولها، فكتب محرر«مجلتي»مقالًا بعنوان «اللواتي ينتظرن» قال فيه: (ما أكثر أخواتنا اللواتي ينتظرن، لا يعلمن متىٰ ينتهي الاٰنتظار، إنهن ينتظرن السعادة، والسعادة تتمثل لهن في البيت...).

كذلك كتبت «المجلة الجديدة» عن مشكلة الزواج في مصر، فعزت تأخيره إلىٰ أسباب اٰقتصادية، وإلىٰ ضعف الفضيلة القومية، وعدم الاٰكتراث بالقواعد الخلقية السامية، وإلى التهتك والخلاعة في المدن الكبرىٰ؛ لأن الشباب يجدون من التسهيلات ما يجعل الدافع الطبيعي للزواج عندهم أقل شأنًا، وحلًا لهٰذِه المعضلة يدعو الكاتب إلىٰ مداواة الداء بنفس الأسباب التي أوجدته، فيقترح أن تتاح للشباب فرص تجمعهم في الحفلات العائلية.

لكن الدعوة إلى التفرنج لم تكن مقصورة علىٰ مصر فقط، بل كانت المحاولات لفرنجة العالم الإسلامي تسير جنبًا إلىٰ جنب، فقد زار ملك الأفغان «أمان الله خان» مصر وكان يلبس «البرنيطة» مما جعل رشيد رضا يقول: (إن حاشية هٰذا الملك مصابون بعدوىٰ الإلحاد الكمالي، ورأيت

ملكهم وملكتهم مفتونين بالتفرنج)، وكان والده «حبيب الله خان» عند عودته من أوروبا قد أمر النساء برفع الحجاب، فابتدأ بزوجته ونساء القصر الملكي، وقتل بعض العلماء الذين عارضوا دعوته وحلق لحىٰ بعضهم الآخر، وهدد باستعمال السياط لتطبيق هٰذِه العادات، ولٰكن الأفغانيين أسقطوه عن العرش.

أما في تركيا فقد جعل أتاتورك السفور إجباريًا للنساء، والقبعة جزءًا من ملابس الرجل، وأنزل المرأة إلىٰ ميدان العمل للقضاء علىٰ الحياة العائلية الشرقية، التي ٱعتادتها الأسر التركية، وأدخل المرأة في الشرطة واستغل النساء في عمليات التجسس، ويظهر أن هٰذِه الأمور كانت تروق الداعين إلى السفور في مصر، فكانوا ينشرون أخبار المرأة التركية ويحضون المصرية علىٰ اتباعها، فكتبت الصحف في التنويه بذلك كما أسلفنا.

وكان أتاتورك قد جعل التعليم مختلطًا، فقالت «المجلة الجديدة»: (إن المسجد لم يعد شاخصًا ببنائه كما كان سابقًا، فقد حلت محله المدارس المختلطة).

وأصبحت مسابقات الجمال من علامات الحياة الجديدة في تركيا، حتىٰ أن بعض المجلات المصرية أثنت علىٰ هٰذِه المسابقات، التي بدت فيها الفتيات عاريات الصدور.

أما في إيران فقد ألغي «الجادر» عام١٩٢٦م، حتىٰ إذا كان عام١٩٣٦م، أبطل الحجاب في فارس، وأسست أول النوادي النسائية، وأول فرقة كشفية من البنات ورفع الحد الأدنىٰ لسن الزواج عند الفتيات.

وهكذا طبقت حركة السفور رسميًا في أكثر أرجاء العالم الإسلامي، وبدأنا نقرأ في الصحف دعوات للاهتمام بالتمثيل، حتىٰ رأينا مجلة من المجلات المصرية تنعي على الحكومة ٱهتمامها بتمهيد الطرق وإهمالها للممثلين.

ولم يقف الأمر عند هٰذا الحد، بل إن بعض الفرق التمثيلية ٱتخذت من

الدعاية لمبادئ الماسونية موضوعًا لمسرحياتها، وكانت الماسونية تتخذ من الحفلات المدرسية وسيلة للدعاية كما حصل في مدرسة وادي النيل الأبتدائية.

وفي خضم الحياة الجديدة التي عمت وطغت، خفت صوت الداعين إلى المحافظة على الأخلاق، وتغلب تيار السفور والاختلاط، وأصبحت قضية المرأة في حكم المنتهية بانتصار السفوريين الذين نجحوا والسفور حديثًا قديمًا لا تثير غير الذكريات، وصار ما دعا إليه قاسم ومن بعده حقيقة مجسمة، فها هي المرأة قد أسفرت واختلطت بالرجال ونزلت ميدان العمل.

ولكن هل تستطيع المرأة أن تعود إلىٰ بيتها ثانية؟ وهل وجدت ما وعدها به قاسم حقًا، أم أنه مجرد زخرف خادع؟ وهل تحررت المرأة بالفعل أم أنها قد جنت علىٰ نفسها بتركها بيتها، وأصبحت أمة لأناس كثيرين بعد أن كانت ربّة البيت وسيدته؟[1].

(١) انظر كتاب «قضايا المرأة في الشعر العربي الحديث في مصر» ص٣٥-١٢٤باختصار وتصرف يسيرين.

الجذور الفكرية لحركة تحرير المرأة:

بعد تبلور حركة تحرير المرأة علىٰ شكل الاٌتحادات النسائية في البلاد العربية خاصة والدولية عامة، أصبحت اللادينية أو ما يسمونه (العلمانية الغربية) هي الأساس الفكري والعقدي لحركة تحرير المرأة، وهي موجهة وبشكل خاص في البلاد العربية والإسلامية إلىٰ المرأة المسلمة؛ لإخراجها من دينها أولًا، ثم إفسادها خلقيًّا واجتماعيًّا.. وبفسادها، يفسد المجتمع الإسلامي وتنتهي موجة حماسة العزة الإسلامية التي تقف في وجه الغرب الصليبي وجميع أعداء الإسلام وبهذا الشكل يسهل السيطرة عليه.

ومن الأدلة علىٰ أن جذور حركة تحرير المرأة تمتد نحو العلمانية الغربية ما يلي:

- في عام **١٨٩٤**م ظهر كتاب للكاتب الفرنسي الكونت داركور، حمل فيه علىٰ نساء مصر وهاجم الحجاب الإسلامي، وهاجم المثقفين علىٰ سكوتهم.

- وفي عام **١٨٩٩**م ألف قاسم أمين كتابه «تحرير المرأة» أيد فيه آراء داركور .

- وفي نفس العام هاجم الزعيم الوطني المصري مصطفىٰ كامل (زعيم الحزب الوطني) كتاب «تحرير المرأة» وربط أفكاره بالاستعمار الإنكليزي.

- ألف الاٌقتصادي المصري الشهير محمد طلعت حرب كتاب «تربية المرأة والحجاب» في الرد علىٰ قاسم أمين ومما قاله: «إن رفع الحجاب والاختلاط كلاهما أمنية تتمناها أوربا».

- ترجم الإنكليز- أثناء وجودهم في مصر- كتاب «تحرير المرأة» إلىٰ الإنكليزية ونشروه في الهند والمستعمرات الإسلامية.

- الدكتورة (ريد) رئيسة الاٌتحاد النسائي الدولي التي حضرت بنفسها إلىٰ مصر لتدرس عن كثب تطور الحركة النسائية.

- ٱغتباط الدوائر الغربية بحركة تحرير المرأة العربية وبنشاط الٱتحاد النسائي في الشرق وتمثلت ببرقية حرم الرئيس روزفلت رئيس الولايات المتحدة الأمريكية للمؤتمر النسائي العربي عام ١٩٤٤م.

- صلة حزب (بنت النيل) بالسفارة الإنكليزية والأمريكية والدعم المالي الذي يتلقاه منهما.

- ترحيب الصحف البريطانية بدرية شفيق زعيمة حزب (بنت النيل) وتصويرها بصورة الداعية الكبرىٰ إلىٰ تحرير المرأة المصرية من أغلال الإسلام وتقاليده.

- برقية جمعية (سان جيمس) الإنكليزية إلىٰ زعيمة حزب بنت النيل تهنئها علىٰ ٱتجاهها الجديد في القيام بمظاهرات للمطالبة بحقوق المرأة .

- مشاركة الزعيمة نفسها في مؤتمر نسائي دولي في أثينا عام ١٩٥١م ظهر من قراراته التي وافقت عليها أنها تخدم الٱستعمار أكثر من خدمتها لبلادها.

- إعلان (كاميلا يفي) الهندية أن الٱتحاد النسائي الدولي واقع تحت زيادة الدول الغربية والاستعمارية واستقالتها منه.

- إعلان رئيسة الٱتحاد النسائي المصري -نوال السعداوي- عام ١٩٨٧م أثناء المؤتمر أن الدول الغربية هي التي هيأت المال اللازم لعقد مؤتمر الٱتحاد النسائي والدول العربية لم تساهم في ذلك.

هٰذه بعض الوقائع التي تدل دلالة لا ريب فيها علىٰ صلة حركة تحرير المرأة بالقوىٰ الٱستعمارية الغربية.

من أبرز شخصيات حركة تحرير المرأة:

- سعد زغلول، زعيم حزب الوفد المصري، الذي أعان قاسم أمين علىٰ إظهار كتبه وتشجيعه في هٰذا المجال.

- لطفي السيد الذي أطلق عليه أستاذ الجيل وظلَّ يروج لحركة تحرير

المرأة علىٰ صفحات الجريدة لسان حال حزب الأمة المصري في عهده.

- صفية زغلول، زوجة سعد زغلول وابنة مصطفىٰ فهمي باشا رئيس الوزراء في تلك الأيام وأشهر صديق للإنكليز عرفته مصر.

- هدىٰ شعراوي ابنة محمد سلطان باشا الذي كان يرافق الاٌحتلال الإنكليزي في زحفه علىٰ العاصمة وزوجة علي شعراوي باشا أحد أعضاء حزب الأمة (حاليًا: الوفد) ومن أنصار السفور.

- سيزا نبراوي (واسمها الأصلي زينب محمد مراد)، وهي صديقة هدىٰ شعراوي في المؤتمرات الدولية والداخلية، وهما أول من نزع الحجاب في مصر بعد عودتهما من الغرب إثر حضور مؤتمر الاٌتحاد النسائي الدولي الذي عقد في روما **١٩٢٣**م.

- درية شفيق من تلميذات لطفي السيد، رحلت وحدها إلىٰ فرنسا لتحصل علىٰ الدكتوراه، ثم إلىٰ إنكلترا، وصورتها وسائل الإعلام بأنها المرأة التي تدعو إلىٰ التحرر من أغلال الإسلام وتقاليده مثل: الحجاب والطلاق وتعدد الزوجات.

ولمَّا عادت إلىٰ مصر شكلت حزب (بنت النيل) في عام **١٩٤٩**م بدعم من السفارة الإنكليزية والسفارة الأمريكية.. وهٰذا ما ثبت عندما اٌستقالت إحدىٰ عضوات الحزب وكان هٰذا الدعم سبب اٌستقالتها. وقد قادت درية شفيق المظاهرات، وأشهرها مظاهرة في **١٩** فبراير **١٩٥١** و**١٢** مارس **١٩٥٤** بالتنسيق مع أجهزة عبد الناصر فقد أضربت النساء في نقابة الصحافيين عن الطعام حتىٰ الموت إذا لم تستجب مطالبهن. وأجيبت مطالبهن ودخلت درية شفيق الاٌنتخابات ولم تنجح، وانتهىٰ دورها. وحضرت المؤتمرات الدولية النسائية للمطالبة بحقوق المرأة -علىٰ حد قولها-.

- سهير القلماوي تربت في الجامعة الأمريكية في مصر، وتخرجت من معهد الأمريكان، وتنقلت بين الجامعات الأمريكية والأوربية، ثم عادت

للتدريس في الجامعة المصرية.

- أمينة السعيد: وهي من تلميذات طه حسين، الأديب المصري الذي دعا إلىٰ تغريب مصر.. ترأست مجلة «حواء». وقد هاجمت حجاب المرأة بجرأة ومن أقوالها في عهد عبد الناصر: «كيف نخضع لفقهاء أربعة ولدوا في عصر الظلام ولدينا الميثاق؟» -تقصد ميثاق عبد الناصر الذي يدعو فيه إلىٰ الاشتراكية- وسخرت مجلة «حواء» للهجوم علىٰ الآداب الإسلامية.. وهي لا تزال تقوم بهٰذا الدور ..

- نوال السعداوي زعيمة الاتحاد النسائي المصري حاليًّا.

الفصل الثاني
إلىٰ دعاة تحرير المرأة

إلى دعاة تحرير المرأة

«إننا- نحن- المسلمين نرىٰ أن سعادتنا في حياتنا كلها مرهونة بالتزامنا بالإسلام عقيدةً وشريعةً ومنهجَ حياةٍ، ونعتقد أن شقاءنا بقدر ٱبتعادنا عن إسلامنا، وأن أعداء الإسلام الذين بين صفوفنا أشد خطرًا علينا من غيرهم؛ لأنهم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا؛ ولأنهم يحاولون خداعنا بكلماتٍ براقة وكلمات معسولة يبثونها عبر وسائل الإعلام بكلام ظاهرة الرحمة وباطنه العذاب، ولكنهم كما قال الله تعالىٰ عنهم: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ۝٩﴾ [البقرة: ٩] وهم ينطلقون في عدائهم للإسلام مع ٱنتسابهم له من قلوب مريضة، زادها الله مرضًا باتباعهم للهوىٰ والشهوة والشك.

وهٰؤلاء المحاربون لشريعة الله من المنتسبين للإسلام أحد رجلين:

أحدهما: جاهل يقلد ويردد ويتأثر بما يقوله أعداء الإسلام.

والثاني: ماكرٌ مخادعٌ يعرف الحقيقة لكنه ينكرها ويشوهها؛ فهو لأعداء الإسلام عميل ذليل!

فالأول يحتاج إلىٰ من يعلِّمه، والثاني يحتاج إلىٰ مَنْ يكشف أمره ويهتك ستره، وكلا الأمرين واجب علىٰ الدعاة إلىٰ الله»[(١)].

فإلىٰ دعاة تحرير المرأة نقول.

١- ليس حرًّا من كان مهددًا:

يقول الأستاذ محمد رشيد العويد[(٢)]:

حين أتجول في حديقة حيوان؛ وتكون فيها الحيوانات محبوسة في

---

(١) ٱنظر مجلة التوحيد العدد الحادي عشر سنة ١٤٢٠هـ للشيخ صفوت الشوادفي رحمه الله.

(٢) «من أجل تحرير حقيقي» ص١٦٣-١٧٠.

أقفاص، فإني أتجول بحرية، وأنا مطمئن، أنظر إلىٰ هٰذا الأسد، وأتأمل ذلك الفيل، وأراقب ذاك النمر، وألاحظ حركات تلك الغوريلا

لكني، حين تفتح أبواب الأقفاص في الحديقة، سأبادر فورًا إلىٰ الخروج منها؛ لأني ما عدت آمنًا فيها، وما عدت أملك تلك الحرية التي كنت أشعر بها وأنا أتجول بين الحيوانات وهي في أقفاصها.

كلُّ حيوان مفترس صار مصدر خطر علي، مصدر تهديد لأمني، وحريتي، واطمئناني. ولا يمكن لأحد أبدًا أن يصف حالي، وسط الأقفاص المفتوحة الأبواب بالحرية.

هٰذا هو حال المرأة التي تخرج إلىٰ المجتمع مختلطة بالرجال، فهي ليست حرة؛ لأنها ليست آمنة، ففي نفوس جميع الرجال من حولها؛ غرائز جنسية جامحة، أشبه بالحيوانات المفترسة في الحديقة.

والافتراس الذي يخشاه المرءُ المتجول في حديقة حيوان مفتوحة الأقفاص، يقابله الاغتصاب الذي تخشاه المرأةُ المتجولة في مجتمع يبيح الٱختلاط.

ففي الولايات المتحدة تقول التقارير الخاصة بالاغتصاب: بأن حادثة ٱغتصاب تسجل كل ست دقائق وأن جريمة الٱغتصاب أكثر الجرائم تسجيلًا في محاضر الشرطة في المدن الأمريكية.

ويقول المحللون: إن ٩٠٪ من حوادث الٱغتصاب لا تصل إلىٰ سجلات البوليس. وهٰذا يعني- بحسبة بسيطة- أن عشر حوادث ٱغتصاب تتم كل ست دقائق، أو جريمتين- تقريبًا- كل دقيقة.

ويستفاد من دراسة أجريت في الولايات المتحدة أيضًا، أن ٣١ في المائة من النساء القاطنات في المدن الكبرىٰ يخشين من السير بمفردهن، حتىٰ في أحيائهن في وضح النهار.

وأن كثيرات من النساء الأمريكيات ٱستعضن عن المشي بتعلم الكاراتيه

لحماية أنفسهن من الرجال.

وفي لوس أنجلوس التي أصبحت تشتهر بأنها «عاصمة حوادث الٱغتصاب في العالم» واحدة من ثلاث فتيات فوق سن ١٤ عامًا معرضة للاغتصاب.

ولقد بلغت الحال من السوء حدًّا دفع بحاكم ولاية كاليفورنيا لأن يعلن في حديث تلفزيوني حربًا لمدة عشر سنوات بكلفة خمسة مليارات دولار لمكافحة الجريمة وتحدث الحاكم واسمه جيرى براون عن الحال التي وصلت إليها الأوضاع في المدينة بقوله: «إن مستوىٰ الخوف، ودرجة العنف البشعة أنشأت جوًا من شأنه تقويض حقنا الأساسي في أن نكون أحرارًا في مجتمعنا».

وأرجو أن تتأملوا عبارته الأخيرة «حقنا الأساسي في أن نكون أحرارًا في مجتمعنا» فليس حرًّا من كان مهددًا وخائفًا غير آمن.

ليست حرة من تختلط بالرجال وهي عرضة لاعتدائهم عليها، مهددة باغتصابهم لها تتجول، أو تعمل وهي خائفة من عدوان الرجال عليها.

٢- إن الغرب أصبح الآن يتراجع عن هٰذا التحرر الذي مازلتم تدعوننا إليه.

كيف يرد المصلحون، في مجتمعاتنا المسلمة، علىٰ من يتهمه بالتخلف والرجعية، ويدعهم إلىٰ ٱقتفاء آثار الأمم الغربية في كل شيء؟

إنهم يذكرونهم بآياتِ الله تعالىٰ، وأنهم ينطلقون منها، ولا ينطلقون في دعواتهم للإصلاح من هوىٰ نفسي، أو رغبة في ٱنتصارٍ شخصي.

ويحكون لهم ما جرىٰ لأمم حادت عن شرع الله؛ فحلَّ بها ما حذر الله تعالىٰ منه، ونهىٰ سبحانه عنه.

لكنهم لا يحولون أنظارهم للاعتبار، بل يبقونها متجهة إلىٰ أوربا وأمريكا المتقدمتين في الصناعة والإنتاج، ويدعون إلىٰ ٱتباعهما في كلِّ شيء.

ويرد المصلحون بأنَّهم لا يمنعون من التعلم والتقدم في الصناعة والزراعة والتجارة، لكنهم يدعون إلىٰ منع ما ليس فيه تقدم، بل فيه رجعة إلىٰ البهيمية البعيدة عن الخلق الذي يدعو إليه الدين.

إنَّ أمريكا وأوربا تعانيان من ذاك البعد عمَّا أمر اللهُ تعالىٰ به، وهاهما تعودان إلىٰ الفضيلة التي يدعون أناس من قومنا إلىٰ نبذها بعيدًا، لأنها -كما يرون- سبب في تخلفنا.

فالاختلاط بين الجنسين هٰذا الذي يرونه تقدمًا، يجرّ علىٰ تلك المجتمعات محنًا ومآسي كثيرة تشهد بها دراسات الغرب وأبحاثه وإحصاءاته .

وآخر خبر هو ما نقلته وكالة الصحافة الفرنسية عن أمر أصدره وزير الدفاع الأمريكي (وليام كوهين) بفصل مقر إقامة الرجال عن مقر النساء خلال فترة التدريب الأساسية، وذلك بعد سلسلة فضائح جنسية داخل الجيش الأمريكي.

واستند كوهين في قراره إلىٰ دراسة مستقلة ، وقال: نريد فصلًا خلال الأسابيع الأولىٰ من التدريب الأساسي لنتأكد من أن المجندين يركزون علىٰ المسائل العسكرية لا علىٰ العلاقات الاٌجتماعية.

وقال للصحفيين: أطلب من الأجهزة المعنية أن تتخذ الإجراءات اللازمة ليكون الرجال والنساء خلال فترة التدريب الأساسية في قسمين منفصلين إذا لم يكونوا في مبنيين منفصلين.

وشدد علىٰ ضرورة فرض مراقبة دائمة بوساطة محترفين، وأضاف: هدفنا التوصل إلىٰ نظام تدريب يوفر مزيدًا من الكرامة.

ودعا كوهين إلىٰ تطبيق جوانب أخرىٰ من التقرير بينها زيادة عدد المسئولين عن التطويع والتدريب من الإناث.

وهكذا.. يتراجعون عن الاٌختلاط الذي ما زال من قومنا من يدعو إليه ويراه تقدمًا!!

٣- الحرية الحقيقية للمرأة أن يكون لها عالمها الخاص بها، فمن معاني الحرية أن يترك للمرء ٱختيار ما ترتاح إليه نفسه، ويميل إليه قلبه، فإذا ٱختير له، ولم يختر هو لنفسه، لم يكن حرًّا، ومن ثم فإذا كان الاٱختلاط مما لا ترتاح إليه المرأة، ولا يميل إليه قلبها، فإنه يكون قيدًا عليها، وتعطيلًا لحريتها.

في الولايات المتحدة مئات المعاهد والكليات غير المختلطة، ما زالت تلقىٰ إقبالًا كبيرًا من الفتيات الراغبات في متابعة دراستهن فيها.

أحد هٰذه المعاهد، واسمه (ميلز أوكلاند) ويقع في مدينة أوكلاند في ولاية كليفورنيا، بدأت فيه ثورة عارمة، تناقلت أخبارها وكالات الأنباء بسبب رفض الطالبات قرار مجلس الإدارة وضع حد لسياسة عدم الاٱختلاط بين الجنسين، والمتبعة منذ ١٣٨ عامًا.

وكان حرم هٰذه المؤسسة الجامعية المعروفة بهدوئها، والمتخصصة في الدراسات الفنية، يعج بالتظاهرات في وقت بدأ فيه إضراب شامل عن الدروس، واسُتقبلت رئيسة الجامعة ماري ميتز بأصوات منبهات السيارات وصرخات الاٱحتجاج.

وقد برَّر مجلس الإدارة قراره بضرورة رفع عدد الطلاب المسجلين في المعهد، حيث هناك ٧٧٧ طالبة في حين أن المطلوب هو ألف طالبة علىٰ الأقل لتغطية كلفة المعهد.

وقالت (آمي هاتو) الطالبة التي عبرت عن معارضتها للقرار بحلق شعرها:

(لم أكن قادرة علىٰ التفكير بأنهم سيتجاهلوننا إلىٰ هٰذا الحدِّ). وأعربت الكثير من الفتيات عن رغبتهن في مغادرة الجامعة.

وما دامت تغطية تكاليف لمعهد هي المبرر الذي ذكر مجلس الإدارة أنه وراء إصداره قرار قبول الطلبة الذكور، فقد ٱستنفرت الطالبات، وبدأن في

جمع التبرعات للمعهد ونجحن خلال أسبوعين من الزمن جمع ثلاثة ملايين دولار للجامعة، وكسبن المعركة مع إدارة الجامعة، وعاد مجلس الإدارة عن قراره بفتح أبواب الجامعة أمام الذكور، لترجع الجامعة غيرَ مختلطة وقاصرة علىٰ الطالبات الإناث فقط.

ألا يشير هٰذا إلىٰ قوة الدافع في نفوس الطالبات برفض ٱختلاط الطلبة الذكور بهن في الجامعة؟ إن قوة هٰذا الدفع الفطري لتتأكد في أربع نقاط:

أ- إضراب شامل عن الدروس.

ب- تظاهرات ٱحتجاج شديدة وعنيفة.

ج- بذل جهود كثيفة لجمع ثلاثة ملايين دولار في زمن قياسي.

د- إعراب كثير من الفتيات عن رغبتهن في مغادرة الجامعة.

إحساس المرأة بالحرية وهي وسط مجموعة من بنات جنسها.. واضح لا يحتاج إلىٰ حديث طويل، وبيان مسهب، ويلاحظه أي رجل يدخل مجتمعًا نسائيًّا حيث تتوقف النساء عن الحديث، ويفتقدن الحرية التي كُنَّ يشعرن بها.

ويظهر جليًّا إحساسهن بأن دخول الرجل عليهن أوجد ما يشبه القيد علىٰ حرية تبادلهن الحديث، بل وجلوسهن ووضعهن عامة.

وهٰذا ما عبَّرت عنه قاضية سويدية ٱسمها (بريجيدا أولف هامر) طافت عواصم الشرق ومدنه وقراه، ودرست- لحساب الأمم المتحدة- مشاكل المرأة الشرقية العربية علىٰ الطبيعة، فقد قالت هٰذه القاضية: (إن المرأة الشرقية، في قطاعات كثيرة من الحياة، أكثر حرية من المرأة السويدية؛ لأن الحرية- كما تقول- هي أن يكون للإنسان عالمه الخاص المستقل، علىٰ العكس من حال المرأة السويدية التي ليس لها عالم لم يشاركها فيه الرجل).

وتضيف: (إن حرية المرأة الغربية حرية وهمية؛ لأنها لم تمنح المرأة- في الحقيقة- المساواة بالرجل إلا بعد أن جردتها من صفاتها الأنثوية، وحريتها الأنثوية، وحقوقها الأنثوية؛ لتجعل منها كائنًا أقرب إلىٰ الرجل).

(إنها حرية الغني الذي سعىٰ للمساواة بالفقراء، وحرية ساكن الجنة الذي سعىٰ للنزول إلىٰ الأرض).

٤- المرأة في الغرب ليست متحررة تحررًا حقيقيًّا المرأة في الغرب مسكينة مسكينة وليست متحررة! فكيف تكون متحررة وامرأة من بين كل ست نساء في العالم تتعرض للاغتصاب مرة علىٰ الأقل في حياتها، كما جاء في تقرير أعدته منظمة (يونسيف) التابعة للأمم المتحدة!

كيف تكون متحررة و٢٥ إلىٰ ٥٠ في المائة من نساء العالم يتعرضن إلىٰ الضرب المبرح علىٰ أيدي أزواجهن!

كيف تكون متحررة وفي الولايات المتحدة تتعرض ٱمرأةٌ كل تسع ثوان للضرب.. لٰكن واحدة من بين كل مائة ٱمرأة مضروبة ترفع شكوىٰ!

كيف تكون متحررة وأكثر من مليون فتاة قاصر يجبرن سنويًا علىٰ ممارسة الدعارة!

كيف تكون متحررة و٢٧ دولة فقط من بين دول العالم الـ ١٩٣ تملك قوانين تمنع الٱعتداءات الجنسية علىٰ النساء!

لقد ذكر تقرير منظمة اليونسيف أن العنف الذي يمارس علىٰ النساء يشكل العائق الرئيسي أمام النمو الٱقتصادي والاجتماعي في عالم اليوم.

فأين ما تعانيه المرأة اليوم مما تلقاه في الإسلام من حماية، ورعاية، وتكريم، وحفظ، وصون؟

هل كانت تعاني ما تعانيه لو أخذ العالم بوصية النبي محمد ﷺ: «**استوصوا بالنساء خيرًا**»؟!

لقد عقدت منظمة الصحة العالمية يومي ٢٥و ٢٦ ربيع الأول الماضي ندوة، في العاصمة الدانمركية كوبنهاغن، حول إزالة العنف الذي تتعرض له المرأة، بالتعاون مع الٱتحاد الدولي لأطباء النساء.

وهدفت نقاشات الندوة إلىٰ لفت أنظار السياسيين والأطراف التي توفر

الخدمات الصحية، إلىٰ آثار العنف علىٰ صحة المرأة، وإيجاد السبل لإزالته.

لكنهم لن ينجحوا في ذلك ما لم يصححوا أخطاءهم تجاه المرأة؛ وذلك بما يلي:

- إعادتها إلىٰ مملكتها التي أخرجوها منها إلىٰ بيتها الذي يحفظها من كثير من الاعتداءات عليها.

- إعفاؤها من الإنفاق علىٰ نفسها، وإغناؤها بهٰذا عن العمل خارج البيت، ووقايتها- من ثم- من كثير مما يجره عليها هٰذا العمل من أمراض ومعاناة واعتداءات أيضًا.

- ارتداؤها اللباس الذي يسترها، ويخفي زينتها، فلا تكون مثيرة للرجال، محرضة لهم علىٰ اغتصابها والاعتداء عليها.

- منع الخمر التي تفقد شاربها عقولهم وتهيئهم للاعتداء علىٰ المرأة، كما أكدت إحصاءات ودراسات كثيرة.

ولعله لا يخفىٰ علىٰ المرء أن هٰذه التصحيحات جميعها قواعد إسلامية، أي أن المرأة في المجتمع المسلم لا تعاني ما تعانيه المرأة اليوم في أكثر مجتمعات العالم.

وهٰذه هي المجتمعات المسلمة اليوم، علىٰ الرغم من عدم التزامها الكامل بالإسلام، فإن المرأة فيها آمنة، مصانة، مكرّمة[1].. إلىٰ حد كبير،

---

(١) والمرأة الغربية تحسد المسلمة علىٰ ذلك وتتمنىٰ أن تعيش مثلها، هاهي زوجة السفير الكندي واسمها ليندابول عندما زارت الكويت أجرت معها جريدة «الرأي العام» مقابلة ونشرتها في عددها رقم **١٠٥٧٢** ومما جاء في كلماتها ما يلي:

- قبل حضوري إلىٰ الكويت كنت قلقة.. ولكن لم يحدث - خلال وجودي هنا- أن مرَّت علىٰ لحظة خوف واحدة، أو تعرضت لتحرش من قبل أي شخص، بل كنت آمنة علىٰ نفسي هنا أكثر مما كنت في بلدتي «فانكوفر».

- هناك ترابط كبير بين النساء في الكويت؛ ربما لأنهن يقضين وقتًا طويلًا معًا عندما=

= يغيب أزواجهن في أعمالهم، وأراهنَّ مستمتعات بالتواصل.. بعضهن ببعض..
- لم أر النساء في الكويت يتنافسن في الحصول علىٰ زوج.. عكس ما يحدث في أمريكا الشمالية حيث تتسابق النساء للحصول علىٰ أزواج.
- أمي قضت شهرين هنا، لقد رأت كيف يعامل الكويتيون كبار السن، وكيف يحترمونهم حتىٰ في الشوارع. كان الصغار ينادونها «سيدتي» حتىٰ باتت تعتقد أنها ملكة.
أجل «ملكة» المسلمة ملكة في مجتمعها الذي يحترمها، ويخاف عليها، ويحميها، ويرعىٰ مشاعرها، ويقدرها.
إنها شهادة من ٱمرأة عاشت في المجتمعين. زوجة دبلوماسي رأت ما لا تراه كثيرات من نسائنا وبناتنا.
يقول د/ عبد الله مبارك الخاطر في مجلة «البيان» العدد الرابع سنة ١٤٠٧هـ ص٩٦:
كانت جارتنا عجوزًا يزيد عمرها علىٰ سبعين عامًا.. وكانت تستثير الشفقة حين تشاهد وهي تدخل وتخرج ليس معها من يساعدها من أهلها وذويها.. وكانت تبتاع طعامها ولباسها بنفسها، كان منزلها هادئًا ليس فيه أحد غيرها ولا يقرع بابها أحد.
وذات يوم قمت نحوها بواجب من الواجبات التي أوجبها الإسلام علينا نحو جيراننا، فدهشت أشد الدهشة لِما رأت مع أنني لم أصنع شيئًا ذا بال، ولكنها تعيش في مجتمع ليس فيه عمل خير ولا يعرف الرحمة والشفقة، وعلاقة الجار بجاره لا تعدو في أحسن الحالات تحية الصباح والمساء.
جاءت في اليوم الثاني إلىٰ منزلنا بشيء من الحلوىٰ للأطفال، وأحضرت معها بطاقة من البطاقات التي يقدمونها في المناسبات، وكتبت علىٰ البطاقة عبارات الشكر والتقدير لما قدمناه نحوها، وشجعتها علىٰ زيارة زوجتي، فكانت تزورها بين الحين والآخر، وخلال ترددها علىٰ بيتنا عَلِمَتْ بأن الرجل في بلادنا مسئول عن بيته وأهله، يعمل من أجلهم، ويبتاع لهم الطعام واللباس، كما علمت مدىٰ احترام المسلمين للمرأة سواء كانت بنتًا أو زوجة أو أمًّا، وبشكل أخص عندما يتقدم سنها حيث يتسابق ويتنافس أولادها وأبناء أولادها علىٰ خدمتها وتقديرها، ومن أعرض عن خدمة والديه وتقديم العون لهما كان منبوذًا عند الناس.
كانت المرأة المسنة تلاحظ عن كثب تماسك العائلة المسلمة: كيف يعامل الوالد=

وإذا كانت بدأت تعاني مما تعانيه المرأة في العالم.. فبمقدار ما صارت تمشي في طريقها[١].

٥- إن هٰذا التحرر المزعوم كان سببًا في زيادة الأمراض والقلق بالنسبة للمرأة:

إذا كنت تقوم بعمل في أجواء نفسانية مريحة، وبيئة صحية نظيفة، ثم أخرجتك من هٰذه البيئة وتلك الأجواء إلىٰ بيئة وأجواء تسبب لك الأمراض والقلق.. أفأكون حررتك أم قيدتك؟!

حين كانت المرأة تعمل في بيتها؛ كان ما تصاب به من أمراض أقل مما يصاب به الرجل، وحين أُخرجت من بيتها لتعمل مع الرجل، صارت تصاب بأمراض ما كانت تصاب بها، وتراجعت صحتها، وانخفض معدل عمرها،

= أبناءه، وكيف يلتفون حوله إذا دخل البيت، وكيف تتفانىٰ المرأة في خدمة زوجها. وكانت المسكينة تقارن بين ما هي عليه: وما نحن عليه: كانت تذكر أن لها أولادًا وأحفادًا لا تعرف أين هم، ولا يزورها منهم أحد، قد تموت وتدفن أو تحرق وهم لا يعلمون، ولا قيمة لهٰذا الأمر عندهم، أما منزلها فهو حصيلة عملها وكدها طوال عمرها، وكانت تذكر لزوجتي الصعوبات التي تواجه المرأة الغربية في العمل وابتياع حاجيات المنزل ثم أنهت حديثها قائلة: إن المرأة في بلادكم «ملكة» ولولا أن الوقت متأخر جدًا لتزوجت رجلًا مثل زوجك، ولعشت كما تعيشون.

ومثل هٰذه الظاهرة يدركها كل من يدرس أو يعمل في ديار الغرب، ومع ذلك فلا يزال في بلادنا من لا يخجل من تقليد الغربيين في كل أمر من أمور حياته، ولا تزال في بلدان العالم الإسلامي صحف ومجلات تتحدث بإعجاب عن لباس المرأة الغربية وعمل المرأة الغربية، والأزياء الغربية، والحرية التي تعيش في ظلها المرأة الغربية!

اللهم لك الحمد أن أنعمت علينا بنعمة الإسلام. قال تعالىٰ: ﴿يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين﴾.

(١) «وبضدهن تتميز المسلمات» ص١٩-٢٠.

أفيكون عملها في بيتها قيدًا عليها، وعملها خارج بيتها تحريرًا لها؟!!

جاء في تقرير نشرته مجلة «ناشنال هيلث جورنال» في عدد شهر أغسطس سنة ١٩٩٧م: إن كان يصح ٱستنباط تسميات جديدة لأعراض أو ظواهر مرضية فمن الممكن الحديث عن مرض حركة تحرير المرأة كما يقول الدكتور سام برايت من نيويورك وهو يتحدث عن النتائج الضارة التي برزت مع حركة تحرر المرأة، وإلىٰ درجة يحذر فيها من الأخطار المترتبة علىٰ التشبث بما أطلقته تلك الحركة .

يخاطب باحث أمريكي آخر المرأة فيقول: «إنك إذا كنت من المتمسكين بالخيارات التي طرحتها حركة تحرير المرأة فإنك ستواجهين ٱحتمالات الإصابة بأمراض كانت حتىٰ وقت قريب وقفًا علىٰ الرجل».

متوسط عمر المرأة يزيد خمس سنوات وسبعة أشهر عن متوسط عمر الرجل، ولم تكن المرأة معرضة لأمراض الرئة والقرحة، ومنذ المراهقة حتىٰ ٱنقطاع الدورة الشهرية يتولىٰ هرمون الأستروجيني تزويدها بحماية داخلية منيعة ضد العديد من الأمراض، وخاصة أمراض القلب والشرايين .

كان هٰذا في الماضي، أمَّا اليوم وبعد ثلاثين سنة من حركة تحرير المرأة، فقد بدأ تفوق المرأة الصحي يتراجع، والفارق بين متوسط عمرها وعمر الرجل ينخفض.

وحسب دراسة شاملة في الولايات المتحدة أجريت في عدة مدن، وعلىٰ مختلف المستويات، تبين أن مرض سرطان الأمعاء والمعدة بين النساء- وكان يعد مرضًا خاصًّا بالرجال- ٱزداد أكثر من ١٣٪ عما كان عليه في الستينات.

وتدل الدراسات كذلك علىٰ أن مرض ٱرتفاع ضغط الدم يزداد ٱنتشارًا بين النساء، وتقدر الزيادة بأكثر من ١٨٪ خلال المدة نفسها. وبنسبة مقارنة يزداد ٱنتشار مرض ٱنتفاخ الرئة وسرطانها بين النساء.

يقول الدكتور تيودور كوبر- المدير السابق للمعهد الوطني لأمراض القلب والرئة- إن نسبة النساء اللاتي يتعرض، لنوبة قلبية قبل سن الخامسة والأربعين قد ٱزدادت ١١٪ عما كأنت عليه في السبعين]ات. وتتوقع جمعية مكافحة السرطان الأمريكية أنه مع نهاية هٰذا القرن الميلادي سيكون عدد النساء اللواتي يمتن بالسرطان مساويًا لعدد الرجال الذين يموتون بالمرض نفسه.

وماذا عن الأمراض النفسية والعقلية؟

لقد أكدت الدراسات أنَّ النساء المحكومات بخيارات حركة تحرير المرأة يتعرضن أكثر فأكثر لاضطرابات نفسية وعقلية، وأنَّ عدد النساء اللواتي يدخلن العيادات النفسية ومصحات الأمراض العقلية والعصبية قد تضاعف تمامًا عمَّا كان عليه في أوائل السبعين]ات كما زادت كثيرًا حوادث الٱنتحار بين النساء.

بل لقد زاد عدد النساء اللواتي يتعاطين المهدئات عن عدد الرجال، فقد أصدر المعهد الوطني لمكافحة الإدمان دراسة إحصائية ورد فيها أن هناك ٤٧ مليون ٱمرأة في الولايات المتحدة تتعاطىٰ المهدئات والمسكنات مقابل ٢٩ مليون رجل فقط، وأن ١٢ مليون ٱمرأة تتناول المنشطات والمقويات يوميًا مقابل ٥ ملايين رجل، وأن في أمريكا قرابة الخمسة ملايين ٱمرأة مدمنة علىٰ الكحولن وتذكر الإحصاءات أنَّ الأرقام تكاد تكون ضعف ما كانت عليه في الخمسينيات والستينيات، وتضاعف مرة أخرىٰ في أوائل التسعينيات.

ويقول كينيث غرنيسبان من جامعة كولومبيا: إن حركة تحرير المرأة قد فتحت خيارات خطرة، والتحديات المطروحة قد تكون مدمرة.

هل تكفي هٰذه الأرقام والإحصاءات؟ ألا تشير إشارة واضحة إلىٰ ما جلبته حركات ما يسمىٰ بـ «تحرير المرأة» من أمراض قلَّما كانت المرأة تصاب بها، ورفعت من نسب أمراض أخرىٰ، هل قرأتم ٱسم طبيب عربي من بين الأطباء الذين ورد ذكرهم في التقارير السابقة؟ ألا تغنينا دراسات الآخرين

وتجاربهم عن دراسات نقوم بها وتجارب نطبقها؛ أما كفىٰ الإسلام المرأة حاجتها إلىٰ العمل حين ألزم الرجل بالإنفاق عليها؟

وأخيرًا فإن من أبرز نتائج ما سبق أن عمل المرأة في بيتها؛ رعاية لأطفالها وتربية لهم، وعناية بزوجها ومودة له، لا يسبب لها أمراضًا، بل لعله باتفاقه مع طرتها يمنحها الوقاية من أمراض كثيرة[1].

بل إن هٰذا التحرر المزعوم كان سببًا في زيادة معدل الجريمة بالنسبة للمرأة فقد أصدر مكتب التحقيقات الفدرالي في أمريكا تقارير مذهلة في هٰذا الأمر، وقد تحدثت صحيفة النيويورك تايمز عن هٰذا الموضوع في أبريل سنة ١٩٧٥ معتمدة علىٰ تقارير مكتب التحقيق الفدرالي وترجمت مجلة «المجتمع» الكويتية هٰذا التحقيق في عددها الصادر بتاريخ ٢٢/ ٤/ ١٩٧٥ تقول «النيويورك تايمز» في هٰذا الموضوع:

«خرج أخيرًا تقرير من مكتب التحقيقات الفدرالية يشير إلىٰ أن معدل الجريمة بين السيدات أو الجريمة النسائية ارتفع ارتفاعًا مذهلًا مع نمو حركات التحرر النسائية».

وقال التقرير: «إن الاعتقالات بين النساء زادت بنسبة ٩٥٪ منذ عام ١٩٦٩، بينما زادت الجرائم الخطيرة بينهن بنسبة ٥٢٪.

ويقول: «إن أخطر عشرة مجرمين مطلوب القبض عليهم كلهم من السيدات ومن بينهن شخصيات ثورية اشتركن في حركة التحرر النسائية مثل «جين ألبرت، وبرنادين دون» وتقول الصحيفة أو وراء ربط ارتفاع نسبة الجيمة بين النساء بحركات التحرر النسائية وجهة نظر تقول: إن منح المرأة حقوقًا متساوية مع الرجل يشجعها علىٰ ارتكاب نفس الجرائم التي يرتكبها الرجل، بل إن المرأة التي تحرر تصبح أكثر ميلًا لارتكاب الجريمة».

---

(١) «بضدهن تتميز المسلمات» ص٤٦-٤٨.

٦- المسلمة التي تتهمونها بالرجعية أكثر تقدمية من ملايين النساء المنتشرات في مختلف أنحاء العالم.

أجل؛ المسلمة التي يتهمونها بالرجعية أكثر تقدمية من ملايين النساء المنتشرات في مختلف أنحاء العالم.

هل تريدون البرهان علىٰ ما نقول؟

في فرنسا وحدها عشرة ملايين ٱمرأة يستشرن منّجمات «عرّافات» كل عام؛ بسبب خوفهن من المستقبل، تحت وطأة الضياع النفسي والروحي.

هٰذا ما أكدته من وُصفتْ بأنها «المنجمة الفرنسية المعروفة ليليان جوتييه». فكم مليونًا من النساء في سائر أوروبا، وأمريكا، وفي باقي دول العالم؟ ألسن عشرات من الملايين الأخرىٰ؟! أليس الذهاب إلىٰ المنجم وتصديقه بُعدًا عن العلمية والموضوعية والواقعية؛ أليست المسلمة التي لا تذهب إلىٰ عرَّاف أو منجم، طاعة لربها تعالىٰ ورسولها ﷺ، أقرب إلىٰ العلمية والواقعية والموضوعية؟

ولو عدنا إلىٰ عبارات الموصوفة بـ «المنجمة الفرنسية المعروفة» وأعدنا قراءتها فسنجدها تقول عن هٰذه العشرة ملايين ٱمرأة «خوفهن من المستقبل تحت وطأة الضياع النفسي والروحي».. أليس هٰذا الخوف والضياع اللذان تعاني منهما الفرنسية يقابلان الأمن والاطمئنان اللذين تنعم بهما المسلمة المؤمنة بأن ما أخطأها لم يكن ليصيبها وأن ما أصابها لم يكن ليخطئها؟!

وحتىٰ لا يقول أحدٌ: إنَّما تذهب هٰؤلاء الفرنسيات إلىٰ المنجمات والمنجمين تسلية وليس ٱعتقادًا؛ فإننا ننقل ما قالته تلك المنجمة الشهيرة نفسها عن النساء اللاتي يقصدنها: «إنهن يعتقدن أنني أمثل المفتاح السحري الذي يحل مشكلاتهن مرة واحدة، وفي زمن قياسي»!! ولهذا فهن «يفرغن جيوبهن من أجل الهدف نفسه» أي أنهن يدفعن لها بسخاء.

هكذا تتفوق المسلمة التي توقن أنه لا يملك ضرها ولا نفعها إلا الله

سبحانه، ولهذا فهي لا تركن إلىٰ أحد من البشر، لا ليعرف مستقبلها «وهو لا يعرفه» ولا ليحل مشكلتها «ولا يملك هٰذا إلا الله سبحانه».

هكذا تتفوق علىٰ عشرات ملايين النساء في العالم[1].

٧- الغرب يعترف بأن تحرر المرأة المزعوم عبودية وليس حرية:

هاهم يدركون أخيرًا أن إبراز المرأة في وسائل الإعلام، واستغلال صورها فيها، تجارة غير فاضلة.

ندوة فكرية مخصصة لمسألة ٱستغلال صورة المرأة في وسائل الإعلام عقدت في ستراسبورغ (شرق فرنسا) مقر منظمة المجلس الأوربي التي تضم ٤٠ بلدًا.

من بين الموضوعات التي طرحت للنقاش في هٰذه الندوة، التي شارك فيها صحافيون وممثلون عن المنظمات غير الحكومية، موضوع الٱتّجار بالبشر لغايات الٱستغلال الجنسي، وتوعية العاملين في مجال الإعلام.

وجاء في بيان صادر عن المجلس الأوربي أو مجلس أوروبا أن (ثمة شبكات فعلية منظمة لاستغلال أشخاص، لا سيّما نساء، محرومين من حقوقهم، ويعيشون في ظروف قريبة من العبودية).

وأرجو أن تقفوا معي عند الكلمة الأخيرة: (العبودية) فهي تشير إلىٰ أن بروز المرأة، وخروجها من بيتها، وظهورها في وسائل الدعاية والإعلان، ليس تحررًا، كما أشاعوا وزيّنوا وأوهموا، إنما هو عبودية حقيقية أخضعوا المرأة لها، وحرموها بها من حريتها، وكرامتها، وإنسانيتها، واستقلالها. فليت المتشدقين بدعاوىٰ تحرير المرأة من بيتها، وحجابها، وعفافها، ينادون ويكتبون ويدعون إلىٰ تحريرها من ذاك الٱستغلال البشع لها، والمتاجرة بشكلها وجسدها، فهٰذا هو التحرر الحقيقي لها، لا من بيتها الذي يحفظها الله فيه، وحجابها الذي يحميها تعالىٰ به من عيون الذئاب، وعفافها الذي

(١) «وبضدهن تتميز المسلمات» ص٧-٨.

يؤكد كرامتها الإنسانية[١].

تقول القاضية السويدية برجيدا أولف هامر: «إن حرية المرأة الغربية حرية وهمية لأنها لن تمنح المرأة في الحقيقة المساواة بالرجل إلا بعد أن جردتها من صفاتها الأنثوية، وحريتها الأنثوية وحقوقها الأنثوية لتجعل منها كائنًا أقرب إلىٰ الرجل. إنها حرية الغني الذي سعىٰ للمساواة بالفقراء، وحرية ساكن الجنة الذي سعىٰ للنزول إلىٰ الأرض. هٰذا ما قالته هٰذه القاضية السويدية وهي تقارن بين الحرية الوهمية للمرأة الغربية والحرية الحقيقية للمرأة الشرقية. فكيف يمكن أن نقول إن المرأة الغربية تمتلك الحرية؛ وهي أسيرة لقمة العيش، أسيرة الشقاء المقصور علىٰ الرجال، الشقاء الذي يسلب المرأة صفاتها الأنثوية، ويجعلها كائنًا أقرب إلىٰ الرجل.

إن المرأة السويدية فجأة اكتشفت أنها اشترت وهمًا هائلًا -تقصد الحرية التي أعطيت لها- بثمن مفزع هو سعادتها الحقيقية، وتقول القاضية السويدية عن استقبال المرأة السويدية لعام ١٩٧٥: «ولهذا فإنها تستقبل العام العالمي لحقوق المرأة بفتور مهذب، وتحنُّ إلىٰ حياة الاستقرار العائلية المتوازنة جنسيًا وعاطفيًا ونفسيًا، فهي تريد أن تتنازل عن معظم حريتها في سبيل كل سعادتها».

يقول الشيخ صفوت -رحمه الله-[٢]:

والعجيب الغريب أن أدعياء حقوق المرأة في مصر مازالوا يرددون الكلام القديم الذي قاله أئمتهم في الغرب، مع أن الغربيين قد اعترفوا بذنبهم، وأبناء جلدتنا المقلدون لهم مازالوا غارقين في الضلالة!! كأنهم ترس في آلة!!

وإلىٰ عقلاء هٰؤلاء نسوق أمثلة من أقوال الغرب حول تحرر المرأة من

(١) «وبضدهن تتميز المسلمات» ص ٥٧.

(٢) «مصابيح أضاءت لنا الطريق» ص ٣٦٤-٣٦٥.

الأخلاق كما أراد لهم الفجارُ والفساقُ.

في عام ١٩٧٥م صدر تقرير من مكتب التحقيقات الفيدرالية الأمريكي يشير إلىٰ أن معدل الجريمة بين السيدات قد ٱرتفع ٱرتفاعًا مذهلًا مع نمو حركات التحرر النسائية، كما جاء في التقرير: «أن أخطر عشرة مجرمين مطلوب لقبض عليهم من السيدات!! ومن بينهن شخصيات ثورية ٱشتركن في حركة التحرر النسائية..

وذكرت صحيفة النيويورك تايمز ناشرة التقرير: أن منح المرأة حقوقًا متساوية مع الرجل يشجعها علىٰ ٱرتكاب نفس الجرائم التي يرتكبها الرجل، بل إن المرأة التي تتحرر تصبح أكثر ميلًا لارتكاب الجريمة!!

- ونشرت صحيفة «التايمز اللندنية» في سنة ١٩٧٤م ٱعترافًا مثيرًا بجمال واستقرار الحياة في ظل الإسلام جاء فيه: «إن القواعد التي تقوم عليها الحياة العائلية في الإسلام، والتي وضعت الأسس في أمور، كالإرث وحقوق اليتامىٰ، واختلاط الجنسين؛ كلُّ ذلك مرسوم لدعم تماسك الأسرة في صورة من الصور، ومن هنا فإن الشعوب والأمم الإسلامية تتمتع بمركز قوي في العالم اليوم لا لمجرد أن العرب يمتلكون الثروة النفطية، وإنَّما لأنهم يملكون نظامًا عائليًا مستقرًا؛ وهو نفس النظام الذي يسعىٰ الغرب بجنون للتغلب عليه.

- وفي سنة ١٩٧٥م أعلنت لجنة حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة تقريرًا عن المرأة جاء فيه: إن أي مشروعٍ لوضع القوانين في بلاد العالم كي ينظم حياة المرأة، ويحدد علاقتها بالرجلِ يجب أن يراعي الواجب الأساسي للمرأة في الحياة الٱجتماعية، وهو الأمومة وتربية الأطفال، وتهيئة الجو السعيد لإنشاء البيت السعيد.

يقول الشيخ صالح المنجد[1]:

---

(١) نقلًا من شريط «وليس الذكر كالأنثىٰ».

لقد فشلت قضية الاختلاط في بلاد الغرب، في وسائل المواصلات، فهٰذه اليابان قد اتخذت عربات للنساء في الرحلات المسائية المتأخرة بسبب وجود مضايقات من متحرشين بالنساء وخصوصًا من السكارىٰ.

وفي بريطانيا عندما حدثت حالة اغتصاب في بعض القطارات، وصدرت قوانين منع المضايقة، وتمت المناداة بالفصل بين الجنسين في وسائل المواصلات العامة في عدد من البلدان، وتوافرت عربات للنساء بالقطارات الليلية في فرنسا والفلبين.

وقال أستاذ جامعي: البرقع مقابل البكيني فسوق المرأة الأمريكية، عنوان لمقال سطره د. هنري ماجو يهدي من خلاله تقديره للحياء كصفة ملازمة للفتاة المسلمة كما لا يخفي احترامه للمرأة المسلمة التي تكرس حياتها لأسرتها، هٰذا الرجل علق علىٰ كتابه صورتان: واحدة لامرأة مسلمة تلبس النقاب أو الغطاء حجاب الوجه، وبجانبها صورة متسابقة جمال أمريكية لا تلبس إلا البكيني، وبعد ذلك جعل هٰذا مدخلًا لمقالة كتبها في مجلة مشهورة أحدثت ضجة، يمتدح د. هنري القيم الأخلاقية للحجاب أو ما يستر المرأة المسلمة، يقول: لست خبيرًا بشئون النساء المسلمات وأحب الجمال النسائي كثيرًا مما لا يدعوني للدفاع عن البرقع هنا، لكنني أدافع عن بعض من القيم التي يمثلها البرقع بالنسبة لي، يقول: بالنسبة لي البرقع -أي: التستر- يمثل تكريس المرأة نفسها لزوجها وعائلتها، هم فقط يرونها، وذلك تأكيد لخصوصيتها.

إذًا الرجل هٰذا لاحظ ملاحظة قال: إن هٰذا الحجاب له معنىٰ مهم جدًّا ما هو؟ تكريس وتخصيص المرأة لهٰذا الزوج، تخصيص، قال: بينما هٰذه - ملكة الجمال الأمريكية التي ترتدي البكيني وتختال عارية أمام الملايين علىٰ شاشات التلفزة- هي ملك للعامة، تُسَوِّق جسمها إلىٰ المزايد الأعلىٰ سعرًا وتبيعه كل يوم، ويشير إلىٰ أن المرأة في المجتمع الأمريكي تجد نفسها ملقاة

بين السلوك الذكوري مما يجعلها امرأة عدوانية مضطربة لا تصلح أن تكون زوجة أو أمًّا، إنما هي فقط للاستمتاع الجنسي، هكٰذا وجد هٰذا الرجل وكشف زيف ادعاءات تحرير المرأة ووصفها بالخدعة القاسية من خدع النظام العالمي الجديد، وخربت الحضارة الغربية، ويؤكد أن تحرير المرأة يمثل تهديدًا للمسلمين. فقال: لقد دمرت الملايين وتمثل تهديدًا كبيرًا للمسلمين.

يقول د/ مصطفىٰ عبد الواحد[1]:

إن هٰذا الٱختلاط الذي يجهد الكثيرون أنفسهم في الدعوة إليه وجعله قاعدة عامة في المجتمع الإسلامي المعاصر، قد فقد صلاحيته في الغرب، ولم يعد له جدوىٰ في هٰذا التهذيب المزعوم الذي يحلم به الحالمون.. بل لقد أصبح هٰذا الٱختلاط نبعًا للأدواء الخلقية التي يعاني منها الغرب، كما يعاني منها الشرق المقلد السائر وراء الركاب!

ولم يعد هناك في الغرب من يزعم هٰذا الزعم الخادع.. بل أصبح الأمر مكشوفًا بلا غطاء.. وأصبح الٱختلاط المهذب إباحية ظاهرة بلا حياء..

يقول صاحب كتاب «الإنسان بين المادية والإسلام».

«لقد كان هٰذا الٱختلاط البريء أسطورة ضخمة طلع بها الغرب في بدء ٱنحلاله ليعالج بها الكبت الجنسي. وراح علماء النفس والاجتماع يهولون في فائدتها المطلقة وخيرها العميم.

ثم عاد الغرب فكفر بها، ولم يعد اليوم يجري ذكرها علىٰ لسانه بعد أن تكشفت عن نتيجتها الطبيعية المحتومة.

فأما علماء النفس وأطباء الأعصاب فقد نكلوا عن رأيهم السابق في هٰذا الٱختلاط الشفوي. بما فيه الرقص علىٰ أنغام الموسيقىٰ وحفلات الشاي «البريئة» والنزهات الخلوية «تحت رقابة الوالدين أو إشراف المدرسين».

---

(١) «الإسلام والمشكلة الجنسية» ص٨٧.

فهم يقولون اليوم: إن كل ٱختلاط من شأنه أن يهيج مشاعر الغريزة لا أن يخمدها.

فإذا كانت هٰذه المشاعر تسكُت أو تسكت، بحكم ظروف الٱجتماع التي لا تمكن من التنفيذ العملي، أو بحكم الحياء من الظهور أمام الموجودين والموجودات بمظهر الجائع المتعطش، أو لأي سببٍ آخر، فإن هٰذا علىٰ أي حال يحدث لونًا من القلق النفسي والعصبي، بعد الهدوء المؤقت الذي قد تحدثه الٱجتماعات المختلطة.

وعندئذٍ يحدث أحدُ أمرين: فإما أن يلجأ الشاب إلىٰ مكان آخر لا تقوم حوله الحواجز، أو يظل في قلقه المفسد للأعصاب.

فأي براءة وأي تهذيب؟!

إن الواقع يثبت أن دعوىٰ البراءة والصداقة بين الجنسين باطلة يملؤها الخداع والزيف..

بل زاد بعضُ الأطباء أن يقولوا: إنَّ الٱستمرارَ علىٰ هٰذه الحال، أي الإثارة الدائمة قد يؤدي عند الشباب إلىٰ ضعف جسمي عصبي، بالإضافة إلىٰ اللهفة النفسية الدائمة.

وهكذا ٱنكشفت حكاية «التهذيب الجنسي بالاختلاط البريء» عن وهمٍ كبيرٍ!

ما قيمة أن تتهذب مع واحدةٍ بعينها، لتنطلق مع أخرىٰ كالحيوان، أو تظل دائمًا في لهفة وهيام، وما قيمة أن تكون الفتاة التي تهذبك اليوم وتتهذب بك فريسة لفتىٰ آخر قد «تهذب» من قبل..

إنها أضحوكة أو ستار رقيق جدًا يكشف عن المغالطة التي تستتر وراءه.

وعلىٰ أي حالٍ فقد كفر الغرب بها، ولم يعد يزعم أن الٱختلاط البريء أمر ممكن التنفيذ. لقد ألقىٰ القناع، وأعلن في صراحةٍ حمقاء، أنه قد أباح لفتيانه وفتياته أن يفعلوا ما يشاءون بلا حياء!

فما بال هٰذا الشرق المسكين يتشبث بهٰذه الأساطير؟!

وفي أي مكان علىٰ ظهر الأرض يوجد اليوم- أو وجد قبل اليوم- ٱختلاط بريء، حتىٰ يدعو إليه هنا الكتاب والمؤلفون؟

ألا فليملأ الكتاب الفارغون أسطواناتهم بطبعة جديدة فقد بطلت الطبعة الأولىٰ، وأصبحت غير ذات موضوع!

ولقد كان الإسلام أشد بصرًا بالطبيعة البشرية، وأدرىٰ بإمكانياتها ومساربها الخفية، حين منع هٰذا الٱختلاط، وهو يعلم أنه لن يظل بريئًا قيد خطوات».

وهاهو واقع الٱختلاط في مجتمعنا يشهد بأنه داءٌ لا دواء.. وأنه لا مدخل له في تهدئة الغريزة وتخفيف حدتها، بل إنه علىٰ عكس ذلك، يثيرها له ويمهد لها الطرق، ولن تغني عنا شيئًا كلمات البراءة والتهذيب، والنفاق الذي يخفي وراءه الأهوال..

وهاهي الجامعات في البلاد الإسلامية التي تقلد الغرب في الٱختلاط بين الطلاب والطالبات، تشهد بأوضاعها المضطربة علىٰ كذب دعوىٰ البراءة والتهذيب وراء الٱختلاط، بل إن أزياء الكثرة من الطالبات ليست أزياء علم ولا براءة، بل هي أزياء فتنة واستثارة، ممَّا يدل علىٰ المثل والأفكار التي تغشي هٰذه البيئة.

والثابت أن أكثر دعاة هٰذا الٱختلاط في مجتمعنا الإسلامي المعاصر لم يكونوا فوق الشبهات في أخلاقهم وسلوكهم.. وبعضهم كان يعيش عزبًا لا زوجة له ولا ولد، ومع ذلك كانوا يلحون في تحقيق أوضاع الٱختلاط وتعميمه؛ لأنه لا شيء لديهم يخشون عليه، وهم يريدون أن يعم الفساد، حتىٰ يتوهوا في الغمار..

ونحن نذكر نزوة بعض الصحفيين المستغلين الذين كانوا بمصر، حينما تبنىٰ أحدهم دعوة غريبة، هي أن تعمل الفتاة محصلة نقود بسيارات النقل..

لتغشىٰ جماهير الرجال في زحامهم الرهيب!

وكأن الرجال القادرين علىٰ هٰذا العمل، وهم فوق الحاجة، لم يعد لهم وجود.. ولم يكن لهٰذا الصحفي من هدف إلا أن يرىٰ المرأة مبتذلة في كل مكان.. وكأن مؤسسته الصحفية تموج بهٰذا اللون من الٱختلاط المريب.

وهاهي بعض البلاد العربية التي تسير وفق النظام الغربي، والتي ينطلق فيها الناس علىٰ أهوائهم، تعاني في هٰذه الأيام من موجة ٱختطاف الفتيات، مع شيوع الٱختلاط في الجامعات والنوادي والمواخير.. ولٰكن شيئًا من ذلك لم يصب الغرائز بتهذيب ولا تأديب.

والتجربة هي التي تفضح كل دعوىٰ وتكشف كل بهتان..

فليس هناك جدوىٰ من أن نخادع أنفسنا بكلمات فقدت قيمتها وتجردت من كل حقيقة..

يقول الأستاذ جمال سلطان[1]:

المفهوم الإسلامي للحرية هو حرية الضمير والإرادة وحرية القلب من العبودية للهوىٰ أو للشهوة.

فإذا ما نجح الإنسان في أن يتحرر من إسار شهواته وعبودية هواه، فقد دخل فعلًا إلى عالم الحرية الحقيقي، وتبقىٰ مسألة حرية السلوك مجرد مظهر دال علىٰ وضعية الضمير والقلب والإرادة بين الحرية والعبودية، ولذلك فقد ذكر القرآن الكرين أن الهوىٰ البشري قد يكون ندًّا لله تعالىٰ حيث يقول في كتابه المجيد: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣].

فإذا حققت المرأة ذلك المطلب الشرعي بتحررها من إسار الهوىٰ وعبودية الشهوات فقد تحقق لها شرط الحرية، وتصبح مالكة لإرادتها الحرة، وتصبح أكثر قدرة علىٰ الاختيار العادل والتمييز البعيد لما يضرها وينفعها.

---

(١) «الوعي الإسلامي» العدد ٣٠٢ سنة ١٤١٠هـ ص٥٧ .

أما دعوىٰ حرية المرأة كما هي مستقرة في المفهوم الغربي الوضعي، فهي لا تعدو أن تكون تزويرًا اصطلاحيًا لمعنىٰ «الفوضىٰ» والتي هي ناتج طبيعي لاستعلاء الشهوات وتحكم الهوىٰ.

إن المجتمع الذي يصبح فيه «الذهب» هو السيد و«الجنس» هو المحرك، و«اللهو» هو الغاية والهدف، هو مجتمع أعلن عبوديته للهوىٰ وخضوعه للشهوات ويصبح كل حديث فيه عن حرية المرأة مجرد أكذوبة وخدعة يخترعها صناع الشهوات وشياطين الغواية، لصرف المرأة عن تدبر حقيقة أزمتها، وجوهر مشكلتها، إن الحرية تبدأ بالإنسان وتنتهي به، وحرية الإنسان تنبت من حرية الضمير، وحرية الضمير تنبع من الإيمان الراسخ والعقيدة الربانية الخالصة من شوائب العبودية لغير ذات الله والذين يدفعون المرأة المسلمة اليوم إلىٰ طريق التحلل الأخلاقي والفوضىٰ السلوكية، والتبعية القيمية تحت دعوىٰ الحرية هم طلائع فتنة ورواد تخريب للبناء الاجتماعي الإسلامي.

٨- محررو المرأة حرَّروها من حجابها وبيتها وعفافها ولم يحرروها من المرض والفقر والجوع..!

«تصوروا أن طائرة علىٰ متنها ٢٥٠ راكبًا، جميعهم من النساء مع أطفالهن، وتصوروا أن مثل هٰذه الطائرة ذات الحظ السيئ تنفجر كل أربع ساعات دون أي إمكانية لإنقاذ أيٍ من الركاب، ودون كلمة واحدة متعاطفة في الصحف..»!

بهٰذه الصورة المأساوية والبسيطة في الوقت نفسه؛ حاولت مجلة «لانسيت» الطبية ٱستشارة الاٰهتمام لصالح قضية الوفيات بين الأمهات في قارة أفريقيا.

لقد قامت منظمة الصحة العالمية، بإعداد دراسة متعمقة؛ لقياس مدىٰ ٱتساع هٰذه الخسائر البشرية. وجاءت النتائج كالتالي: من بين كل ٢٠ ٱمرأة

«ما بين ١٥ و٥٠ سنة» تموت ١٥ ٱمرأة منهن، أي بنسبة ٧٥٪. وتقل هٰذه النسبة ألف مرة في الدول الصناعية.

بعبارة أخرىٰ فإن التقارير تقول: إن ٥٠٠ ألف ٱمرأة في أنحاء العالم يمتن أثناء الولادة منهن ٤٩٦ ألف ٱمرأة في العالم الثالث، وخمسة ملايين ٱمرأة إفريقية يصبن بعاهات مستديمة بسبب الولادة، و٢٠٠ ألف ٱمرأة يذهبن ضحية عمليات إجهاض غير قانونية.

مسئولة اليونيسيف في جنيف تضيف إلىٰ هٰذه الأرقام المؤلمة قولها: إنَّ هٰؤلاء الأمهات يتركن من بعد حياتهن التعسة حوالي مليون طفل يتيم رحلت أمهاتُهن ليبقوا جوعىٰ في عالم يعتبر فيه لبن الأم العنصر الطبيعي الوحيد الذي يقيهم شر البؤس والجوع.

وتضرب المسئولة، واسمها «كلير بريسيه» مثلًا من بنغلادش التي يموت فيها ٩٥٪ من المواليد الذين يفقدون الأم ساعة الولادة قبل بلوغهم السنة من أعمارهم.

ويقول الدكتور «هولمان كاورز» أحد المسئولين في المركز العالمي للطفولة: «إن نسبة وفيات الأطفال في العالم الثالث تصل إلىٰ عشرة أمثالها في الدول الصناعية، ولٰكن نسبة الوفيات بين الأمهات أثناء الوضع تزيد علىٰ ذلك ألف مرة، وهٰذه وصمة علىٰ جبين العالم الذي يرسل الأقمار الصناعية ببلايين الدولارات لتتجول في الفضاء بحثًا عن الجديد».

هٰذا هو حال المرأة في أفريقيا والعالم الثالث.. أسيرة الفقر والمرض وندرة الرعاية الصحية.. فأين بلايين العالم الغربي لتحررها من هٰذا الأسر؟!

ألا يكون تحرير المرأة إلا من حجابها وعفافها وشرفها، هل يقتل حجابها، أم يمرضها عفافها، أم يفقرها شرفها..؟!

أعيدوا قراءة كلمات الدكتور هولمان كاورز السابقة: «هٰذه وصمة علىٰ جبين العالم الذي يرسل الأقمار الصناعية ببلايين الدولارات لتتجول في

الفضاء بحثًا عن الجديد..»! نعم.. وينفق بلايين أخرىٰ علىٰ أسلحة الدمار الشامل وبلايين علىٰ اللهو بمختلف أشكاله وألوانه.. بينما هو يبخل ببلايين قليلة علىٰ تحرير المرأة من المرض والفقر وفقدان الرعاية الصحية الكافية!

فيا محرري المرأة من حجابها وبيتها وعفافها.. إذا كانت قلوبكم علىٰ المرأة حقًا.. فحرروها من المرض والفقر والجوع..!

أجمعوا لها المال لتنفق منه علىٰ طعامها ودوائها وأطفالها.. بدلًا من أن تنفقوا علىٰ دعواتكم لخروجها من بيتها، ومخالطتها الرجال، وتبرجها وتكشفها.

الحجاب لم يكن قيدًا قط، والخلق لن يكون أسرًا أبدًا، والدين ما كان ليقف حاجزًا أمام تعلم المرأة وعطائها..

فيا محرري المرأة من خُلُقِها وحجابها وبيتها.. هَلَّا أبصرتم.. أم مازالت علىٰ أبصاركم غشاوة؟![1].

٩- يزداد الاغتصاب كلما زاد التحرر المزعوم:

لماذا ينزع معدل جرائم الاغتصاب إلىٰ الانخفاض في شهر كانون الأول (ديسمبر)؟

تقول دراسة أمريكية: إن جرائم الاغتصاب، شأن هجمات واعتداءات الغرباء، تنخفض خلال الشتاء؛ لأن الناس لا يخرجون كثيرًا وبالتالي فإن فرص الالتقاء تكون أقل.

ولو أردنا أن نترجم هٰذا الكلام إلىٰ نتيجة علمية فإننا نقول: عندما يقل الاختلاط.. يقل الاغتصاب.

أي أن الإسلام العظيم، حين يحدّ من الاختلاط، ويضيّق من فُرصه ومجالاته، فإنه يحدّ من جرائم الاغتصاب، ويحدّ من فرصها ومجالاتها.

---

(١) «من أجل تحرير حقيقي للمرأة» ص١٢٧-١٢٩.

ألا تتمنىٰ المرأةُ، حين تخرج من بيتها، أن يكون معها أبوها، أو أخوها، أو زوجها، أو ابنها..؟

وإذا لم تجد من هٰؤلاء يخرج معها، فإن قرارها- بقاءها- في بيتها- كما حثها الإسلام- أفضل لها وآمن.

لا تحسبوا من يقوم بجريمة الٱغتصاب شجاعًا مهما بلغت به الجراءة والوقاحة.. إنه يحسب حسابًا لكل رجل يرافق ٱمرأة.

لقد لاحظت -من خلال متابعاتي لجرائم الٱغتصاب- أن المجرمين يختارون النساء الوحيدات.

كيف لأحد -بعد هٰذا- أن يصف ضوابط الإسلام للمرأة بأنها قيود.. بينما هي أسوار حماية، وسبل وقاية.

وهٰذه هي مجتمعاتنا المسلمة، رغم عدم التزامها التام بالإسلام، تنخفض فيها نسب جرائم الٱغتصاب.

وإذا كانت بعض مجتمعات المسلمين بدأت تعاني من تزايد جرائم الٱغتصاب فيها، فإنَّما هٰذا بقدر بعدها عن الإسلام والتزامها أوامره[1].

والباحثة الفرنسية تقول: لا تتركوا الفتاة وحدها.

إن تأملات في كتاب «الاغتصاب»، لمؤلفته «ماري أوديل فارجيه»، تجعل المرء يدرك أن الإسلام بشريعته؛ خير من يحمي المرأة من أبشع جريمة بحقها: جريمة الٱغتصاب.

شملت الدراسة التي قام عليها الكتاب ١٤٦٨ حالة ٱغتصاب، حددت المؤلفة من خلالها أهم ملامح المغتصب، فذكرت أنه عادة يكون إنسانًا بالغًا، واعيًا، أعزب، وقد يكون متزوجًا ولكنه في الأغلب دون أولاد، وعادة ما يكون قد ٱتهم في جرائم أخرىٰ. وقد يقع الٱغتصاب تحت تأثير المخدرات، أو الخمور.

(١) «إنهم يتفرجون علىٰ ٱغتصابها» ص١٤-١٥.

أما ضحية الاٌغتصاب فهي عادة فتاة في مقتبل العمر، بين العاشرة والسابعة عشرة، وغالبًا ما تكون وحدها في البيت أو الشارع. وتقع الجريمة في الأماكن المنعزلة عند أطراف المدن، وتنتهي في الأغلب بقتل المغتصب لضحيته خوفًا من اٌفتضاح أمره.

وتنصح الباحثة ألا تترك الفتاة الصغيرة وحدها سواء في البيت أو الشارع، فهي في وحدتها فرصة للمغتصب.. تمامًا كما ينقض الذئب علىٰ الحمل الذي يبتعد عن القطيع.

إن إعادة بعض عبارات الباحثة تذكرنا بمنهج الإسلام في حماية المجتمع عامة والمرأة خاصة، وذلك مثل قولها إن المغتصب عادة ما يكون أعزب، وهٰذا يذكرنا بحث رسول الله ﷺ الشباب علىٰ الزواج.

ونقف عند عبارة المؤلفة في أحد ملامح المغتصب (وعادة ما يكون قد اتهم في جرائم أخرىٰ) أي أن نجاة المغتصب من العقاب في جرائم أخرىٰ أتاحت له اٌرتكاب جريمة الاٌغتصاب، بينما حد الإسلام كان سيمنعه من الإقدام علىٰ الاٌغتصاب.

(وقد يقع الاٌغتصاب تحت تأثير المخدرات أو الخمور) كما تقول الباحثة، ومن ثمَّ؛ فإن تحريم الإسلام للمخدرات والخمور يلغي هذين العاملين المساعدين علىٰ اٌرتكاب جريمة الاٌغتصاب.

(أما ضحية الاٌغتصاب فهي عادة فتاة في مقتبل العمر بين العاشرة والسابعة عشرة) والفتاة في هٰذه السن تكون في أوج أنوثتها، وعدم حجابها يُظهر هٰذه الأنوثة وما تحمله من فتنة تُثير المغتصب وتُغريه بالاعتداء علىٰ الفتاة، بينما الإسلام يفرض الحجاب علىٰ الفتاة منذ بلوغها، فلا يظهر منها ما يثير المغتصب أو يغريه.

(ودائمًا ما تكون وحدها).. (فهي في وحدتها فرصة للمغتصب).. وليس مثل الإسلام يأمر بمرافقة المرأة، وحمايتها، والبقاء معها، وعدم تركها

تمشي أو تسافر وحدها.

إن المؤلفة الفرنسية غير المسلمة تنصح بألا تُترك الفتاة وحدها، فهل تقبلون نصيحتها؛ لأنها فرنسية أوربية وترفضون منهج الإسلام الذي يكفل للمرأة حماية كاملة شاملة؟!![1].

١٠- دعاة تحرير المرأة يريدون أن يدفعوا المرأةَ المسلمةَ عن دينها؛ ليتركوها وحدها تواجه وحوشًا كاسرة تنهشها:

لا يمكن لمنصف أن يزعم أن ٱمرأة تستقل قطارًا عامًا، يمسك بها من عنقها وذراعيها أحدُ الركاب، وينزلها من القطار مرغمة، ويسوقها إلىٰ إحدىٰ الحدائق العامة، حيث يغتصبها فيها، ودون أن يتدخل أحد لإنقاذها.. لا يمكن لمنصف أن يزعم أن هٰذه المرأة ٱمرأة حرة!

كيف تكون هٰذه المرأة حرة وقد أُرغمت علىٰ ما حطم كرامتها، وأنوثتها، ومشاعرها؟! كيف تكون حرة وقد سيقت سوق النعجة إلىٰ المذبح؟! كيف تكون حرة وهي لا تجد من كلٍّ من حولها من الناس شهمًا يتقدم لإنقاذها؟!

تعالين أخواتي نقرأ الخبر بالتفصيل كما نقلته الصحيفة الصادرة في لندن:

(كشفت شرطة سكوتلنديارد عن واحدة من حوادث العنف المتصاعد في شوارع العاصمة البريطانية، وسقط ضحيتها سائحة أمريكية في السابعة والعشرين من عمرها حيث تم ٱغتصابها في وضح النهار، وعلىٰ مرأىٰ ومسمع من عدد من المواطنين اللندنيين الذي أخفقوا في تقديم أي مساعدة للضحية تحول دون وقوعها بين أيدي أحد المجرمين.

وكانت السائحة الأمريكية التي لم تكشف شرطة سكوتلنديارد عن هويتها قد ٱستقلت قطار الأنفاق من محطة «إيلينغ برودواي»- غرب لندن- في الساعة الرابعة والنصف من بعد الظهر في طريقها لزيارة إحدىٰ الصديقات في

---

(١) «إنهم يتفرجون علىٰ ٱغتصابها» ص١٦-١٧.

منطقة «ستامفورد بروك»، وعقب عدة دقائق من بداية رحلتها صعد إلىٰ عربة القطار في محطة «تيرنهام غرين» أحد الركاب وجلس قبالتها، وقبل أن يغادر القطار المحطة ٱنقض عليها الراكب وجذبها من عنقها وذراعيها أمام الركاب الذين تواجدوا داخل عربة القطار. واستطاع الراكب المجهول أن يدفع بها إلىٰ رصيف المحطة دون أين يحرك أي من الركاب ساكنًا أو يخف لمساعدتها ٱعتقادًا منهم بأن ما يحدث أمامهم ليس سوىٰ شئون خاصة بين ٱثنين من الركاب.

وفي إحدىٰ الحدائق العامة بين منطقتي «تشيزيك وتيرنهام غرين» ٱرتكب المجهول جريمة ٱغتصاب السائحة الأمريكية ثم لاذ بالفرار. وتشير مصادر شرطة سكوتلنديارد إلىٰ أن السائحة الضحية ظلت تهيم علىٰ وجهها في شوارع العاصمة اللندنية شبه غائبة عن الوعي حتىٰ صباح اليوم التالي حيث توجهت إلىٰ أقرب مركز للشرطة في حي «الويست إند» وقامت بالإبلاغ عن الجريمة.

وفور ٱستجواب الضحية نشرت الشرطة بلاغًا عامًا إلىٰ المواطنين اللندنيين الذين تصادف وجودهم داخل عربة القطار المتجه من «إيلينغ برودواي» إلىٰ «ستامفورد بروك» وشاهدوا المراحل الأولىٰ من ٱرتكاب الجريمة يطالبهم التقدم إلىٰ الشرطة للاستماع إلىٰ أقوالهم في محاولة العثور علىٰ المجرم المجهول).

هل لنا أن نسأل أولئك الذين يتحدثون عن دور الٱختلاط في تهذيب المشاعر الجنسية: ما بال هٰذا المجرم ينقض علىٰ فريسته ٱنقضاض الوحش المفترس؟! أين غريزته المهذبة الملطفة؟! ثم لماذا ٱختار ذاك المجرم تلك المرأة دون غيرها؟! أكانت غاية في الجمال؟ أم غاية في التبرج والإثارة؟ أكان يجرؤ ذاك المجرم علىٰ جذبها خارج القطار لو كان معها محرم يرافقها في سفرها هٰذا؟! أكان يُقدم علىٰ جريمته لو عرف أن عقوبته حد قد يصل إلىٰ تقطيع يديه ورجليه من خلاف؟!!

كل هٰذه التساؤلات تؤكد أن الإسلام يحمي المرأة من الٱغتصاب، وحين يحميها منه فإنه يحمي إنسانيتها، وأنوثتها، وكرامتها.. ويحفظ- من ثم - حريتها الحقيقية.

ليت هٰؤلاء الذين زعموا تحرير المرأة يقرءون ما جاء في الخبر عن حال تلك السائحة الأمريكية بعد ٱغتصابها: (وتشير مصادر شرطة سكوتلنديارد إلىٰ أن السائحة الضحية ظلت تهيم علىٰ وجهها في شوارع العاصمة اللندنية شبه غائبة عن الوعي حتىٰ صباح اليوم التالي).

هل هٰذا ما تريدون أن توصلوا المرأة إليه أن (تهيم علىٰ وجهها شبه غائبة عن الوعي)؟! أين حرصكم المزعوم علىٰ وعيها؟! أين دعوتكم الكاذبة إلىٰ يقظتها؟!

وماذا نفهم مما جاء في الخبر من أن الشرطة لم تعلم بالجريمة حتىٰ صباح اليوم التالي، حين توجهت الضحية إلىٰ أقرب مركز للشرطة، في حي «الويست إند»، وقامت بالإبلاغ عن الجريمة؟! ألا نفهم منه أنه لم يتقدم أحد، ممن شاهدوا المجرم يخطف السائحة الأمريكية، إلىٰ الشرطة لإبلاغها بما حدث؟! ألا يؤكد هٰذا ما قامت به الشرطة - فور ٱستجواب الضحية- من نشر بلاغ عام إلىٰ المواطنين الذين تصادف وجودهم داخل عربة القطار، وشاهدوا المراحل الأولىٰ من ٱرتكاب الجريمة، يطالبهم فيه التقدم إلىٰ الشرطة للاستماع إلىٰ أقوالهم في محاولة العثور علىٰ المجرم المجهول؟! ألا يؤكد أن أحدًا من هٰؤلاء الركاب الشهود لم يتطوع لإبلاغ الشرطة بما حدث؟!

أيتها المسلمة.. هكذا يريدون أن يدفعوك بعيدًا عن دينك ليتركوك وحدك.. تواجهين وحوشًا كاسرة.. تنهشك.. غير مبالية بعواطفك، ومشاعرك وأحاسيسك، إلا بجسدك.

إن العاقلين من الغربيين يدعون إلىٰ أن تقلدك الغربية في لباسك.. فكيف

تقلدينها أنت في لباسها الكاشف العاري؟!

لقد طالب أحد الكتاب في مجلة «التايمز» الأمريكية (١١/ ١١/ ١٩٩١) حكومته بالتدخل وإقناع النساء بارتداء ملابس محتشمة وخاصة تلك الملابس التي ترتديها المسلمات. وجاءت هٰذه الدعوة من الكاتب إثر الضجة التي أثيرت حول ٱزدياد موجة الٱعتداء علىٰ السكرتيرات والمجندات.

ألا يجعلك هٰذا تعتزين بخمارك الإسلامي؟![1].

١١- في هٰذا التحرر المزعوم ضابطة الأمن تفتقد الأمن من رجل الأمن:

هل يمكن أن تكون هناك حرية إذا لم يكن هناك أمن؟ هل تشعر ٱمرأةٌ بأنها حرة حقًا إذا كانت غير آمنة علىٰ نفسها؟!!

لا شك في أنها مفارقة غريبة أن نصف ٱمرأة بأنها حرة وهي فاقدة للأمن!

وتزداد هٰذه المفارقة غرابة إذا كانت هٰذه المرأة تعمل في مجال الأمن! بل إذا كانت وظيفتها منح الأمن الذي تفتقده.. للآخرين!!

وتصبح هٰذه المفارقة في غاية الغرابة؛ حين يكون من يسلب أمن المرأة العاملة علىٰ حفظ الأمن.. رجل أمن مثلها !!!!

ألست محقًا في وضع أربع عاملات تعجب في نهاية الفقرة السابقة؟! ٱمرأة مهمتها حفظ الأمن، تفتقد الأمن، من رجل الأمن؟!!

لقد كشف مسح ٱستطلاعي أعدته وزارة الداخلية البريطانية أن ٨٠٪ (نعم.. ثمانون في المائة) من ضابطات الشرطة، أي بنسبة أربعة إلىٰ خمسة، يتعرضن للمضايقات الجنسية خلال نوبات العمل الرسمية.

شارك في الٱستطلاع ١٨٠٠ ضابطة في عشر مديريات أمن في إنكلترا وويلز، وأشرفت عليه الدكتورة «جنيفر براون»، وهي باحثة ٱجتماعية في

---

(١) «إنهم يتفرجون علىٰ ٱغتصابها» ص١٨-٢٠.

الوحدة الملحقة في مديرية أمن «نيوهامبشاير».

أليست نسبة مفزعة؟ أربعة أخماس الشرطيات- عفوًا ضابطات الشرطة- يتعرضن للمضايقات الجنسية، ومتىٰ؟ خلال نوبات العمل الرسمية!! خلال العمل علىٰ حفظ الأمن!!

لهٰذا فليس مفاجئًا أن تعتبر مصادر هيئة سكوتلنتديارد الأرقام المنشورة في التقرير الجديد غاية في الحساسية، فيما أشار ناطق باسم الداخلية البريطانية إلىٰ أن المسح الٱستطلاعي أجري في عشر دوائر أمن.

يجيء هٰذا التقرير في الوقت الذي تقدمت فيه ٣٥ ضابطة بشكاوٍ رسمية إلىٰ الجهات المختصة يطلبن فيها التحقيق في تعرضهن لتحرشات ومضايقات من زملائهن خلال نوبات العمل الرسمية. إضافة إلىٰ تقدم ١٠٠ ضابطة بطلبات للنقل من أقسام الشرطة التي يعملن فيها بسبب تعرضهن أيضًا لمضايقات وتحرشات.

وذكر «بادن سكيت» من هيئة شرطة «هيرتفورد شاير» أن تعرض ضابطات الشرطة للمضايقات أصبح مشكلة عامة تؤرق القائمين علىٰ أجهزة الشرطة في إنكلترا وويلز.

ولا شك في أن نتائج سلبية كثيرة ستنجم عن هٰذه المضايقات والتحرشات، وقد أشار التقرير إلىٰ واحدة منها وهي ٱرتفاع نسب الطلاق بين الشرطيات.

إذا كان هٰذا حال ضابطات الأمن.. فما حال غيرهن من النساء؟![1].

١٢- ألا تكفي ظاهرة الٱغتصاب لمنع الٱختلاط والتحرر:

حين يضيق الإسلام في مجالات الٱختلاط بين الجنسين، ويحدّ من فرصه؛ فإنَّما يضيّق السبل أمام جرائم الٱغتصاب والاعتداء الجنسي، ويحدّ من ٱنتشارها.

---

(١) «إنهم يتفرجون علىٰ ٱغتصابها» ص٢٣-٢٤.

وليس للداعين إلىٰ ذاك الٱختلاط أن يعوّلوا علىٰ أمثلة لمؤسسات أو هيئات لم تحدث فيها جرائم حتىٰ يصلوا إلىٰ نتيجة مفادها أن الٱختلاط بين الجنسين لا يشكل خطرًا.. فهٰذه نتيجة غير علمية، إذ لابد من ٱستقراء شامل؛ تعرف به مختلف الجرائم، وعندها تكون الدراسة علمية وموضوعية.

ولعلَّ مثل إشارات المرور خير موضح لذلك، فكون مئات السيارات تجتاز الإشارة الحمراء دون وقوع حوادث؛ لا يعطي لأحد الحق في الدعوة إلىٰ التسامح في هٰذا التجاوز.. وكذلك حدوث ٱختلاطات كثيرة بين الجنسين، دون وقوع جرائم ٱغتصاب، لا يعطي لأحد الحق في الدعوة إلىٰ التسامح في هٰذا الٱختلاط.

إن وقوع حادث مروري خطير واحد نتيجة تجاوز الإشارة الحمراء يكفي لمنع تجاوز مئات السيارات لها ومعاقبة سائقيها.. وكذلك ٱرتكاب جريمة ٱغتصاب واحدة تكفي لمنع مئات الرجال والنساء من الٱختلاط.

ألا تكفي **١٩٠٠** ٱمرأة أمريكية يغتصبن يوميًا لتمنع الولايات المتحدة الٱختلاط؟ لقد أعلن مركز الضحايا الوطني الذي يناصر حقوق ضحايا جرائم العنف أن معدل الٱغتصاب في الولايات المتحدة أصبح يبلغ **١,٣** ٱمرأة بالغة في الدقيقة الواحدة؛ أي **٦٨٣٠٠٠** ٱمرأة في العام.

وأضاف المركز أن واحدة من كل ثماني بالغات في الولايات المتحدة تعرضت للاغتصاب؛ ليكون إجمالي من ٱغتصبن ٱثني عشر مليونًا ومائة ألف ٱمرأة (١٢,١٠٠,٠٠٠) علىٰ الأقل.

ويشير المسح إلىٰ أن **٦١** في المائة من حالات الٱغتصاب تمت لفتيات تقل أعمارهن عن **١٨** عامًا، وأن **٢٩** في المائة من كل حالات الٱغتصاب تمت ضد أطفال تقل أعمارهم عن **١١** عامًا.

وأظهرت الأرقام زيادة معدل الٱغتصاب عن العام الذي سبقه بنسبة **٥٩**

في المائة!

أي أن الأزمة، أزمة الاغتصاب تزيد وتتفاقم ولا تقف عند حد، وأن هناك ملايين الأمريكيات سيأتي الدور عليهن ليُغتصبن! دون أن يجدن الحماية الكافية .

أي حرية تلك؟! أليست حرية الرجل الذي يعتدي علىٰ المرأة أبشع اعتداء؟! هل في هٰذا نوع من أنواع الحرية للمرأة المغتصبة؟!

وإذا كانت أرقام ذاك الإحصاء في عام ١٩٩١ فإنَّ ملايين أخرىٰ من النساء اغتصبن، أي أن أكثر من خمسة عشر مليون امرأة أمريكية جرحت في مشاعرها، واعتدي علىٰ جسدها، وامتهنت كرامتها.. فماذا يحمي المرأة من هٰذا كله إلا إبعاد الرجل عنها؟! وهل يبعد الرجل عنها بغير منع الاختلاط وإقامة حدود الإسلام[1]؟

١٣- الحرية الجنسية قيد تسلب المرأة حريتها وأمنها

دعت «الجمعية النسائية لمكافحة الاغتصاب» ومقرها العاصمة الفرنسية باريس، إلىٰ إخضاع مرتكب الجرائم الجنسية لعلاج إلزامي قبل سنة علىٰ الأقل من مغادرتهم السجن وإلىٰ اتخاذ تدابير متابعة قضائية وعلاجية بعد الإفراج عنهم.

وأعلنت الجمعية أنَّ الوقاية من الاعتداءات الجنسية، ومنع تكرارها علىٰ الأقل، باتت أمرًا ملحًا.

وطالبت الجمعية - التي تتلقىٰ سنويًا ألفًا إلىٰ ألف ومائتي اتصال من ضحايا الجرائم الجنسية- بإعداد برامج للوقاية من التجاوزات الجنسية وتلقينها الأطفال منذ نعومة أظفارهم.

واضح ممَّا جاء في هٰذا الخبر، أن معاناة المرأة الفرنسية من الاغتصاب

---

(١) «إنهم يتفرجون علىٰ اغتصابها» ص٤٠-٤١.

ومن جميع أشكال الٱعتداء الجنسي معاناة كبيرة وحادة وهائلة إلىٰ درجة تأسيس جمعية نسائية لها مهمة واحدة تبذل من أجلها كل جهودها، وهي مهمة «مكافحة الٱغتصاب».

وإنَّ الدعوة إلىٰ إخضاع مرتكبي الجرائم الجنسية لعلاج إلزامي قبل سنة علىٰ الأقل من مغادرتهم السجن لتشير بوضوح إلىٰ الخوف والقلق اللذين يملآن نفوس النساء من تكرار ٱرتكاب جرائم الٱغتصاب من مجرمين سبق ٱرتكابُهم لها.

وهٰذا بدوره يؤكد أن العقاب لم يكن رادعًا، وأن الخطر مازال قائمًا بينما الحدُّ الإسلامي يجتث المجرم من المجتمع كلِّه، ويعيش في تصور كل من تشجعه نفسه الأمارة بالسوء علىٰ ٱرتكاب جرم الاغتصاب.. فيبعده عنه، ويخوفه منه، ويكون- من ثَمَّ- عامل وقاية هامًا وفاعلًا.

ولا شكَّ في أن أكثر من ألف ٱتصال من ضحايا الجرائم الجنسية بالجمعية، يدل علىٰ ٱستمرار معاناة النساء من آثار الٱغتصاب، ويبحثن عمَّن يكفل لهن الحماية، ويوفر لهن الأمان مع ضرورة الإشارة إلىٰ الإشارة إلىٰ أن كثيرات لا يقمن بهٰذا الٱتصال ويكتمن معاناتهن في أنفسهن.

ثم إن مطالبة الجمعية بإعداد برامج للوقاية من التجاوزات الجنسية، وتلقينها الأطفال منذ نعومة أظفارهم؛ لتبين أهمية التربية التي يدعو إليها الإسلام ويلح عليها وتكشف -من جهة أخرىٰ- بطلان تلك الدعوات إلىٰ تدريس الجنس والحث عليه، وما جرّه علىٰ الغرب من ٱنفلات يقطفون الآن ثماره الفجة. وما أعلنته الجمعية، من أنَّ الوقاية من الٱعتداءات الجنسية باتت أمرًا ملحًا، ليشهد لشريعة الإسلام شهادة بالغة، فهي التي توفر مبادئها خير وقاية من الٱغتصاب، بدءًا من الحجاب الذي يستر المرأة منذ بلوغها ومرورًا بمنع الٱختلاط، وانتهاء بالحدود الزاجرة وأرجو ألا يغيب عنا معنىٰ هام نخرج به من هٰذا الخبر؛ وهو أن ما سمّوه بـ «الحرية الجنسية» ليس إلا قيدًا

رهيبًا خانقًا سلب المرأة حريتها الحقيقية! ذلك أن «الاغتصاب» أو «الاعتداء الجنسي» بأي صورة كان، إنما هو قيد قاس، فهو يحرم المرأة من أن تكون آمنة ويجعلها خائفة مهانة مرغمة علىٰ عمل لم تختره فهل في هٰذا شيء من الحرية!

فلنصحح إذن التسمية من «الحرية الجنسية» إلىٰ «الانفلات الجنسي» ولنقل ونحن مطمئنون إن «الانفلات الجنسي» قيد من القيود الخطيرة التي تسلب المرأة حريتها وأمنها، وتجرح أحاسيسها ومشاعرها وتبقىٰ كلمة لأولئك الذين مازالوا يدعوننا إلىٰ دفع مجتمعاتنا المسلمة إلىٰ أتون مجتمعات الغرب: هل تريدوننا أن نعيش مثلما يعيش هٰؤلاء الذين فقدوا الأمن؟! هل تريدون أن يحل بنسائنا ما حل بنساء الغرب؟! هل تريدون المسلمة الآمنة، المطمئنة الحرة أن تصبح خائفة، قلقة، مكبَّلة؟!![1].

١٤- الغرب يعترف بأن مستقبلهم مظلم جدًّا:

الرجال في الغرب شبه صامتين إزاء ما تعانيه المرأة من ٱعتداءات تسلبها أمنها، وكرامتها، وحريتها.

لٰكن ضمائر يقظة تدفع رجالًا ليقولوا الحقيقة، وليحذروا من مستقبل خطر، ينتظر المجتمع عامة والمرأة خاصة.

ففي تقرير أصدرته دائرة الشئون الٱجتماعية في إنكلترة، بخصوص ٱنهيار الأخلاق العامة والفساد الكبير الذي يسود المجتمع، إشارات تثير نوعًا من الخوف في القلوب.

ولقد ذكر الدكتور «ديفي أندرسون»، الذي أعد التقرير، إن تسوس الأخلاق الحميدة يمكنه، في نهاية الأمر، أن يشكل تهديدًا أكبر علىٰ المجتمع.

---

(١) «إنهم يتفرجون علىٰ ٱغتصابها» ص ٤٢-٤٣.

واستطرد يقول: إن المرء، في أيامنا هٰذه، يستطيع أن يرىٰ بوضوح بؤر الفساد متفشية في جميع شرائح المجتمع.

ويضيف محددًا: إن أكثر شيء يرثىٰ له هو وضع النساء بصورة عامة، ذلك أن المرأة في عصرنا هٰذا أصبحت مستهدفة وضحية للعنف والاعتداء أكثر من أي وقت مضىٰ.

وعزا «أندرسون» سبب ذلك إلىٰ أن الرجال قد فقدوا الشعور بالاحترام تجاهها، وبخاصة بعد شيوع ما يسمىٰ بـ «المساواة التامة بين الرجل والمرأة».

وحتىٰ علىٰ مستوىٰ الأسرة يلاحظ المرء كيف أن الكثيرين من المراهقين يفتقدون مقومات الأسرة المتماسكة، الأمر الذي ينعكس عليهم وعلىٰ المجتمع بشكل سلبي كبير.

وعليه فإن هٰذا وذاك لا يعني إلا شيئًا واحدًا هو أن مستقبل الحياة الاٌجتماعية سيكون مظلمًا جدًا.

«مستقبل الحياة الاٌجتماعية سيكون مظلمًا جدًا»، هٰذه هي النتيجة التي يخلص إليها التقرير.. فهل يريد الداعون إلىٰ تبرج المرأة، ومخالطتها الرجال في بلادنا، أن نوجه ذاك المستقبل المظلم جدًا؟!

ألا يكفي هٰذا تحذيرًا لنا لنقف، ونراجع، ونعود إلىٰ شريعتنا التي تحمينا، وتحفظنا، وتقينا شر ذاك المستقبل المظلم جدًا؟!

صدقوني إنه سيأتي اليوم الذي يلجأ فيه الغرب إلىٰ شريعة الإسلام، فهل يسبقوننا إليها ونحن من ينعم بالانتماء إليها؟![1].

يقول الأستاذ ضيف الله الضعيان[2]:

ظاهرة «الانتحار» في المجتمعات المتحضرة والتي هي الغاية في الهرب

---

(١) «إنهم يتفرجون علىٰ اٌغتصابها» ص ٤٥- ٤٦.

(٢) مجلة «البيان» العدد الثامن، صفر سنة ١٤٠٨هـ ص٩٥ .

من جحيم تلك الحضارة وويلاتها، حيث بلغت حدًّا من الانتشار حتىٰ أصبحت في رأي علماء النفس والاجتماع صرعة غربية.

فالواقع السريع للتطور التكنولوجي المتلاحق، والاتجاه الشرس نحو المادية المفرطة، وتفكك الروابط والعلاقات الاجتماعية والأسرية أوجد إحساسًا بالضياع وأوجد أزمة هوية لدىٰ الشباب والمراهقين في بلاد الغرب التي أصبحت مهدَّدة بانهيار نفسي وجماهيري.

هٰذا الإحساس بالضياع الذي يعيشه مراهقو الغرب أوجد نزعة نحو التخلص من مشاكل الحياة المادية باللجوء إلىٰ الانتحار. فقد أجرت مجلة «المراهق» الأمريكية مسحًا بين عينة من الصبية والفتيات في فئة السن بين ١٥ و١٩ عامًا لاستطلاع مشاعرهم تجاه ظاهرة الانتحار المتزايد في المجتمع الأمريكي.. المسح الذي شارك فيه أكثر من «٥٠٠» صبي وفتاة جاء بنتائج مفزعة تقول:

إن الثلث ممن وجهت إليهم الأسئلة حاولوا فعلًا التخلص من حياتهم بعد أن استسلموا لليأس والقنوط، ولقد روعي في تكوين واختيار تلك العينة أن تكون ممثلة لواقع المجتمع الأمريكي بجميع طبقاته.. وينتهي المسح أيضًا إلىٰ أن ٧٣٪ من الشباب والمراهقين فكروا في الإقدام علىٰ الانتحار مرة أو أكثر خلال حياتهم.

ويشير الاستطلاع إلىٰ ظاهرة خطيرة أخرىٰ.. وهي أن غالبية من حاولوا الانتحار هم من الفتيات في أخطر مراحل العمر وأحوجها إلىٰ الجو النفسي الأُسري عند رفضها أو عجزها عن دفع تكاليف سكنها ومعيشتها!!.

يُنْشَرُ هٰذا الاستطلاع في وقت ينعق فيه أدعياء تحرير المرأة المسلمة!! ليخرجوها من عش وجو الأسرة الآمن إلىٰ حيث القلق والاضطراب النفسي والأخلاقي.

أما عن أسباب الانتحار فهي عديدة ومتنوعة، وأكثرها شيوعًا حسب ما

كشفت عنه الإجابات هو صراع الجيلين -أي: الخلاف بين المراهق ووالديه- ولا سيما وأن الأب ينتمي إلىٰ عهد كان أقلَّ شراسة في ماديته، وثمة دوافع أخرىٰ في رأي المراهقين، إذ يقول من أجرىٰ عليهم المسح أن الإحساس بالوحدة يدفع إلىٰ التفكير في الانتحار، وكذلك الانزعاج والاستياء من المظهر الشخصي للمرء يزهده في حياته، وخلافه مع صديقه أو صديقته يجعله يريد أن يبرح الدنيا.. ومما يزيد الطين بِلَّة أن الشخصية الانتحارية لا تجد من تفضي إليه بمكنوناتها لحين تزول الغُمة وتنفرج الأسارير، وفي ذلك تقول نتائج المسح: إن ربع من فكروا أو أقدموا علىٰ الانتحار فعلوا ذلك بعد أن خاب أملهم في وجود من يسرون إليه بمعاناتهم.

وفي اليابان حيث التقدم الصناعي والقفزات المادية السريعة أفاد تقرير رسمي نشر بتاريخ ١٢/ ٢/ ١٩٨٧م أن ٨٠٢ من الشباب الياباني المراهق قد انتحروا في العام الماضي مما يشكل زيادة بواقع ٤٤٪ عن العام الذي سبقه، وقال تقرير وكالة الشرطة القومية: إن ٢٩٩ فتاة قد انتحرت خلال عام ١٩٨٦م وذلك بزيادة ٦,٩٪ سجلت أعلىٰ رقم قياسي.

وذكر التقرير أن مشاكل المدارس كانت حافزًا لانتحار ٢٠٧ شاب، تليها المشاكل العائلية التي أودت بحياة ١٠٧ شخص والمشاكل الغرامية التي ذهب ضحيتها أكثر من ٩٠ شخصًا.

وإذا كان وباء العصر «الإيدز» يقضي علىٰ مئات الأشخاص كل سنة في المجتمعات الأمريكية والأوروبية فإن من المصابين به من يفضل أن يموت بيده لا بيد فيروس المرض احتجاجًا علىٰ إصابته به، فيقدم علىٰ الانتحار كما أقدم عليه زوجان إيطاليان بأن أطلقا علىٰ نفسيهما النار بعد أن أوصيا برعاية ابنهما الوحيد.

وإن كان بعض ما تقدم من حالات أو محاولات الانتحار يبدو له ما يبرره - علىٰ مستوىٰ العقلية المادية علىٰ الأقل- فإن كثيرًا من ممارسي هٰذه الظاهرة قد قضوا نحبهم لأسباب تبدو تافهة أو مضحكة في نظر من أوتي عقلًا وإيمانًا.

ففي تقرير حوادث الانتحار اليابانية -سابق الذكر- تعتقد الشرطة أن الزيادة الحادة في إقدام الفتيات علىٰ الانتحار جاءت بعد انتحار المغنية الشهيرة «يوكيكو أوكادا» ١٨ عامًا التي قفزت من أعلىٰ مبنىٰ شاهق في طوكيو في أبريل ١٩٨٦م.

وأقدمت الأم البريطانية علىٰ الانتحار بعدما فشلت في العثور علىٰ دواء يضع حدًا لتساقط شعرها مخلفةً وراءها ثلاثة أولادٍ عن عمر يبلغ ٤٣ عامًا.

وانتحر الأب الإنجليزي ذو الخمسين عامًا بسبب مضايقات حماته بعد أن نفَّذ مذبحة في أسرته ضمَّنها العجوز التي كانت سببًا في انتحاره.

وأن آخر يقذف بنفسه وطفله من الطابق التاسع عشر احتجاجًا علىٰ حكم المحكمة بضم الابن لصالح الأم المطلقة.

وأخرىٰ تقرر مفارقة الحياة بسبب مرض جلدي في وجهها.

إلىٰ آخر ما هنالك من الحالات الفردية التي فارقت الحياة لأتفه الأسباب.

وما سياقنا لمثل هٰذه الحالات إلا ليتعرف القارئ المسلم عن كثب علىٰ ما تعيشه الشعوب الغربية من قلق واضطراب نفسي وخواء روحي وضيق أفق نتيجة البعد عن منهج الله، والنظرة المادية القاصرة للكون والحياة.

١٥- في إسلامنا معنىٰ التقدم والحضارة:

يقول الأستاذ سعيد حوىٰ[(١)]:

كثيرًا ما يحدث لبس بين ثلاث كلمات: الحضارة والمدنية والثقافة، ونتيجة للبس هٰذا فقد أراد بعضهم أن يحدد معاني هٰذه الكلمات، فقالوا: إن مدنية أمة ما تعني الجانب المادي عند هٰذه الأمة، وثقافة أمة ما تعني الجانب الآخر في حياة الأمة، ولا يقصدون بكلمة الثقافة هنا العلم فقط، بل يريدون

(١) «كي لا نمضي بعيدًا عن ٱحتياجات العصر» ص٤٩-٥٦.

التصورات والأفكار والسلوك والآداب، وكل المعاني التي لا تدخل في الجانب المادي وحضارة أمة ما تعني مجموع ثقافتها ومدنيتها.

فإذا ٱعتمدنا هٰذا التعريف لكلمة الحضارة، تكون حضارة أمة ما هي مجموعة ثقافتها ومدنيتها، أي: الجانب المادي فيها الآخر بآن واحد. وعلىٰ هٰذا الأساس فكل أمة من الأمم يمكن أن تكون لها حضارة، إذ أن لكل أمة في هٰذه الحالة مدنية ما، أي جانب مادي، ولكل أمة ثقافة بصرف النظر عن مضمون هٰذه الثقافة ما إذا كان حقًّا أو باطلًا، ما إذا كان مقبولًا أو غير مقبول. ومن الٱبتداء نقول: الأمة ذات الحضارة المتقدمة هي التي ٱجتمع لها تقدم مدني، وتقدم ثقافي، والأمة المتخلفة حضاريًّا هي الأمة التي ٱجتمع لها تخلف مدني وتخلف ثقافي، وقد نجد أمة متقدمة مدنيًا، وهي متخلفة ثقافيًا، وقد نجد أمة متقدمة ثقافيًا وهي متخلفة مدنيًا، ولأضرب مثلًا يتبين منه كيف أن التقدم المدني لا يعني بالضرورة تقدمًا ثقافيًا، ولا يعني بالضرورة إذن تقدمًا حضاريًا، لنفرض فرضًا أن مجموعة من اللصوص ٱستطاعت من خلال السرقة والغش أن توجد متجمعًا، وأن تقيم بلدًا تتوافر لديه كل أسباب الرفاهية، ويستطيع أن يستعمل كل منجزات المدنية فمجتمع هٰذا شأنه متقدم مدنيًا، لأنه ٱستطاع في الجانب المادي أن يستعمل كل منجزات المدنية، ولٰكن هل نستطيع أن نعتبر مجتمع اللصوص هٰذا مجتمعًا متقدمًا؛ تصور مجتمع اللصوص هٰذا قد ٱعتمد الإباحية الجنسية، واعتمد المخدرات واعتمد الأشياء التي تعتبرها الفطرة البشرية خاطئة، لو أن مجتمعًا هٰذا شأنه ٱجتمع له من ناحية أن يستعمل أعظم منجزات العلم، وفي الوقت نفسه هو قائم علىٰ اللصوصية والإباحية وغيرها مما تأباه فطرة الإنسان، ولا يرضىٰ عنه منطق العقل ولا منطق العلم فهل نقول عن مثل هٰذا المجتمع: إنه متقدم ثقافيًا؟

الجواب: لا.. إنه يمكن أن نقول عنه وبشيء من التوسع إن هٰذا المجتمع متقدم مدنيًا غير متقدم ثقافيًا، وبالتالي فهو متخلف حضاريًا. فإذن

التقدم الحضاري إنما يكون عندما توجد ثقافة متقدمة ومدنية متقدمة، وفي ذلك درجات، والتخلف الحضاري يكون عندما تكون ثقافة متخلفة ومدنية متخلفة، وفي ذلك درجات أيضًا.

هناك صورة من الصور ينبغي أن نفطن لها، وهي أن الأمة المتخلفة ثقافيًا بأن كانت ثقافتها غير صحيحة، أو ليست حقًا أو فيها أخطاء أو ٱنحرافات وإن تقدمت مدنيًا، فإن تقدمها المدني مطبوع بتخلفها الثقافي؛ لأن هناك ٱرتباطًا بين الناتج المدني، وبين الفكر والثقافة.. بل نقول: في كثير من الأحيان لا نجد ٱنفاصلًا بين الجانب الثقافي والجانب المدني؛ لأن الجانب المدني عادة يكون مطبوعًا بالجانب الثقافي، فهناك ولو من الناحية الرمزية نوع ٱرتباط ما بين الناتج المدني وما بين الثقافة التي توجه الناتج المدني، تصوروا هٰذا العالم تحكمه العقيدة الإسلامية، فماذا سيكون تأثير الثقافة الإسلامية علىٰ تسخير الٱكتشافات العلمية في طريق خدمة الإنسان؛ حتمًا ستكون النتيجة غير هٰذه النتيجة التي نراها الآن، إنكم تروْن أن من بيدهم أزمَة هٰذا العالم يحاولون أن يستفيدوا من كل ٱكتشاف علمي لصالح التدمير والتخريب، لصالح التأثير المستغل للشعوب الأخرىٰ، حتىٰ القضايا التجريبية الإدارية، والنظريات الإدارية نفسها توجه من ناحية لخدمة شعب من الشعوب ومن ناحية أخرىٰ للسيطرة علىٰ مصالح شعوب أخرىٰ، حتىٰ الدراسات النفسية توجه من أجل أن تجعل شعوبًا مسخرة لشعوب، وإذن فأنتم تلاحظون كيف أن ثقافة الأمم المعاصرة قد سخرت الٱكتشافات العلمية في الطريق الذي يمكن أن يكون مدمرًا للحياة البشرية كلها، بينما لو كان الإسلام هو الحاكم لهٰذا العالم فإن شيئًا آخر سيكون.

وستسخر هٰذه الٱكتشافات في طريق آخر، فالمنهج الحضاري مرتبط بالثقافة التي وراءه، وإذن فعندما تكون ثقافة أمة ما متخلفة لابد أن تظهر آثار

ذلك علىٰ مدنيتها، لابد أن نعطي هٰذا المعنىٰ ٱعتبارًا كبيرًا، ونحن ننظر إلىٰ قضية الحضارة.

أيها الإخوة: إن قضية الحضارة في عصرنا أصبحت صنمًا من الأصنام ينبغي أن ننتبه إلىٰ خطورته، فالأمة المتفوقة مدنيًا يصيبها الغرور في العادة، والأمة المتخلفة مدنيًا يصيبها عقدة نقص تصبح فيها تقلد الأمة المتقدمة مدنيًا، هٰذا نراه في الواقع ومن ٱستقراء التاريخ، فعندما كان المسلمون في يوم من الأيام هم المتقدمون مدنيًا، كان باباوات روما يلبسون اللباس العربي، وعندما أصبحنا في الوضع الآخر أصبحنا نلبس لباسهم، عندما كنا متقدمين مدنيًا دخلت كلماتنا في لغاتهم، وعندما أصبحوا متقدمين مدنيًا دخلت كلماتهم في لغاتنا.

الأمة المتخلفة مدنيًا تشعر بعقدة النقص وبالتالي تقلد.

والأمة المتقدمة مدنيًا تشعر بعقدة الغرور فتجب أن تسيطر في قصة سليمان عليه الصلاة والسلام نجد أن ملكة سبأ عندما جاءت إلىٰ سليمان وأراها عرشها قالت: كأنه هو، هي معجزة ومع ذلك فإن هٰذه المعجزة لم تجعلها تدخل في الإسلام.. فمتىٰ دخلت في الإسلام؟ ﴿قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ﴾.

كان مصنعًا تصنيعًا عجيبًا حسبته لجة، صرح ممرد من قوارير كأنه موج لا يكاد الناظر يدرك أنه زجاج: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ عندئذ أسلمت ﴿قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ههنا تفوق مدني أثر عليها فأدخلها في الإسلام.

أيها الإخوة: في عصرنا ونحن متخلفون مدنيًا عاشت شعوبنا عقدة النقص، وأراد غيرنا أن يسيطر علينا، وأن يحكمنا وأن يتعامل معنا بلغة

الغرور، وقالت لنا كل جهة في هٰذا العالم: نحن متقدمون مدنيًا، بسبب نظامنا، وأنتم أيها المسلمون متخلفون بسبب نظامكم، الطريق أمامكم للتقدم هو أن تسلكوا طريقنا وأن تقبلوا نظامنا، قالت: هٰذه الرأسمالية لشعوبنا، وتقول: هٰذه الشيوعية لشعوبنا، ويقول هٰذا غيرهم وغيرهم كذلك لشعوبنا.

وشبابنا الممزق غير الواعي يستجيب لهٰؤلاء وهٰؤلاء؛ لأنه تعبدته فكرة الحضارة، لأن عقدة النقص عندهم موجودة، لأن وعيه ناقص، تكون النتائج أن ترىٰ هٰذا التمزق علىٰ أرضنا، فقسم من شعوبنا خطفته مدنية أمة وأفكارها، وقسم آخر خطفته مدنية أمة وثقافتها وتفكيرها، لذلك لابد أن نضع الأمور في مواضعها، لابد أن نعرف أن للنظام دوره في إيجاد تقدم مدني، ولٰكن التقدم المدني يمكن أن يوجد مع أكثر من نظام متىٰ وجدت قوانين التقدم وعلينا في الوقت نفسه كذلك أن ندرك أننا، ونحن نتحدىٰ من خلال التقدم المدني ليس أمامنا خيار إلا أن ندخل معركة التحدي؛ ٱستجابة لتكليف الله ﷻ إيانا لننقل هٰذا العلم من طور إلىٰ طور، فإما أن تسحقنا الحضارة المدمرة. وإما أن نسيطر عليها ونوجهها. إن الدعوة إلىٰ نظام من الأنظمة من خلال التقدم المدني يغالط بها كثيرون، فإذا لم ندرك قوانين التقدم المدني ليعرفها الكبير والصغير، فإننا سنبقىٰ في دائرة التخلف، وستبقىٰ شعوبنا وشبابنا أسرىٰ الخداع، إننا نلاحظ في هٰذا العالم تقدمًا مدنيًا في النظام الشيوعي كما أن هناك تقدمًا مدنيًا في النظام الرأسمالي، وتقدمًا مدنيًا في نظام محافظ كالنظام الياباني في ٱبتداء نهضتها.

إذن قد وجد تقدم مدني مع نظام شيوعي، ووجد تقدم مدني مع نظام رأسمالي، ووجد تقدم مدني مع نظام محافظ، مما يدل علىٰ أن قضية التقدم المدني تخضع لقوانين، فأي أمة من الأمم ٱستطاعت أن تكتشف هٰذه القوانين، وأن تسير فيها، فإنها تستطيع أن تتقدم مدنيًا حتىٰ ولو كانت ثقافتها متدنية، حتىٰ ولو كانت ثقافتها غير مناسبة، فما هي قوانين التقدم المدني؟

أولاً: لا يمكن أن نتصور تقدمًا مدنيًا إذا لم يوجد ٱستغلال كامل للأرض في ظاهرها وباطنها. ٱستغلال الأرض شرط أساسي في التقدم المدني، فعند ما نرىٰ شعبًا يستغل أرضه ظاهرها وبطنها، يستغل موادها الخام ٱستغلالًا كاملًا. ويستثمرها زراعيًا ٱستثمارًا تامًا، عندما نجد شعبًا يفعل ذلك يستغل ظاهر أرضه وباطنها، وتكون الأرض معطاءةً يكون قد أخذ بأول قانون من قوانين التقدم المدني.

ثانيًا: عندما يستطيع شعب أن يستغل وقته، وأن يبرمجه فلا يبقىٰ عنده وقت ضائع، ولا يذهب وقت في غير هدف عندئذٍ تكون هٰذه الأمة قد عثرت علىٰ القانون الثاني من قوانين التقدم المدني.

ثالثًا: عندما يوجد في أمة ٱختصاصيون يغطون ٱحتياجات أمتهم في كل شيء، تكون هٰذه الأمة قد عثرت علىٰ القانون الثالث من قوانين التقدم المدني.

رابعًا: ولٰكن لا يمكن أن تستغل الأرض ولا أن يبرمج الوقت، ولا أن يوجد الٱختصاص ويؤدي دوره إذا لم يوجد النظام المناسب الذي يستطيع أن يعبئ أو أن يوجد الٱستقرار المناسب، وإذن عندما تستطيع أمة أن توجد نظامها المستقر فإنها تكون قد عثرت علىٰ القانون الرابع من قوانين التقدم المدني.

خامسًا: عندما يوجد مع هٰذا كله الثقافة المناسبة للتقدم المدني عندئذٍ تكون الأمة قد عثرت علىٰ القانون الخامس في التقدم المدني، وهي لابد متقدمة مدنيًا سواء كانت شيوعية أو كانت رأسمالية أو كانت محافظة أو كانت غير ذلك، لٰكن لابد من توافر هٰذه الشروط الخمسة، لابد من توافر القوانين الخمسة.

الثقافة إن لم تكن مناسبة للتقدم المدني فإن التقدم المدني لا يحدث، خذوا مثالًا علىٰ ذلك: الثقافة الهندوسية إنها ليست قابلة إطلاقًا أن ينشأ معها

تقدم مدني، إن الثقافة التي تحرم قتل الفأر مثلًا- مع أن الفئران إذا توالدت توالدًا متواليًا يمكن أن تأكل خيرات الإنسان كلها، فهٰذه النقطة في الثقافة الهندية فقط يمكن أن تدمر حضارة الهند، وبمناسبة ذلك تدرك عظمة النص الإسلامي الذي يأمر فيه رسول الله ﷺ بأن تقتل الخمس الفواسق التي من جملتها الفأر، ومن هنا نعرف أنه في الجزئيات والكليات يتميز هٰذا الإسلام.

الثقافة النصرانية فيما ٱستقرت عليه ليست قابلة لأن يكون معها تقدم مدني، فالثقافة التي تعتبر أن الزواج ليس هو الأفضل، بل تعتبره رجسًا، هٰذه الثقافة لو طبقها كل فرد تفنىٰ البشرية كلها من أولها إلىٰ آخرها خلال جيل واحد.

فإذن ليست هٰذه الثقافة مرشحة لأن توجد تقدمًا مدنيًا ولا ينبغي أن نخلط إطلاقًا بين التقدم المدني الذي وجد في الغرب وبين الثقافة النصرانية؛ لأن الثقافة النصرانية لو أخذت مداها لقتل كل العلماء الذين كان لهم دور في تقدم المدنية المعاصرة . فلابد من الثقافة المناسبة للتقدم المدني.

ولابد من النظام المناسب المستقر، فالنظام غير المستقر لا يمكن أن يوجد معه شيء فلابد من ٱستقرار نظام. فمن خلال الٱستقرار يأخذ الٱختصاص مداه، وتستغل الأرض والوقت ٱستغلالًا كاملًا ويبرمج الوقت بما يحقق هدفًا، فإذا لابد من الثقافة والنظام، ولابد من الٱختصاص، ولابد من ٱستغلال الأرض ظاهرًا وباطنًا، ولابد من برمجة الوقت والاستفادة منه. متىٰ وجدت هٰذه القضايا الخمس وجد تقدم مدني.

انظروا إلىٰ هٰذا العالم فحيثما وجدت هٰذه القضايا الخمس يوجد التقدم المدني.

النظام النازي علىٰ قسوته توافرت له هٰذه القضايا الخمس فتم له تقدم مدني: وجد نظام مستقر، ووجدت ثقافة تسمح بتقدم مدني، وكل شبر من الأرض مستغل، والوقت مبرمج، والاختصاص موجود، كانت النتيجة أن

هتلر ٱستطاع خلال ست سنوات أن يقفز ببلاده من البلد المقيد بمعاهدة فرساي إلىٰ أن ٱستطاع أن يجعل بلاده تخوض حربًا عالمية تكاد أن تكتسح العالم.

اليابان بدأت نهضتها عندما توافرت لها هٰذه القضايا الخمس نظام راغب في التطوير وهو مستقر، ثقافة ٱعتمدت لصالح التقدم المدني، أرض ٱستغلت، ووقت أحسن الٱستفادة منه، ٱختصاص دفع إليه، كانت النتائج أن اليابان ٱستطاعت خلال فترة قصيرة جدًا أن تقفز قفزتها في عالم التقدم المدني، فالتقدم مرتبط بهٰذه القضايا، فإذا وجدت كان.

ولٰكن المدنية التي هي أثر عن وجود هٰذه القضايا الخمس يمكن أن توجد مع تقدم ثقافي، ويمكن أن توجد مع تخلف ثقافي. من يستطيع أن يقول: إن المعاني الموجودة في الغرب الرأسمالي والشرق الشيوعي حاليًا تعني التقدم الثقافي، هل نظام الأفنان الذي يربط الإنسان بالأرض ربطًا ليس معه خيار، وليس أمام الٱبن إلا أن يرث عمل أبيه، هل هٰذا النظام متقدم؛ كل الناس يقولون: هٰذا نظام متخلف، النظام القائم الآن في الشرق الشيوعي، أليس هو نظام الأفنان قد بلور وتطور بشكل ما؛ فالإنسان هناك ليس أمام خيارات، وهو مكلف أن يكون آلة والويل له إذا شكا أو ٱشتكىٰ.

وهٰذه بولندا الآن تفرض علىٰ كل عاطل عن العمل أن يقبل الوظيفة التي تختارها له الدولة بصرف النظر عن كونها مناسبة له أو لا، من يقول: إن هٰذا تقدم ثقافي؟

هٰذا الغرب الإباحي الذي لا تقف إباحيته عند حدود، هٰذا الغرب الذي يفلسف الإباحية، من يقول: إنه متقدم ثقافيًا، من يقول: إن الذي ٱستباح حتىٰ اللواط والعري متقدم ثقافيًا، الشهوة الجنسية عند كل الحيوانات تؤدي غرضًا، هو بقاء النوع، وذلك يكون بلقاء الذكر مع الأنثىٰ، فعندما يلتقي

الذكر مع الذكر أو الأنثىٰ بالأنثىٰ. فيا لهول الٱنحراف! وأي تخلف ثقافي هٰذا إذن يمكن أن تكون أمة متقدمة مدنيًا ولكنها متخلفة ثقافيًا.

وبعد فإنه لا يمكن أن تكون أمة متقدمة مدنيًا وثقافيًا بآنٍ واحد إلا بالإسلام؛ لأن الإسلام يفرض قوانين التقدم المدني فرضًا، وفي الوقت نفسه يفرض قوانين التقدم الثقافي، ويوجد الشرارة التي تتفاعل بها هٰذه المعاني، كما يوجد الأساس الذي تنبثق عنه هٰذه الأمور كلها، وهو في الوقت نفسه ضابط وموجه لهٰذه القضايا بمجموعها ثقافة ومدنية، وهو في كل هٰذا حق خالص لا يستطيع علم أن يرفضه ولا عقل أن ينقضه، ولو أنني أردت أن أتحدث عن هٰذا الموضوع، إنه لا شيء في نصوص الإسلام ينقضه عقل أو علم لسارت المحاضرة مسيرة أخرىٰ، بينما أشياء كثيرة تعتمد في هٰذا العالم ينقضها العقل ويرفضها العلم ويدَّعي أهلها التقدم وما أبعد المدعي، النظرية الشيوعية تعطل قانون السببية فلا يمكن أن نعتبرها عقلانية، وهي ترفض الأخذ بالعلم إذا تعارض مع نظرياتها فأين التقدم؛ لقد بقيٰ الٱتحاد السوفيتي يحارب نظريات أنشتاين تتعارض مع فكرة الديالكتيك التي يقول بها الشيوعيون، فمن قال: إن هاهنا علمًا أو عقلًا فإنه يكذب علىٰ العلم والعقل.

من يقول إن الحضارة الغربية تبنىٰ علىٰ العقل؛ هل العلم يقول: إن الخمرة مباحة في كل قوانينهم؟ هٰذا لا يتفق مع علم، فإن نعرف القانون العلمي والعقلي ثم لا نبني عليه.

إن هٰذا لا يحدث في الإسلام ولذلك قلنا: إنه لا يوجد في هٰذا العالم علىٰ الإطلاق تقدم ثقافي إلا حيث وجد الإسلام، وبالتالي لا يوجد تقدم حضاري يجتمع فيه التقدم المدني مع التقدم الثقافي إلا حيث وجد الإسلام؛ لأن الإسلام كما قلنا يفرض التقدم الثقافي ويفرض التقدم المدني.

يقول د/ محمد محمود متولي[١]:

وهٰذا القائل بأن الإسلام سر تخلفنا، لماذا خص الإسلام وحده؟ ولماذا لم يعمم حكمه؟ فهل المسيحية عنده سبب تقدم أوروبا، واليهودية سبب قوة وتقدم إسرائيل؟ أم أنه ينكر الأديان جميعًا، إن كان كذلك قلنا له: قد علمنا منه ذلك، وعلمنا أنك لا تجسر علىٰ قوله خوفًا ممن درسوك ما تهرف به، إن من المتيقن أن أوروبا لم تتقدم إلا عندما نبذت سلطان الكنيسة، ولا أقول نبذت المسيحية، ومن المعلوم أن اليهود قديمًا لم يكن لهم تراث علمي إنما جد ذلك عليهم في الأعصر الأخيرة.

ومن الثابت عند الملاحظين لقيام الحضارات أن عناصرها الثلاثة: الإنسان، والزمان، والتراب توجد مفروطة لا يلتئم عقدها، إلا إذا جاء الدين، وقد عاشت أوروبا عصر الظلمات، وكان ٱنبعاثها مع المسيحية ذلك قول هنري بيرين، ودي كيسرلنج، وابن خلدون، كما أشار إليه مالك بن نبي في كتابه القيم: «شروط النهضة ومشكلات الحضارة»، وكما يفهم من كتاب «الله» لعباس محمود العقاد.

وإذا كان بعض المثقفين العرب بينهم وبين الإسلام سوء تفاهم، تأسيًا بقلة شاذة خلقًا وفكرًا، فلماذا لا يتأسون بقمم الفكر الغربي من المؤمنين، لماذا يولون وجوههم تجاه نيتشه، وجان بول سارتر، وألبير، وكامي، وماركس، وفيورباخ، ولا يولون وجوههم تجاه غيرهم من العلماء الغربيين المؤمنين بالله. ولماذا لا يبحثون إلا عن الشبهات؟

وأنه يحضرني قول الدكتور عمر فروخ عن فترة دراسته بالجامعة الأمريكية، أن مدير الجامعة قال: هٰذِه المدرسة أنشئت بأموال مسيحية، ولن يمكّن من الدراسة فيها إلا من يحترم تعاليم المسيح، والإنسان المحترم يحترم

---

(١) مجلة «الوعي الإسلامي» العدد ٢٨٩محرم سنة١٤٠٩هـ ص١٢.

دين وتقاليد الجامعة التي أولته شرف العمل بها، وللجامعات في الشرق والغرب تقاليد لا تسمح بالتمرد عليها، وجامعات المسلمين في بلاد مسلمة ينفق عليها من أموال المسلمين ثم ما الذي قصر فيه الإسلام من شئون الدين، أو من شئون الدنيا؟ لقد قال المناطقة قديمًا: إن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، فهل تصورتم الإسلام، ثم حكمتم عليه بصلاح أو عدم صلاح؟ وهل وضعتم في ٱعتباركم أن ذلك الدين الذي تعيبونه أقام حضارة من الصين إلى المحيط الأطلسي، وبقيت رغم الأرزاء و النوب صامدة ولا زالت؟ ألا يؤثر فيكم ٱهتداء القمم من رجال العلم في الغرب إلى الإسلام، ولا زال سيل ٱهتدائهم يتوالىٰ يومًا بعد يوم. وهل يرضيكم أن يحل العلم محل الدين؟

إن قلتم: نعم، قلنا لكم: إن العلم لا ينشغل إلا بظواهر الأشياء، فأما حقائقها فالعلم لا يعرفها؛ لأنه يجهل الغيب، ولا يعرف سر الخلود، بل إن العقل الذي نعقل به لا ندرك كنهه، ولا يعقل هو نفسه، وهٰذا هو القرآن يسجل ٱعتراف كفار قريش، وكفار كل عصر، بأنهم في مجال الآخرة لا يملكون إلا الظن، يقول تعالي: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الجاثية: ٣٢].

قال تعالىٰ: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧]، والعلم الذي تتشدقون به قد جفف منابع الإنسانية وحول الناس إلىٰ وحوش، إن علم أساتذتكم في الغرب متقلب ومتناقض.

فقد كان كشف نيوتن للجاذبية فتحًا عظيمًا، ثم جاء ٱينشتين ليقول: إن قوانين نيوتن محلية بحتة لا تفسر إلا جزءًا صغيرًا من كيان هٰذا الكون، وإنها تؤدي إلىٰ نتائج خاطئة حين تطبق على الكون كله، وقال علماء الطبيعة: إن الضوء ينطلق دائمًا في خط مستقيم، ثم عادوا يقولون: إن الضوء ينحرف بتأثير الجاذبية، فلا ينطلق في خط مستقيم، وقالوا: إن الزمن حقيقة مطلقة، ثم عادوا ليقولوا: إنه حقيقة نسبية، وإن الشيء الواحد أو الحدث الواحد

يكون حاضرًا بالنسبة لك في هٰذا الكوكب، وماضيًا بالنسبة لكوكب آخر، ومستقبلًا بالنسبة لكوكب ثالث...

وقالوا: إن المادة هي أساس الكون والحياة..وفسروا كل شيء في نطاق المادة.. وفجأة ٱنفجرت المادة، وانطلقت فإذا هي طاقة.. إن كثير من حقائق العلم عرضة للتغير..فأما العقيدة التي تدعون أنها هي سبب التأخر فهي الشيء الوحيد الثابت الذي لا يتناقض ولا يتغير، وليس هٰذا رأي علماء الإسلام، وإنما رأي بعض أساتذتكم يقول جيمس جينز العالم الفلكي الذي بدأ حياته ملحدًا شاكًا:

إن مشاكل العلم الكبرىٰ لا يحلها إلا وجود إله، وقال هكسلي العالم الطبيعي والفيلسوف الأديب: إنه لم يعد لنا مناص من الٱعتراف بأن بعض البشر مزودون بقدرة على ٱستشفاف المجهول، بطريقة خارجة عن نطاق الحواس، وإن جهلنا بالطريقة التي يتم بها عملية الإدراك وعملية التذكر، من منا يستطيع أن يعرف كيف تتم معجزة التذكر أو الإدراك؟ كذلك نحن لا نعلم كيف يتم الٱستشفاف،

ولكنه رغم ذلك حقيقة علمية... وهٰذِه الحقائق تدخلنا رويدا رويدا إلىٰ عالم الدين..

وإذا ظل أتباع العلم بلا دين راكبين رءوسهم فلسوف يبقون حائرين الأبد كله، وفي ذلك يقول سومرست موم: إن أوروبا قد نبذت اليوم إلهها، وآمنت بإله جديد هو العلم، ولٰكن العلم؛ كائن متقلب، فهو يثبت اليوم ما نفاه بالأمس، وهو ينفي غدًا ما يثبته اليوم لذلك تجد عُبَّادَه في قلق دائم لا يستقرون.

إن العقيدة في بناء الإنسان هي إبرة البوصلة وحجر الزاوية وعمود الرحىٰ، وهل تعين البوصلة الٱتجاه بلا إبرة، أو يتحدد حد بلا حجر زاوية؟ أو تدور الرحىٰ بلا عمود؟ وهي كالنواة في الذرة تدور حولها الكهارب

السالبة والموجبة، فإذا ٱنفجرت ٱنقلبت وإلىٰ مارد مدمر، وهكذا الإنسان حين يفقد دينه، ينقلب نشاطه العقلي والجسدي ليدمر نفسه وغيره، تدمره رغباته وتخرق قانون بقائه، وتقضي عليه لذائذه، قال تعالىٰ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الاعراف: ١٧٥-١٧٦] ولنسمع إلى العالم العبقري أينشتين وهو يقول: إن بصيرتنا الدينية هي المنبع، وهي الموجه لبصيرتنا العلمية، ويقول: ذلك التناسق العجيب بين قوانين الطبيعة، وما يخفي من عقل جبار، لو ٱجتمعت كل أفكار البشر إلىٰ جانبه، لما كونت غير شعاع ضئيل، أقرب القول فيه أنه لا شيء، ويقول: إن العلم بلا إيمان يمشي مشية الأعرج، والإيمان بلا علم يتلمس تلمس الأعمىٰ.

ما هو مفهوم الحضارة لديكم؟ أتظنونها بناءً عاليًا، وسيارة فارهة، وثيابًا علي أحدث الصيحات وروائح فواحة، وتثنيا في الحديث، واختلاط نساء عاريات برجال ذوي عيون نهمة، وشهوات نزقة، قد يراها الذين يريدون إبعاد الدين من عناصرها كذلك، وقد غبش عليهم الرؤىٰ حجب جعلتهم كالذي ٱستوقد نارًا، أو كالذين يجعلون أصابعهم في أذانهم.. الخ.

أو قد يراها البعض صواريخ عابرة للقارات، وطاقات تدميرية قادرة علىٰ تدمير العالم آلاف المرات ولكن الحضارة الحقة هي: كل عمل أو إنتاج تتمثل فيه الخصائص الإنسانية والوجدانية والسلوكية وبهذا المفهوم تشمل الفلسفة والعلم والدين والفن والأدب والأخلاق، والإنسان الحضاري هو الذي له إنتاج في جانب من هٰذِه الجوانب، وهي بهٰذا ليست إنتاجًا ماديًا، ولكن الإنتاج المادي نتيجة لبعض جوانبها، أولها جميعًا، والحضارة الإنسانية أولًا وأخيرًا إنسانية في جوهرها وأهدافها، تعبر عن القيم الرفيعة، وهي تعلوا على الأفراد والأهواء والمذاهب، فتكون الفلسفة فوق الشعوبية، والعلم فوق مجال البيئة، والقانون فوق الحزبية، والدين فوق المذهبية

والطائفية، والفن والأدب فوق الحيوانية، وقواعد الأخلاق فوق اليسار واليمين، والطريق المستقيم يعلوا علىٰ كل الطرق.. والشعب المتحضر هو الذي يحكمه الطابع الإنساني في علاقة أفراده، وفي مواقفه وسلوكه مع الشعوب الأخرىٰ، وبهذا فالمسلمون الأولون هم أكثر شعوب العالم تحضرًا؛ لأنهم كانوا رواد عدل، وحماة أخلاق وذائدين عن أعراض، ألم يؤخذ لغير المسلم حقه من المسلم؟ ألم يعطف خليفة المسلمين علىٰ يهودي كما يعطف على المسلم، ألم تتساوىٰ الأجناس والألوان؟

وإذن فمقياس الحضارة هو بمقدار إنسانيتها، وقد توجد الأبنية وكل وسائل القوة والزخرف، ولٰكن إنسانها يكون غير متحضر، فالحضارة تهذيب السلوك وتعليم أبناء الفقراء أن يعيشوا في عزتهم واستغنائهم كالملوك.

ولا يحيط بهٰذا إلا الدين الذي تزعمون أنه سبب التخلف، بينما هو يغني عن كل شيء ولا يغني عنه شيء، لأنه وحي الإله، وهو غير محدود بزمان أو مكان، ولذا فهو معصوم من الخطأ الذي تقع فيه الفلسفة، أو التحيز الذي يقع فيه القانون، القانون يحتاج في تنفيذه إلى السلطة، فإذا فقدها تعطل تنفيذه.

فأما الدين فسلطانه على القلب لا على البدن، ولذا يتحطم البدن ويبقى القلب نابضًا بذكر ربه فقيمة الدين ذاتية لا تستمد من غيره، وإنما سلطانها في ضمير المسلم الذي يخشىٰ الله إن هناك في المجتمعات التي يتخذها المهزومون أسوة وقدوة من حوادث الخطف وهتك العرض وإعداد اللقطاء وحالات الإجهاض ما يجعلنا نوقن بأنها حضارة شوهاء فقدت إنسانيتها وآذنت شمسها بأفول، فهل ما زلتم تتشدقون بأن الإسلام سبب تخلفنا، أم فئتم إلى الحق فعلمتم أنه سبب حياتنا ودواء بقائنا، وأن آخر هٰذِه الأمة لن يصلح إلا بما صلح به أولها.

يقول الأستاذ/ على الطنطاوي[١]:

أي الفريقين أهدىٰ وأصوب رأيًا: من يريد منا أن نأخذ بهٰذِه الحضارة أخذًا كاملًا، أمن يريد أن نتركها وننصرف عنها؟

الحق بين الفريقين، فلا هٰؤلاء علىٰ حق ولا هٰؤلاء لقد ربحنا باقتباسنا من هٰذِه الحضارة وخسرنا، وكل شيء في الدنيا فيه ربح وفيه خسارة.

إن هٰذِه الحضارة ليست شرًا محضًا، وليست كذلك خيرًا محضًا، فالقول بأن نتركها كلها مردود، والقول بأن نأخذها كلها مردود.

وهل نستطيع أن نتركها بعد ما ٱنغمسنا فيها، وصارت هي عماد حياتنا؟ إن من يطلب ذلك يطلب ما لا يكون، ولو نحن ٱستطعنا تركها فهل من المصلحة أن نتركها؟

أيريد هٰؤلاء أن نغلق المستشفيات، ونطرد الأطباء وأن نلغي شركة الخطوط الجوية ونبيع طياراتها، وأن نذهب إلى الحج من الرياض إلىٰ مكة على الإبل فنمضي على الطريق عشرين يومًا بدلًا من أن نذهب في ساعة وبعض الساعة في طيارة البوينج، وأن نحل شركة الكهرباء ونرفع أسلاكها من الشوارع، ونرجع إلى الشمع وسرج الزيت وأن نحارب اليهود بالسيف والرمح بدلًا من المدفع والصاروخ؟

ولماذا نفعل ذلك؟

أما الإسلام فلا يوجب علينا أن نترك هٰذِه الحضارة بكل ما فيها فلا تحتجوا بالإسلام.

الإسلام قد حرم محرمات وفرض فرائض وترك أمورًا على الإباحة الأصلية، فما حرمه الإسلام نتركه، ولو أجمع أهل الأرض علىٰ قبوله والعمل به، وما أوجبه نأتيه ولو ٱتفق سكان المعمورة على ٱستنكاره

---

(١) مجلة «الوعي الإسلامي» العدد السادس سنة١٣٨٥ص٢٧.

والإعراض عنه، وما كان من المباحات مما لم يدع الإسلام إلى الأخذ به ولا إلى الحكمة ضالة المؤمن، ولأن المصلحة العامة هنا مقصد من مقاصد الشارع، وفي مثل هٰذا لا فيما ورد فيه النص، يقول ابن القيم: إن الحكم الشرعي يدور مع المصلحة فحيثما تحققت فثم شرع الله، ولأن علينا أن نعمل لدنيانا كما نعمل لآخرتنا﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ﴾

ثم إننا لسنا غرباء عن هٰذِه الحضارة، ولا واغلين عليها بل نحن شركاء فيها نحن من أصحابها.

إن الحضارات نوعان كما قسمها «شينكلر» في كتابه المشهور: حضارات محلية كحضارات الهند والصين، وحضارة عالمية، والحضارة العالمية بناء من ثلاثة أدوار ٱشترك فيه ثلاثة بانين أما الدور الأول فقد بناه المصريون والفينيقيون واليونان ومن شاركهم فيه وأعانهم عليه.

والثاني: بناه المسلمون.

والثالث: بناه الغربيون وكل دور منها يقوم علىٰ ما تحته فلولاه ما قام فنحن شركاء في هٰذِه العمارة لنا فيها دور من ثلاثة ولسنا مستأجرين ولا مستجدين ولا معتدين، نحن من أصحاب الدار ولٰكن ليس معنىٰ هٰذا أن نقبلها بكل ما فيها. إن فيها شرورًا ومفاسد مردها جميعًا إلىٰ أصلين:

أحدهما: ما تحمله من أفكار ومبادئ فيها ما يزيغ المؤمن عن شرعة الحق وما يضله عن سبيل الهدىٰ.

والثاني: وهو أشد وأنكي ما يغلب علىٰ هٰذِه الحضارة من تهاون بمسائل الجنس وإطلاق الشهوات وهو أشد؛ لأن الأول وإن كان فيه الكفر أحيانًا لا يجد عند كل شاب ٱستعدادًا لقبوله، أما الثاني: فإنه يجد القبول في كل نفس؛ لأن الله ركب في نفس كل شاب الميل إلى المرأة فمن عمد إلىٰ

إثارة الشهوات وأيقظ الغريزة ٱستهوىٰ بذلك الشباب جميعًا إلا من عصم الله بعصمته وقليل ما هم بل أقل من القليل.فإذا أردنا أن نصحح موقفنا من هٰذِه الحضارة، فلنصنع مثل الذي صنع أجدادنا لما ٱتصلوا بالفرس وغيرهم من الشعوب ذوات الحضارات الأولي، إنهم أخذوا من حضارتهم وعيونهم مفتحة وعقولهم حاضرة، وميزان الشرع في أيديهم، لن يأخذوها عمىٰ ولا تقليدًا، ولن يقلدوا أهلها تقليد القردة بلا نظر ولا علم.

هٰذا هو الحق وهٰذا هو طريق الٱعتدال لا إفراط ولا تفريط، فما كان فيها من مخترعات نافعة وما كان من تقدم علمي، وما كان من رفاهية وراحة ليس فيها محرم نأخذه كلية.

وما كان فيها من تهاون بالفضائل والعفاف وإطلاق للغرائز والشهوات، وتسهيل للزنا وتصعيب للزواج وهٰذِه القصص التي فيها الأدب المكشوف، والأفلام التي تعلم الناشئة فنون الغرام، وطرق الإجرام نتركه كله، كما نترك كل فلسفة وكل علم وكل مذهب ٱجتماعي ينافر أحكام ديننا.

إن الحرية الغربية التي يريدنا دعاة التقدم أن نمضي إليها حرية جوفاء، الحرية كلمة رنانة ولٰكن لا مضمون لها، ولا محتوىٰ ويفسرها كل قوم بحسب ما يشتهون، وقد نادىٰ بها اليهود لتحطيم المجتمعات الإنسانية والحرية بغير مضمون وبغير ضوابط ولا حدود تنقلب إلىٰ سلاح فتاك يعصف بأمن الناس وحريتهم[١].

يقول الأستاذ/ جمال سلطان[٢] :

مفهوم المعاصرة.. هٰذا المصطلح يمثل أكثر المصطلحات خداعًا وتضليلًا للمرأة المسلمة اليوم، بهدف صرفها عن قيمها وأصالتها ودينها

---

(١) «المرأة بين دعاة الإسلام وأدعياء التقدم» ص٣٦.

(٢) «الوعي الإسلامي» العدد ٣٠٢ص٥٨ باختصار.

الرشيد إذ أن دعاة«العصرية» يلحون على المرأة المسلمة بدعوتها إلىٰ معايشة الحالة الإنسانية الجديدة، ومنطق العصر الحاضر، حتىٰ لا تصاب بالفصام أو الأنطواء أو الكبت... إلىٰ آخر هٰذا الزيف المدجج بدعايات تنتسب-زورًا- إلى البحث العلمي والدراسة النفسية ووجه التضليل في تلكم الدعوىٰ، أنها تتجاهل حقيقة أن«العصر» هو صناعة إنسانية، وليس بالتالي قيمة مقدسة، يتعبد بها الناس، أو يلزمون بطاعتها وتقليدها، وطالما أنها صناعة إنسانية فمن حق كل إنسان أن يقبل منها ويرفض، ويأخذ ويدع وفق قيمه الخاصة، و موازينه المتميزة، وبما يضمن له تحقيق التلاحم الحضاري لأمته عبر التاريخ، فلا يقع التصادم أو الأنقطاع أو الأندثار ومن ثم فالمرأة المسلمة من حقها الكامل أن ترفض ما ترفضه من قيم العصر الراهن، والتي تمثل-في إجمالها- قيم المجتمع الأوروبي الحديث، كما من حقها أن تقبل ما يستقيم لها من قيم ذلك العصر، وفق موازينها الشرعية وقيمها الحضارية الإسلامية المتميزة، بحرية تامة وعقلانية رشيدة، إن المرأة المسلمة العصرية حقًا، ليست هي من تتبع وتقلد وتماش قيم العصر الأوروبي الغالبة وإنما هي من تدعو وتجاهد لصياغة عصرها الجديد عصر الإسلام.

يقول المنفلوطي[1]:

سأودع في هٰذِه النظرة الخيال والشعر وداع من يعلم أن الأمر أعظم شأنًا وأجل خطرًا من أن يعبث فيه العابث بأمثال هٰذِه الطرائف التي هي بالهزل أشبه منها بالجد، والتي إنما يلهو بها الكاتب في مواطن فراغه ولعبه، لا في مواطن جده وعمله.

إن في أيدينا معشر الكتاب من نفوس هٰذِه الأمة وديعة يجب علينا تعهدها والاحتفاظ بها والحدب عليها حتىٰ نؤديها إلىٰ أخلافنا من بعدنا كما

---

(١) «النظرات» ١/ ١٩٦-٢٠٣.

أداها إلينا أسلافنا سالمة غير مأروضة[١] ولا متآكلة، فإن فعلنا فذاك أولًا، فرحمة الله على الصدق والوفاء، وسلام على الكتاب الأُمناء.

الأمة المصرية أمة مسلمة شرقية فيجب أن يبقىٰ لها دينها وشرقيتها ما جرىٰ نيلها في أرضها، وذهبت أهرامها في سمائها، حتىٰ تبدل الأرض غير الأرض و السموات.

إن خطوة واحدة يخطوها المصري إلى الغرب تدني إليه أجله وتدنيه من مهوىٰ سحيق يُقبر فيه قبرًا لا حياة له من بعده إلىٰ يوم يبعثون.

لا يستطيع المصري وهو ذلك الضعيف المستسلم أن يكون من المدنية الغربية إن داناها إلا كالغربال من دقيق الخبز، يمسك خُشارَه، ويُفلت لُبابَه، أو الراووق من الخمر، يحتفظ بعقاوه، ويستهين برحيقه. فخير له أن يتجنبها جهده، وأن يفر منها فرار السليم من الأجرب.

يريد المصري أن يقلد الغربي في نشاطه وخفته، فلا يَنشَط إلا في غدواته وروحاته، وقعدته وقومته، فإذا جد الجد وأراد نفسه علىٰ أن يعمل عملًا من الأعمال المحتاجة إلىٰ قليل من الصبر والجلد دب الملل إلىٰ نفسه دبيب الصهباء في الأعضاء، والكرىٰ بين أهداب الجفون. يريد أن يقلده في رفاهيته ونعمته فلا يفهم منهما إلا أن الأُولى التأنث في الحركات، والثانية الٱختلاف إلىٰ مواطن الفسق ومخابئ الفجور.

يريد أن يقلده في الوطنية فلا يأخذ منها إلا نعيقها ونعيبها، وضجيجها وصفيرها، فإذا قيل له هٰذِه المقدمات فأين النتائج، أسلم رجليه إلى الرياح الأربع واستن في فراره ٱستنان المهر الأرِن[٢] فإذا سمع صفير الصافر مات رجلًا، وإذا رأىٰ غير شيء ظنه رجلًا.

يريد أن يقلده في السياحة، فلا يزال يترقب فصل الصيف ترقب الأرض

---

(١) الخشب المأروض الذي أكلته الأرضة.

(٢) الأرن: النشط.

الميتة فصل الربيع، حتىٰ إذا حان حينه طار إلىٰ مُدن أوروبا طيران حمام الزاجل لا يبصر شيئًا مما حوله، ولا يلوىٰ علىٰ شيء مما وراءه، حتىٰ يقع علىٰ مجامع اللهو ومكامن الفجور، وملاعب القمار، وهناك يبذل من عقله وماله ما يعود من بعده فقير الرأس والجيب، لا يملك من الأول ما يقوده إلىٰ طريق السفينة التي تحمله في أوبته، ولا من الثاني أكثر من الجعالة التي يجتعلُها منه صاحب الجريدة ليكتب له بين حوادث صحيفته، حادثة عودته، موشاة بجمل الإجلال و الاٰحترام، مطرزة بوشائع الإكرام والإعظام.

يريد أن يقلده في العلم فلا يعرف منه إلا كلمات يرددها بين شِدقيه ترديدًا لا يلجأ فيه إلىٰ ركن من العلم وثيق، ولا يعتصم به من جهل شائن.

يريد أن يقلده في الإحسان والبر، فيترك جيرانه وجاراته يطوون حنايا الضلوع علىٰ أمعاء تلتهب فيها نار الجوع التهابًا حتىٰ إذا سمع دعوة إلى اٰكتتاب في فاجعة نزلت في القطب الشمالي أو كارثة ألمت بسد يأجوج ومأجوج سجل اٰسمه في فاتحة الكتاب، ورصد هبته في مستهل جريدة الحساب.

يريد أن يقلده في تعليم المرأة وتربيتها فيقنعه من علمها مقالة تكتبها في جريدة، أو خطبة تخطبها في محفل، ومن تربيتها التفنن في الأزياء، والمقدرة على اٰستهواء النفوس، واستلاب الألباب.

هٰذا شأنه في الفضائل الغربية يأخذها صورة مشوهة وقضية معكوسة، لا يعرف لها مغزىٰ، ولا ينتحي بها مقصدًا، ولا يذهب فيها إلىٰ مذهب، فيكون مثله كمثل جهلة المتدينين الذين يقلدون السلف الصالح في تطهير الثياب، وقلوبهم ملأىٰ بالأقذار والأكدار، ويجارونهم في آداء صور العبادات، وإن كانوا لا ينتهون عن فحشاء ولا عن منكر، أو كمثل الذين يتشبهون بعمر في ترقيع الثياب، وإن كانوا أحرص على الدنيا من صيارفة اليهود.

أما شأنه في رذائلها فإنه أقدر الناس علىٰ أخذها كما هي فينتحر كما

ينتحر الغربي ويلحد كما يلحد ويُستهتَر في الفسوق ٱستهتاره، ويترسم في الفجور آثاره.

إن في المصريين عيوبًا جمة في أخلاقهم وطباعهم ومذاهبهم وعاداتهم، فإن كان لابد لنا من الدعوة إلىٰ إصلاحها، فلندع إلىٰ ذلك باسم المدنية الشرقية، لا باسم المدنية الغربية.

إن دعوناهم إلى الحضارة فلنضرب لهم مثلًا بحضارة بغداد وقرطبة وثيبة وفينيقيا لا بباريس وروما وسويسرة ونيويورك، وإن دعوناهم إلىٰ مكرمة، فلنتل عليهم آيات الكتب المنزلة وأقوال أنبياء الشرق وحكمائه لا آيات رسو وباكون ونيوتن وسبنسر، وإن دعوناهم إلىٰ حرب، ففي تاريخ خالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص وموسي بن نصير وصلاح الدين، ما يغنينا عن تاريخ نابليون وولنجتون وواشنطون ونلسن وبلوخرو، وفي وقائع القادسية وعمورية وأفريقية والحروب الصليبية، ما يغنينا عن وقائع واترلو وترافلغار وأوسترليتز والسبعين.

إن عارًا علىٰ التاريخ المصري أن يعرف المسلم الشرقي في مصر من تاريخ بونبارت مالا يعرف من تاريخ عمرو بن العاص، ويحفظ من تاريخ الجمهورية الفرنسية، مالا يحفظ من تاريخ الرسالة المحمدية، ومن مبادئ ديكارت وأبحاث دارون مالا يحفظ من حكم الغزالي وأبحاث ابن رشد، ويروي من الشعر لشكسبير و هوجو مالا يروي للمتنبي والمعري.

لا مانع من أن يعرّب لنا المعربون المفيد النافع من مؤلفات علماء الغرب والجيد الممتع من أدب كتابهم وشعرائهم علىٰ أن ننظر فيه نظر الباحث المنتقد، لا الضعيف المستسلم، فلا نأخذ كل قضية علمية قضية مسلمة، ولا نطرب لكل معنىٰ أدبي طربًا متهورًا، ولا مانع من أن ينقل إلينا الناقلون شيئًا من عادات الغربيين ومصطلحاتهم في مدنيتهم علىٰ أن ننظر إليه نظر من يريد التبسط في العلم والتوسع في التجربة والاختبار، لا علىٰ أن نتقلدها وننتحلها

ونتخذها قاعدتنا في ٱستحسان ما نستحسن من شئوننا، واستهجان ما نستهجن من عاداتنا.

وبعد فليعلم كتاب هٰذِه الأمة وقادتها أنه ليس في عادات الغربيين وأخلاقهم الشخصية الخاصة بهم ما نحسدهم عليه كثيرًا، فلا يخدعوا أمتهم عن نفسها، ولا يفسدوا عليها دينها و شرقيتها، ولا يزينوا لها تلك المدنية تزيينًا يرزؤها في ٱستقلالها النفسي، بعدما رزأتها السياسية في ٱستقلالها الشخصي.

ويسخر الأستاذ/ أحمد أمين من هٰذِه التبعية العمياء فيقول:

فليس في الشرق كله ما يسر، قد جرده الله من كل حسن، فلا الطبيعة جميلة ولا المناظر جذابة، ولا شيء فيه يأخذ باللب، ويدعو إلى الإعجاب، والقمر في الغرب أنور منه في الشرق، والبحر الأبيض قد جمل منه ما لامس الغرب، وقبح ما لامس الشرق، وكل شيء في عادات الشرق وتقاليده تعافه النفس، وينفر منه الطبع[١].

ورحم الله الشاعر محمد مصطفي حين قال:

كل من قلد الفرنجة منا ... قد أساء التقليد والتمثيلا
نشروا الرجس مجملًا ... فنشرناه كتابًا مفصلًا تفصيلًا

يقول أبو الأعلى المودودي[٢].

وكل ما يأتي إليهم من الغرب يعتبرونه مقياسًا للحق، ومعيارًا للتقدم، ويقلدونه في كل صغير وكبير مستطر وغير مستطر، مع الفارق أن الغرب مجتهد فيما يعمل، وهم مقلدون لا رأي لديهم ولا تفكير، وأن الغرب يهلك عن بينة، وهم يهلكون عن عمىٰ خسروا الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين.

---

(١) «فيض الخاطر» ١/ ٥٤.

(٢) «واجب الشباب المسلم اليوم» ص٨.

١٦- الجزاء من جنس العمل

يقول الشيخ الشعراوي- رحمه الله[١]-

والغريب أنك تجد بعض الرجال أشد تحمسًا ودفعًا للمرأة لإبداء زينتها وعدم التحجب وإلىٰ الٱختلاط بالرجل، ونحن نقول لهٰؤلاء الرجال: إن الله قد وضع لكم القانون الذي يحمي زوجاتكم وبناتكم، فإذا كنتم تدفعون بعض النساء للتبرج، فأنتم قد وضعتم- باستباحتكم النظر إلىٰ زوجات وبنات غيركم المبدأ لينظر المجتمع كله إلىٰ زوجاتكم وبناتكم، إن الله قد حماكم من هٰذا، ولكنكم ٱستبحتموه فلا تلوموا إلا أنفسكم إذا ٱنحرفت الزوجة أو الٱبنة، بل والغريب أن بعض الأمهات يمنعن بناتهن من الحجاب ويقاومن هٰذا بدعوىٰ أنه يقلل فرص الفتيات من الزواج نقول لهن متىٰ كان الزواج ٱبتذالًا؟ ومتىٰ كان الزوج يبحث عن فتاة متبرجة ليأتمنها علىٰ عرضه وسمعته وكرامته؛ إن الإنسان يبحث عن الفتاة المتدينة التي تصونه وتحفظه إذا غاب في عرضه وماله وأولاده ولا يبحث عن فتاة متبرجة تعرض مفاتنها علىٰ الناس.

ونقول لكل أم تتخذ هٰذا السبيل: إن القصاص في هٰذه المسألة يتم في الدنيا، فالزوجة التي تبرز مفاتنها للناس أو تمنع ابنتها من التحجب ستجد القصاص إما في زوجها أو في ابنها وستجده في فتاة صغيرة تخطف الزوج منها، أو في فتاة تخطف ابنها في أولىٰ سنوات عمره فتفسد عليه حياته وهكذا لا يعتقد أحد أنه وهو يحارب شرع الله، ويحارب دين الله سيكون المنتصر أبدًا بل يبعث الله من يفسد عليه حياته ويملأها بالشقاء. أهـ.

وتصديقًا لهٰذا الكلام أختم حديثي في هٰذا المقام بقصة ذكرها المنفلوطي تحت عنوان الحجاب.

---

(١) «المرأة في القرآن الكريم» ص٩٦.

يقول المنفلوطي:

يقول: ذهب فلان إلىٰ أوروبا وما ننكره من أمره شيئًا فلبث فيها بضع سنين، ثم عاد وما بقي مما كنا نعرفه منه شيء.

ذهب بوجه كوجه العذراء ليلة عرسها، وعاد بوجه كوجه الصخرة الملساء تحت الليلة الماطرة.

وذهب بقلب نقيٍّ طاهرٍ يأنسُ بالعفو ويستريح إلىٰ العذر، وعاد بقلبٍ مُلفَّفٍ مدخولٍ لا يُفارقُهُ السخطُ علىٰ الأرض وساكنها، والنقمة علىٰ السماء وخالقها.

وذهب بنفس غضةٍ خاشعةٍ ترىٰ كل نفسٍ فوقها، وعاد بنفس ذهابة نزاعة لا ترىٰ شيئًا فوقها، ولا تُلقي نظرة واحدة علىٰ ما تحتها.

وذهب برأس مملؤة حكمةً ورأيًا، وعاد برأسٍ كرأس التمثال المثقب لا يملؤها إلا الهواء المتُردِّدُ.

وذهب وما علىٰ وجه الأرض أحب إليه من دينه ووطنه، وعاد وما علىٰ وجهها أصغر في عينه منهما.

وكنت أرىٰ أن هٰذه الصور الغريبة التي يتراءىٰ فيها هٰؤلاء الضعفاءُ من الفتيان العائدين من تلك الديار إلىٰ أوطانهم إنما هي أصباغٌ مفرَّغةٌ علىٰ أجسامهم إفراغًا لا تلبث أن تطلع عليها شمس المشرق حتىٰ تتصل وتتطاير ذراتها في أجواء السماء، وأن مكان المدنية الغربية من نفوسهم مكان الوجه من المرأة، إذا ٱنحرف عنها زال خياله منها .

فلم أشأ أن أُفارق ذلك الصَّديق، ولبسته علىٰ علَّاته وفاءً بعهده السابق، ورجاء لغده المنتظر محتملًا في سبيل ذلك من حمقه ووسواسه وفساد تصوراته، وغرابة أطواره، ما لا طاقة لمثلي باحتمال مثله.

حتىٰ جاءني ذات ليلة بداهية الدواهي ومصيبة المصائب، فكانت آخر عهدي به!

دخلت عليه فرأيته واجمًا مكتئبًا، فحييته فأومأ إلي بالتحية إيماءً فسألته ما بالهُ.

فقال: ما زلت منذ الليلة من هٰذه المرأة في عناء لا أعرف السبيل إلىٰ الخلاص منه، ولا "أدري مصير أمري فيه.

قلت: وأي ٱمرأةٍ تريد؟

قال: تلك التي يسميها الناس زوجتي، وأسميها الصخرة العاتية في طريق مطالبي وآمالي.

قلت: إنك كثير الآمال يا سيدي، فعن أي آمالك تحدث؟

قال: ليس لي في الحياة إلا أملٌ واحدٌ، وهو أن أغمض عيني ثم أفتحها فلا أرىٰ برقعًا[1] علىٰ وجه ٱمرأة في هٰذا البلد.

قلت: ذلك ما لا تملكه، ولا رأي لك فيه.

قال: إن كثيرًا من الناس يرون في الحجاب رأيي، ويتمنون في أمره ما أتمنىٰ، ولا يحول بينهم وبين نزعه عن وجوه نسائهم وإبرازهن إلىٰ الرجال يجالسنهم كما يجلس بعضهن إلىٰ بعض إلا العجز والضعف والهيبة التي لا تزال تلم بنفس الشرقي كلما حاول الإِقدام علىٰ أمر جديد، فرأيت أن أكون أول هادم لهٰذا البناء العادي[2] القديم، الذي وقف سدًّا دون سعادة الأمة وارتقائها دهرًا طويلًا، وأن يتم علىٰ يدي ما لم يتم علىٰ يد أحد غيري من دعاة الحرية وأشياعها، فعرضت الأمر علىٰ زوجتي فأكبرته وأعظمته وخيَّل إليها أنني جئتها (بإحدىٰ النكبات العظام، والرزايا الجسام)[3]، وزعمت أنها إن برزت إلىٰ الرجال فإنها لا تستطيع أن تبرز إلىٰ النساء من بعد ذلك حياءً منهن وخجلًا، ولا خجل هناك ولا حياء ولكنه الموت والجمود والذل الذي

---

(١) هو الغطاء الذي تستر المرأةُ به وجهها.

(٢) نسبة إلىٰ قبيلة عاد.

(٣) في نسخة: بنكبة من نكبات الدهر أو رزيئة من رزاياه.

ضربه الله علىٰ هٰؤلاء النساء في هٰذا البلد أن يعشن في قبور مظلمة من خدورهن وخمرهن حتىٰ يأتيهن الموت فينتقلن من مقبرة الدنيا إلىٰ مقبرة الآخرة، فلابد لي أن أبلغ أمنيتي، وأن أعالج هٰذا الرأس القاسي المتحجر علاجًا ينتهي بإحدىٰ الحسنين، إما بكسره أو بشفائه

فورد علي من حديثه ما ملأ نفسي همًا وحزنًا، ونظرت إليه نظرة الراحم الراثي، وقلت له: عالم أنت أيها الصديق ما تقول؟

قال: نعم أقول الحقيقة التي أعتقدها وأدين نفسي بها واقعة من نفسك ونفوس الناس جميعًا حيث وقعت.

قلت: هل تأذن لي أن أقول لك إنك عشت فترة طويلة في ديار قوم لا حجاب بين رجالهم ونسائهم، فهل تذكر أن نفسك حدثتك يومًا من الأيام وأنت فيهم بالطمع في شيء مما لا تملك يمينك من أعراض نسائهم فنلت ما تطمع فيه من حيث لا يشعر مالكه؟

قال: ربما وقع لي شيء من ذلك فماذا تريد؟

قلت: أريد أن أقول لك: إني أخاف علىٰ عرضك أن يلم به من الناس ما ألم بأعراض الناس منك

قال: إن المرأة الشريفة تستطيع أن تعيش بين الرجال من شرفها وعفتها في حصن حصين لا تمتد إليه المطامع.

فتداخلني ما لم أملك نفسي معه وقلت له:

تلك هي الخُدعةُ التي يخدعُكُم بها الشيطان أيها الضعفاء، والثُّلمةُ التي يعثرُ بها في زوايا رءوسكم فينحدر منها إلىٰ عقولكم ومداركم فيفسدها عليكم، فالشرف كلمةٌ لا وجود لها إلا في قواميس اللغة ومعاجمها، فإن أردنا أن نفتش عنها في قلوب الناس وأفئدتهم قلما نجدها، والنفس الإنسانية كالغدير الراكد لا يزال صافيًا رائقًا حتىٰ يسقط فيه حجر فإذا هو مستنقعٌ كدرٌ.

والعفَّة لونٌ من ألوان النفس، لا جوهرٌ من جواهرها، وقلما تثبت

الألوان علىٰ أشعة الشمس المتساقطة.

قال: أتنكر وجود العفة بين الناس؟

قلت: لا أنكرها لأني أعلم أنها موجودة بين البُلْه والضعفاء والمتكلفين، ولكني أنكر وجودها عند الرجل القادر المختلب، والمرأة الحاذقة المتُرفقة إذا سقط بينهما الحجاب وخلا وجه كل منهما لصاحبه

في أي جو من أجواء هٰذا البلد تريدون أن تبرز نساؤكم لرجالكم؟

أفي جو المتعلمين وفيه من سُئل مرة: لم لم يتزوج؟ أجاب: نساء البلد جميعًا نسائي!!

أم في جو الطلبة وفيهم من يتوارىٰ عن أعين خلانه وأترابه حياءً وخجلًا إن خلت محفظته يومًا من الأيام من صور عشيقاته وخليلاته، أو أقفرت من رسائل الحب والغرام؟!

أم في جو الرعاع والغوغاء وكثير منهم يدخل البيت خادمًا ذليلًا، ويخرج منه صهرًا كريمًا؟!

وبعد:

فما هٰذا الولع بقصة المرأة، والتمطق[1] بحديثها، والقيام والقعود بأمرها، وأمر حجابها وسُفُورها، وحريتها وأسرها؟

كأنما قد قمتم بكل واجب للأمة عليكم في أنفسكم فلم يبق إلا أن تفيضوا من تلك النعم علىٰ غيركم!

هذبوا رجالكم قبل أن تهذبوا نساءكم، فإن عجزتم عن الرجال فأنتم عن النساء أعجز.

أبواب الفخر أمامكم كثيرة، فاطرقوا أيها شئتم، ودعوا هٰذا الباب موصدًا فإنكم إن فتحتموه فتحتم علىٰ أنفسكم ويلًا عظيمًا، وشقاءً طويلًا.

---

(١) تمطق: ضم شفتيه، وأحدث صوت يدل علىٰ ٱستطابة طعم الشيء.

أروني رجلًا واحدًا منكم يستطيع أن يزعم في نفسه أنه يمتلك هواه بين يدي ٱمرأةٍ يرضاها، فأصدق أن ٱمرأةً تستطيع أن تمتلك هواها بين يدي رجل ترضاه؟!

إنكم تكلفون المرأة ما تعلمون إنكم تعجزون عنه، وتطلبون عندها ما لا تعرفونه عند أنفسكم.

فأنتم تخاطرون بها في معركة الحياة مخاطرة لا تعلمون: أتربحونها من بعدها أم تخسرونها؟ وما أحسبكم إلَّا خاسرين.

ما شكت المرأة إليكم ظلمًا، ولا تقدمت إليكم في أن تحلوا قيدها، وتطلقوها من أسرها، فما دخولكم بينها وبين نفسها؟، وما تمضغكم ليلكم ونهاركم بقصصها وأحاديثها؟!

إنها لا تشكو إلا فضولكم وإسفافكم، ومضايقتكم لها، ووقفوكم في وجهها حيثما سارت، وأينما حلت، حتىٰ ضاق بها وجه الفضاء فلم تجد لها سبيلًا إلَّا أن تسجن نفسها بنفسها في بيتها فوق ما سجنها أهلها، فأوصدت من دونها بابها، وأسبلت أستارها، تبرمًا بكم، وفرارًا من فضولكم، فواعجبًا لكم تسجنونها بأيديكم ثم تقفون علىٰ باب سجنها تبكونها وتندبون شقاءها!!

إنكم لا ترثون لها بل ترثون لأنفسكم، ولا تبكون عليها بل علىٰ أيام قضيتموها في ديار يسيل جوها تبرجًا، وسفورًا، ويتدفق خلاعة واستهتارًا، وتودون بجدع الأنف لو ظفرتم هنا بذلك العيش الذي خلفتموه هناك!

لقد كُنا وكانت العفة في سقاء من الحجاب موكوءٍ فمازلتم به تثقبون في جوانبه كل يوم ثقبًا، والعفة تتسلل منه قطرةً قطرةً حتىٰ تقبَّض[١] وتكرَّش[٢]، ثم لم يكفكم ذلك منه حتىٰ جئتم اليوم تريدون أن تحلوا وكاءه حتىٰ لا تبقىٰ فيه قطرة واحدة.

---

(١) تقبض: تجمع.

(٢) في نسخة: وتضاءل.

عاشت المرأة المصرية حقبة من دهرها هادئة مطمئنة في بيتها، راضية عن نفسها، وعن عيشها، ترىٰ السعادة كل السعادة في واجب تؤده لنفسها، أو وقفةٍ تقفها بين يدي ربها، أو عطفةٍ تعطفها علىٰ ولدها، أو جلسة تجلسها إلىٰ جارتها فتبثها ذات نفسها، وتستبثها سريرة قلبها، وترىٰ الشرف كل الشرف في خضوعها لأبيها، وائتمارها بأمر زوجها، ونزولها عند رضاهما.

وكانت تفهم معنىٰ الحب وتجهل معنىٰ الغرام فتحب زوجها؛ لأنه زوجها، كما تحب ولدها لأنه ولدها، فإن رأىٰ غيرها من النساء أن الحب أساس الزواج، رأت هي أن الزواج أساس الحب، فقلتم لها: إن هٰؤلاء الذين يستبدون بأمرك من أهلك ليسوا بأكبر منك عقلًا، ولا أفضل رأيًا، ولا أقدر علىٰ النظر لك من نظرك لنفسك، فلا حق لهم في هٰذا السلطان الذي يزعمونه لأنفسهم عليك، فازدرت أباها، وتمردت علىٰ زوجها، وأصبح البيت الذي كان بالأمس عرسًا من الأعراس الضاحكة مناحةً قائمة لا تهدأُ نارها، ولا يخبو أُوارُها[1].

وقلتم لها: لابد لك أن تختاري زوجك بنفسك حتىٰ لا يخدعك أهلك عن سعادة مستقبلك فاختارت لنفسها أسوأ ما ٱختار لها أهلها فلم يزد عمر سعادتها علىٰ يوم وليلة ثم شقاء طويل بعد ذلك والعذاب الأليم.

وقلتم لها: إن الحب أساس الزواج، فما زالت تقلب عينيها في وجوه الرجال مصعدة مصوبةً حتىٰ شغلها الحب عن الزواج فعنيت به عنه.

وقلتم لها: إن سعادة المرأة في حياتها أن يكون زوجها عشيقها، وما كانت تعرف إلَّا أن الزوج غير العشيق، فأصبحت تطلب في كل يوم زوجًا جديدًا يحيي من لوعة الحب ما أمات القديم، فلا قديمًا ٱستبقت ولا جديدًا أفادت.

---

(١) الأُوار: حر النار والشمس.

وقلتم لها: لا بد لك أن تتعلمي لتحسني تربية ولدك والقيام علىٰ شئون بيتك، فتعلمت كل شيء إلا تربية ولدها والقيام علىٰ شئون بيتها!.

وقلتم لها: إنا لا نتزوج من النساء إلا من نحبها ونرضاها، ويلائم ذوقها ذوقنا، وشعورها شعورنا فكان لابد لها أن تعرف مواقع أهوائكم، ومباهج أنظاركم، لتتجمل لكم بما تحبون، فراجعت فهرس أعمالكم في حياتكم صفحة صفحة فلم تر فيه غير أسماء الخليعات المستهترات، والضاحكات اللاعبات، والإعجاب بهن، والثناء علىٰ ذكائهن وفطنتهن، فتخلعت واستهترت لتبلغ رضاكم، وتنزل عند محبتكم، ثم مشت إليكم بهٰذا الثوب الرقيق الشفاف تعرض نفسها عليكم عرضًا كما يعرض النخاس أمته في سوق الرقيق فأعرضتم عنها، ونبوتم بها.

وقلتم لها: إنا لا نتزوج النساء العاهرات، كأنكم لا تبالون أن يكون نساء الأمة جميعًا ساقطات إذا سلمت لكم نساؤكم، فرجعت أدراجها خائبة منكسرة، وقد أباها الخليع، وترفع عنها المحتشم، فلم تجد بين يديها غير باب السقوط فسقطت.

وهكذا ٱنتشرت الريبة في نفوس الأمة جميعًا، وتمشت الظنون بين رجالها، ونسائها، فتحاجز الفريقان، وأظلم الفضاء بينهما، وأصبحت البيوت كالأديرة لا يرىٰ فيها الرائي إلا رجالًا مترهبين ونساء عانساتٍ.

ذلك بكاؤكم علىٰ المرأة أيها الراحمون، وهٰذا رثاؤكم لها، وعطفكم عليها!

نحن نعلم كما تعلمون أن المرأة في حاجة إلىٰ العلم فليهذبها أبوها أو أخوها، فالتهذيب أنفع لها من العلم، وإلىٰ ٱختيار الزوج العادل الرحيم فليحسن الآباءُ ٱختيار الأزواج لبناتهم وليجمل الأزواجُ عشرة نسائهم، وإلىٰ النور والهواء تبرزُ إليهما، وتتمتع فيهما بنعمة الحياة، فليأذن لها أولياؤها بذلك، وليرافقها رفيقٌ منهم في غداواتها وروحاتها كما يرافق الشاة راعيها

خوفًا عليها من الذئاب، فإن عجزنا عن أن نأخذ الآباء والإخوة والأزواج بذلك، فلننفض أيدينا من الأمة جميعها: نسائها ورجالها، فليست المرأة بأقدر علىٰ إصلاح نفسها من الرجل علىٰ إصلاحها.

أعجب ما أعجب له من شئونكم أنكم تعلمتم كل شيء إلا شيئًا واحدًا هو أدنىٰ إلىٰ مداركِكم أن تعلموه قبل كل شيء، وهو أن لكل تربة نباتًا ينبت فيها، ولكل نباتٍ زمنًا ينمو فيه.

رأيتم العلماء في أوروبا يشتغلون بكماليات العلوم بين أمم قد فرغت من ضرورياتها، فاشتغلتم بها مثلهم في أمةٍ لا يزال سوادها الأعظم في حاجةٍ إلىٰ معرفة حروف الهجاء..

ورأيتم الفلاسفة فيها ينشرون فلسفة الكفر بين شعوبٍ ملحدةٍ، لها من عقولها وآدابها ما قد يغنيها بعض الغناء عن إيمانها، فاشتغلتم بنشرها بين أمةٍ ضعيفةٍ ساذجةٍ لا يُغنيها عن إيمانها شيءٌ إن كان هناك ما يغني عنه.

ورأيتم الرجل الأوربي حرًا مطلقًا يفعل ما يشاء ويعيش كما يريد؛ لأنه يستطيع أن يملك نفسه وخطواته في الساعة التي يعلم فيها أنه قد وصل إلىٰ حدود الحرية التي رسمها لنفسه فلا يتخطاها، فأردتم أن تمنحوا هٰذه الحرية نفسها رجلًا ضعيف الإرادة والعزيمة، يعيش من حياته الأدبية علىٰ رأس منحدر زالقٍ، فإن زلت به قدمه مرة ٱنحدر، من حيث لا يستطيع أن يستمسك حتىٰ يبلغ الهوة ويتردىٰ في قراراتها.

ورأيتم الزوج الأوروبي الذي أطفأت البيئة غيرته وأزالت خشونة نفسه وحُرشتها يستطيع أن يرىٰ زوجته تخاصر من تشاء (من الرجال، وترافق) من تشاء، وتخلو بمن تشاء، فيقف أمام ذلك المشهد موقف الجامد المتبلد، فأردتم الرجل الشرقي الغيور الملتهب أن يقف موقفه، ويستمسك ٱستمساكه.

ورأيتم المرأة الأوربية الجريئة المتفتية في كثير من مواقفها مع الرجال أن تحتفظ بعصمتها! فأردتم من المرأة المصرية الضعيفة الساذجة أن تبرز

للرجال بروزها، وتحتفظ بنفسها ٱحتفاظها!

وكل نبات يُزرع في غير أرضه، أو في ساعة غير ساعته، إما أن تأباه الأرض فتلفظه، وأما أن ينشب فيها فيفسدها.

إنا نضرع إليكم باسم الشرف الوطني والحرمة الدينية أن تتركوا تلك البقية الباقية من نساء الأمة مطمئنات في بيوتهن، ولا تزعجوهن بأحلامكم وآمالكم كما أزعجتم من قبلهن.

فكل جرح من جروح الأمة له دواءٌ إلا جرح الشرف، فلا دواء له، فإن أبيتم إلا أن تفعلوا فانتظروا بأنفسكم قليلًا ريثما تنتزع الأيام من صدوركم هٰذه الغيرة التي ورثتموها عن آبائكم وأجدادكم لتستطيعوا أن تعيشوا في حياتكم الجديدة سعداء آمنين.

فما زاد الفتىٰ علىٰ أن تبسم في وجهي ٱبتسامة الهزء والسخرية، وقال: تلك حماقات ما جئنا إلا لمعالجتها، فلنصطبر عليها حتىٰ يقضي الله بيننا وبينها.

فقلت له: لك أمرك في نفسك وفي أهلك، فاصنع بهما ما تشاء وائذن لي أن أقول لك: إني لا أستطيع أن أختلف إلىٰ بيتك[1] بعد اليوم إبقاءً عليك وعلىٰ نفسي؛ لأني أعلم أن الساعة التي ينفرج لي فيها جانب سترٍ من أستار بيتك عن وجه ٱمرأةٍ من أهلك تقتلني حياءً وخجلًا.

ثم ٱنصرفت وكان هٰذا آخر ما بيني وبينه.

وما هي إلا أيام قلائل حتىٰ سمعت الناس يتحدثون أن فلانًا هتك الستر في منزله بين نسائه وأصدقائه، وأن بيته أصبح مغشيًا لا تزال النعال خافقة ببابه.

فذرفت عيني دمعةً لا أعلم: هل هي دمعة الغيرة علىٰ العرض المذال،

---

(١) أي آتيك مرة بعد مرة.

أو الحزن علىٰ الصديق المفقود؟!!

مرت علىٰ تلك الحادثة ثلاثة أعوام لا أزوره فيها ولا يزورني، ولا ألقاه في طريقه إلا قليلًا فأحييه تحية الغريب للغريب من حيث لا يجري لما كان بيننا ذكر ثم أنطلق في سبيلي، فإني لعائد إلىٰ منزلي ليلة أمس، وقد مضىٰ الشطر الأول من الليل إذ رأيته خارجًا من منزله يمشي مشية الذاهل الحائر، وبجانبه جندي من جنود الشرطة، كأنما هو يحرسه أو يقتاده، فأهمني أمره، ودنوت منه فسألته عن شأنه؟

فقال: لا علم لي بشيءٍ سوىٰ أن هٰذا الجندي قد طرق الساعة بابي يدعوني إلىٰ مخفر الشرطة، ولا أعلم لمثل هٰذه الدعوة في مثل هٰذه الساعة سببًا، وما أنا بالرجل المذنب ولا المريب، فهل أستطيع أن أرجوك- يا صديقي القديم- بعد الذي كان بيني وبينك أن تصحبني الليلة في وجهي هٰذا، علني أحتاج إلىٰ معونتك فيما قد يعرض لي هناك من الشئون؟

قلت: لا أحب إلي من ذلك؟

ومشيت معه صامتًا لا أحدثه، ولا يقول لي شيئًا، حتىٰ شعرت كأنه يزور[1] في نفسه كلامًا يريد أن يُفضي به إليَّ فيمنعه الخجل والحياء، ففاتحته الحديث وقلت له: ألم تستطع أن تتذكر لهٰذه الدعوة سببًا؟

فنظر إليَّ نظرة حائرةً وقال: إن أخوف ما أخافه أن يكون قد حدث لزوجتي الليلة حادثٌ مؤلمٌ، فقد رابني من أمرها أنها لم تعد إلىٰ منزلها حتىٰ الساعة، وما كان ذلك شأنها من قبل!

قلت: أما كان يصحبها أحد؟

قال: لا.

قلت: ألا تعلم المكان الذي ذهبت إليه؟

---

(١) زوّر الكلام في نفسه: هيأه.

قال: لا.

قلت: ومم تخاف عليها؟

قال: لا أخاف شيئًا سوىٰ أني أعلم أنها ٱمرأةٌ غيور حمقاء، فلعل بعض الناس حاول العبث بها في طريقها فشرست عليه فوقعت بينهما واقعةٌ ٱنتهىٰ أمرها إلىٰ مخفر الشرطة.

وكنا قد وصلنا إلىٰ المخفر. فاقتادنا الجندي إلىٰ قاعة المأمور، حتىٰ صرنا بين يديه، فأشار إلىٰ جندي أمامه إشارة لم نفهمها، ثم ٱستدنىٰ الفتىٰ إليه، وقال له: يسوؤني أن أقول لك يا سيدي: إن رجال الشرطة قد عثروا الليلة في مكان من أمكنة الريبة علىٰ رجلٍ وامرأة في حال غير صالحةٍ فاقتدوهما إلىٰ المخفر، فزعمت المرأة أن لها بك صلة، فدعوناك لتكشف لنا الحقيقة في أمرها، وأمر صاحبها، فإن كانت صادقةً أذنَّا لها بالانصراف معك: إكرامًا لك، وإبقاءً علىٰ شرفك، وإلَّا فهي ٱمرأةٌ عاهرة لا نجاة لها من عقاب الفاجرات، وهاهما وراءك فانظرهما.

وكان الجندي قد جاء بهما من غرفة أخرىٰ، فالتفت وراءه، فإذا المرأة زوجته، وإذا الرجل أحد أصدقائه.

فصرخ صرخة رجفت له جوانب المخفر وملأت نوافذه وأبوابه عيونًا وآذانًا، ثم سقط في مكانه مغشيًا عليه.

فأشرت علىٰ المأمور أن يرسل المرأة إلىٰ منزل أبيها، ففعل، وأطلق سبيل صاحبها، ثم حملنا الفتىٰ في مركبة إلىٰ منزله، ودعونا له الطبيب، فقرر أنه مصاب بحمىٰ دماغية شديدة، ولبث ساهرًا بجانبه بقية الليل يعالجه، حتىٰ دنا الصبح، فانصرف علىٰ أن يعود متىٰ دعوناه، وعهد إلي بأمره، فلبثت بجانبه أرثي لحاله، وانتظر قضاء الله فيه، حتىٰ رأيته يتحرك في مضجعه، ثم فتح عينيه، فرآني، فلبث شاخصًا إلي هنيهةً كأنما يحاول أن يقول لي شيئًا، فلا يستطيعه، فدنوت منه، وقلت له: هل من حاجة يا سيدي؟.

فأجاب بصوت ضعيف خافتٍ: حاجتي أن لا يدخل علي من الناس أحدٌ.

قلت: لن يدخل عليك إلا من تريد.

فأطرق هنيهة ثم رفع رأسه، فإذا عيناه مبتلتان بالدموع.

فقلت: ما بكاؤك يا سيدي؟

قال: أتعلم أين زوجتي الآن؟

قلت: وماذا تريد منها؟

قال: لا شيء سوىٰ أن أقول لها: إني عفوت عنها.

قلت: إنها في بيت أبيها.

قال: وارحمتاه لها، ولأبيها، ولجميع قومها، فلقد كانوا قبل أن يتصلوا بي شرفاء أمجادًا، فألبستهم مذ عرفوني ثوبًا من العار لا تبلوه الأيام.

من لي بمن يبلغهم عني جميعًا أني رجلٌ مريض مشرف، وأنني أخشىٰ لقاء الله إن لقيته بدمائهم، وأنني أضرع إليهم أن يصفحوا عني، ويغتفروا ذنبي، قبل أن يسبق إلي أجلي.

لقد كنت أقسمت لأبيها يوم ٱهتديتها أن أصون عرضها صيانتي لحياتي، وأن أمنعها مما أمنع منه نفسي، فحنثت في يميني فهل يغفر لي ذنبي فيغفر لي الله بغفرانه؟!

إنها قتلتني، ولكني أنا الذي وضعت في يدها الخنجر الذي أغمدتْهُ في صدري، فلا يسألها أحد عن ذنبي!

البيت بيتي، والزوجة زوجتي، والصديق صديقي، وأنا الذي فتحت باب بيتي لصديقي إلىٰ زوجتي، فلم يذنب إليَّ أحدٌ سواي.

ثم أمسك عن الكلام هنيهة، فنظرت إليه، فإذا سحابة سوداء تنتشر فوق جبينه شيئًا فشيئًا، حتىٰ لبست وجهه، فزفر زفرة خلت أنها خرقت حجاب قلبه، ثم أنشأ يقول: آهٍ ما أشد الظلام أمام عيني، وما أضيق الدنيا في

وجهي، في هٰذه الغرفة، علىٰ هٰذا المقعد، تحت هٰذا السقف، كنت أراهما جالسين يتحدثان، فتمتلئ نفسي غبطةً وسرورًا، وأحمد الله علىٰ أن رزقني بصديق وفي يؤنس زوجتي في وحدتها، وزوجة سمحة كريمةٍ تكرم صديق في غيبتي، فقولوا للناس جميعًا: إن ذلك الرجل الذي كان يفخر بالأمس بذكائه وفطنته، ويزعم أنه أكيس الناس وأحزمهم، قد أصبح يعترف اليوم أنه أبله إلىٰ الغاية من البلاهة، وغبي إلىٰ الغاية التي لا غاية وراءها!.

والهفًا علىٰ أم لم تلدني، وأبٍ عاقرْ لا نصيب له في البنين!

لعل الناس كانوا يعلمون من أمري ما كنت أجهل، ولعلهم كانوا إذا مررت بهم يتناظرون ويتغامزون، ويبتسم بعضهم إلىٰ بعض أو يحدقون إلي ويطيلون النظر في وجهي ليروا كيف تتمثل البلاهة في وجوه البله، والغباوة في وجوه الأغبياء.ولعل الذين كانوا يطيفون بي، ويترددون إلي ويتمسحون بي من أصدقائي إنما كانوا يفعلون ذلك من أجلها لا من أجلي، ولعلهم كانوا يسمونني فيما بينهم وبين أنفسهم قوادًا، ويسمون زوجتي مومسًا، وبيتي ماخورًا[1].

وأنا عند نفسي أشرف الناس وأنبلهم.

فوارحمتاه لي إن بقيت علىٰ ظهر الأرض بعد اليوم ساعةً واحدةً، ووالهفًا علىٰ زاويةٍ مفردة في قبر موحش يطويني ويطوي عاري معي.

ثم أغمض عينيه وعاد إلىٰ ذهوله واستغراقه.

وهنا: دخلت الحجرة مرضع ولده تحمله علىٰ يدها حتىٰ دنت به من فراشه فتركته وانصرفت.

فما زال الطفل يدب علىٰ أطرافه حتىٰ علا صدر أبيه، فأحس به ففتح عينيه، فرآه، فابتسم لمرآه، وضمه إلىٰ صدره، ضمة الرفق والحنان، وأدنىٰ

(١) الماخور: بيت الريبة.

فمه من وجهه كأنما يريد أن يقبله، ثم ٱنتفض فجأة، واستسر[١] بشره، ودفعه عنه بيده دفعًا شديدًا فانكفأ علىٰ وجهه يبكي ويصيح، وقال: أبعدوه عني، لا أعرفه، ليس لي أولادٌ ولا نساءٌ، سلوا أمه عن أبيه؟ أين مكانه؟ واذهبوا به إليه، لا ألبس العار في حياتي وأتركه أثرًا خالدًا ورائي بعد مماتي.

وكانت المرضع قد سمعت صياح الطفل فعادت إليه وحملته وذهبت به.

فسمع صوته وهو يبتعد عنه شيئًا فشيئًا، فأنصت إليه واستعبر باكيًا وصاح:

أرجعوه إلي.

فعادت به المرضع، فتناوله من يدها وأنشأ يقلب نظره في وجهه ويقول: في سبيل الله يا بني ما خلف لك أبوك من اليتم، وما خلفت لك أمك من العار، فاغفر لهما ذنبهما إليك، فلقد كانت أمك ٱمرأةً ضعيفة فعجزت عن ٱحتمال صدمة القضاء فسقطت، وكان أبوك حسن النية في جريمته التي ٱجترمها، فأساء من حيث أراد الإِحسان.

سواءٌ أكنت ولدي يا بني أو ولد الجريمة، فإني قد سعدت بك برهة من الدهر، فلا أنسىٰ يدك عندي حيًا أو ميتًا!

ثم ٱحتضنه إليه وقبله في جبينه قبلة، لا أعلم: هل قبلةُ الأب الرحيم، أو المحسن الكريم!

وكان قد بلغ منه الجهد، فعاودته الحمىٰ، وغلت نارها في رأسه، وما زال يثقل شيئًا فشيئًا حتىٰ خفت عليه التلف، فأرسلت وراء الطبيب، فجاء وألقىٰ عليه نظرةً طويلةً، ثم ٱستردها مملوءةً يأسًا وحزنًا.

ثم بدأ ينزع نزعًا شديدًا ويئن أنينًا مؤلمًا، فلم تبق عينٌ من العيون المحيطة به إلَّا ٱرفضت عن كل ما تستطيع أن تجود به من مدامعها.

---

(١) ٱستتر وخفي.

فإنا لجلوس حوله، وقد بدأ الموت يسبل أستاره السوداء حول سريره، وإذا بامرأة متزرةٍ بإزار أسود قد دخلت الحجرة وتقدمت نحوه ببطء حتىٰ ركعت بجانبه، ثم أكبت علىٰ يده الممتدة فوق صدره فقبلتها وأخذت تقول له: لا تخرج من الدنيا وأنت مرتاب في ولدك، فإن أمه تعترف بين يديك، وأنت ذاهبٌ إلىٰ ربك لتسأله عن قولها أنها وإن كانت دنت من الجريمة فإنها لم ترتكبها، فاعف عني يا والد ولدي، واسأل الله عندما تقف بين يديه أن يلحقني بك فلا خير لي في الحياة من بعدك..

ثم ٱنفجرت باكية، ففتح عينيه، وألقىٰ علىٰ وجهها نظرةً باسمة كانت هي آخر عهده بالحياة، وقضىٰ- أي مات-.

الآن عدت من المقبرة بعد ما دفنت صديقي بيدي، وأودعت حفرة القبر ذلك الشباب الناضر، والروض الزاهر.

وجلستُ لكتابة هٰذه السطور، وأنا لا أكاد أملك مدامعي وزفراتي، فلا يهون وجدي عليه إلَّا أن الأمة كانت علىٰ باب خطر عظيم من أخطارها فتقدم هو أمامها إلىٰ ذلك الخطر وحده، فاقتحمه، وحيدًا فنجت بهلاكه. أهـ.

١٧- أصحاب هٰذه الدعاوىٰ لا يذكرون ما ترتب علىٰ دعواتهم من مخاز وفضائح:

يقول د/ مصطفىٰ السباعي[(١)]:

الكلام عن المرأة ونهضتها مما تناولته عقول المفكرين بالبحث والدرس، وأكثر فيه الكتاب من البيان والإيضاح، ولم يختلف أدباؤنا والمصلحون منا في شيء كاختلافهم في إصلاح شأن المرأة: ففريق يرىٰ أن خير إصلاح لها أن يرجع بها إلىٰ الدين الحكيم، وتنفذ فيها أحكامه وتعاليمه؛ لأن بذلك صيانة فضائلها، وحشر روحها مع أرواح الملائكة. وفريق يرىٰ أن

(١) «آلام وآمال» ص٧٣-٧٧.

الرجوع إلىٰ الدين جمود ورجعية، وأن إصلاحها لا يتم إلا بأن تمشي علىٰ سنن الغرب وتقتبس أزياءه وتسير معها حيثما سارت.

لأن الفرنج في مذهبهم كل لا يتجزأ ولا يؤخذ بعضه دون بعض.

وهٰذا الفريق- الفريق الثاني- وإن موَّه علىٰ الناس دعوته وتستر بستار التدرج إلا أن العقلاء يعلمون أن ما يتسترون به خداع وفرار من إغضاب جمهرة الأمة التي تعتقد أن دينها جماع الخير ومعدن الفلاح.

ومازالت الأيام والحوادث تكشف الستر شيئًا فشيئًا عن تلك العصابة حتىٰ وضح للناس كافة أن نفوسهم تنطوي علىٰ دغل وضغينة نحو الدين الإسلامي علىٰ الخصوص قد لا تنطوي علىٰ مثله نفوس أعدائه الخارجين عنه، وأنهم إذ يدعون الناس إلىٰ سفور المرأة ونزولها إلىٰ ميدان الحياة لا يبتغون بذلك إصلاح المرأة، وإنما يطلبون تأليبها علىٰ آداب الإسلام بإفساد عفتها، ولا يودُّون نصرة النساء، وإنما يودون نصرة نفوسهم المركبة من الشهوات والأهواء.

وقد كنا نحسب أن ما أظهره الزمن من فضائح النهضة التي تقوم بها تلك العصابة الآثمة الباغية علىٰ الدين والفضيلة كفيل بأن يرغمها علىٰ أن تغض الطرف حياءً وتلتمس من الأمة صفحًا عما أساءت إليها في دينها وعفتها وكرامتها، ولٰكن الذي يظهر أن الشر لا يزال محدّقًا بعينيه، والشيطان لا يزال ذارًّا قرنيه وأن وراء الأكمة ما وراءها.

وقفت إحدىٰ زعيمات تلك العصابة قريبًا علىٰ منبر جامعة تبشيرية في القاهرة تتحدث إلىٰ الناس عن جهاد عصبتها في تطوَّر المرأة، وبعبارة أدق في إخراج المرأة من حظيرة الإسلام، فذكرت شيئًا كثيرًا عما أصاب دعوتها من نجاح، وبرهنت علىٰ ذلك بتزايد عدد المحاميات والموظفات والمتعلمات من بني جنسها وبنزولهن إلىٰ الشوارع والأزقة يهتفن للوطن ورجاله!

مرحىٰ، مرحىٰ! أهذا كل ما أسفر عنه جهادك أيتها العصابة؛ وهل هٰذا

كل ما عندك من براهين علىٰ ما وفقت إليه من عمل وكفاح؟.. يا خيبة الآمال بأعمال الأبطال!.. ويا سخرية الساخرين.. من جهاد المائعين! هل ٱستنكرنا يومًا من الأيام أن يكون بين النساء نابغات؟ أم هل أنكرنا أن يكون بينهن من يقدرن علىٰ الطيران في السماء، والمحاماة أمام القضاء، والصياح في الشوارع بين الدهماء؟ كلا فنحن نقر ونذعن بأن في النساء من هن أقدر من الرجال علىٰ الجدال والهتاف في القضاء، ولٰكن الذي أنكرناه ولا نزال ننكره أن تهتك المرأة ستر الحياء وتهجر الديار وتربية الأبناء وتتمرد علىٰ الله في شريعته كأنها تعتب عليه إذ خلقها ٱمرأة ولم يخلقها كما يخلق الرجال!

وكم كنا نود من المتكلمة بلسان العصابة أن تقيم لنا الأدلة علىٰ ما كان لنهضتها من آثار حسنة في خلق المرأة وعفتها وحيائها ولكنها أغفلت هٰذا وتجاهلته، كأنه ليس مما يدخل في برنامج أعمالها. وهيهات أن تجرؤ مجترئة علىٰ مثل تلك الدعوىٰ، فالوقائع تكذبها والمشاهدات تنطق بلسان فصيح بأن نهضتها إنما كانت شؤمًا علىٰ الطهر والأدب والخلق والعفاف.

لِمَ لم تذكر لنا خطيبة العصابة مخازي حمامات البحر ومصايف البر؛ لِم لم تذكر لنا فضائح الحدائق العامة ودور اللهو والخلاعة؟

لِمَ لم تذكر لنا الحفلات التي تقام باسم نهضة المرأة وتحمل فيها المهذبات الراقيات محمولات في السيارات إلىٰ بيوتهن؟

لِمَ لم تذكر لنا مخازي الٱجتماع الطاهر البريء بين الجنسين مما ٱمتلأت به محاضر الشرطة ودفاتر القضاء وسجلات المحاكم؟

لِمَ لم تذكر لنا كثيرًا مثل هٰذا مما تعلمه هي أكثر مما نعلمه نحن؛ من يدري؛ فقد يكون ذلك من مفاخر العصبة وإحدىٰ غاياتها، فلله الأمر من قبل ومن بعد.

تقول خطيبة العصابة: إن الإسلام أنقذ المرأة وأنالها نصيبًا من الحرية. وما هٰذه والله إلا من تلك التي تموه بها العصابة علىٰ الناس كما أسلفنا، وكأن الله أبىٰ إلا أن يبين للملأ أنها تقول هٰذا تمويهًا وخداعًا فأجرىٰ قلمها

بما يأتي: «لما حل القانون السويسري محل القانون التركي القديم- أي محل الشريعة الإسلامية- ربحت المرأة التركية بحكمه حق المساواة في الميراث ومنع تعدد الزوجات» وفي موضع آخر: «والمطلب الوحيد الذي لم يتحقق إلىٰ الآن رغم مساعينا هو وضع حد لتعدد الزوجات علىٰ أن هٰذه العادة الممقوتة تتلاشىٰ شيئًا فشيئًا، وأن الدين الحنيف ما أقرها إلا بقيود تكاد تحرمها- «تبارك الله، ما شاء الله، لقد تحولت الخطيبة فقيهة»- وقد ٱستأنفنا السعي في هٰذا السبيل الذي سيكلل بالنجاح إن شاء الله بفضل تطور العقلية في النهضة العامة وانتشارها بين جميع الطبقات» هٰذا ما أجرىٰ الله به قلمها وأقسم أنه ما نطق بهٰذا من يؤمن برسالة الإسلام ويدين بشريعته، فمحال أن يجتمع في فؤاد واحد في آن واحد الٱعتقاد بعدالة الإسلام، والاعتقاد بأن مساواة المرأة للرجل في الميراث ومنع تعدد الزوجات ربح جديد ربحته المرأة، وأن تعدد الزوجات ممقوت يجب السعي الحثيث للخلاص منه.

ولا شك أن أحد الٱدعاءين كذب وتدليس، والمرجح عندنا أن الأول هو كذلك فلتقلها العصابة كلمة جريئة صريحة لا مواربة فيها ولا إيهام. لتقل لنا إن كانت تعتقد حقًا برسالة الإسلام وتدين بشريعته أم لا؟

ولتقل لنا إن كانت تعتقد أن السعادة في التمسك بها أم لا؟ وإلا فهٰذا التذبذب والمواربة مما يجعلها موضع سخرية الساخرين وهزء المفكرين.

وأعجب ما في الأمر ذلك الٱفتراء الوقح علىٰ دين الله بأنه قيد تعدد الزوجات بقيود تحرمها، فهي أولًا تعترف بأن التعدد ليس محرمًا وإنما هو قريب من المحرم، وهي ثانيًا تتهم ضمنًا صحابة رسول الله ﷺ والتابعين والسلف الصالح والأمة كلها بأنهم جميعًا وقعوا في شيء ممقوت تكاد تحرمه الشريعة وتنفر منه الطباع السليمة!.. هٰذا بهتان صريح وادعاء قبيح علىٰ أن ٱستنباط أحكام الحلال والحرام والجائز والمباح إنما ٱختص به فقهاء الأمة وذوو العقول الراجحة فيها، وما كانت خطيبة العصابة لتجرؤ علىٰ ٱدعاء العلم

بالصيدلة أو بخياطة الملابس وهي لم تتعلمهما، فكيف تجرؤ علىٰ ٱدعاء العلم بالفقه وأسراره والكلام في ٱستنباط الحلال والحرام من شرع الله؟! ولكنه الهوىٰ إذا تسرب إلىٰ فؤاد صاحبه ملأ نفسه وسمعه وبصره فلا ينطق ولا يسمع ولا يبصر ولا يعتقد إلا ما يوجبه الهوىٰ.

وأما أن تستبشر بزوال تلك العادة الممقوتة فنحن نبشرها من الآن بأن الغرب الذي تقتفي آثاره في كل شيء لابد وأن يأخذ طوعًا أو كرهًا بهٰذا المبدأ «الممقوت» كما أخذ بمبدأ الطلاق أيضًا، وهاهي فرنسا أخذت تضج من قلة النسل وزيادة النساء علىٰ الرجال، فقد دلت إحصاءاتها علىٰ أنه مقابل كل مائة رجل مائة وخمس عشرة ٱمرأة مما دعا علماءهم ومفكريهم إلىٰ الدعوة للأخذ بمبدأ تعدد الزوجات، وسنرىٰ حينئذٍ كيف تخفف العصابة من غلوائها وتتراجع عن المطالبة بإلغاء التعدد ٱقتداء بالغرب الذي ٱستولىٰ حبه علىٰ شغاف أفئدتها؛ وليس هٰذا ببعيد فقد حاولت العصابة منع الطلاق حتىٰ إذا رأت معبودها الغرب قد أجازه تراجعت عن مطلبها وتواضعت في التنازل عنه!

وكلمتنا الأخيرة إلىٰ العصابة ومن يؤازرها: أنا مما يعضد نهضة المرأة المسلمة، ولٰكن علىٰ أي أساس؛ أعلىٰ أساس الدين، التمرد عليه؟ أعلىٰ أساس التمسك بتقاليد الشرق الصالحة أم علىٰ أساس الٱندماج في مدنية الغرب المتهتكة؟! أعلىٰ أساس المحافظة علىٰ العفة، أم علىٰ أساس هتكها وإهدارها؟

وأخيرًا.. علىٰ أساس تعدد الزوجات بعقود شرعية أم علىٰ أساس تعدد الزوجات والأزواج بغير عقود: بينوا لنا خططكم وكلمونا بعقولكم لا بشهواتكم، واعلموا أن نهضة الأمة بكثرة المتخلقات بالخلق النبيل، وما كان شرف هٰذه الأمة بمكان يسهل علىٰ دعاة الشهوة والإباحية أن يهتكوا ستره بمثل تلك الدعوة الطائشة فليفتشوا عن غير هٰذه الفريسة في محيط غير هٰذا المحيط.

١٨- إن المنصفين من أصحاب هٰذه الدعاوىٰ رجعوا عنها لما ثبت لهم خطرها علىٰ المجتمع فهٰذا قاسم أمين:

وبعد سبع سنوات من إعلانه لدعوته ونشرها بين الناس: تنصَّل من آرائه ورجع عن دعوته، واعترف قائلًا:

«لقد كنت أدعو المصريين قبل الآن إلىٰ ٱقتفاء أثر الترك بل الإفرنج في (تحرير نسائهم)، وغاليت في هٰذا المعنىٰ حتىٰ دعوتهم إلىٰ تمزيق ذلك الحجاب، وإلىٰ إشراك النساء في كل أعمالهم ومآدبهم وولائمهم، ولٰكن.. أدركت الآن خطر هٰذه الدعوة بما ٱختبرته من أخلاق الناس، فلقد تتبعت خطوات النساء في كثير من أحياء العاصمة والإسكندرية لأعرف درجة ٱحترام الناس لهن، وماذا يكون شأنهم معهن إذا خرجن حاسرات، فرأيت من فساد أخلاق الرجال بكل أسف ما حمدت الله علىٰ ما خذل من دعوتي، واستنفر الناس إلىٰ معارضتي، رأيتهم ما مرت بهم ٱمرأة أو فتاة إلا تطاولوا إليها بألسنة البذاءة، ثم ما وجدت زحامًا في طريق فمرت به ٱمرأة إلا تناولتها الأيدي والألسن جميعًا..» إلىٰ آخر ما ذكره.. وكان ذلك قبل وفاته بعامين، وقد نشر هٰذا الٱعتراف في جريدة الطاهر (أكتوبر ١٩٠٦م)[1]، فماذا يقول أدعياء تحرير المرأة اليوم؟؟.

وهٰذه الكاتبة المشهورة «غنيمة المرزوق» رئيسة: تحرير مجلة (أسرتي) تتحدث لبنات جنسها بصراحة فتقول:

«عيب أنت بنت» كلمة سمعناها كثيرًا في طفولتنا.. ورددَّتها (أغلب العجائز) آنذاك.

كنَّا نرىٰ «الولد» يحظىٰ بكل أنواع المتعة من مأكل وملبس ولعب وسيارات، كان قلبنا يحترق .. نريد أن نلعب بـ (الفريج) ولٰكن (الحكّارة) لنا

---

(١) مجلة «العربي»، العدد / ١٣٧.

بالمرصاد وكلمة عيب.. عيب..

كان كل شيء عيبًا، ولا نعرف ما معنىٰ «عيب».. وببراءة الطفولة سألت جدتي (كيف أصبح رجلًا)؟.. فردت بدهاء (حبِّي كوعك)[١] والكوع هو العظم الذي يفصل الذراع عن الزند[٢].. حاولنا مرارًا مع بنات الفريج دون جدوىٰ..

كبرنا وكبرت آمالنا وتطلعاتنا، نلنا كل شيء.. نهلنا من العلم والمعرفة ما يفوق الوصف.. أصبحنا كالرجال تمامًا.. نقود السيارة.. نسافر إلىٰ الخارج.. نلبس (البنطلون)!!.. ٱرتدينا الماكسي الشبيه بالدشداشة، والحجاب الشبيه بـ (الغترة).. أصبح لنا رصيد في البنك.. أصبح لنا رجل يحمينا ويعطينا كل شيء دون (قرقة) أو (نجرة).. وصلنا إلىٰ المناصب القيادية و(اختلطنا) بالرجال، ورأينا الرجل الذي أخافنا في طفولتنا.. أصبحنا- نحن النساء: رجالًا وبدأت تعتري أجسادنا الأمراض، وأصبنا كما يصاب الرجل نتيجة تحمل المسئولية بـ (السكر وتصلب الشرايين).. بدأ الشيب يغزو الشعر الأسود.. وبدأ الشعر الكثيف الذي (كأنه ليل أرخي سدوله) بالسقوط.. وبدأت (الصلعة) تظهر نتيجة التفكير والتأمل و(الذكاء)!!

الرجل كما هو.. والمرأة غدت رجلًا تشرف علىٰ منزلها وتربي أطفالها وتأمر خدمها.. تقف مع المقاولين وتقابل الرجال في العمل، وكثرت هٰذه الأيام ظاهرة «العقم عند النساء»، وعن سؤال وُجه لاختصاصي كبير في الهرمونات قال:

إن هناك تزايدًا في (هرمونات الذكورة) عند النساء في الكويت وقد يكون سببها البيئة!!.. هٰذه حقيقة ذكرها طبيب عريق في مجال (العقم) وبعد

---

(١) أي قبليه، وهو كناية عن الشيء المستحيل.

(٢) ليس هٰذا هو الكوع وإنما هو المرفق، والكوع هو العظم الذي يلي الإبهام.

أن نلنا كل شيء.. وأثلجتْ صدورنا ٱنتصاراتنا النسائية علىٰ الرجال في الكويت أقول لكم بصراحتي المعهودة: (ما أجمل الأنوثة)، وما أجمل المرأة.. المرأة التي تحتمي بالرجل، ويشعرها الرجل بقوته، ويحرمها من (السفر لوحدها)، ويطلب منها أن تجلس في بيتها.. تربي أطفالها وتشرف علىٰ مملكتها وهو (السيد) القوي..

نعم.. أقولها بعد تجربة.. أريد أن أرجع إلىٰ (أنوثتي) التي فقدتها أثناء ٱندفاعي في الحياة والعمل..

إن الذكاء (نقمة) في بعض الأحيان، وأغلب الأمراض الحديثة نتيجة ذلك.. وما أجمل الوضع الطبيعي لكل شيء.. لقد ٱنفتح المجال أمامنا بشكل (أتعبنا جميعًا).. والآن.. لو تيسر لنا فعلًا وبالآلات الحديثة (حبة الكوع) فلن أفعل هٰذا العمل إطلاقًا.. ولن أخبركم بالسر، ولكن سأحتفظ به لنفسي[1].

هٰذا ما قالته تلك الكاتبة المشهورة، وهو كلام رائع جميل من ٱمرأة مجربة، تدرك ما تقول، فيا ليت نساءنا وبناتنا يدركن ذلك جيدًا، ويعرفن قدر أنفسهن وما خلقن من أجله، وإلا فإن أنوثتهن في خطر..

ومن منا لا يعرف إحسان عبد القدوس، أو يسمع به أو يقرأ له رواية من رواياته التي حث فيها الفتاة علىٰ التحرر، والمرأة علىٰ العمل؛ جميع رواياته، أو معظمها أخرجت للسينما والتلفزيون ملايين الفتيات والنساء في عالمنا العربي المسلم.

ولعبت رواياته وكتاباته دورًا في إخراج المرأة من بيتها، ودفعها للتمرد علىٰ قيم دينها وأعراف مجتمعها.

إحسان عبد القدوس هٰذا، استضافه التلفزيون المصري في سهرة عن حياته وأدبه وأفكاره.

---

(١) «المجلة العربية»، العدد / ١٤٣.

ومما قاله في هٰذه السهرة:

كان يحرص قبل زواجه، أن تكون زوجته غير عاملة وحقق حرصه هٰذا، فعلىٰ الرغم من أن الفتاة التي تزوجها كانت جامعية، فإنه لم يسمح لها بالعمل؛ لأنه يرىٰ أن رسالة المرأة الحقيقية في بيتها ترعىٰ زوجها وتربي أبناءها.

كشف أنه كان يعمل بجد في شبابه، ليتولىٰ رئاسة مؤسسة روزا اليوسف الصحفية، التي كانت ترأسها أمه روزا اليوسف، وذلك بهدف تركها للعمل، وتفرغها لبيتها وله؛ لأنه كان محرومًا من اهتمامها، ورعايتها فقد نشأ إحسان عبد القدوس في بيت أهل والده وربته عمته وأرضعته أيضًا.

لم يرزق إحسان عبد القدوس ببنات، إنما رزق بولدين، وقال جميع الذين شاركوا في تلك السهرة من نقاد وغيرهم، إنه لو رزق ببنت لما سمح لها بممارسة ما كان يدعو إليه في رواياته من تحرر وانطلاق. كما أن كثيرًا من أفكاره التي ضمنها رواياته ستكون مختلفة.

ووصفه عدد منالذين شاركوا في السهرة، وكانوا يعرفونه عن قرب، بأنه (متزمِّت)!

إحدىٰ المشاركات في السهرة الخاصة عن إحسان عبد القدوس ذكرت أنه يرفض تصوير زوجته ونشر صورها في الصحف.

ثم سألت مقدم البرنامج مفيد فوزي:

هل صورتم زوجته أو نجحتم في لقائها لأخذ رأيها بزوجها؟

فرد بقوله: لقد حاولنا . . ولكن إحسانًا رفض السماح بتصويرها.

ذكر ولده الصحفي الإسلامي محمد عبد القدوس أنه حين اختار ابنة الشيخ محمد الغزالي ليتزوجها فإن والده إحسان عبد القدوس، خطبها له وأيَّده علىٰ اختياره، ووافقه عليه.

ومعلوم أن كريمة الشيخ الغزالي فتاة مسلمة متدينة، ليس فيها أي شبه

ببطلات روايات إحسان.

هٰذا هو إحسان عبد القدوس، لم يكن مؤمنًا بما حرَّض عليه المرأة في كتاباته ورواياته، وكانت حياته مخالفة لما دعا إليه.

ومن هنا تفقد دعواته إلىٰ تمرد المرأة وخروجها من بيتها واختلاطها بالرجال قيمتها إن كانت لها قيمة[١].

وهٰذه نوال السعداوي سألتها جريدة «الوطن» الكويتية: هل تعتبرين الأوروبية مثلًا يحتذىٰ ونموذجًا تجب محاكاته؟

فأجابت: (لا . . أبدًا) فالمرأة الأوروبية تقدمت في ميادين وتأخرت في أخرىٰ، فقوانين الزواج في أوروبا تظلم المرأة، وهٰذا هو سبب نشأة حركات تحريرية نسائية عندهم، وكذلك في أمريكا، وهي حركات قوية جدًا وشرسة أحيانًا.

ثم تقول: ديننا الإسلامي أعطىٰ المرأة حقوقًا أكثر من كل الأديان الأخرىٰ، وضمن لها كرامتها وعزتها، إلا أن الذي حدث أحيانًا هو أن الرجل وظف بعض جوانب هٰذا الدين لتركيز مجتمع رجال أبوي طبقي يسيطر فيه الذكور علىٰ الإناث.

فتأملوا كلام هٰذه المرأة التي ظلت عقدين أو أكثر من الزمان تهاجم وضع المرأة في الإسلام وتحاول النيل منه، وتدعو إلىٰ الغرب، ووضع المرأة في الغرب، أليس هٰذا تراجعًا علنيًّا واضحًا عن دعواتها السابقة؟! ألا يمكن اعتبار كلماتها هٰذه انعطافًا قويًا نحو الحقيقة؟

إنها تقر هنا بأن قوانين الزواج في أوروبا تظلم المرأة، وأن هٰذه القوانين الظالمة هي سبب نشأة حركات تحرير المرأة لا أثر لها في الإسلام، ومن ثم فلا مبرر لنشوء مثل تلك الحركات عندنا.

---

(١) «رسالة إلىٰ حواء» الرسالة الرابعة ص٩٦-٩٨ .

ورب قائل: إن حركات تحرير المرأة في بلادنا ليست من أجل إزالة القوانين أو تغييرها، وإنما من أجل تعسف بعض الرجال وظلمهم لزوجاتهم أو بناتهم ظلمًا يخالف ما دعا إليه الإسلام. . وهو ما أشارات إليه الدكتورة السعداوي: يعملون لتركيز مجتمع رجال أبوي طبقي يسيطر فيه الذكور علىٰ الإناث.

وإذا صحَّ هٰذا من بعض الرجال أو كثير منهم، فإن الحركات التي يجب أن تنشأ ليس لتحرير المرأة وإنما للمطالبة بإعطائها حقوقها التي أقرها الإسلام، وإنزالها منزلتها التي أمر الإسلام إنزالها منزلتها فيها وتوفير الكرامة التي حفظها الإسلام لها.

إن دعوات نوال السعداوي ومن قبلها كثيرون كقاسم أمين كان يجب أن تطالب بتطبيق ما أمر الإسلام للمرأة لإنقاذها مما كان يلحق بها من حيف أو ظلم لا أن تطالب بإخراجها من بيتها وتركها الحجاب وتبرجها وتقليدها الغربية التي تذوق الآن وبال أمرها.

ولنواصل قراءة المزيد من كلام نوال السعداوي الجديد حيث تقول:

ليست المشكلة مشكلة الأميات فقط فأنا أعرف أستاذات طبيبات ومهندسات يعانين من أمية سياية واجتماعية وثقافية.

وتقول عن خطتها القريبة: رفع الحجاب عن العقل خصوصًا عند المثقفين والمثقفات.

عظيم جدًّا، إن نوال السعداوي تعترف هنا بحقيقتين:

الأولىٰ: أن التعليم الجامعي للمرأة، لا يعني أنها أصبحت ناضجة أو واعية أو حتىٰ مثقفة.

الثانية: أن رفع الحجاب عن الوجه والشعر لا يعني رفع الحجاب عن العقل، ومن ثم يمكن أن تكون هناك مسلمة تضع الحجاب علىٰ شعرها ووجهها دون أن تضعه علىٰ عقلها.

إنهما حقيقتان هامتنان، بل بديهيتان واضحتان لكنهما اليوم تصدران عن امرأة هاجمت الحجاب والمتحجبات زمنًا طويلًا، ودعت إلىٰ السفور بشراسة علنية، ها هي اليوم تعترف بأن الشهادة الجامعية لا تنفي الأمية الاجتماعية والثقافية والسياسية عند المرأة؛ فكم من نساء متوسطات التعليم، لكنهن واعيات ناضجات، عقولهن تزن عشرات من عقول المتعلمات المتبرجات السافرات.

وكم من نساء محجبات -محجبات الوجة والشعر والجسم- يملكن عقولًا نيِّرة متفتحة.. هي خير من عقول آلاف من سافرات الوجوه والشعور والأجساد محجبات العقول والفطر.

ولنتابع اعترافات نوال السعداوي:

سألتها الجريدة: بدأت (المرأة) تستعيد الكثير من حقوقها ومن شرعيتها، فهل ترين أن التاريخ سيقوم بدورته ويعيد إلىٰ المرأة سيطرتها وقداستها الغابرتين؟

تجيب: لا .. أنا لا أعتقد ذلك من منطلق واعٍ، ولا أتمناه من منطلق إنساني، أرىٰ أن سلطة الرجل ستضمحل عندما يعتبر المرأة إنسانًا مستقلًا بدنيًا واقتصاديًا لا سلطة ولا وساطة أبوية.. وهنا يحصل التكامل المثالي بين كائنين متساويين لن يسيطر أحدهما علىٰ الآخر، فتجربة سيطرة أحد الشقين فاشلة الآن، ولابد من التكامل الفعلي بينهما.

كلام جميل وإن كان الاعتراف فيه بالحقيقة ليس محددًا تمامًا لكنه علىٰ أي حال تراجع من نوال السعداوي عن كثير من دعواتها السابقة.

أولًا: لا تؤيد فكرة الصراع بين الرجل والمرأة، أو أ،ها الآن تتراجع عنها، فهي لا تعتقد أن التاريخ سيعيد للمرأة ما وصفته الجريدة بـ(سيطرة المرأة قداستها الغابرتين) وذلك من منطلق واعٍ. وهي لا تتمناه أيضًا حتىٰ وإن كان ممكن الحدوث، وذلك من منطلق إنساني، وهٰذا الموقف هَدْم

لأساس رئيس من الأسس التي قامت عليها حركات ما سمي بتحرير المرأة.

ثانيًا: تسلم بأن ما بين المرأة والرجل تكامل تصفه مرة بأنه مثالي وأخرىٰ بأنه فعلي وهي تدعو إلىٰ هٰذا التكامل وترىٰ فيه الحل الأمثل للعلاقة بين المرأة والرجل، إذن فلا معنىٰ للتماثل بين المرأة والرجل في كل شيء؛ لأن التكامل بين اثنين لا يستدعي أم يونا متماثلين.

ونشرت مجلة «سيدتي» لقاءً جديدًا مع نوال السعداوي ضمت اعترافات جديدة أخرىٰ وتراجعات واضحة عن آرائها القديمة، وحرصًا مني علىٰ إكمال صورة انعطاف السعداوي نحو الحقيقة أنقل لكم ما جاء في مقابلتها الجديدة من اعترافات جديدة، تقول:

إنني في شوارع لندن أرىٰ نساءً شبه عاريات، وهٰؤلاء يعرضن أجسادهن كبضاعة، الملابس لها وظيفة، وهي وقاية الجسم من العوامل الطبيعية، ولا ينبغي أن تقدمع رسائل إغراء، لو نظرت المرأة لنفسها كإنسانة وليست كبضاعة؛ لما احتاجت لأن تتعرَّىٰ.

من يصدق أن الدكتورة نوال السعداوي هي صاحبة هٰذا الكلام؟!

إنها في كلاملها السابق تعترف بالحقائق الإسلامية التالية:

١- إن كشف المرأة عن جسدها يعني عرضه لجميع الناس، وعرضه لجميع الناس يجعله أشبه بالبضاعة، والإسلام ينهىٰ عن هٰذا الكشف؛ لأنه يرىٰ المرأة إنسانًا وليس سلعة أو بضاعة للعرض.

٢- تقول: (إن الملابس لا ينبغي أن تقدم رسائل إغراء).

والإسلام ينهىٰ عن عن اللباس غير الفضفاض الذي يظهر شكل جسد المرأة، وينهىٰ عن لباس الشهرة، وينهىٰ عن اللباس الذي يعتبر زينة للمرأة، وينهىٰ عن هٰذه الألبسة التي تعتبر جيمعها رسائل إغراء للرجل.

٣- تقول: (لو نظرت المرأة لنفسها كإنسانة وليست كبضاعة لما احتاجت لأن تتعرىٰ).

إذًا فكل دعوة إلىٰ تعري المرأة وتكشفها هي دعوة إلىٰ سلبها إنسانيتها، وتجريدها من كرامتها، وجعلها بضاعة من البضائع.

ومن ثم فدعوة الإسلام إلىٰ حجاب المرأة لا يعني إلا حفظها مسترها، وتكريمها وصونها، وتحريرها من أي عين يمكن أن تنظر إليها علىٰ أنها سلعة من السلع.

ثم تسألها المحررة: (لقد جعلت المرأة في أطروحاتك في موقع منافس للرجل فهل هي بحاجة إلىٰ منافسته)؟

تجيب قائلة: (لا أريد من المرأة منافسة الرجل، ولا أريد من الرجل منافستها، أردتها فقط إنسانة تحظىٰ بالتعليم الذي يناسبها والوظيفة التي تناسبها أن تكون طبيبة أو مهندسة أو ما شاءت، والمرأة تستطيع أن تتزوج وتحقق اهتماماتها الذاتية في نفس الوقت).

عظيم إنها تتراجع عن تحريضاتها القديمة للمرأة، إنها لا ترىٰ منافسة الرجل للمرأة ولا المرأة للرجل.

إنها تسلم بقول الله تعالىٰ: ﴿بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ وتدعو إليه، إنها تتأسىٰ بقوله ﷺ في وصف النساء بأنهن: «**شقائق الرجال**» لماذا كانت إذن تلك التحريضات التي سخرت لها وسائل الإعلام المختلفة في عقود الخمسينيات والستينيات والسبعينيات والثمانينيات من هٰذا القرن؟

لماذا كانت تلك المفتعلة بين الرجل والمرأة؟

ثم تقول عن كتابها الأول «المرأة والجنس»:

(كنت في هٰذا الكتاب الذي أصدرته عام **١٩٦٩**م أريد ألا تعامل المرأة بطريقة رخيصة، كنت في هٰذا ضد الازدواجية في الأخلاق ضد أن تباع المرأة وتشترىٰ وضد أن تضيع وقتها في الماكياج، أذكر أنني قلت في الكتاب: من هي المرأة الشجاعة التي تواجه العالم بوجه مغسول؟

وتقول عن نفسها:

(أنا لا أضيع وقتي في المكياج وتزييف وجهي، شعري أقصه بيدي، انظري إلىٰ المرأة كم تنفق علىٰ المكياج وكم تنفق علىٰ الكتب، إنني أريد أن أغير نظر المجتمع إلىٰ المرأة من جسد إلىٰ عقل، ومن بضاعة إلىٰ إنسانة لها إبداع وتفكير).

سبحان الله، كانوا يدعون إلىٰ حروج المرأة من بيتها ومخالطة الرجل ولبس ما تشاء وفعل ما تشتهي نفسها، ثم يأتون اليوم ليقولوا إنهم لا يريدون أن تعامل المرأة بصورة رخيصة، وضد أن تباع المرأة وتشترىٰ، وضد أن تضيع المرأة وقتها في الماكياج، فكيف نوفق بين هٰذا وذاك؟

ألا ترخص المرأة حين تبتذل ويصبح جسدها مشاعًا لكل الأعين؟ ألاترخص المرأة حيت يستغلها صاحب شركة فيعطيها أجرًا بخسًا يستغل به حاجتها؟ ألا ترخص المرأة حين يطلب مدير من سكرتيرته ما لا صلة له بعملها.. فإن لم تستجب له يفصلها من العمل؟!

وإذا كانت نوال السعداوي ضد أن تضيع المرأة وقتها في الماكياج، أفلا يعني هٰذا أن تتحجب؟!

لأن تسعين في المائة مما ينفق علىٰ المكياج تضعه المرأة السافرة حين خروجها من البيت سواء إلىٰ عملها أم في تجوالها في الشوارع أم إلىٰ أي مكان، أما المحجبة فإنها لا تخرج بزينتها أمام الرجال، ومن ثم فأوقات استخدامها للماكياج أقل بكثير.

ثم تقول: (إن الدين الإسلامي ضد الظلم، والله يدعو إلىٰ العدالة).

ثم قالت المحررة: إن ما تسمينه بالعلاقة الجديدة بين الرجل والمرأة موجود في مجتمعنا في الوقت الحاضر وحتىٰ في الماضي، وعلاقة الرسول ﷺ بزوجاته كانت مثالًا مشرفًا في الإنسانية؟

فردت نوال السعداوي بقولها: إنه أمر مشرف أن يكون في تاريخنا هٰذه الأمثلة، ولكن عهود التخلف والفترات المظلمة، وانحسار مد الحضار

العربية والإسلامية، أنجبت تراجعًا في القيم الإنسانية في علاقة الرجل بالمرأة.

هكذا تعترف بأن ما لاقته المسلمة من تجن من زوجها أو أبيها أو أخيها كان بسبب انحسار من الحضارة الإسلامية!

إذن حتىٰ تعود هٰذه العلاقة المتميزة بين الرجل والمرأة، فإننا نطالب بعودة الإسلام لا بالخروج عليه.. كما كانت تفعل نوال السعداوي.. ومن شابه منهجه منهجنا!!

وتقول نوال السعداوي عن موقفها من الحركات النسائية الغربية: أنا لا أتفق مع هٰذه الحركات؛ لأ،ها أصبحت تعادي الرجل وتتصور أنه هو العدو، صارت تنفي أنوثة المرأة الطبيعية وتحولها إلىٰ شبه رجل، أنا كامرأة لا يمكن أن أعادي الرجل أو أمسخ طبيعتي أو أتحول إلىٰ رجل ممسوخ..!

وحين سئلت إن كانت تقرأ للشاعر نزار قباني مثلًا أو للكاتب إحسان عبد القدوس قالت:

لا أضيع وقتي مه هٰذه الأسماء التي تحول المرأة إلىٰ بضاعة إنني أختار ما أقرأ.

وجاوبًا علىٰ سؤال: هل قرأت القرآن؟ قالت: وكيف لا؟ لقد قرأت القرآن أربعين مرة، بل إنني درسته وتمحصت فيه، كيف نكون مسلمين إذا لم نفهم الإسلام.. هل بالوراثة؟ إن إيمان التقليد الأعمىٰ والوراثة ليس بإيمان، لابد للمسلم أن يقرأ القرآن ويدرسه ويقارن الإسلام بالديانات الأخرىٰ ليرىٰ تفوقه.

لقد وردت عبارة في كتابها «المرأة والجنس» قالت فيها: (من هي المرأة الشجاعة التي تواجه العالم بوجه مغسول؟) أي: وجه خالٍ من المساحيق علىٰ وجهها، ونحن نوجه إليها عبارتها تلك نفسها مع تغيير قليل: (من هي المرأة الشجاعة التي تعترف ببطلان آرائها القديمة) بوجه محجب؟ ونأمل أن

تكون هي هٰذه المرأة المحجبة.[١]

١٩- ليس كل ما يلمع ذهبًا

من الأمثلة السائدة في الغرب: «ليس كل ما يلمع ذهبًا» ولعل هٰذا المثل ينطبق علىٰ الغرب نفسه أكثر من أي مكان آخر، فقد يبدو أن المرأة هناك نالت حريتها واستخلصت نفسها من ربقة الرجال، وأنها تقدمت في مجال العلم، وأحرزت مكانة ممتازة في الثقافة العصرية، حتىٰ استطاعت مداينة الرجال، ومجاراتهم في كل مجال من مجالات الحياة، جنبًا إلىٰ جنب.

كما نرىٰ مناظر الجمال والبهجة، ومشاهد الزينة والفتنة الصناعية، ترفل في حلل جميلة الظاهر متهلهلة الباطن، ولكن علىٰ الرغم من هٰذا كله، فإن أوروبا لا تتمتع ببهجة الحياة الحقيقية، ولا تعيش في طمأنينة وهدوء، وإنما هي عيشة قلقة، وحياة مضطربة.

وربما لا نستطيع أن نقدر هٰذا الجانب القلق في حياة المرأة الأوروبية أو البيوتات التي تقلد الغرب في حضارته وتتبنىٰ المدنية الغربية.

لكننا، لو درسنا الحياة الغربية المصطنعة، وعشنا مع أشقياء المدنية الغربية ومعذبيها، لرأينا سيلًا مفعمًا من عبرات الشقاوة والقلق وراء تلك البسمات الصناعية، والوجوه الغارقة في المساحيق والألوان.. لرأينا حياة مريرة وراء عذوبة النغمات الكاذبة.. فما أرخص تجارة الأبدان والأرواح في الغرب، وما أسهل الجنون والانتحار في المجتمع الغربي، وإلىٰ أي مدىٰ انتشر مرض الأرق فيه، حتىٰ بلغ حد الجنون. إن المرأة فقدت كل قيمتها اليوم في أوروبا، وبلغت من الذل والشقاء حدًا لم تبلغه المرأة في أي مكان، فقد أصبحت ألعوبة تتدحرج من يد إلىٰ يد، ويستبدل بها غيرها.

---

(١) «رسالة إلىٰ حواء» الرسالة الخامسة ص٣٠-٤١ .

إنها تشاهد في كل مكان، خادمًا في المطاعم والفنادق، حمالة في الأسواق والطرقات، وسائقة للعربات والعجلات، وتعلِّل الرجال وتقوم بخدمتهم.

إنها توجد في جميع المناسبات متاعًا رخيصًا متوفرًا في كل دكان، وقد انعزلت عن مكانتها العالية التي خلقها الله تعالىٰ من أجلها حتىٰ تهلهل لباسها، وصدئ قلبها، وأصبح شعارها السآمة والكآبة والقلق والحيرة، دون أن تفكر في غاية حياتها وعلو مكانتها، ومصيرها الذي تسرع إليه[1].

٢٠- المغلوب مولع أبدًا بالاقتداء بالغالب

يقول ابن خلدون في مقدمته الشهيرة: «المغلوب مولع أبدًا بالاقتداء بالغالب، في شعاره، وزيه، ونحلته، وعوائده».

ويبين ابن خلدون أن الذي يقلد غيره، إنما هو الضعيف والناقص والمغلوب والجاهل، فقال: «ولذلك ترىٰ المغلوب يتشبه أبدًا بالغالب في جلسته، ومركبه وسلاحه، في اتخاذها وأشكالها، بل وفي سائر أحواله. وانظر ذلك في الأبناء مع آبائهم، كيف تجدهم متشبهين بهم دائمًا، وما ذلك إلا لاعتقادهم الكمال فيهم، حتىٰ إنه إذا كانت أمة تجاور أخرىٰ، ولها الغلبة عليها، فيسري إليهم من هٰذا التشبه والاقتداء حظ كبير، كما هو في الأندلس، لهٰذا العهد مع أمم الجلالقة (أي الأسبان) فإنك تجدهم يتشبهون بهم، في ملابسهم، وشاراتهم، والكثير من عوائدهم وأحوالهم، حتىٰ في رسم التماثيل في الجدران والمصانع والبيوت، حتىٰ لقد يستشعر من ذلك الناظر، بعين الحكمة، أنه من علامات الاستيلاء.. فالأمر لله».

وتعلق الشاعرة نازك الملائكة علىٰ كلام ابن خلدون فتقول: الله أكبر. وصدق ابن خلدون، فلقد تنبأ باستيلاء الإفرنج علىٰ الأندلس الإسلامية،

---

(١) «رسالة إلىٰ حواء» ص٩٠-٩١ .

وخروج المسلمين منها، قبل أن يقع ذلك بنحو مئتي سنة، ولم يكن له دليل علىٰ ذلك إلا مشاهدته تشبه المسلمين بالأعداء، في ملابسهم وشاراتهم وعاداتهم وأحوالهم! ترىٰ ماذا كان يقول لو شاهد مسلمي هٰذا العصر، وتقليدهم المستعمر، وبم كان يتنبأ؟

ترىٰ هل يتعظ المسلمون بهٰذا المثل الذي حدث لأجدادهم من قبل، والتشبه بهم، أم أنهم سيصمون آذانهم، ويعمون بصائرهم وأبصارهم، حتىٰ تقع الكارثة؟

ثم إن من المؤسف والمؤلم معًا، أن تيار التقليد الأعمىٰ هٰذا، لم يعد مقتصرًا علىٰ النساء اللاتي من طبعهن الاهتمام بشكلهن وجمالهن، بل إنه استشرىٰ فعم الرجال أيضًا، وهم الذي يفترض فيهم الاهتمام بأمور الحياة العظيمة، والالتفات للشئون الخطيرة.

فقد بات من المألوف، أن يطيل الرجل أظفاره، ويصبغها، ويطيل شعره وسوالفه ويتفنن في ذلك بأشكال غريبة وعجيبة، ويعمد إلىٰ السراويل (البنطلونات) الضيقة، التي تبرز تفاصيل الجسم بوضوح من فوق، الفضفاضة الطويلة حتىٰ أسفل القدمين من تحت، ويختار الألوان الزاهية، والقمصان ذات البقع المختلفة الألوان والأشكال، حتىٰ صرنا لا نستطيع أن نميز بين الشاب والفتاة إلا بصعوبة.

كما أن الأمور المنكرة التي انتشرت وذاعت، وعمت وطمت، بين الرجال والنساء، علىٰ حد سواء، تلك الشعور المستعارة التي يسمونها (باروكات)، يشترينها بأثمان باهظة، ويضعنها علىٰ رؤوسهنّ، فترىٰ إحداهن ذات شعر أسود طويل مسترسل اليوم، ثم إذا بك تراها ذات شعر أشقر متجعد غدًا.

وبعضهن يعمد إلىٰ قص شعورهن الجميلة الناعمة؛ ليصنعها لهن الحلاق (باروكات) فظة متصنعة، باهتة ليس فيها شيء من ذوق سليم، أو

جمال مقبول، وفي هٰذا من الغش والخداع والتزوير والتدليس المنافية للأخلاق، ما هو واضح.

فما رأيك، عزيزتنا بما قاله ابن خلدون وبما قالته نازك الملائكة[١].

٢١- البيت والحجاب وعدم الاختلاط هي أسوار الحماية للمرأة:

قالت منظمة العفو الدولية: إن جنودًا ورجال شرطة في جميع أنحاء العالم يلجأون بانتظام إلىٰ استخدام الاغتصاب والتعديات الجنسية لتخويف النساء في حين تغض الحكومات الطرف عن ذلك.

وقالت منظمة حقوق الإنسان في تقرير جديد: «العديد من الحكومات يصر علىٰ رفض اعتبار الاغتصاب انتهاكًا خطيرًا لحقوق الإنسان».

ودعت المنظمة الحكومات إلىٰ وضع حد لهٰذه الممارسات قائلة: «نادرًا ما تجري تحقيقات مستفيضة، والجناة القلائل الذين يتعرضون لإجراءات تأديبية أو المحاكمة لا يلقون عادة أكثر من مجرد توبيخ ومعظمهم يعرف أنه يستطيع الإفلات دونما عقاب».

وعددت المنظمة حالات نساء تعرضن لتعديات جنسية من جانب جنود ورجال شرطة وضباط سجون في العديد من الدول من أيرلندا الشمالية وحتىٰ الفلبين وأمريكا الجنوبية.

وفي إحدىٰ تلك الحالات في كشمير بالهند تعرضت عروس صغيرة السن، وخالتها الحامل في أشهرها الأخيرة، للاغتصاب الجماعي من جانب رجال الشرطة عند حاجز علىٰ الطريق بعد أن أوقفوا الحافلة التي كانت تقل موكب العرس.

وقالت منظمة العفو الدولية: إن أربعة جنود أوقفوا عن العمل ولكن لم يتخذ أي إجراء تأديبي أو قضائي آخر ضدهم فيما يبدو.

---

(١) «رسالة إلىٰ حواء» ص١٢٦ - ١٢٨ .

وقالت المنظمة: إن التعديات الجنسية علىٰ النساء تكون مخيفة أكثر عندما يكون الجناة هم أنفسهم رجال الشرطة أو القوات المسلحة المكلفين بحماية أفراد الشعب.

أولًا: ليت دعاة تحرير المرأة يقرؤون أمثال هٰذا الخبر ليعملوا علىٰ تحرير المرأة من خطر الاختصاب.. أبشع أذىٰ يلحق بها، بدلًا من سعيهم لتحريرها من البيت والحجاب وعدم الاختلاط.!

بل إن هٰذه الثلاثة (البيت، والحجاب، وعدم الاختلاط) هي أسوار الحماية التي تُبقي خطر الاغتصاب بعيدًا عنها.

ثانيًا: علينا أن ننتقل من موقف الدفاع عن مكانة المرأة في الإسلام بالرد علىٰ الشبهات التي يثيرها خصوم الإسلام.. إلىٰ موقف الهجوم -إذا صح التعبير- ببيان شقاوة الحياة التي تعيشها المرأة غير المسلمة.

فهٰذا الاغتصاب الذي يهدد أمن المرأة وكرامتها، وإنسانيتها.. هو ثمرة من الثمار الفجة.. لخروجها من بيتها مختلطة بالرجال، متلفتة من القيم.

ثالثًا: هٰذا الخبر شهادة للعقوبات الإسلامية التي يراها أعداء الإسلام قاسية شديدة.. ولا يرون قساوة وبشاعة الجرم الذي هو هنا الاغتصاب.

وظهرت هٰذه الشهادة في عبراة منظمة العفو الدولية: «والجناة القلائل الذين يتعرضون لإجراءات تأديبية، أو المحاكمة، لا يلقون عادةً أكثر من مجرد توبيخ، ومعظمهم يعرف أنه يستطيع الإفلات دونما عقاب[1].

٢٢- في لقاء تلفزيوني، قالت رئيسة الوزراء البريطانية مارغريت تاتشر: إن للحظة قد حانت لكي تتدخل فيها الحكومة لحفظ حقوق الأطفال الذين يولودون نتيجة لعلاقة غير شرعية بين رجل وامرأة.

---

(١) «رسالة إلىٰ حواء» ص٤٧٠-٤٧٢ .

وتفيد الإحصائيات بأن ٢٥٪ من الأطفال يتمتعون بحياة طبيعية إن كانت العلاقة مستقرة بين الأبوين. ولكن -في كثير من الحالات تنتهي العلاقة بالإخفاق، وتجد الأم نفسها مجبرة علىٰ العناية بالأطفال بلا مساندة نفسية أو مادية من الأب.

ولذلك صرحت رئيسة الوزراء كما نشرت جريدة «الشرق الأوسط» بأن الحكومة سوف تتخذ من الإجراءات ما يجبر هؤلاء الآباء علىٰ تحمل نصيبهم من المسئولية.

وتذكر الإحصائيات بأنه ما بين عام ١٩٧٩ وعام ١٩٨٧ تضاعف عدد الرجال والنساء المرتبطين بعلاقات غير شرعية ثلاثة أضعاف؛ فهناك حوالي مليوني شخص من الجنسين يرتبطون بلا زواج، وأن محصلة تلك الارتباطات -أو العلاقات غير الشرعية- هي أربعمائة ألف طفل غير شرعي.

ولقد دفع هٰذا الرقم المذهل إلىٰ المطالبة بإعادة النظر في العلاقات الإنسانية، كما دفع رئيسة الوزراء إلىٰ التصريح بأن هٰذه الأوضاع المؤسفة هي امتداد للظواهر الاجتماعية الشاذة التي بدأت في الستينيات، مطالبة بإطلاق الحريات الجنسية. غير أن انتشار الإباحية أدىٰ إلىٰ حرمان هؤلاء الأطفال من الحياة الطبيعية.

وختمت تاتشر حديثها قائلة: إن من حق كل طفل أن ينشأ بين أبوين، وفي ظروف اجتماعية شرعية ومستقرة.

ولاشك في أن حديث رئيسة الوزراء يعكس اتجاهًا قويًا في المجتمع البريطاني يدعو إلىٰ الأخلاق والقيم، واحترام رابطة الزواج واعتبارها رابطة مقدسة تهدف إلىٰ بناء الأسرة، وليس إلىٰ اغتنام المتعة الوقتية بلا مسئوليات.

وقد نشرت إحدىٰ المجلات النسائية الشهيرة الواسعة الانتشار، واسمها «كوزمو بولتيان» تحقيقًا بعنوان: (الحياة معًا بلا زواج: وسيلة الرجل للهرب من المسئولية).

وتطرح كاتبة التحقيق سؤالًا علىٰ النساء من القارئات مؤداه: إن الرجل قد يسعد باستمرار العلاقة بلا ارتباط شرعي، ولكن كيف تتأثر المرأة بذلك؟

ومن خلال إجابات القارئات نكتشف اعترافًا ضمنيًّا بأن المرأة التي تجرب الحياة مع رجل تحت سقف واحد (بصورة غير شرعية) غالبًا ما تحن إلىٰ رابطة الزواج. ولكن في الغالبية العظمىٰ من الحالات، يحاول شريكها أن يتملص من الارتباط منتحلًا شتىٰ الأعذار، ومذكرًا إياها بأن الزواج سوف يحدّ من استقلالها، ويفرض عليها سلوكيات تقليدية يفرضها مجتمع المتزوجين.

وعندئذ، تشعر المرأة بالغبن وبأن شريكها لا يقدرها ولا يحبها حقًّا؛ لأن رفضه الارتباط الدائم بينهما، يوحي لها بأنه لم يكن مقتنعًا بها تمامًا كشريكة حياة، هٰذه من الناحية الاجتماعية.

أما من الناحية النفسية فتفسر المرأة ذلك الموقف من قبل شريكها بأنه محاولة للاحتفاظ بالباب مواربًا إذا ما لاحت في الأفق شريكة أفضل.!

هٰذه الرغبة في الاستقرار الشرعي، تفاجئ النساء بعد تجاوز منتصف العقد الثالث، وغالبًا ما تكون المرأة مستقلة ماديًّا بحكم العمل. ومعنىٰ ذلك أن الأفكار والمشاعر التي تسيطر عليها منذ بداية سن المراهقة، وفي بداية العشرينات، والتي توهمها بأن قمة الحرية والسعادة هي أن تشارط الرجل الذي تحبه الحياة بأي وسيلة، وبأي شروط، هٰذه المشاعر والأفكار تتغير مع اقترابها من مرحلة النضج، ويتبدل شعورها بالاكتفاء العاطفي إلىٰ شعور بالجوع النفسي لوضع أكثر خصوصية وأكثر استقرارًا، ألا وهو: الزواج.

ولقد ظهرت لعض المؤشرات التي تؤكد بأن المرأة البريطانية تستعد لمحاربة هٰذا النوع من الأنانية عن الرجلگ هٰذه المؤشرات بدأت في هدوء في المكتبات وفي دور النشر، فقد تعددت الكتب التي نشرت في دباية هٰذا

العام عن قضية الزواج والحب والأزواج، وقد تحول أحد هٰذه الكتب في الولايات المتحدة إلىٰ فيلم. والرسالة التي يحملها الفيلم تشير إلىٰ أن الرجل الذي يتسلل إلىٰ حياة امرأة من بوابة الحب والرومانسية يبحث عن صفقة مربحة له، حيث يجد عندها الدفء والمشاركة والإشباع، والطعام، والثياب النظيفة، والقمصان المكوية، دون أن يحقق لها الأمان الذي تسعىٰ إليه.

وهكٰذا أختي المسلمة بدأت المرأة الأوروبية والأمريكية تصحو من غفلتها وتحاول الخروج من الفخ الذي نصبه لها الرجل فوقعت فيه، وتدرك خسارتها العظيمة حين رضيت بالعيش مع رجل دون رابطة الزواج التي تحفظ لها حقوقها، وتعترف بأبنائها، وتصون كرامتها.

لقد أفاقت الغربية من غفوتها، ولمست بيدها جمر محنة التحرر الخدَّاع، ورأت بعينيها تفاصيل اللغبة المدبرة بحقها، وأيقنت بعقلها كم خسرت حين هجرت بيت الزوجية الآمن.

وعلىٰ الرغم من هٰذا الذي يحدث في الغرب، فإننا نجد في بلادنا المسلمة من لا يزال ينفخ في بوق الدعوة إلىٰ خروج المرأة من بيتها، والتمرد علىٰ قيم دينها، وإقامة العلاقات غير الشرعية مع الرجال.

إننا نأمل من المسلمات المخدوعات أن يفقن من غفلتهن كما أفاقت الغربية المخدوعة، بل هن أولىٰ بهٰذه الصحوة منها، والأجدر أن يسبقنها إليها.

لكننا متفائلون بإذن الله مستبشرون بملايين المسلمات المحجبات العائدات إلىٰ بيوتهن، المتمسكات بشريعة ربهن، الداعيات إليها بمطلق العزة والإيمان[1].

---

(١) «رسالة إلىٰ مؤمنة» ص١١٠-١١٣ .

فتاة الشرق وفتاة الغرب[١]

إلى العلم ياأختاه جوزي المعابرا ... وجذي بسيف الحزم فيه المعاذرا
إلى المجد والعلياء في موكب الهدىٰ ... جناحاك: تقوىٰ الله والعلمُ للذُّرىٰ
آيا نجمةً في الشأو سامت كواكبًا ... ويادرَّة في الصون فاقت جواهرا
أشاعوا بأن الشرق جهل وبِنْتَهُ ... جهولٌ وفي أبنائها أجهل الورىٰ
حبيسة بيت الزوج لم تألف الفضا ... تؤدي له بالحبس ما كان أمهرا
وقالوا: فتاة الغرب بنت حضارة ... يشير لها التاريخ بدءًا وآخرا
إذا ما تبدّت عطر الجوَّ ريحُها ... وألوي إليها كل شيء معطرا
وقالوا..وقالوا والدعايات جمّة ... وتخفي صدور القوم أدهىٰ وأكبرا
ومن نكد الدنيا على الحر أن يرىٰ ... عدوًا لدودًا للنصيحة مُظهرا
ذرونا من التخليط واستنطقوا الدنا ... فما تعرف الأيام مَيْنًا ولامرا
وهل يستوي ماء السوابل آجنًا ... وخيمًا وماء المطر ينهلُ طاهرا
وما ضر ضوء الشمس أن قيل محرق ... ولا ضر ضوء البدر أن يجلب الكرىٰ
وما عاب زهر الروض نكران فوحه ... وما زال منكوس الطبائع منكرا
وإن قلت هٰذا الدرب وهو نقيضه ... فما ذنب ذي اليمنىٰ إذا كنت أعسرا
ويحفظ حق البنت والأخت شرعة ... ويوفي حقوق الزوج والأم مؤثرا
وهٰذِي فتاة الشرق أم كريمة ... تعد شباب الجيل سيفًا ومنبرا
وليس لها في الغرب حق وحرمة ... إذا لم تكن شيئًا يباع ويشترىٰ
فتلك الملاجي والمبرات بيتها ... تبيت كأشقىٰ من يبيت وأحقرا
فأحير من ضب إذا ضل جحره ... وأجوع من ذئب إذا بات مقفرا

(١) هٰذِه قصيدة الدكتور عبد الغني أحمد مظهر طبعت بمجلة البيان.

رأيت بعيني لا أقول تخرصًا و لا أدعي زورًا عليهم ولا ٱفترا
أمورًا عظامًا تصدع الصخر حسرة ويدمي لها قلب العفيف تحسرا
ففي كل صوب للطهارة مذبحًا وفي كل شبرٍ للرذيلة متجرا
تقول ذروني إنني اليوم حرة أعيش كما أهوىٰ وأهوىٰ كما أرىٰ
أقول لذات الخال لله ناصحًا نصيحة من يخشىٰ عليها الدوائرا
أفيقىٰ هداك الله يأخت واحذري فذو الحزم يحيىٰ ما أطاق محاذرا
ولا تخدعي بالشائعات فربما أذلوا بسيف الشائعات الحرائر
ولا وراء الشائعات- صراحة- ذئابًا جياعًا أو صقورًا كواسرًا
متىٰ كان فعل الموبقات ثقافة ووعيًا، و إيثار العفاف تحجرًا؟!
أتدعي حياة العهر فيهم تقدمًا وتدعي حياة الطهر فينا تأخرا؟!

احذري[1]

احذري أيتها الشرقية وبالغي في الحذر، واجعلي أخص طباعك الحذر وحده.

احذري تمدن أوربا أن يجعل فضيلتك ثوبًا يوسع ويضيق، فلبس الفضيلة علىٰ ذلك هو لبسها وخلعها..

احذري فنهم الٱجتماعي الخبيث الذي يفرض على النساء في مجالس الرجال أن تؤدي أجسامهن ضريبة الفن...

احذري تلك الأنوثة الٱجتماعية الظريفة، إنها ٱنتهاء المرأة بغاية الظرف والرقة إلىٰ... إلى الفضيحة.

احذري تلك النسائية الغزلية، إنها في جملتها ترخيص ٱجتماعي للحرةأن ... أن تشارك البغي في نصف عملها.

---

(١) من كتاب «وحي القلم» للرافعي (١/ ٢٩٧ - ٣٠٢)

أيتها الشرقية! ٱحذري ٱحذري،

احذري التمدن الذي ٱخترع لقتل لقب الزوجة المقدس، لقب المرأة الثانية

واخترع لقتل لقب العذراء المقدس، لقب: نصف عذراء.

واخترع لقتل دينية معاني المرأة، كلمة: الأدب المكشوف:

وانتهىٰ إلى ٱختراع السرعة في الحب ... فاكتفى الرجل بزوجة ساعة...

وإلى ٱختراع ٱستقلال المرأة، فجاء بالذي ٱسمه الأب من الشارع، لنلقي بالذي ٱسمه الابن إلى الشارع..

أيتها الشرقية! ٱحذري ٱحذري!

احذري وأنت النجم الذي أضاء منذ النبوة أن تقلدي هٰذِه الشمعة التي أضاءت منذ قليل.

إن المرأة الشرقية هي ٱستمرار متصل لآداب دينها الإنساني العظيم، هي دائمًا شديدة الحفاظ حارسة لحوزتها، فإن قانون حياتها دائمًا هو قانون الأمومة المقدس.

هي الطهر والعفة، هي الوفاء والأنفة، هي الصبر والعزيمة، هي كل فضائل الأم.

فما هو طريقها الجديد في الحياة الفاضلة، إلا طريقها القديم بعينه، أيتها الشرقية ! ٱحذري ٱحذري !

احذري ويحك تقليد الأوروبية التي تعيش في دنيا أعصابها محكومة بقانون أحلامها.

لم تعد أنوثتها حالة طبيعية نفسية فقط، بل حالة عقلية أيضًا تشك وتجادل...

أنوثة تفلسفت فرأت الزواج نصف الكلمة فقط... والأم نصف المرأة فقط.

وياويل المرأة حين تنفجر أنوثتها بالمبالغة العقلية، فتنفجر بالدواهي على الفضيلة...

إنها بذلك حرة مساوية للرجل، ولكنها بذلك ليست الأنثى المحدودة بفضيلتها.

أيتها الشرقية ! ٱحذري ٱحذري!

احذري خجل الأوربية المترجلة من الإقرار بأنوثتها، إن خجل الأنثىٰ من أنها أنثىٰ يجعل فضيلتها تخجل منها...

إنه يسقط حياءها ويكسو معانيها رجولة غير طبيعية.

إن هٰذِه الأنثى المترجلة تنظر إلى الرجل نظرة رجل إلىٰ أنثىٰ

والمرأة تعلو بالزواج درجة إنسانية، ولٰكن هٰذِه المكذوبة تنحط درجة إنسانية بالزواج.

أيتها الشرقية ٱحذري ٱحذري!

احذري تهوس الأوربية في طلب المساواة بالرجل.

لقد ساوته في الذهاب إلى الحلاق، ولٰكن الحلاق لم يجد في وجهها اللحية.

إنهاخلقت لتحبيب الدنيا إلى الرجل، فكانت بمساواتها مادة تبغيض. العجيب أن سر الحياة يأبىٰ أبدًا أن تتساوى المرأة بالرجل إلا إذا خسرته! والأعجب أنها حين تخضع، يرفعها هٰذا السر ذاته عن المساواة بالرجل إلى السيادة عليه.

أيتها الشرقية! ٱحذري! ٱحذري!

احذري أن تخسري الطباع التي هي الأليق بأم أنجبت الأنبياء في الشرق أم عليها طابع النفس الجميلة، تنشر في كل موضع جو نفسها العالية. فلو صارت الحياة غيما ورعدًا وبرقًا، لكانت هي فيها الشمس الطالعة، ولو صارت الحياة قيظًا وحرورًا واختناقًا، لكانت هي فيها النسيم يتخطر. أم لا

تبالي إلا أخلاق البطولة وعزائمها، جداتها ولدن الأبطال.

أيتها الشرقية! ٱحذري! ٱحذري!

احذري هٰؤلاء الشبان المتمدنين بأكثر من التمدن....

يبالغ الخبيث في زينته،وما يدري أن زينته معلنة أنه إنسان من الظاهر. ويبالغ في عرض رجولته على الفتيات يحاول إيقاظ المرأة الراقدة في العذراء المسكينة!

ليس لامرأة فاضلة إلا رجلها الواحد، فالرجال جميعًا هم مصائبها إلا واحدًا. وإذا هي خالطت الرجال، فالطبيعي أنها تخالط شهوات، ويجب أن تحذر وتبالغ.

أيتها الشرقية، ٱحذري ٱحذري!

احذري ، فإن في كل ٱمرأة طبائع شريفة متهورة، وفي الرجال طبائع خسيسة متهورة.

وحقيقة الحجاب أنه الفصل بين الشرف فيه الميل إلى النزول، وبين الخسة فيها الميل إلى الصعود.

فيك طبائع الحب والحنان والإيثار والإخلاص، كلما كبرت كبرت.

طبائع خطرة،إن عملت في غير موضعها... جاءت بعكس ما تعمله في موضعها.

فيها كل الشرف ما لم تنخدع، فإذا ٱنخدعت فليس فيها إلا كل العار.

أيتها الشرقية! ٱحذري ٱحذري!

ٱحذري كلمة شيطانية تسمعينها، هي فنية الجمال، أو فنية الأنوثة، وافهميها أنت هكذا: واجبات الأنوثة وواجبات الجمال. بكلمة يكون الإحساس فاسدًا، وبكلمة يكون شريفًا.

ولا يتسقط الرجل ٱمرأة إلا في كلمات مزينة مثلها...

يجب أن تتسلح المرأة مع نظراتها، بنظرة غضب ونظرة ٱحتقار.

أيتها الشرقية! ٱحذري ٱحذري!

احذري أن تخدعي عن نفسك! إن المرأة أشد ٱفتقارًا إلى الشرف منها إلى الحياة.

إن الكلمة الخادعة إذ تقال لك، هي أخت الكلمة التي تقال ساعة إنفاذ الحكم للمحكوم عليه بالشنق.

يغترونك بكلمات الحب والزواج والمال، كما يقال للصاعد إلى الشناقة[1] : ماذا تشتهي؟ ماذا تريد؟

الحب؟ الزواج؟ المال؟ هٰذِه صلاة الثعلب حين يتظاهر بالتقوىٰ أمام الدجاجة...

الحب؟ الزواج؟ المال؟ يا لحم الدجاجة! بعض كلمات الثعلب هي أنياب الثعلب...

أيتها الشرقية! ٱحذري ٱحذري!

ٱحذري السقوط، إن سقوط المرأة لهوله وشدته ثلاث مصائب في مصيبة:

سقوطها هي، وسقوط من أوجدوها، وسقوط من توجدهم! نوائب الأسرة كلها قد يسترها البيت إلا عار المرأة، فيد العار تقلب الحيطان كما تقلب اليد الثوب فتجعل مالا يرىٰ هو ما يرىٰ. والعار حكم ينفذه المجتمع كله، فهو نفي من الٱحترام الإنساني.

أيتها الشرقية! أحذري ٱحذري!

لو كان العار في بئر عميقة لقلبها الشيطان مئذنة ووقف يؤذن عليها يفرح اللعين بفضيحة المرأة خاصة، كما يفرح أب غني بمولود جديد في بيته واللص

(١) كلمة، المشنقة، ليست عربية، لٰكن لها وجهًا في الٱشتقاق، غير أن كسرة ميمها تجعلها ثقيلة، وكان ٱسمها قديمًا، الشَّنَّاقَة، ذكرها ياقوت في «معجم الأدباء» وهي أفصح وأخف، فلعل الشناقة بعد هٰذا تشنق المشنقة...

والقاتل والسكير والفاسق، كل هٰؤلاء علىٰ ظاهر الإنسانية كالحر والبرد.

أما المرأة حين تسقط، فهٰذِه من تحت الإنسانية هي الزلزلة.

ليس أفظع من الزلزلة المرتجة تشق الأرض. إلا عار المرأة حين يشق الأسرة.

أيتها الشرقية! ٱحذري ٱحذري!.

خاتمة

وأختم حديثي بقصيدة من الشعر الحر للشاعر الأديب إبراهيم أبو عباة وفقه الله.. وهي قصيدة رائعة، تحمل معاني عظيمة يقول فيها:

تعالت هتافاتهم..
حرروها..
تعالت هتافاتهم..
أطلقوها..
دعوها..
تمارس حق الحياة..
تميط اللثام..
وتلقي الحجاب..
تحطم كل قيود القديم..
تثور علىٰ كل شيء قديم..
تعالت شعارات..
أهل الفساد..
لكي يخدعوها..
فباسم التقدم..
واسم التحرر..
واسم التمدن..
قالوا دعوها..
دعوها تمارس ما تشتهي..
دعوها تعاشر من تشتهي..
دعوها تطالبكم بالحقوق..
دعوها تشارككم في الحقوق..

دعوها دعوها ولا تمنعوها..
أفيقي أخيَّة..
وقولي دعوني..
دعوني فإني..
أريد حيائي..
أريد إبائي..
دعوني.. دعوني..
فإني أبيَّة..
أنا لست ألعوبة في يديكم.
تريدون أن تعبثوا بشبابي..
فألقي حجابي..
وأخرج ألقىٰ قطيع الذئاب..
وبعض الكلاب..
فتنهشني فأكون ضحية..
تريدونني أن أكون مطية..
أريد السعادة في منزلي..
لأحفظ نفسي..
لأسعد زوجي..
لأرعىٰ بناتي..
وأرعىٰ بنيَّه..
أفيقي أُخيَّة.
يريدون هدم صروح الفضيلة ..
يريدون قتل المعاني الجميلة..
يريدون وأدك والنفس حية..

أنا لست أقبل هٰذا الهراء..
وهٰذا العداء..
فهيا اخرسوا أيها الأدعياء..
فأنتم دعاة الهوىٰ والرذيلة..
لقد جرَّب الغرب ما تدَّعون..
فهاهم لما زرعوا يحصدون..
حصاد الهشيم..
ترىٰ البنت تخرج من بيتها..
قبيل البلوغ..
فترجع تحمل في بطنها..
نتاج اللقاح..
فتجهضه.. لتعيد اللقاء..
وحينًا تدعه يلاقي الحياة..
فتلقيه في ملجأ أو حضانة..
فيبحث عن أمه أو أبيه..
لكي يطعموه..
لكي يرحموه..
لكي يمنحوه الحنان الكبير..
لكي يرضعوه..
ولكنه لا يرىٰ ما يريد..
فينشأ يحمل حقدًا دفينًا..
لكل الوجود..
فيخرج للكون دون قيود..
ليقتل هٰذا..

ويسلب هٰذا..
ويغصب تلك بغير حدود..

★ ★ ★

أفيقي أخية..
أهذي الحقوق كما تزعمون..
فأفٍّ لكم ولما تدَّعون..
أنا لست أقبل هٰذا الهراء..
فهيا ٱخرسوا أيها الأدعياء..
أنا لست أقبل غير تعاليم ديني..
ففيها النجاة..
وفيها الحياة..
وفيها السعادة حتىٰ الممات..
أفيقي أخية.. أفيقي أخية..

يقول د/ مصطفىٰ السباعي[1]:

وفي يقيني أن هٰؤلاء الذين يحرضون المرأة في أدبهم علىٰ الخروج علىٰ الآداب الصالحة التي عرفنا بها، ويغرونها بأن تتبع طريق المرأة الغربية، ويعملون علىٰ حرمانها من هدوئها وسعادتها، يحملون أكبر وزر من ٱنجراف المرأة والمجتمع في هٰذا التيار الضار، وقد كان الظن بهم أن يكونوا رواد نهضة حقيقة، تبعث في الأمة روح الكفاح، وتحبذ له حياتها الأسروية الهانئة؛ ليكون مجتمعنا في نهضته الجديدة مجتمعًا متماسكًا قوي البنيان، إن هٰؤلاء الناس من أدباء الجنس يحملون بأيديهم معاول التهديم في صرح كياننا الداخلي المتين، وهم في هٰذا الطريق الذي ٱختطوه لا يريدون بذلك مصلحة

(١) «المرأة بين الفقه والقانون» ص ١٣٣-١٣٤.

الأمة، ولا يندفعون وراء عقولهم، بل وراء أهوائهم وشهواتهم، وهم يبغون منه الإثراء المادي بنشر هٰذا الأدب الرخيص المدمر بين الشباب والفتيات ليقبلوا عليه ويلتهموا ما فيه.

إني لا أرىٰ فرقًا بين أثرياء الجنس وأثرياء الحرب، فكلاهما يجد في الأزمات فرصة للربح والكسب، بل في رأيي أن أثرياء الجنس أشد خطرًا وأسوأ أثرًا، فلماذا نتركهم يخربون بيوتنا باسم الحرية، وما كانت الحرية الخالصة من الشوائب إلا حرية بناء لا تهديم، وحرية تقدم حقيقي لا رجوع إلىٰ الوراء آلاف السنين حين كان الإنسان ينطلق وراء شهواته لا يبالي بمجتمع ولا يتقيد بنظام؟

ومن الغريب أن أدباء الجنس يقصرون إنتاجهم كله علىٰ هٰذا النوع المؤدي إلىٰ تفسخ الأخلاق وانحلال الأسرة وشيوع الميوعة، بينما نعيش أخطر مرحلة في تاريخنا كله، مرحلة الكفاح مع إسرائيل، والكفاح- كما تعلم- يقتضي أدب الرجولة لا أدب الميوعة، وأدب القوة لا أدب الضعف، وأدب التضحية لا أدب المنفعة، وأدب الحرمان لا أدب اللذة وإحياء الغرائز والشهوات.

إني لأهيب بعقلاء الأمة، وشبابها وفتياتها الفاضلات الطاهرات وبجمعياتها النسائية، أهيب بكل مخلص في هٰذه الأمة رجالًا ونساء، أن يقفوا في وجه هٰؤلاء العابثين يمنعونهم من التخريب باسم حرية الكلمة، ويشعرونهم أن شرف الكلمة قبل حريتها، وأن تنظيم الطاقات الجنسية هو غير كبتها كما يزعمون، وأننا في معركة لا سلاح لها إلا العلم والإيمان والأخلاق، وأن كل من يريد أن يُدخل إلىٰ بيوتنا.. إلىٰ بناتنا.. إلىٰ زوجاتنا، مرض الإباحية والتحلل الأخلاقي إنما هم لصوص سارقون، سارقون لأشرف ما تحتفظ به الأمة من أخلاق، وأكرم ما تعتز به من فضائل..

نحن نقول لهٰؤلاء.. ٱتركوا لنا بناتنا عفيفات، ٱتركوا لنا زوجاتنا وفيات

مخلصات.. أتركوا لنا شبابنا شباب ثورة وكفاح لا شباب ميوعة وانحلال.

إن الذي يريد أن يهدم بيتي لا أتركه يتم جريمته باسم الحرية، ولكن آخذ علىٰ يده باسم القانون، ولا أتركه يحرق بيتي باسم الفن، ولكن أحول بينه وبين ما يريد باسم الحق، باسم الكرامة، باسم القوة التي نحن أحوج ما نكون إليها، والفن إذا لم يخدم مبادئ النهضة الأساسية في الأمة كان عبثًا ولهوًا وفسادًا.

التضليل باسم التحرير:

إن كل ما يقال حول قضية المرأة وتحريرها كلام فيه قليل من الحق وكثير من الباطل والتضليل، ليس في بلادنا قضية باسم (تحرير المرأة) بعد أن حررها الإِسلام، وإنما هي مشكلة كانت عند الغربيين ولا تزال، وليس طلب الإسلام حشمة المرأة وتفرغها لأداء رسالتها الأجتماعية الكبرىٰ (كبتًا) للطاقة، بل (تنظيم) لها ، والتنظيم غير الكبت، ووضع كل شيء في موضعه ومنعه من تجاوز حده، أمر غير الفوضىٰ والانفلات من كل حق للأسرة أو المجتمع.

وكلنا يعلم الفرق بين (الكبت) وبين (التنظيم)، كما يعلم الفرق بين (التخريب) وبين (البناء) وبين (القانون) وبين (الفوضىٰ).

كتبه / مصطفى أبو الغيط عبد الحي عجيب

الأحد ٢٩ ربيع الآخر سنة ١٤٢٤هـ الموافق ٧/٢٩ سنة ٢٠٠٣م

وكان الفراغ من تبييضه

الأربعاء غرة ذي القعدة سنة ١٤٢٧ هـ الموافق ٢٠٠٦/١١/٢٢

والحمد للّه رب العالمين.

فهرس الكتاب

الموازنة بين علاقة الرجل الأجنبي بالمرأة ٣
في شريعة الإسلام وحضارة الغرب ٣
مقدمة ٥
الباب الأول ٩
علاقة المرأة بالرجل في شريعة الإسلام ٩
الفصل الأول ١١
علاقة المرأة بالرجل من حيث النظر ١١
نظر المرأة إلىٰ الرجل الأجنبي عنها ١٣
نظر الرجل إلىٰ المرأة ١٦
الفصل الثاني ٢١
العلاقة بين الرجل والمرأة من حيث المس والمصافحة ٢٢
الفصل الثالث ٢٩
علاقة المرأة بالرجل من حيث الخلوة ٢٩
حكم خلوة الرجل بالمرأة ٣١
حالات تستثنىٰ من الخلوة المحرمة ٣٤
هل حرم الإسلام خلوة الرجل بالمرأة الأجنبية عنه لعدم الثقة فيها؟ ٣٩
الفصل الرابع ٤٥
علاقة المرأة بالرجل من حيث المشاركة الاجتماعية ٤٧
تبادل التحية بين الرجال والنساء ٤٨
إلقاء المرأة السلام علىٰ الرجل الأجنبي عنها: ٥٣
وعظ كل من الرجل والمرأة للأخر ٥٤

المرأة تعظ الرجل ٦٢
تقديم المعروف بين الرجل والمرأة ٦٥
تقديم المرأة معروفًا لرجل أجنبي عنها إذا أمنت الفتنة ٦٥
تقديم الرجل معروفًا للمرأة الأجنبية عنه إذا أمنت الفتنة ٦٨
الرجل يشمت المرأة إذا عطست ٧٠
المرأة تشمت الرجل إذا عطس ٧٠
الرجل يستشير المرأة ٧١
المرأة تستشير الرجل ٧٢
المرأة تستفتي الرجل العالم ٧٣
الرجل يستفتي المرأة ٧٤
عيادة كل من الرجل والمرأة للآخر ٧٩
زيارة كل من المرأة والرجل للآخر ٨٢
زيارة الرجل المرأة الأجنبية ٨٤
مادامت الفتنة مأمونة والخلوة منتفية ٨٤
ضيافة كل من الرجل والمرأة للآخر ٨٨
حكم تقديم المرأة الطعام للضيوف ٩٠
بحضرة زوجها أو محرمها ٩٠
حكم أكل المرأة مع الرجل الأجنبي عنها ٩١
بحضرة زوجها أو محرمها ٩١
تبادل الهدايا بين الرجال والنساء ٩٤
سؤال الرجل المرأة الأجنبية عن حالها ٩٨
تهنئة الرجل للمرأة العروس ١٠٠
حديث المرأة مع الرجل في التليفون للحاجة ١٠١

الفصل الخامس ١٠٣
المبحث الأول ١٠٥
آداب مشتركة بين الرجال والنساء عند التعامل ١٠٥
المبحث الثاني ١١٤
آداب تلتزم بها المرأة عند تعاملها مع الرجل الأجنبي عنها ١١٤
ما العمل عند غياب بعض آداب المشاركة واللقاء؟ ١١٥
الفصل السادس ١٢٧
علاقة المرأة بالرجل من حيث العاطفة بينهما ١٢٩
زواج الحب ونسب الطلاق المرتفعة ٢٠٧
أحت ابتسامته وتزوجته كله!! ٢١٢
الحب الأعمىٰ أم الخطبة المبصرة؟ ٢١٤
الفصل السابع ٢١٧
علاقة المرأة بالرجل من حيث الإباحة الجنسية ٢١٩
الزواج هو الطريق ٢٢١
الإسلام يحض علىٰ الزواج ٢٣٦
النتائج ٢٤٥
الباب الثاني ٢٤٩
علاقة المرأة بالرجل في حضارة الغرب ٢٤٩
الفصل الأول ٢٥١
علاقة المرأة بالرجل الأجنبي عنها عند الغرب ٢٥١
تاريخ الإباحية ٢٥٣
مظاهر الأرتقاء في القرن العشرين ٢٦٠
دور الثورة الصناعية وآثارها في نشر الإباحية ٢٦٦

دور الرأسمالية في نشر الإباحية ٢٦٨
دور الديمقراطية في نشر الإباحية ٢٧١
دور الاشتراكية في نشر الإباحية ٢٧٤
أثر الفرويدية في نشر الإباحية ٢٧٧
دور اليهود لانتشار الإباحية ٢٩٨
أثر المؤتمرات الدولية والعولمة الاجتماعية لنشر الإباحية ٣٠٦
دور العلمانية في نشر الإباحية ٣٢٢
أولًا: الأسرة البدائية: ٣٢٢
ثانيًا: أسرة الأمومة: ٣٢٣
ثالثًا: أسرة القبيلة: ٣٢٤
رابعًا: أسرة العشيرة: ٣٢٥
خامسًا: الأسرة الزوجية: ٣٢٥
أدلة العلمانيين على الإباحية ومناقشتها ٣٢٧
العفة والكبت ٣٥٣
الفصل الثاني ٣٥٩
النتائج ٣٦١
المبحث الأول ٣٦٢
آثار الإباحية والاختلاط على النواحي الاجتماعية ٣٦٢
المبحث الثاني ٤٥٦
أثر الإباحية والاختلاط على الأمن و الاستقرار ٤٥٦
المبحث الثالث ٤٦٦
آثار الإباحية والاختلاط على النواحي الاقتصادية ٤٦٦
المبحث الرابع ٤٦٨

آثار الإباحية والاختلاط علىٰ الناحية الصحية ٤٦٨
أنواع الزهري ٤٧٠
المبحث الخامس ٥٤٢
آثار الإباحية علىٰ الناحية النفسية ٥٤٢
الفصل الثالث ٥٤٣
تحذير عقلاء الغرب من الإباحية والاختلاط ٥٤٥
الموازنة ٥٧٨
الباب الثالث ٥٩٣
دعاة تحرير المرأة ٥٩٣
دعاة تحرير المرأة ٥٩٥
الفصل الأول ٥٩٧
التعريف بحركة تحرير المرأة ونشأتها ٥٩٧
حركة تحرير المرأة ٥٩٩
تاريخ حركة تحرير المرأة ٦٠٠
الفصل الثاني ٦٨٣
إلىٰ دعاة تحرير المرأة ٦٨٣
إلىٰ دعاة تحرير المرأة ٦٨٤
فتاة الشرق وفتاة الغرب ٧٨٤
احذري ٧٨٥
خاتمة ٧٩١

تم الصف والمراجعة بدار الفلاح بالفيوم